

سلسلة الدراسات التاريخية (24)

أثر تضيقات الحج

على الحياة العامة في الحجاز
خلال العصر الأموي

(41-132هـ / 661-750م)

د. محمد بن عبد الكريم بن محمد الكنيدري

الطبعة الأولى
2024م

أثر تظاهرات الحج

على الحياة العامة في الحجاز
خلال العصر الأموي

(41-132 هـ / 661-750 م)

د. محمد بن عبد الكريم بن محمد الكنديري

الطبعة الأولى

2024م

اسم الكتاب

أثر تنظيمات الحج

على الحياة العامة في الحجاز
خلال العصر الأموي

(41-132هـ / 661-750م)

اسم الكاتب

د. محمد بن عبد الكريم بن محمد الكنيدري

الإيداع القانوني

2024م/.....



دار آريثيريا للنشر والتوزيع
Arrythria for Publishing and Distribution

الناشر

دار آريثيريا للنشر والتوزيع - الخرطوم - السودان

جوال: 121566207 - 00249122094856

البريد الإلكتروني: arithriaforpublishing@gmail.com

تاريخ النشر:

الطبعة الأولى - 2024م

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر والمؤلف

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه كنسخة إلكترونية أو نقله
بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من المؤلف والناشر



الإهداء

إلى من كان لي دعماً وسنداً وعوناً بعد الله تعالى، إلى المميز
والقدوة الحسنة، من أُلجأ إليه إذا صعبت الأمور، فيدعوا لي
وتفرج، والدي الحبيب تاج راسي.

إلى القلب العطوف الحنون والذتي الحبيبة الطيبة الصبورة.

إلى من سخرهم الكريم لنا عوناً وكانوا خير المعين من أخواني
وأخواتي وزملائي.

إلى فلذات كبدي أولادي وبناتي الأحبة،،،

المؤلف

شكر وتقدير

أتقدم بخالص الشكر وعظيم التقدير والامتنان لكل من أسهم في نشر رسالتي العلمية من خلال كتاب؛ خدمة للبحث العلمي في زمنٍ يحتاج فيه الناس للاطلاع والمعرفة والتدبر،،

المؤلف

المحتويات

الصفحة	الموضوع
13	تقديم
15	المقدمة
17	تمهيد
الفصل الأول	
أثر تنظيمات الحج على الأحوال السياسية في الحجاز خلال العصر الأموي	
33	المبحث الأول: أثر تنظيمات الحج على الأوضاع الداخلية
33	المطلب الأول: أثرها على الأوضاع الأمنية داخل المدن
62	المطلب الثاني: أثرها على الأوضاع الأمنية خارج المدن
72	المبحث الثاني: أثرها على علاقات الحجاز مع بلدان الحجيج
72	المطلب الأول: العراق ومن يمر به من الحجاج
81	المطلب الثاني: الشام ومن يمر به من الحجاج
83	المطلب الثالث: مصر ومن يمر بها من الحجاج
87	المطلب الرابع: اليمن ومن يمر به من الحجاج
87	المطلب الخامس: عمان، البحرين، واليمامة ومن مر بها من الحجاج
الفصل الثاني	
أثر تنظيمات الحج على النشاط الاقتصادي في الحجاز خلال العصر الأموي	
95	المبحث الأول: الأثر على النشاط الزراعي
95	المطلب الأول: الأيدي العاملة
101	المطلب الثاني: المنتجات والسلع الزراعية

111	المبحث الثاني: الأثر على النشاط التجاري
111	المطلب الأول: أثرها على التجارة الداخلية، الأسواق الموسمية والدائمة
114	المطلب الثاني: الصادرات والواردات
118	المطلب الثالث: أثرها العملات والتعاملات التجارية
123	المبحث الثالث: الأثر على التصنيع والحرف والمهن
123	المطلب الأول: التصنيع
139	المطلب الثاني: الحرف والمهن
الفصل الثالث	
أثر تنظيمات الحج على الأوضاع الاجتماعية في الحجاز خلال العصر الأموي	
149	المبحث الأول: العادات والتقاليد
149	المطلب الأول: أثرها على العادات والتقاليد داخل المدن
184	المطلب الثاني: أثرها على العادات والتقاليد خارج المدن
189	المبحث الثاني: اللغات واللهجات
189	المطلب الأول: اللغات
190	المطلب الثاني: اللهجات
193	المبحث الثالث: اللباس والزينة
193	المطلب الأول: لباس الرجال
204	المطلب الثاني: لباس النساء
206	المطلب الثالث: الزينة
209	المبحث الرابع: الأطعمة والأشربة
209	المطلب الأول: أنواع الأطعمة
216	المطلب الثاني: أنواع الأشربة
223	المبحث الخامس: أثر التنظيمات على المناسبات العامة
223	المطلب الأول: الأفرح
230	المطلب الثاني: الأتراح

الفصل الرابع

أثر تنظيمات الحج على الحياة العلمية والنواحي العمرانية في الحجاز في العصر الأموي

237	المبحث الأول: الحياة العلمية
237	المطلب الأول: دور العلم
241	المطلب الثاني: التدريس
249	المطلب الثالث: التأليف
261	المبحث الثاني: النواحي العمرانية
261	المطلب الأول: العمارة المدنية
266	المطلب الثاني: العمارة الدينية
296	المطلب الثالث: العمارة العسكرية
301	الخاتمة
303	الملاحق
315	المصادر والمراجع

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

اطلعت على الكتاب الموسوم بـ (أثر تنظيمات الحج على الحياة العامة في الحجاز خلال العصر الأموي: (41- 132هـ / 661- 750م) من تأليف الأخ الدكتور محمد بن عبد الكريم بن محمد الكنيدري؛ والصادر عن دار آريثريا للنشر والتوزيع في طبعته الأولى سنة 2024م، ضمن سلسلة الدراسات التاريخية تحت الرقم (24).

ومن المعلوم أن الحج من شعائر أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وكتب عنها الكثير من الدراسات والبحوث ولكن ما يميز هذا الكتاب أمران:

اولهما_ إنه كان في الأصل عبارة عن رسالة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ في جامعة أم القرى وكانت تحت إشراف البروفيسور/ الريح حمد النيل الليث، مما قد يضفي عليه الصفة العلمية والالتزام بالضوابط المنهجية المحكمة المعمول بها، والثاني: ما وضحه الكاتب في مقدمته عن أهمية الكتاب بقوله: «ويعد موضوع تنظيمات الحج في العصر الأموي ومسؤولية إقامة الحج، وإمارته من الموضوعات المهمة في التاريخ الإسلامي عامة وتاريخ صدر الإسلام خاصة. فهو لم يعد مجرد تنظيم ديني فحسب، بل أضيف له بعد سياسي، كونه رمزاً من رموز السيادة والحكم. ومن هنا تتجلى أهمية هذا الكتاب. فهو موضوع يحمل في طياته الجدة والأصالة».

بدأ الكاتب دراسته بجملة من التعريفات في اللغة والاصطلاح تناولت تعريف الحج، وتنظيمه إلخ...، ثم تناول كتمهيد عام تنظيم الحج في عهد الرسول صلى الله عليه وفي عهد الخلفاء الراشدين من بعده،

وتم تقسيم الكتاب إلى أربعة فصول تناول الفصل الأول:

أثر تنظيمات الحج على الأحوال السياسية في الحجاز خلال العصر الأموي، وفيه استعرض الكاتب أثر تنظيمات الحج على الأوضاع الداخلية في الحجاز

وأثرها على الأوضاع الأمنية داخل المدن الحجازية وخارجها، ثم أثر تنظيمات الحج على علاقات الحجاز مع بلدان الحجيج التي يمر بها الحجاج.

وفي الفصل الثاني تتبع أثر تنظيمات الحج على النشاط الاقتصادي في الحجاز خلال العصر الأموي، مركزاً على النشاطين الزراعي والتجاري.

وخصص الفصل الثالث لأثر تنظيمات الحج على الأوضاع الاجتماعية في الحجاز خلال العصر الأموي، متناولاً العادات والتقاليد، واللغات واللهجات، واللباس والزينة، والأطعمة والأشربة، وأثرها على المناسبات العامة.

أما الفصل الرابع والأخير فكان عن أثر تنظيمات الحج على الحياة العلمية والنواحي العمرانية في الحجاز خلال العصر الأموي.

هذا الكتاب فيه جهد علمي كبير اعتمد فيه الكاتب على عدد وافر من المصادر والمراجع الأساسية لاستعراض موضوع تاريخي مهم خاصة فيما يتعلق بالبعد السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وتغطية كل جوانب دراسة موضوع تنظيمات الحج بصورة موسعة وتفصيلية، تحتاج لعمل موسوعي ولجهد جماعي ومؤسسي، ويحمد للكاتب أنه تطرق إلى أبعاد تنظيمات الحج بصورة علمية، وكذلك اهتمامه بتدعيم الكتاب بعدد من الخرط والصور الجيدة ذات الصلة بموضوع الكتاب.

وختاماً نبارك للكاتب هذه الإصدار القيمة التي تعتبر إضافة نوعية للمكتبة التاريخية الإسلامية، وهذا التناول العلمي السلس والموضوعي، ونأمل أن تتواصل الجهود في هذا الجانب كما نتقدم بالشكر الجزيل لدار آريثيريا للنشر والتوزيع لجهودها المميزة في النشر العلمي.

د. عوض شبا

دنقلا - السودان

18 يوليو 2024 م

المقدمة

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

هذا الكتاب في الأصل عبارة عن رسالتي لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ من جامعة أم القرى وكانت تحت إشراف الأستاذ الدكتور الريح حمد النيل الليث له مني وللجامعة خالص التقدير.

قال تعالى: **وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ** ﴿97﴾ (1).

إن الحج ركن من أركان الإسلام وفرض من فروضه، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ ». متفق عليه (2).

وفضل الحج كبير وثوابه عظيم فعن أبي هريرة قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ. متفق عليه (3).

وعنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ. متفق عليه (4).

وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَرَى الْجِهَادَ أَفْضَلَ الْعَمَلِ، أَمْ لَا نُجَاهِدُ؟ فَقَالَ: «لَكِنْ أَفْضَلُ الْجِهَادِ: حَجُّ مَبْرُورٍ» (5).

(1) آل عمران: 97.

(2) البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري (ت 256هـ): صحيح البخاري: بيروت: دار العلم، 1981/1201م، (مج1/ص12).

مسلم: الإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، (ت 261هـ) صحيح مسلم: بيروت: دار إحياء التراث العربي، (مج1/ص25).

(3) البخاري: الصحيح، (مج2/ص625). مسلم: صحيحه، (مج2/ص983).

(4) البخاري: الصحيح، (مج2/ص629). مسلم: صحيحه، (مج2/ص983).

(5) البخاري: الصحيح، مج1/ص18.

وَعَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يَعْتِقَ اللَّهُ فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ (1).

الحج رحلة مباركة، وللحج بركات متنوعة وفوائد جمه، فهو ركن من أركان الاسلام الخمسة، وقد تسابق المسلمون منذ عصر النبي ﷺ لأداء فريضة الحج، وشد الرحال إلى البيت العتيق، وقد بين رسولنا الكريم ﷺ للمسلمين مناسكهم ووضح لهم ما يجب عليهم من الآداب والسلوك أثناء تأدية فريضة الحج.

كما أرسى ﷺ أسس تنظيمات الحج، وسار عليها من جاء بعده من الخلفاء الراشدين ﷺ، وأيضاً الخلفاء الأمويين والعباسيين. ومن ثم حظيت فريضة الحج بعناية كثير من الخلفاء والولاة الذين قدموا لحجاج بيت الله الحرام كل عون ومساعدة، ومهدوا طرق الحج ويسروها، وقاموا بتسهيل وتوفير الخدمات بها، وتأمينها بشتى الوسائل حتى يصل الحجاج إلى قاصدهم سالمين، فضلاً عن تنظيم الإشراف على رحلة الحج إلى البلد والبيت الحرام.

ويعد موضوع تنظيمات الحج في العصر الأموي ومسؤولية إقامة الحج، وإمارته من الموضوعات المهمة في التاريخ الإسلامي عامة وتاريخ صدر الإسلام خاصة. فهو لم يعد مجرد تنظيم ديني فحسب، بل أضيف له بعداً سياسياً، كونه رمزاً من رموز السيادة والحكم. ومن هنا تتجلى أهمية هذا الكتاب. فهو موضوع يحمل في طياته الجدة والأصالة.

(1) مسلم: صحيحه، مج1/ص88.

تمهيد

مفهوم تنظيمات الحج

مفهوم التنظيم:

النظم: مصدر نظم ينظم نظمًا ونظامًا، فهو ناظم ومنظوم، وقد جاء في معاجم اللغة أن مادة (ن ظ م) تفيد: التأليف والتركيب، وضم شيء إلى آخر على نسق معين، كنظم الدر والخرز وغيرهما. وكلمة النظم تطلق على الشيء المنظوم من باب الوصف بالمصدر مبالغة وتخفيفًا؛ كما في قوله تعالى ﴿وَإِنْ كُنْ أُولَاتٍ حَمَلٍ﴾⁽¹⁾، أو إن كن صاحبات محمولٍ في بطونهن. وكلمة نظم دلالتها دلالة مادية، فنظم الخرز أو الدر في السلك مظهر مادي مُحَسَّس ندرکه بأبصارنا، كما أن نظم الكواكب في السماء يبدو للناظر كجواهر نظمت في عقدٍ، تلك الرؤية أيضًا رؤية مادية وإطلاقنا كلمة النظم على حروف القرآن، وكلماته، وجمله، وآياته، وسوره، وموضوعاته، وكذلك على الشعر والكلام - من قبيل المجاز⁽²⁾.

والنظم التأليف، نظمه ينظمه نظمًا ونظامًا، ونظمه فانتظم، وتنظم ونظمت اللؤلؤ؛ أي: جمعته في السلك، والتنظيم مثله، ومنه: نظمت الشعر ونظمته، ونظم الأمر على المثل، وكل شيء قرنته بآخر أو ضممت بعضه إلى بعض فقد نظمته، والنظم المنظوم وصف بالمصدر... والنظام ما نظمت فيه الشيء من خيط وغيره، وكل شعبة منه وأصل: نظام، ونظام كل أمر: ملاكه، والجمع أنظمة وأنظييم... يقال: ليس لأمره نظام؛ أي: لا تستقيم طريقته، والنظام الخيط الذي ينظم به اللؤلؤ، وكل خيط ينظم به لؤلؤ أو غيره فهو نظام، وجمعه نظم... والانتظام الاتساق... وليس لأمرهم نظام؛ أي: ليس له هدي ولا متعلق ولا استقامة، وما زال على نظامٍ واحد؛ أي: عادةً، وتناظمت الصخور: تلاصقت⁽³⁾.

(1) الطلاق: آية 6.

(2) ابن الأثير: ضياء الدين نصر الله بن محمد (ت 637 هـ 1233 م)، المعجم المفصل في علوم البلاغة، تحقيق: أحمد الحوفي القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ج 1/ ص 82، ص: 637.

(3) ابن منظور: جمال الدين بن منظور الإفريقي المصري (ت 711 هـ 1311 م)، لسان العرب، بيروت: دار صادر، ج 12، ص 578.

والنظم: التأليف، وضم شيء إلى شيء آخر، والمنظوم... ونظم اللؤلؤ ينظمه نظمًا ونظامًا ونظمه: ألفه، وجمعه في سلك، فانتظم وتنظم... والنظام: كل خيط ينظم به لؤلؤ ونحوه⁽¹⁾.

والنظم التأليف، وضم شيء إلى شيء آخر، وكل شيء قرنته بأخر فقد نظمته. (و) النظم: (المنظوم) باللؤلؤ والخرز، وصف بالمصدر، يقال: نظم من لؤلؤ. والنظم: (الجماعة من الجراد)، يقال: جاءنا نظم من الجراد، وهو الكثير، كما في الصحاح، وهو مجاز... (و) النظم: (الثريا) على التشبيه بالنظم من اللؤلؤ... (ونظم اللؤلؤ ينظمه نظمًا ونظامًا)، بالكسر (ونظمه) تنظيمًا: (ألفه وجمعه في سلك فانتظم وتنظم)، ومنه: نظمت الشعر ونظمته، ونظم الأمر على المثل، وله نظم حسن، ودر منظوم ومنظم⁽²⁾.

مفهوم الحج لغة واصطلاحًا: الحج لغة:

تناول اللغويون كلمة (الحج) كثيراً وأسهبوا في تخريجاتها وصرفها، فقال الفراهيدي (ت175هـ 792م): هو كثرة القصد إلى من يعظم⁽³⁾، واحسب انه يريد بمن يعظم الجهة أو المكان الذي يعظمه الناس ويحتل لديهم منزلة كبيرة، في حين نجد ابن دريد (ت321هـ) قد اكتفى بقوله إن مفردة (الحج) تعني القصد⁽⁴⁾ فقط، وهو بذلك يعطي تعميماً لهذه الكلمة في تناوله إياها، ولعلنا نجد ابن منظور، أكثر من غيره تخريجاً لهذه المفردة إذ قال: «الحج يعني القصد، وهو كثرة الاختلاف والتردد، ثم تعورف استعماله في القصد إلى مكة للنسك»⁽⁵⁾.

(1) الفيروزبادي: مجد الدين (ت 817 هـ 1415 م)، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، 1426 هـ / 2005 م، ج1، ص1162.

(2) الزبيدي: محمد بن محمد، (ت 1205 هـ / 1790 م)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مصطفى حجازي، الكويت: مطبعة حكومة، 1969 م، دار الهداية، ج33، ص296.

(3) الفراهيدي: أبو عبد الرحمن بن أحمد (ت 175 هـ 792 م)، العين: تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، بغداد: دار الرشيد، 1981 م، ج 3، ص 9.

(4) ابن دريد: أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي البصري (ت 321 هـ 933 م)، جمهرة اللغة، بيروت: دار صادر، (د. ت)، ج1، ص29.

(5) ابن منظور: لسان العرب، م2، ص226، الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مصطفى حجازي، الكويت: مطبعة حكومة، 1969 م، م5، ص259.

الحج اصطلاحاً:

يعني قصد التوجه إلى البيت بالأعمال المشروعة فرضاً وعام، والحج إلى مكة خاصة⁽¹⁾.

وعلى الرغم من ورود العديد من التعريفات في المعنى الاصطلاحي لمفردة الحج، إلا أنها لا تخرج جميعاً عن قصد موضع مخصوص هو البيت الحرام، في وقت مخصوص وهو شهر ذي الحجة، للقيام بأعمال مخصوصة وهي الوقوف بعرفة، والطواف، والسعي⁽²⁾، وبذا يقترب المعنى الاصطلاحي للفظ الحج من دلالتها اللغوية. ويرتبط مع المدلول الاصطلاح لمفردة الحج مدلول اصطلاح آخر وهو مفردة الموسم الذي يعني لغة الوسم، وهو أثر الكي⁽³⁾. وفي الاصطلاح ارتبطت بتجميع الناس أي وقت ومكان معلومين⁽⁴⁾، وبناء على هذا المفهوم صح ارتباطها بالحج والأعياد والأسواق، بيد أن اقترانها بالحج أشهر، لكونه يحمل معنى دينياً وقومياً. وسمى الحج موسماً لأنه معلم يجتمع فيه الناس⁽⁵⁾.

ثانياً: تنظيمات الحج قبل فترة الدراسة:

تنظيمات الحج في عهد النبي محمد ﷺ:

إن فريضة الحج ركن من الأركان الأساسية في الإسلام وإن من مهمات الدين وأفضل شرائع المسلمين بعد الصلاة، الحج إلى بيت الله الحرام، وقد قبض الله سبحانه وتعالى لخدمة هذين الحرمين الشريفين (مكة والمدينة) وفي كل العصور الخلفاء والملوك والسلاطين والأمراء والأعيان للقيام بتلك الخدمة الجليلة⁽⁶⁾، فكان عتاب ابن أسيد أول من حج بالمسلمين بعد فتح مكة عام (8هـ/629م) وهو أول أمير أقام الحج في الإسلام⁽⁷⁾.

- (1) الفراهيدي: العين، ج3، ص9، ابن المنصور: لسان العرب، م2، ص226.
- (2) الزبيدي: السيد محمد مرتضى الحسيني (ت1205هـ/1890م)، اتحاف السادة المتقين بشرح أحياء وعلوم الدين، بيروت: دار الكتب العلمية (1409هـ/1989م)، مج2، ص452.
- (3) ابن منظور: لسان العرب م16، ص-122 123.
- (4) ابن دريد: جمهرة اللغة، ج3، ص53.
- (5) ابن منظور: لسان العرب، ج12، ص636.
- (6) الرشدي: أحمد، حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولي إمارة الحج، تحقيق: ليل عبداللطيف، القاهرة:1400هـ/1980م، ص86.
- (7) الهاشمي: أبو جعفر محمد (ت245هـ)، المحبر، بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1921، ص11.

وفي عام (9هـ/630م) أوكل الرسول ﷺ إلى أبو بكر رضي الله عنه الخروج بالحجيج، ومنع الكفار من الاشتراك فيه⁽¹⁾، فكان خروج أول قافلة للحج في الإسلام من المدينة المنورة في ذي القعدة عام (9هـ) وضمت نحو ثلاثمائة حاج⁽²⁾.

إن اختيار الرسول ﷺ لأبي بكر الصديق أصبح تقليدا مأخوذا به في العصور الإسلامية اللاحقة، إذ يتولى الشخص الموكل بهذه المهمة الكبيرة رعاية قافلة الحج التي تخرج من عاصمة الدولة أو من المراكز الأخرى، من قبل الخليفة أو أمير الحج الذي ينتدبه الخليفة.

وفي عام (10هـ/631م) عزم الرسول ﷺ على الحج، فبدأ الاستعداد والتنفيذ من خلال إعلام المسلمين أولا إن الله عزوجل فرض عليهم الحج، وإن الرسول ﷺ عازم على الحج هذا العام، وما إن إذن المؤذن بذلك حتى قصد المدينة خلق كثير لمرافقته والاقتراء به⁽³⁾.

خرج الرسول ﷺ في اليوم الخامس والعشرين من ذي القعدة من المدينة سالكا طريق الشجرة⁽⁴⁾، وعلى طول الطريق من المدينة إلى مكة استمر المسلمون الذين لم يدركوا خروجه ﷺ من المدينة ينظمون اليه، حتى قدر عددهم بأكثر من مائة وأربعة عشر ألفا، حتى إن لقب الصحابي ناله الكثير منهم من مرافقة الرسول ﷺ في حجته هذه فقط⁽⁵⁾.

(1) ابن هشام: عبد الملك المعافري، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا، القاهرة: مكتبة مصطفى البابي، 1955م، ج2، ص188.

(2) الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: مطابع دار المعارف، 1967م، ج2، ص122؛ الفاسي: تقي الدين محمد بن أحمد: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: محمود محمد الطناحي، القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، 1962م، ج2، ص267.

(3) النسائي: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي، (ت303هـ/915م) سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الأمام السندي، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، 1930م، ج5، ص156.

(4) طريق الشجرة: نسبة إلى شجرة سمرة، كان الرسول صلى الله عليه وسلم يصلي بقربها، وقد بنى في موضعها مسجدا، عرف بمسجد الشجرة. البكري: أبو عبيد عبد الله بن عبدالعزيز الأندلسي، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق: مصطفى السقا، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1925م، ص262.

(5) الفاسي: (832هـ) العقد الثمين، ص268.

وهذه الحجة عينت مواقيت الإحرام الزمانية والمكانية وفيها كسا ﷺ الكعبة الشريفة الثياب اليمانية⁽¹⁾، وعرفت هذه الحجة بحجة الوداع⁽²⁾.

تنظيمات الحج في عهد الخلفاء الراشدين ﷺ:

تولى عمر بن الخطاب ﷺ إمارة الحج عام (11هـ/632م)، نيابة عن الخليفة أبي بكر الصديق ﷺ⁽³⁾، الذي شغلته الحوادث السياسية التي رافقت توليه الخلافة والمتمثلة بارتداد بعض القبائل في أنحاء شبه الجزيرة العربية⁽⁴⁾.

ولما كان بقاء الخليفة في المدينة أمراً لا بد منه، ليكون أقدر وأسرع في اتخاذ الإجراءات اللازمة عند الضرورة، كان لا بد له من اختيار نائب عنه يكون أميراً للحج في هذه العام وكان عمر بن الخطاب ﷺ نائبه. ويبدو أن اختيار الخليفة لعمر جاء لضرورة ملحة وهي الإفادة من اجتماع الناس عند حضورهم موسم الحج من كل حدب وصوب لتبليغ سياسته، وخاصة ان المرتدين لم يتعرضوا لفريضة الحج.

وفي عام (12هـ/633م)، حج بالناس الخليفة أبو بكر الصديق ﷺ⁽⁵⁾، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان ﷺ⁽⁶⁾، وخرج من المدينة لليلتين بقيتا من ذي القعدة، سالكا الطريق الذي سلكه الرسول ﷺ وهو طريق الشجرة، واحرم من ذي الحليفة وقدم مكة لسبع خلون من ذي الحجة، وخطب بالناس قبل التروية بيوم واحد في المسجد الحرام ورمى الجمار ماشياً ذهاباً وإياباً، اقتداءً بعام الرسول ﷺ، وكسا الكعبة الخبز اليمانية⁽⁷⁾.

(1) الأزرقى: أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار،

تحقيق: رشدي صالح الملحس، مكة المكرمة: دار الأندلس، 1385هـ، ج1، ص253.

(2) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج 3، ص 152، 183.

(3) ابن حبيب: أبو جعفر محمد البغدادي، (ت225هـ)، المنق في أخبار قريش، صححه

وعلق عليه: خورشيد أحمد فاروق، بيروت: عالم الكتب، 1205هـ/1985م، ص12.

(4) ابن قتيبة: أبو محمد عبدالله بن مسلم، الأمانة والسياسة (منسوب)، تحقيق: طه

محمد الزيني، القاهرة: مطابع سجل العرب، 1967م، ج1، ص22-23.

(5) ابن الاثير: عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم: الكامل في التاريخ، تحقيق: أبو

الفدا عبدالله القاضي، بيروت: دار الكتب العلمية، 1987م، ج2، ص251.

(6) الطبري: الرسل والملوك، ج3، ص386.

(7) ابن حبان: محمد بن أحمد أبي حاتم، الثقات، ج2، الهند: مطبعة دائرة المعارف

العثمانية، 1975، ص182؛ الأزرقى: أخبار مكة، ج1، ص253.

وعني الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بشؤون الحج فكان يشرف على أعماله طوال سني خلافته (13-23هـ / 634-643م)، ولم يفته حضوره إلا في العام الأول من خلافته، إذ حج بالناس عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه (1)، ويبدو أن للأوضاع السياسية غير المستقرة في جبتهي العراق والشام أمام الفرس والروم، أثر في ذلك في الوقت الذي كان فيه موعد الحج يقترب، فأرسل عبدالرحمن بن عوف نيابة عنه.

واستغل الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مواسم الحج ليلتقي بعماله على الأمصار فكان يكتب إليهم أن يوافوه بالموسم في كل عام، وهذه تكون بمثابة المؤتمرات السنوية لذلك أصبح موسم الحج وسيلة اتصال وتفاعل ومراقبة، ولم تقتصر هذه المؤتمرات على الولاة الرئيسيين في الأمصار، بل امتدت إلى ولاة مصر الواحد (2)، وكان يستمع إلى شكاوي الناس على ولاتهم ويحاسبهم حساباً عسيراً إذا وجد أحدهم مقصراً (3).

وثابر الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه على الحج في سني خلافته (23-35هـ / 643-655م) إلا في السنتين الأولى والأخيرة منها، ففي عام (24هـ / 644م) كان بسبب الرعاف الذي أصابه مع الناس حتى خشي عليه، وكان يقال لهذه العام عام الرعاف (4)، وقد ناب عنه عبدالرحمن بن عوف في إقامة المناسك للناس (5)، أما العام الأخيرة وهي عام (35هـ / 655م)، فهي العام التي حوصر فيها، فناب عنه عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب رضي الله عنهم، لإقامة الحج (6).

وعندما بعثه على الحج، كتب الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه بكتاب أرسله إلى أهل الموسم (7)، يسألهم فيه أن يأخذوا له بالحق ممن حاصروه، وقد قرأ ابن عباس الكتاب في مكة على الناس قبل يوم التروية بيوم واحد (8).

(1) ابن حبيب: المنمق في أخبار قريش، ص17.

(2) الطبري: الرسل والملوك، ج2، ص155.

(3) ابن شيبه: أبو زيد عمر النميري البصري (262هـ)، تاريخ المدينة المنورة، ج3، تحقيق: فهد محمد شلتوت، جدة: دار الإصفهاني: أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد، الأغاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، القاهرة: دار الشعب، 1393هـ / 1969م، ج4: ص806.

(4) ابن كثير: عماد الدين إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي، البداية والنهاية في التاريخ، بيروت: مكتبة المعارف، (د.ت)، ج7، ص156؛ ابن شيبه: تاريخ المدينة المنورة، ج3، ص1028-1029.

(5) ابن حبيب: المنمق في أخبار قريش، ص15.

(6) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج2، ص229.

(7) المصدر نفسه، ص207-211.

(8) المصدر نفسه، ص211.

وعندما حج الخليفة عثمان رضي الله عنه عام (26 هـ / 646م)⁽¹⁾، أمر بتجديد أنصاب الحرم ووسع المسجد الحرام، إذ أن المسجد ضاق بالحجاج بعد أن امتدت الفتوحات الإسلامية، وأزداد معتنقو الإسلام، فقام الخليفة عثمان رضي الله عنه بشراء دور بعض الناس وأضافها إلى المسجد⁽²⁾، وكسا الكعبة القباطي مثلما كساها عمر بن الخطاب رضي الله عنه⁽³⁾، وقد حج الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه بأزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم⁽⁴⁾، وفي حجه عام (29 هـ / 649م) ضرب فسطاطه بمنى، وهو أول فسطاط ضرب بها، وأتم الصلاة بها وبعرفة⁽⁵⁾.

أما الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه فإن الظروف العامة المتمثلة بالصراع الذي كان دائراً بينه وبين معاوية بن أبي سفيان فرض عليه أن يغيب عن موسم الحج طوال سنوات خلافته (35-40 هـ / 656 - 661 م). إلا أنه بوصفه خليفة للمسلمين كان من واجبه أن يولي الحج اهتماماً كبيراً لأنه ركنٌ من أركان الإسلام ولذلك حرص على تسيير قوافل الحجاج سنوياً لأداء فريضة الحج، وإرسال من ينوب عنه في إقامة مناسك الحج للناس⁽⁶⁾.

وقد اختلفت الروايات في من ناب عن الخليفة عام (36 هـ / 656م) لإقامة مناسك الحج، إلا أننا نرجح أن يكون عبيد الله بن عباس رضي الله عنهم، هو من ناب عنه، وذلك لأن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم، كان منشغلاً مع الخليفة في حربه ضد معاوية رضي الله عنه بصقّين، كان رفيق الخليفة في طريقه إلى صفّين⁽⁷⁾.

وفي عام (37 هـ / 657م) حج بالناس عبيد الله بن عباس نيابة عن علي رضي الله عنه إذ حالت الظروف السياسية دون حج الخليفة فضلاً عن حرب صفّين وقضية التحكيم وكان الشقاق في صفوف جيشه لقبوله التحكيم سبباً أساسياً في منعه من أداء فريضة الحج هذه العام⁽⁸⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 251.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 2، ص 281.

(3) الأزرقي: أخبار مكة، ج 1، ص 253.

(4) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 3، ص 70.

(5) المقرئزي: أحمد بن علي بن عبد القادر: الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف و الترجمة والنشر، 1955م، ص 22.

(6) المسعودي: أبي الحسن علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت: المكتبة الإسلامية، 1926م، ج 1، ص 397.

(7) الطبري: الرسل والملوك، ج 2، ص 562 - 563.

(8) المصدر نفسه: ج 5، ص 28 - 57.

وفي عام (38هـ/658م) ناب عن علي في إقامة الحج للناس قثم بن العباس ابن عبدالمطلب⁽¹⁾، أما السنتان الأخيرتان من خلافة علي عليه السلام في عام 39 و40هـ فقد شهدتا صراعاً حول ولاية الحج فكان هذا الصراع مؤشراً مهماً لبدء اتجاه جديد فيما يتعلق بالإمارة على الحج، فهي لم تعد مجرد منصباً دينياً وإدارياً حسب، وإنما أضيف إليها بعد سياسي كونها رمزاً من رموز السياسة والتحكم.

ففي عام 39هـ/659م، أرسل علي عليه السلام قثم ابن العباس أيضاً ليحج بالناس نيابةً عنه⁽²⁾، في حين قام معاوية بن أبي سفيان بإرسال يزيد بن شجرة الرهاوي⁽³⁾، إلى مكة، ليقيم الحج للناس نيابةً عنه ويأخذ له البيعة بمكة، فسار يزيد في ثلاثة آلاف فارس إلى مكة، وبها قثم بن العباس عامل علي عليه السلام، وكاد القتال يقع في مكة، إلا أنهم وقعوا صلحاً بينهم على أن يعتزل كل منهما الصلاة بالناس ويختار الناس من يصلي بهم ويحج بهم، فوقع الاختيار على شيبه بن عثمان⁽⁴⁾، فصلح وحج بهم⁽⁵⁾.

وشهد هذا الموسم اجتماع نفر من الخوارج في مكة، وقد انفقوا على قتل علي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص عليهم السلام، وقد قام الخارجي عبدالرحمن بن ملجم بطعن علي بن أبي طالب عليه السلام⁽⁶⁾، وباستشهاد علي عليه السلام، بويع بالخلافة بعده ابنه الحسن عليه السلام، الذي تنازل عن الخلافة بعد مدة وجيزة لمعاوية بن أبي سفيان⁽⁷⁾.

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج5، ص132؛ المسعودي، مروج الذهب، ج2، ص397.
(2) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج5، ص136؛ ابن كثير، البداية، ج5، ص333؛ الفاسي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ج2، تحقيق: لجنة من كبار العلماء، بيروت، دار الكتب العلمية، (د.ت)، ص212.

(3) يزيد بن شجرة الرهاوي: نسبة إلى الرها وهو شامي من مذحج وله صحبة، استشهد سنة (58هـ/677م) في البحر في خلافة معاوية بن أبي سفيان وكان أمير الجيش في غزو الروم. ابن حبان: الثقات، ج3، ص225).

(4) هو شيبه بن عثمان بن أبي طلحة عبدالله بن عبدالعزيز بن عثمان بن عبدالدار بن قصي بن عثمان القرشي. ابن حبان، الثقات، ج3، ص186.

(5) ابن عساکر: أبو القاسم بن الحسين بن هبة الدين الشافعي، (499هـ-1176م) تهذيب تاريخ دمشق الكبير، ج6، هذبه عبدالقادر بن بدران، بيروت: دار المسيرة، ط2، 1979م، ص352.

(6) المسعودي: مروج الذهب، ج2، ص223.

(7) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج5، ص159-160.

وفي عام (40هـ/660م)، ونتيجة لتلك الحوادث، حج بالناس المغيرة بن شعبة رضي الله عنه⁽¹⁾، بعد أن افتعل كتاباً عن معاوية أنه ولاه إمارة الحج⁽²⁾، قام بتقديم الحج يوماً واحداً خشية أن يجيء أمير أو أن يفطن لفعله، وخاصةً أنه بلغه أن عتبة بن أبي سفيان (ت44هـ) سيصل أميراً على الموسم، لذلك عجل بالحج، فوقف الناس يوم التروية، وضحوا يوم عرفة، ودعوا لمعاوية⁽³⁾.

ثالثاً: الأوضاع السياسية في الحجاز خلال فترة الدراسة:

الحجاز:

الحجاز منطقة تاريخية وتعد أحد أقاليم شبه الجزيرة العربية الجغرافية الخمسة يقع في الجزء الشمالي الغربي والجزء الغربي من شبه الجزيرة العربية والحجاز في الأصل عبارة عن سلسلة جبلية ممتدة على طول ساحل البحر الأحمر في الجانب الغربي من شبه الجزيرة العربية، وسميت بالحجاز لأنها تحجز نجد عن تهامة، كما أن الأصمعي عندما قام بوصف الحجاز قال: أنها تبدأ من تخوم مدينة صنعاء إلى تخوم الشام، وقال أنها سميت بهذا الإسم لأنها تحجز نجد عن تهامة، ومن هنا فمكة هي مدينة تهامية، أما المدينة المنورة فهي من المدن الحجازية⁽⁴⁾. وسميت بالحجاز لأنها تحجز نجد عن تهامة.

والحجاز: سلسلة جبال السراة التي تحجز ما بين نجد وتهامة، ولذلك سمي حجازاً⁽⁵⁾، وهي منطقة ذات طبيعة جبلية تمتد من اليمن جنوباً حتى العقبة شمالاً⁽⁶⁾، وأهم ما يضم الحجاز من المدن مكة والمدينة، والطائف، وخيبر والجار وفدك⁽⁷⁾.

تحولت أوضاع بلاد الحجاز السياسية بعد استشهاد الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وتمثل ذلك التحول في زعامة الدولة الإسلامية، إذ أعلن معاوية بن

(1) هو المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن قيس الثقفي، ابن حبان، الثقفات، ج3، ص372.

(2) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج5، ص160، 161؛ الفاسي: العقد الثمين، ج1، ص183.

(3) ابن الأثير: البداية والنهاية، ج3، ص267؛ الفاسي: شفاء الغرام، ج2، ص212.

(4) الحموي: شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت، معجم البلدان، مج2، بيروت: دار صادر، ص219.

(5) البكري: معجم ما استعجم، ج1، ص8؛ الحموي، معجم البلدان، ج2، ص218.

(6) جواد علي: المفصل، ج1، ص167-168.

(7) الحموي: معجم البلدان، ج2، ص219.

أبي سفيان رضي الله عنه الخلافة، التي بقيت وراثية في ذريته حتى سقوط الدولة في عام 132هـ⁽¹⁾.

لذلك فقد كان خلفاء بني أمية يدركون الدور الكبير والهام الذي يمكن أن يلعبه أبناء الحجاز من غير البيت الأموي في زعزعة الأمن فيه وإضعاف سيطرتهم عليه لذلك اتسمت سياسة خلفائهم بالحرص على أن يكون ولاية مكة من البيت الأموي أو ممن يوالونهم⁽²⁾.

ولقد سلك خلفاء بني أمية في تعاملهم مع أهل الحجاز مسلماً خاصاً فطالما نهجوا سياسة المهاندنة والملاطفة مع أهل الحجاز عامة وأهل مكة خاصة وهذا هو مؤسس الدولة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه يوجه ابنه يزيد وهو يهيئه لولاية العهد بأن يتوخى الحذر الشديد من أهل الحجاز وإعطائهم الرعاية والاهتمام الذي يستحقانه وذلك في وصيته له إذ يقول «انظر إلى أهل الحجاز فإنهم أصلك فأكرم من قدم إليك منهم وتعاهد من غاب»⁽³⁾.

بل إن معاوية نفسه استخدم أسلوب اللين والترضية والملاطفة مع وجهاء مكة وديارهم ويفرق عليهم من العطايا ويغمض عينيه عن كثير من تجاوزاتهم، ويصفح عن ما يلاقيه من قوة وحدة أثنا مخاطبتهم إياه فهو الذي يعطي المقارب ويدراري المباعد ويلطف به حتى استوثق له أكثر الناس⁽⁴⁾. فنراه يستقبل أشرف الناس وكبرائهم من مكة خاصة والحجاز عامة أمثال: عبدالله بن العباس، وعبدالله بن الزبير، وعبدالله بن جعفر الطيار، وعبدالله بن عمر، وعبدالرحمن بن أبي بكر، وأبان بن عثمان - رضي الله عنه - وغيرهم ناس كثير من آل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم. فيكرم مثواهم ويحسن قراهم ويقضى حوائجهم ويعيدهم إلى ديارهم محملين بالهدايا»⁽⁵⁾.

وهكذا تهيئة مهمة الحجاج بنجاح وعاد الحجاز إلى حظيرة الدولة الأموية. ولعل زيارة الخليفة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه لمكة عام (56هـ) برفقة ابنه يزيد لتأدية فريضة الحج، ومعرفة وجهات نظر كبار أبناء الصحابة

(1) ابن العربي: أبوبكر عبدالله المعافري الأندلسي (ت532هـ-1137م)، العواصم من القواصم، القاهرة: مكتبة السنة، ط6، 1412هـ.

(2) الخربوطي: الدولة العربية، ص168.

(3) الطبري: الرسل والملوك، ج6، ص180.

(4) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج3/ ص508.

(5) ابن الطفطفا: الفخري، 104.

حول موضوع ولاية العهد إشارة إلى قوة التيار المعارض بها، بل ورفضها لمبدأ التوريث الذي يناقض في نظرهم ما كان سائداً في عصر الخلافة الراشدة. ثم ما تلا ذلك من الحوادث المتتابعة والتي نجحت في الفترة (63-73) في استقلال الحجاز بمدينتيه المقدستين عن الخلافة الأموية إشارة أخرى أشد وضوحاً وأبلغ وقعاً مما سبقها من حوادث لذلك كان موقف هؤلاء هو الرفض بحجة أن هناك من هو أحق وأجدر من يزيد فتشير الروايات التاريخية إلى أن معاوية تشدد مع هؤلاء المعارضين وأخذ البيعة منهم بينما يرى بعضهم أن معاوية قد تألف القوم ولم يكرههم على البيعة وعلى أية حال فلا نجد من ولايات الدولة الإسلامية غير ولاية الحجاز تنفرد بهذا الموقف المعارض والرافض لهذا المبدأ، فلم يشأ معاوية أن يترك الأمر لولائه لتقرير هذا الموضوع مع أهل الحجاز لأنه الوحيد الذي يعلم حقيقة هؤلاء وتوجهاتهم فعزم على القدوم بنفسه لمعالجة الأمر بالطرق التي أشرنا إليها⁽¹⁾.

ولم تحظ ولاية من ولايات الدولة الإسلامية مثلما حظيت به مكة المكرمة بخاصة وإقليم الحجاز بعامة في عهد بني أمية بزياراتها وتفقد أحوال أهلها وإيلائهم الرعاية والعناية التي يستحقونها فقد زارها معظم خلفاء بني أمية سواء للحج أو لتأكيد سلطتهم عليها أو لتألف أهلها والاطمئنان على ولائهم للسلطة في دمشق فقد زارها الخليفة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه مرتين عام 44 و 50 هـ⁽²⁾.

فقد زارها عبد الملك بن مروان عام 75 هـ⁽³⁾. وكذلك الوليد بن عبد الملك عام 91 هـ⁽⁴⁾.

ومن بعده سليمان بن عبد الملك عام 97 هـ⁽⁵⁾. وكذلك هشام بن عبد الملك عام 106 هـ⁽⁶⁾.

وربما وجد عبد الملك بن مروان أن انقطاعه القسرى عن أداء الحج وإقامته للمسلمين في الفترة التي سيطر فيها عبدالله ابن الزبير رضي الله عنه على مكة قد

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 3/ ص 509.

(2) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج 6/ ص 123.

(3) نفسه، ج 7 / ص 214.

(4) الطبري: الرسل والملوك، ج 8/ ص 81.

(5) الطبري، ج 8، ص 117.

(6) نفسه، 168.

أضعفت من هيبة الدولة وافقدها شيئاً من الشرعية مما جعل موقفها حرجاً أمام رعاياها من المسلمين وقد أشار اليعقوبي إلى شيء من هذا بقوله: إنما تحق الخلافة لمن كان الحرمان في يده، ولمن أقام الحج للناس⁽¹⁾.

فاتجه إلى انتهاج سياسة الملاطفة مرة أخرى والابتعاد بالحجاز وأهله عن كل ما يؤثر على علاقته بالدولة فعندما شكوا إليه محمد بن الحنفية من جور الحجاج وتخوفه منه وناشد الخليفة عبد الملك أن لا يجعل للحجاج ابن يوسف الثقفي عليه سلطاناً بيد ولا لسان كتب إليه الخليفة وهو حينئذ والي الحجاز بقوله: «إن محمد بن الحنفية كتب يستعفيني منك وقد أخرجت يدك عنه، فلم اجعل لك عليه سلطاناً بيد ولا لسان فلا تتعرض له»⁽²⁾.

على أن ذلك لم يكن ليمنع الخلفاء من اتخاذ الحيطة والحذر في تعاملهم مع ولايتهم بوجه عام وولاتهم على مكة بوجه خاص فيزيد بن معاوية أمر بعزل ابن عمه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان واليه على المدينة عام 60 هـ لأنه فشل في نظره في أخذ التدابير اللازمة لأخذ البيعة له من الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير - رضي الله عنه - وعين بدلاً منه عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية المعروف الأشدق⁽³⁾.

غير أنه تعرض للمسائلة واللوم من قبل الخليفة الذي قرر إبعاده عن ولاية الحجاز بما فيها مكة بعد أن تقدم إبراهيم بن طلحة التيمي بشكوى إلى الخليفة الأموي من بطش الحجاج ضد أهل الحجاز حيث يقول: «يا أمير المؤمنين لقد عمدت إلى الحجاج في تغطرسه وتعجرفه. فوليته الحرمين وهما ما هما وبهما ما بهما من المهاجرين والأنصار والموالي الأخيار يطوؤهم بطغام أهل الشام ويسومهم الخسف بعد الذي كان من سفك دمائهم وما انتهك من حرمهم»⁽⁴⁾.

وفي موقف آخر نجد الوليد بن عبد الملك يتخذ موقفاً من ابن عمه وواليه على مكة من عام 89 إلى 93 هـ وهو عمر بن عبد العزيز والذي كانت سيرته في أهلها سيرة حكام حتى غدت فترة ولايته من أزهى الفترات وأصبح الإقليم

(1) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج2/ 269.

(2) المسعودي: مروج الذهب، ج3/ 123.

(3) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج6/ 274.

(4) ابن عبد ربه: العقد الفريد، تحقيق: أحمد الزين، إبراهيم الأبي اري، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (1928هـ)، ج1/ 299.

مضرباً للمثل في الطمأنينة والأمن والأمان فلجأ إليه المضطهدون من الأقاليم الأخرى وبخاصة من العراق الأمر الذي لفت نظر الخليفة وخشى من تكاثر أعداد هؤلاء في الحجاز مع ما يمثله الحجاز من حساسية سياسية للخلافة فربما شكل هؤلاء جبهة معارضة لها أو قاعدة للخروج على الحكم الأموي لذلك عجل بعزل عمر بن عبدالعزيز بناء على مشورة من الحجاج، والذي صور الأمر للخليفة بأن ما يحدث من لجؤ هؤلاء بأعداد كبيرة إلى الحجاز يعد وهناً في الدولة وربما شكل أثراً لا تحمد عقباه على الخلافة⁽¹⁾.

وتولى بعده خالد بن عبدالله القسري الذي وجهه الخليفة ليكون حازماً في أمر أولئك النفر فاستهل ولايته بخطبة في أهل مكة حملت في طياتها الوعيد الشديد بشق عصا الطاعة للخليفة والتستر على أهل الخلاف ممن قدم إليها من أقاليم الدولة المختلفة بقوله: «أيها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة وإياكم والشبهات فإنني والله ما أوتي بأحد يطعن على إمامه إلا صلبته في الحرم، إن الله جعل الخلافة منه بالموضع التي جعلها فسلموا وأطيعوا.

واعلموا انه بلغني أن قومًا من أهل الخلاف يقدمون عليكم . . فإياكم أن تنزلوا أحدًا ممن تعلمون أنه زائغ عن الجماعة⁽²⁾.

وقد استمرت هذه السياسة من قبل خلفاء بني أمية تجاه الحجاز بحرصهم على إرضاء بقدر الإمكان وعدم تعرضهم للمهانة أو التحقير أو مضايقتهم في أمر من الأمور فنجد الخليفة يزيد بن عبد الملك بعد أن عين عبدالرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري عام (101هـ). فنهج هذا منهجاً قاسياً ضد أهل المدينة ومكة ولقوا منه عنثاً شديداً فتعرض لفاطمة بنت الحسين بن علي - رضي الله تعالى عنهم - بغية إكراهها على الزواج منه فشكت أمرها إلى الخليفة مما أثار غضبه منه فأمر بعزله واستبداله بعبدالواحد النضري⁽³⁾.

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج8/ص90.

(2) الطبري: الرسل والملوك، ج8/ص80.

(3) الفاسي: العقد الفريد، ج5/ص356

الفصل الأول

أثر تنظيمات الحج على الأحوال السياسية في الحجاز خلال العصر الأموي

المبحث الأول

أثر تنظيمات الحج على الأوضاع الداخلية في الحجاز

المطلب الأول: أثرها على الأوضاع الأمنية داخل المدن الحجازية
المطلب الثاني: أثرها على الأوضاع الأمنية خارج المدن الحجازية

المبحث الثاني

أثر تنظيمات الحج على علاقات الحجاز مع بلدان الحجيج

المطلب الأول: العراق ومن يمر به من الحجاج
المطلب الثاني: الشام ومن يمر به من الحجاج
المطلب الثالث: مصر ومن يمر بها من الحجاج
المطلب الرابع: اليمن ومن يمر به من الحجاج
المطلب الخامس: عمان، البحرين، واليمامة ومن مر بها من الحجاج

المبحث الأول

أثر التنظيمات الحج على الأوضاع الداخلية

المطلب الأول: أثرها على الأوضاع الأمنية داخل المدن:

تعد مدن الحجاز وتحديدًا مكة المكرمة من أكثر مدن العالم الإسلامي انفتاحاً على جميع شعوب العالم الإسلامي، ويعود ذلك لقدم وفود الحجاج إليها من شتى البقاع الإسلامية لأداء فريضة الحج والعمرة.

لذا كان سكان الحجاز أكثر الناس تأثراً بالحجاج، تمثل ذلك في اكتساب مجتمع الحجاز لأنماط جديدة من الثقافات والعادات المتنوعة، امتزجت في التركيبة الاجتماعية للحجاج، وانتقال أنواع جديدة من الأطعمة والأشربة والألبسة من الحجاج إلى سكان الحجاز والحرم الشريف، حتى أصبحت هوية بلاد الحجاز هوية إسلامية عامة تتمثل فيها جميع الشعوب الإسلامية في العالم.

ومما روي في ذلك: «فأما الحجاز فقصبته مكة ومن مدنهما: يثرب وينبع وقرح وخيبر والمروة والحوراء وجدة والطائف والجار والسقيا والعونيد والجحفة والعشيرة هذه أمهات، ودونهن بدر، خليص، أمج، الحجر، بدا يعقوب، السوارقية، الفرع، السيرة، جبلة، مهاج، حاذة»⁽¹⁾. إذ غلب على الرحالة أن يتحدثوا عن المدينة وكورها وما يتبعها من قرى.

وصفت بلاد الحجاز بأنها تقع بين جبال عظام وهي أودية ذات شعاب: «ومكة مدينة فيها بين شعاب وجبال»⁽²⁾. ولذلك فهي تقع بين جبال عالية ولا ترى من بعيد⁽³⁾، باعتبار أنها منخفضة بين تلك الجبال، فهي مدينة في واد والجبال تشرف عليها من جميع الاتجاهات ومحيطه بالكعبة المشرفة⁽⁴⁾،

(1) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: دى غوى ليدن: 1977م، ص 36.

(2) ابن حوقل: صورة الأرض، ص 35.

(3) ناصر خسرو: سفرنامه، ص 137.

(4) الحموي: معجم البلدان، ج 5/217.

وهذه خاصية حباها الله عز وجل لهذه المدينة، وتعطي دلالة واضحة على حصانتها.

وشُرفت مكة بأسماء عديدة دلت على شرف مسمّاها وسمو مكانتها، فمن أسمائها التي وردت في القرآن الكريم: مكة وبكة⁽¹⁾ وقيل: مكة البلد وبكة موضع البيت. وقيل: بكة البيت والمسجد، ومكة الحرم كله⁽²⁾، والبلد والقرية وأم القرى⁽³⁾.

أما اسم مكة فقد ذكر في كثير من المواضع؛ ومنها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾⁽⁴⁾، وقد اتفق العلماء على اسم مكة لجميع البلدة، وأما تسميتها بالبلد فقد قال تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾⁽⁵⁾، وأما التسمية بالقرية فقال تعالى ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾⁽⁶⁾، وأما التسمية بأمر القرى لقوله تعالى ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ لِلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾⁽⁷⁾. ومن أسمائها أيضا «بكة»، وهناك أقوال في هذه التسمية: القول الأول أنها كانت تبك أعناق الجبارة إذا ألدوا فيها. والثاني أنها سميت بهذا لأن الأقدام تبك بعضها بعضا⁽⁸⁾.

وقد دعا لها إبراهيم عليه السلام، وذكرت في القرآن الكريم، قال الله تعالى ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾⁽⁹⁾. فاستجاب الله عز وجل وآمن من نزل فيها، ورزق أهلها من الثمرات التي تجلب إليها من الآفاق⁽¹⁰⁾؛ أي من مختلف المناطق.

(1) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص12.

(2) العمري: مسالك الأبحار في ممالك الأمصار، 93/1.

(3) ابن الجاور: صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز «تاريخ المستبصر»، ص11.

(4) الفتح: 24.

(5) البلد: 1.

(6) النحل: 112.

(7) الانعام: 92.

(8) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، تحقيق: دى غوى ليبدن: 1302هـ/1885م، ص20؛

وابن الجاور: صفة بلاد اليمن، ص11-15.

(9) البقرة: 126.

(10) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص21.

ومن أسمائها: مكة، وبكة، والنساسة، وأم زحم، وأم القرى، ومعاذ، والحاطمة لأنها تحطم من استخف بها، وسمي البيت «العتيق» لأنه عتق من الجابرة، و«الرأس» لأنها مثل رأس الإنسان، والحرم وصلاح والبلد الأمين والعرش و«القادس»؛ لأنها تقديس الذنوب أي تطهر، والمقدسة والناسة و«الباسة» لأنها تبس أي تحطم الملحدين وقيل تخرجهم، و«كوثى» باسم بقعة كانت منزل بني عبدالدار⁽¹⁾.

وقيل: مكة بيت الله الحرام، أما اشتقاقها ففيه أقوال: «ف قيل سميت «مكة» لأنها تمك الجبارين أي تذهب نخوتهم، ويقال سميت «مكة» لزدحام الناس بها من قولهم: قد امتك الفصيل ضرع أمه، إذا مصه مضا شديدا، ويقال «مكة» اسم المدينة، وبكة اسم البيت، وقيل إننا سميت «مكة» لأن العرب في الجاهلية كانت تقول: لا يتم حجنا حتى نأتي مكة الكعبة فنمك فيه؛ أي نصفر صفير المكاء حول الكعبة، وكانوا يصفرون ويصفقون بأيديهم إذا طافوا بها -والمكاء بتشديد الكاف طائر- وقيل سميت «مكة» لأنها بين جبلين مرتفعين عليها وهي في هبطة بمنزلة المكوك، وقيل سميت «مكة» لأنها لا يفجر بها أحد إلا بكت عنقه فكان يصبح وقد التوت عنقه، وقيل «بكة» موضع البيت وما حول البيت: مكة»⁽²⁾.

وحكى مصعب بن عبدالله الزبيري قال: كانت مكة في الجاهلية تسمى صلاحا لأمنها، وقيل إن من أساء مكة «أم زحم» و«الباسة»، فأما «أم زحم فلأن الناس يتزاحمون بها ويتنازعون، وأما «الباسة» فلأنها تبس من ألد فيها؛ أي تحطمه و تهلكه، ويروى «الناسة» بالنون ومعناه أنها تنس من ألد فيها أي تطرده وتنفيه. وأصل مكة وحرمتها ما عظمه الله سبحانه من حرمة بيته، حتى جعلها لأجل البيت الذي أمر برفع قواعده وجعله قبله عباده أم القرى⁽³⁾. فلأهمية وقداسة مكة حباها الله بأسماء كثيرة تمييزا لها عن باقي المدن.

وأمتاز مناخ بلاد الحجاز وخصوصا مكة بالحرارة الشديدة، نظراً لانخفاضها من جهة، ولإحاطتها بالجبال من جهة أخرى، ولذلك قيل في مناخها: «وجو

(1) الحموي: معجم البلدان، 5/211-212.

(2) الحموي: معجم البلدان، 5/210-211.

(3) المارودي: الاحكام السلطانية، ص95.

مكة حار جدا في الصيف إلا أن ليلها طيب، قد رفع الله عنهم مؤونة الدفء وأراحهم من كلف الاصطلاء»⁽¹⁾.

ولذلك أشار أن أهل مكة كانوا يبحثون عن حلول لتفادي ارتفاع درجة الحرارة، فإذا تآذى أهل مكة بالحر خرجوا إلى الطائف⁽²⁾؛ لأنها أكثر ارتفاعا وبالتالي أقل حرارة. ولذلك قيل: «كانوا يشتون بمكة ويصيفون بالطائف أثناء رحلة الشتاء والصيف»⁽³⁾. ويؤكد اعتدال مناخها ليلا ما قيل: «والليل بمكة في الصيف طيب»⁽⁴⁾ إلا أن الأمطار بمكة المكرمة لا تزال شحيحة، ولا تسقط إلا على فترات متباعدة، وهذه من أهم أسباب الجفاف والجذب والقحط الذي يصيبها.

وأما الغطاء النباتي فتمثل في الشجر الصحراوي، فقد وصف ناصر خسرو بقوله: «وليس بمكة شجر أبدا إلا عند الباب الغربي للمسجد الحرام المسمى باب إبراهيم؛ حيث وجد كثير من الشجر الكبير الذي يرتفع على حافة بئر»⁽⁵⁾. وتم تحديد نوع ذلك الشجر بقول ابن حوقل «وليس بجميع مكة شجر مثمر غير شجر البادية»⁽⁶⁾، وهذا يشير لارتباط المناخ بنوعية التربة الملائمة للنبات الصحراوي.

تولي الخلفاء والأمراء الأمويين إمارة الحج:

حرص الخلفاء الأمويون على الاهتمام بمدن الحجاز وبشؤون الحج ورعايته، حيث قام عدد منهم بتولي إمارة الحج بنفسه، وهم الخلفاء: معاوية بن أبي سفيان (60-41هـ)، وعبدالمك بن مروان (65-86هـ)، والوليد بن عبدالمك (-86هـ) 96هـ)، وسليمان بن عبدالمك (99-96هـ)، وهشام بن عبدالمك (125-105هـ)⁽⁷⁾.

(1) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص37؛ والحموي: معجم البلدان، 5/217.

(2) المصدر نفسه، ص20.

(3) نفسه، ص27.

(4) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص27.

(5) ناصر خسرو: سفرنامه، ص137.

(6) ابن حوقل: صورة الأرض ص37. والادريسي: نزهة المشتاق في اختراق الافاق، ص23.

(7) ابن خياط: تاريخ بن خياط، ص203، 213، 218، 303، 314، 336؛ واليعقوبي:

تاريخ اليعقوبي، مج 20 ص 239، 291، 298، 321؛ والطبري: تاريخ الرسل والملوك،

مج 5، ص 225، 240، ومج 6، ص 438، 465، 529، ومج 7 ص 35؛ وابن الأثير: الكامل

في التاريخ، بيروت: دار صادر، مج 3، ص 446، 4710؛ وابن كثير: البداية والنهاية في

التاريخ ج 8 ص 27، 43، ج9، ص11، 177، 239، 240.

ومنهم من حج أكثر من مرة، مثل: معاوية بن أبي سفيان والوليد بن عبد الملك، وكانوا يقومون بعد أداء الفريضة بتقديم خدمات جليلة في الحرمين الشريفين لتوفير الراحة والطمأنينة لحجاج بيت الله الحرام⁽¹⁾.

وحيثما كانوا يتخلفون عن قيادة الحج في موسم الحج، فإنهم كانوا يكفون أحد الأمراء من البيت الأموي بإقامة الموسم نيابة عنهم -بإمارة الحج- سواء من أبناء الخلفاء، أو من أمراء مكة والمدينة، أو غيرهم من كبار رجال الدولة. وكان معاوية بن أبي سفيان⁽²⁾ أول خليفة أموي يحج من دمشق، وقد ولي إمارة الحج بنفسه في فترة خلافته (41 - 60هـ) مرتين: الأولى في عام أربع وأربعين، والثانية في عام خمسين للهجرة⁽³⁾.

أما في السنوات التي لم يتول فيها إمارة الحج بنفسه، تولاه عدد من الأمراء الأمويين؛ هم:

(1) ابن خياط: تاريخ بن خياط، ص 207، 213، 218؛ واليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مجلد 2، ص 239، 291؛ والطبري: تاريخ الرسل والملوك، مجلد 5، ص 215، 240؛ وابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد 3، ص 446، 471؛ وابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ ج 8، ص 27، 43؛ والمقرئزي: الذهب المسبوك، ص 14؛ الجزيري: الدررالفرائد المنظمة في أخبار الحاج، وطريق مكة المعظمة، أعده للنشر: حمد خسرو: الرياض: دار اليمامة، 1403هـ، ص 195، 196؛ والرشيدي: حسن الصفا والابتهاج، ص 93-94.

(2) هو الصحابي الجليل: معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبدشمس بن عبدمناف، وأمه هند بنت عتبة بن أبي ربيعة، وكان يلقب بـ(خال المؤمنين)، لأن أخته ام حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي. ولد معاوية قبل الهجرة بنحو خمسة عشر عاماً، وأسلم يوم فتح مكة سنة هـ، وقيل في عمرة القضاء سنة 7 هـ. وكان من كتاب الوحي الرسول الله، وفي عهد أبي بكر الصديق شارك في الفتوح الإسلامية في بلاد الشام، ثم انفرد بإمارة الشام في عهد عمر بن الخطاب وظل أميراً عليها في عهدي عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب. وكان له دور كبير في إنشاء الأسطول الإسلامي وغزو جزر البحر المتوسط. بويع له بالخلافة سنة 41هـ بعد استشهاد الإمام علي بن أبي طالب، وتنازل الحسن عن الخلافة، وقد ظل في الخلافة ما يقرب من عشرين عاماً، وطد فيها أركان الدولة الإسلامية، وكانت وفاته في منتصف شهر رجب سنة 60هـ.

(3) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مج 2، ص 239؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، مج 5، ص 215، 240؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج 3، ص 446، 771؛ ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ ج 8، ص 27، 43؛ الجزيري: درر الفوائد المنظمة، ص 195؛ الرشيدي: حسن الصفا والابتهاج، ص 93.

- عتبة بن أبي سفيان⁽¹⁾ الذي تولى إمارة الحج في عام إحدى وأربعين للهجرة⁽²⁾.
- عنبسة بن أبي سفيان⁽³⁾، وقد تولى إمارة الحج في عام اثنتين وأربعين، وسبع وأربعين للهجرة⁽⁴⁾.
- مروان بن الحكم⁽⁵⁾، وقد تولى إمارة الحج في سنوات: ثلاث وأربعين،

(1) عتبة بن أبي سفيان بن حرب بن أمية - أخو معاوية بن أبي سفيان، ولد عتبة على عهد الرسول، ولاء عمر بن الخطاب على بلاد الطائف وصدقاتها، ثم ولاء أخوه معاوية مصر بعد وفاة عمرو بن العاص سنة 43 هـ، فأقام عليها سنة، ثم توفي فيها ودفن بمقبرتها سنة 44 هـ، وكان عتبة فصيحاً بليغاً حتى يقال: إنه لم يكن في بني أمية أخطب منه. ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، مصر: مطبعة مصطفى محمد، 1358 هـ/1939 م، ج8، ص7-8؛ والزركلي: الأعلام، بيروت: لبنان، دار العلم للملايين، 1997 م، مج 4، ص200، ط2.

(2) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مج 2، ص239؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، مج 5 ص171؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج3، ص419؛ الجزيري: درر الفوائد المنظمة ص195. وقد ذكر كل من الطبري: وابن الأثير رواية أخرى تقول أن الذي حج بالناس في تلك السنة هو عنبسة بن أبي سفيان.

(3) عنبسة بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية من الأمراء، كان أخوه معاوية ابن أبي سفيان يوليه ويعتمد عليه، وآخر ما وليه إمرة مكة، وتوفي بالطائف سنة 50 هـ الزركلي: الأعلام، بيروت: دار العلم للملايين، 1997 م، مج5، ط2، ص91.

(4) تاريخ الرسل والملوك: مج5، ص18، 230؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج 3، ص419، 456. أما اليعقوبي فقد ذكر أن الذي حج بالناس في تلك السنتين هو عتبة بن أبي سفيان (اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مج 2 ص239)، كما ذكر الجزيري أن الذي حج بالناس في سنة 42 هـ، هو مروان بن الحكم، وفي سنة 47 هـ عتبة بن أبي سفيان، الجزيري: درر الفوائد -195 196)، وهذا ليس بصحيح لان عتبة توفي سنة 44 هـ.

(5) مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس القرشي الأموي، ولد في السنة الأولى للهجرة، وروى حديثاً عن النبي، كما روى الحديث عن بصحيح طائفة من كبار الصحابة، وكان كاتباً للخليفة عثمان بن عفان الله وصاحب سره، شهد موقعة الجمل مع طلحة والزبير وعائشة، ولاء معاوية بن أبي سفيان على المدينة أكثر من مرة، وكان يحج بالناس أثناء إمارته عليها، وبويع له بالخلافة في مؤتمر الجأبية سنة 64 هـ، وتوفي في شهر رمضان سنة 65 هـ عن أربع وستين سنة.

انظر ترجمته بالتفصيل عند الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: سير أعلام النبلاء، بيروت: مؤسسة الرسالة، ج3، ص476؛ وابن سعد: الطبقات الكبرى، القسم المتم لتابعي أهل المدينة المنورة ومن بعدهم، تحقيق: زياد محمد منصور، المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، 1208 هـ/1987 م، ج5، ص35؛ ومصعب الزبيري: نسب قريش ص159، تحقيق: ليفي بروفنسال، القاهرة: دار المعارف، 1976 م.

- خمسة وأربعين، وثمان وأربعين، وأربع وخمسين، وخمس وخمسين⁽¹⁾.
- سعيد بن العاص⁽²⁾، وقد تولى إمارة الحج في سنوات: تسع وأربعين، واثنين وخمسين، وثلاث وخمسين⁽³⁾.
- الوليد بن عتبة⁽⁴⁾، وقد تولى إمارة الحج في سنوات: ست وخمسين، وسبع وخمسين، وثمان وخمسين⁽⁵⁾.
- عثمان بن محمد بن أبي سفيان⁽⁶⁾، وقد تولى إمارة الحج في العام التاسعة والخمسين للهجرة⁽⁷⁾.

(1) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مجلد2، ص239، والطبري: تاريخ الرسل والملوك، مجلد5، ص211، 224، 231، 298، 300؛ وابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج3، ص439، 452، 457، 502، 503؛ وابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ ج8، ص25، 28، 31، 65، 70.

(2) سعيد بن العاص بن سعيد بن أحيحة بن العاص بن أمية بن عبدشمس بن عبدمناف بن قصي، وأمه أم كلثوم بنت عمرو بن عبدالله بن أبي قبيس، وهو أحد الكتاب الذين كتبوا للخليفة عثمان بن عفان، واستعمله على الكوفة، واعتزل الفتنة عهد عثمان وعلي، إلى أن ولاه معاوية على الحجاز، وتوفي سنة 59 هـ، وقيل سنة 58 هـ. انظر ترجمته بالتفصيل عند: ابن سعد: الطبقات الكبرى ج5، ص30-35؛ وابن الأثير: أسد الغابة ج2، ص309-311. مصر: 1284 هـ؛ وابن كثير: البداية والنهاية ج8، ص82.

(3) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مج2 ص239؛ والطبري: تاريخ الرسل والملوك، مج5، ص233، 287، 292؛ وابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ ج8، ص32، 59، 65؛ والجزيري: درر الفوائد المنظمة، ص196.

(4) الوليد بن عتبة بن أبي سفيان بن ضمير بن حرب بن أمية بن عبدمناف بن قصي ابن كلاب القرشي الأموي، ولي المدينة لمعاوية بن أبي سفيان، معاوية والوليد عليها، ثم عزله يزيد بن معاوية حين تولى الخلافة، ثم أرجعه بعد ذلك واليا على بلاد الحجاز كلها، وكان الوليد حكيما كريما، توفي سنة 64 هـ. لمزيد من التفاصيل عن سيرته انظر نسب قريش للزبير ج31، ص133؛ والفاصي: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ج7، ص391، تحقيق: فؤاد السيد، القاهرة: 1381؛ والزركلي: الأعلام، مج8، ص121.

(5) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مج2، ص239؛ والطبري: تاريخ الرسل والملوك، مجلد5، ص301، 309، ولم يذكر أحداً تولى إمارة الحج في سنة 57 هـ. وابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج3، ص503، 514، 520؛ وابن كثير: البداية والنهاية ج8، ص77، 80؛ والجزيري: درر الفوائد المنظمة، ص196-197.

(6) عثمان بن محمد بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبدشمس بن عبدمناف الأموي، وأمه أم عثمان بنت أسيد بن الأحنس بن شريق، ولاه يزيد بن معاوية مكة بعد الوليد بن عتبة الذي عُزل بتدبير من عبدالله بن الزبير وذلك في سنة 62 هـ، وقد ظل عثمان أميراً على المدينة حتى ثار أهل المدينة على الأمويين وحاصروا دار الإمارة، وأعلنوا خلع البيعة ليزيد بن معاوية، وطلبوا من الأمير عثمان بن محمد أن يغادر المدينة، فخرج منها بأهله وزاده، ولجأ إلى الشام. ابن سعد: الطبقات الكبرى، مج، ص38، 225، والفاصي: العقد الثمين ج6، ص37.

(7) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مجلد2، ص239. الطبري: تاريخ الرسل والملوك: مجلد5،

- يزيد بن معاوية⁽¹⁾، وقد تولى إمارة الحج في عام إحدى وخمسين للهجرة⁽²⁾.
- أما يزيد بن معاوية فلم يذكر عنه المؤرخون أنه تولى إمارة الحج بنفسه خلال فترة خلافته القصيرة (64-60هـ)، وإنما كان يُعين أميراً للحج في كل عام نيابة عنه.
- ففي عام ستين للهجرة عين عمرو بن سعيد بن العاص⁽³⁾ -عامله على

ص321، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج 3، ص525؛ ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ ج8، ص95؛ الجزيري: درر الفوائد المنظمة ص197.

(1) يزيد بن معاوية بن أبي سفيان أمير المؤمنين، وأمه ميسون بنت جحدر بن أنيف الكلبى، ولد يزيد أثناء لاية أبي ه على الشام في عهد عثمان بن عفان سنة 26هـ فنشأ في عز الإمارة ومجدها، وعنى أبوه بتربيته تربية عربية إسلامية، فقد أرسله في طفولته إلى البادية عند أخواله من بني كلب، ليشب في خشونة البادية وينشأ على الرجولة والفتوة، ويتعلم اللغة العربية الفصحى، ولقد أثمرت هذه التربية في يزيد، فكان شاعراً فصيحاً وأديباً لبيباً، حاضر البديهة، أبي النفس كريماً، عالي المهمة، يحسن التصرف في المواقف، ويعد يزيد من الطبقة الأولى من التابعين، وله أحاديث، روى عن أبي ه معاوية، وروى عنه ابنه خالد، وعبد الملك بن مروان، وقد لقبه كل من الليث بن سعد فقيه مصر، وابن كثير بأمير المؤمنين، وقد كان في يزيد خصال محمودة من الكرم، الحلم، والفصاحة، والشعر، والشجاعة، وحسن الرأي في الملك، وكان ذا جمال، حسن المعاشرة، وقد أسند إليه أبوه قيادة الجيش الذي أرسله لغزو القسطنطينية سنة 49هـ، وكان تحت إمرته في هذا الجيش عدد كبير من الصحابة، ومنهم: عبدالله بن عباس، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن الزبير، وغيرهم، كما كان أبوه يؤمره على الحج، وقد أخذ له البيعة بالخلافة من سائر الأمصار قبل وفاته، ولما توفي معاوية في منتصف شهر رجب سنة 60هـ آلت الخلافة إلى ابنه يزيد في اليوم نفسه، وقد ظل في الخلافة ما يقرب من أربع سنوات، وفي عهده وقعت حوادث أليمة منها: ثورة أهل المدينة، وموقعة الحرة سنة 63هـ. ثم مقتل الحسين بن علي في كربلاء سنة 64هـ، وكانت وفاة يزيد في قرية حوارين بالشام لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة 64هـ. انظر ترجمة يزيد وأخباره في: نسب قريش للمصعب الزبيري ص127، القاهرة: دار المعارف، 1976م؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، مج5، ص399 وما بعدها؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد4، ص125 وما بعدها؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج4، ص35-40؛ ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ ج8، ص226 وما بعدها.

(2) اليعقوبي: اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مج 3، ص239؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، مج5، ص286؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد3، ص490؛ ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ ج8، ص54، أما الجزيري والرشيدي فقد ذكرا أن الذي حج بالناس فيها هو معاوية بن أبي سفيان (درر الفوائد المنظمة ص196، الرشيدي: حسن الصفا والابتهاج ص93)، والراجح أنه يزيد بن معاوية، حيث أجمع عليه معظم المؤرخين.

(3) عمرو بن سعيد بن العاص بن سعيد بن أبي أحيحة بن العاص بن أمية بن عبدشمس، وأمّه أم البنين بنت الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبدشمس، كان من رجال قريش، وولاه يزيد بن معاوية على المدينة المنورة، وحج بالناس سنة 60هـ وكان أحب الناس إلى أهل الشام، لذا كانوا يسمعون له ويطيعون، فلما ولي عبد الملك بن

الحرمين- أميراً على الحج⁽¹⁾.

- وفي عام إحدى وستين، واثننتين وستين عين لهذه الإمارة الوليد ابن عتبة⁽²⁾.

وبوفاة يزيد بن معاوية، عمل عبدالله بن الزبير على الاستقلال بحكم الحجاز عن الدولة الأموية، واتخذ مكة المكرمة مقراً له (74-63هـ)، وفي تلك الفترة التي استقل فيها كان يقيم الحج بالناس في كل عام، ما عدا عام اثنتين وسبعين للهجرة⁽³⁾ التي وقعت فيها الحرب بينه وبين الحجاج بن يوسف الثقفي قائد جيش عبدالملك بن مروان الذي حاصر ابن الزبير ومن معه في المسجد الحرام.

مروان الخلافة خافه، ولم يزل مرصداً له لا يأمنه حتى بعث إليه يوماً خالياً فعاتبه على أشياء قد عفاها عنه، ثم وثب عليه فقتله سنة 69هـ وقيل سنة 70هـ، وكان عمرو هذا يكنى أبا أمية. وقد روى الحديث عن عمر وعثمان وعلي وعائشة رضي الله عنهم، راجع سيرته بالتفصيل عند: ابن سعد: الطبقات الكبرى ج5، ص-237 ص238؛ وابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ، ج8، ص305-310.

(1) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مجلد2، ص253، الطبري: تاريخ الرسل والملوك، مجلد5، ص399؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج4، ص43؛ ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ ج8، ص168، أما الجزيري فقد ذكر روايتين، إحداهما تقول: إن الذي تولى إمارة الحج في سنة60هـ هو عمرو بن سعيد بن العاص، والثانية تقول: إن الذي تولاهما في تلك السنة هو الوليد بن عتبة (درر الفوائد المنظمة، ص197). ولا شك أن الرواية الأولى هي الأصح، لأنها تتفق مع روايات باقي المؤرخين.

(2) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مجلد2، ص253؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، مجلد5، ص477؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد4، ص101؛ ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ، ج8، ص209؛ ودرر الفوائد المنظمة، ص197، وقد ذكر الجزيري رواية أخرى تقول إن الذي تولى إمارة الحج في تلك السنة هو عمرو بن سعيد، والأصح الرواية الأولى.

(3) يذكر لنا المؤرخون أنه في سنة68هـ وقف بعرفات أربعة ألوية: لواء مع محمد ابن الحنفية وأصحابه، ولواء مع ابن الزبير، ولواء مع نجدة بن عامر الحروري، ولواء مع بني أمية. وكان أول من دفع رايته ابن الحنفية، ثم نجدة الحروري، ثم بنو أمية، ثم دفع ابن الزبير فدفع الناس معه. اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مجلد2، ص268؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، مجلد1، ص138؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد4، ص296؛ ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ، ج8، ص292؛ ودرر الفوائد المنظمة، ص199.

ويقول المؤرخون⁽¹⁾: (إن الحجاج بن يوسف الثقفي⁽²⁾ حج بالناس في تلك العام وعليه وعلى أصحابه الدروع وهم وقوف بعرفات ولم يتمكنوا من الطواف بالبيت، وابن الزبير محصور لم يتمكن من الحج هو وأصحابه لأنهم لم يقفوا بعرفة).

غير أنني لا أجد في نفسي ميلاً إلى ما ذكره هؤلاء المؤرخون، إذ كيف يجوز أن يقال بأن الحجاج بن يوسف الثقفي قد حج في تلك العام هو وأصحابه، مع أنهم لم يتمكنوا من الطواف بالبيت، مع أن الطواف بالبيت ركن من أركان الحج مثل الوقوف بعرفة، الذي كان عدم تحققه لابن الزبير وأصحابه سبباً في عدم حجهم هذا العام، فكما أن الحج لا يكون بدون الوقوف بعرفة، كذلك لا يكون بدون الطواف بالبيت. ويظهر أن المؤرخين الذين نقلوا لنا هذا الخبر لم يكونوا على دراية بهذا الحكم الفقهي.

ويبدو لي أنه إما ألا يكون قد وقع حج هذا العام، وإما أن يكون الطرفان قد اتفقا على هدنة مؤقتة أيام الحج، وهذا هو أقرب الاحتمالين إلى الصواب، لأن المسلمين مهما كان الخلاف بينهم لا يمكن أن يعطلوا هذه الشعيرة المقدسة، كما أن ابن كثير قد ذكر في كتابه « البداية والنهاية في التاريخ، أن عبد الملك بن

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، مج 2، ص 175؛ وابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج 4، ص 350؛ وابن كثير البداية والنهاية في التاريخ ج 8، ص 324؛ والمقرئزي: الذهب المسبوك، ص 25، 26.

(2) الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود. بن ثقيف، ولد في قبيلة ثقيف سنة 42هـ في خلافة معاوية بن أبي سفيان، وأمّه مطلقمة المغيرة ابن شعبة، لذا كان الحجاج يسمى (عبدثقيف)، وقد كان منذ صغره يحب (العراك) ولذا عرف بـ (كليب)، وكان هو وأبوه يعلمان الأطفال بالطائف، ، وقد تركا الكلام ليأخذا السيف: فاشتركا في موقعة الحرة سنة 73هـ، وفي موقعة الربذة. بعثه الخليفة عبد الملك بن مروان في ألفي فارس إلى مكة لقتال عبد الله بن الزبير رضي الله عنه سنة 73هـ، فالجز مهمته وقضى على ابن الزبير في جمادى الآخرة من نفس العام، ثم ولاه عبد الملك على المدينة سنة 64هـ، وحج: بالناس فيها، كما ولاه العراق سنة 75هـ، وقام ببناء مدينة واسط سنة 78هـ، سماها (واسط)، لأنها بين البصرة والكوفة، كما قام بجهود كبيرة في خدمة الأمويين، والقضاء على الثورات التي واجهتهم، وتوفي الحجاج في مدينة واسط سنة 95هـ، ودفن بها وعمره ثلاث وقيل أربع وخمسون سنة. ترجمة الحجاج وأخباره بالتفصيل عند: السعودي: مروج الذهب ج 5، ص 288؛ وابن خلكان: وفيات الأعيان، مجلد 2، ص 29-54، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، بيروت: دار صادر؛ وابن عبدربه: العقد الفريد، ج 3، ص 6 وما بعدها، ؛ وابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ، ج 1، ص 121-144.

مروان قد أناب عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه (1) للحج بالناس، وكتب إلى الحجاج أن يأتهم بابن عمر في المناسك (2).

أما الخليفة عبد الملك بن مروان (3)، فقد تولى إمارة الحج بنفسه في العام الخامسة والسبعين للهجرة (4)، وأناب عنه في تولي هذه الإمارة خلال فترة خلافته - بعد مقتل ابن الزبير - عدداً من الأمراء هم:

(1) عبدالله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي، أسلم مع أبي هـ ولم يبلغ الحلم، وهاجر وعمره عشر سنين، وشهد غزوة الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة، كما شهد المشاهد بعدها مع رسول الله، كما شهد اليزموك وجلواء وما بينهما من وقائع الفرس، وشهد فتح مصر، واختط بها داراً، وقدم البصرة، وشهد غزو فارس، وورد المدائن مراراً، وكان عمره عندما مات النبي م اثنتين وعشرين سنة، وكان جواداً كريماً، أعتق ألف رقبة قبل موته، وربما تصدق في المجلس الواحد بثلاثين ألفاً، وكان أعلم الناس بمناسك الحج، ومكث ستين سنة يفتي الناس من سائر البلاد، وروى عن النبي أحاديث كثيرة، كما روى عن الصديق وعن عمر وعثمان وعائشة وغيرهم، توفي ابن عمر 74 سنة هـ، وقيل سنة 73 هـ. ابن خلكان: وفيات الأعيان، مج 3 ص 30؛ وابن كثير: البداية والنهاية، ج 9، ص 5-6.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية، ج 8، ص.

(3) هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، وأمه عائشة بنت المغيرة بن أبي العاص بن أمية، ولد في المدينة سنة 26 هـ في خلافة عثمان بن عفان، ونشأ بها نشأة علمية، وتعلم على كبار الصحابة، وروى عنهم الحديث، كما روى عنه جماعة من التابعين، وكان من فقهاء المدينة المعدودين، ولقب بـ(حمامة المسجد)، الملازمته مسجد الرسول، بويع له بالخلافة في شهر رمضان سنة 65 هـ في نفس اليوم الذي مات فيه أبوه مروان. وتجمع المصادر التي ترجمت وأرخت له على أنه كان من عقلاء الرجال وأفذاهم ومن أكثرهم دهاءاً وحزماً وشجاعة وإقداماً، ولقد برهن عبد الملك على كفاءته العالية سواء في إعادة توحيد الدولة الإسلامية، وفي الإدارة والسياسة، حيث استطاع في مدة خمس سنوات أن يتخلص من سائر خصومه، وأن يعيد الوحدة للأمة الإسلامية، ولذا اعتبره المؤرخون المؤسس الثاني للدولة الأموية، واعتبروا محام 73 هـ الذي تولى فيه الخلافة بالإجماع، عام الجماعة الثاني، توفي عبد الملك في منتصف شهر شوال سنة 86 هـ، انظر ترجمته وأخباره في: طبقات ابن سعد، ج 5، ص 223، والمعارف لابن قتيبة ص 355، تحقيق: د. ثروت عكاشة، دار المعارف، ط ع - القاهرة، ص واليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مج 2، ص 269؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج 4، ص 519؛ ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ ج 8، ص 260؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج 4، ص 236 وما بعدها، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج 1، ص 212.

(4) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مج 2، ص 281؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، مج 1، ص 209؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج 4، ص 391؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج 9، ص 10؛ المقرئ: الذهب المسبوك ص 37؛ والجزيري: حرر الفوائد المنظمة ص 201؛ والرشيدي: حسن الصفا والابتهاج ص 94.

- الحجاج بن يوسف الثقفي في سنتي: ثلاث وسبعين، وأربع وسبعين للهجرة⁽¹⁾.

- أبان بن عثمان بن عفان⁽²⁾، في سنوات: ست وسبعين، وسبع وسبعين، وثمان وسبعين، وتسع وسبعين، وثمانين، واثننتين وثمانين⁽³⁾.

- سليمان بن عبدالمك⁽⁴⁾ الذي تولى إمارة الحج في عام إحدى وثمانين⁽⁵⁾.

(1) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مج 2 ص 281؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، مج 6، ص 194، 201؛ والهداية والنهاية في التاريخ ج8، ص332، ج 9، ص 4؛ ودرر الفوائد المنظمة ص 200؛ الرشيدى: حسن الصفا والابتهاج ص 94.

(2) أبان بن عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبدشمس، وأمه أم عمر بنت جندب بن عمرو بن حممة بن الحارث، ولي المدينة لعبدالمك بن مروان لمدة سبع سنوات، وحج فيها بالناس ثلاث مرات، ثم عزله عبدالمك عنها، وولاه هشام بن إسماعيل المخزومي، وقد أصيب أبان بالفالج قبل أن يموت بسنة، وكان يقال بالمدينة: (فالج أبان « لشدته، وقد توفي أبان في المدينة في خلافة يزيد بن عبدالمك سنة 105هـ، وقيل سنة 106هـ. وكان أبان من فقهاء التابعين وعلمائهم، روى عن أبي هـ، وكان ثقة وله أحاديث. ابن سعد: الطبقات الكبرى ج5، ص151-152؛ وابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ ج9، ص239.

(3) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مج2، ص281، الطبري: تاريخ الرسل والملوك، مج 6، ص256، 318، 324، 329، 356؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج 2، ص418، 447، 448، 452، 456؛ ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ ج9، ص16، والجزيري: دور الفوائد المنظمة ص202. وقد ذكر كل من الطبري وابن كثير أن الذي تولى إمارة الحج سنة 78هـ هو الوليد بن عبدالمك، ولم يذكر ابن الأثير من تولى إمارة الحج في سنة 82هـ، كذلك لم يذكر ابن كثير من تولى هذه الإمارة سنة 78هـ، أما الجزيري فقد وافق معظم المؤرخين في ذكر من تولى إمارة الحج في سنوات 76، 77، 78، 79 هـ وهو أبان بن عثمان، ثم خالفهم في ذكر رواية ثانية في سنتي 80، 82هـ فذكر في سنة 80هـ غير أبان: سليمان بن عبدالمك، وذكر في سنة 82هـ غير أبان أيضاً: هشام بن إسماعيل المخزومي (درر الفوائد المنظمة ص 202)، والراء، والراجح أن الذي حج بالناس في تلك السنوات المذكورة كلها هو أبان ابن عثمان، حيث أجمع عليه معظم المؤرخين.

(4) سليمان بن عبدالمك بن مروان بن الحكم، وأمه ولادة بنت العباس العيسية، ولد بالمدينة المنورة، ونشأ بالشام، وكان يحب البادية والإقامة فيها، بويح له بالخلافة في منتصف جمادى الآخرة سنة 96هـ، وتوفي في شهر صفر سنة 99هـ، وكان من أفضل الخلفاء في نشر العلم والجهاد، كما كان ديناً فصيحا، مفوها، عادلاً، محباً للغزو، ترجمته في: اليعقوبي: تاريخه، مج2، ص293؛ الطبري: الرسل والملوك، ج6، ص505؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج5، ص111؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج9، ص177 وما بعدها.

(5) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مجلد2، ص281؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، مجلد6، ص341؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج4، ص341؛ والجزيري: درر الفوائد المنظمة ص202. أما ابن كثير فقد ذكر أن الذي حج بالناس في تلك السنة هو إسحاق بن عيسى، والراجح ما اتفق عليه معظم المؤرخين السابقين.

- هشام بن إسماعيل المخزومي⁽¹⁾، وقد تولى إمارة الحج في العام الثالثة والثمانين، والرابعة والثمانين، والخامسة والثمانين⁽²⁾.
- وأما الوليد بن عبد الملك⁽³⁾ فقد تولى إمارة الحج بنفسه في العام الحادية والتسعين للهجرة⁽⁴⁾، وعين لها في السنوات الأخرى من خلافته عدداً من الأمراء هم :
- هشام بن إسماعيل المخزومي، وقد تولى إمارة الحج في العام السادسة والثمانين للهجرة⁽⁵⁾.

(1) هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي، أمير المدينة المنورة، كانت ابنته زوج الخليفة عبد الملك بن مروان، الذي ولي هشاماً هذا على المدينة سنة 82هـ واستمر في الإمارة إلى سنة 87هـ حيث عزلته الوليد بن عبد الملك، وولى مكانه عمر بن عبدالعزيز، وقد تولى هشام بن إسماعيل إمارة الحج عدة سنوات متتالية أثناء إمارته على المدينة، وهو أول من أحدث دراسة القرآن بجامع دمشق، وتوفي بها سنة 89هـ. راجع سيرته بالتفصيل عند: ابن كثير البداية والنهاية في التاريخ، ج9، ص8، والزركلي: الاعلام، بيروت: دار العلم للملايين، 1979م، ط4، ج8، ص84.

(2) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مج2، ص281؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، مج6، ص384، 388، 417؛ والجزيري: درر الفوائد المنظمة، ص202؛ والرشيدي: حسن الصفا والابتهاج ص94.

(3) هو الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، وأمه ولادة بنت العباس بن جزء لبن الحارث العبسي، ولد حوالي سنة 50هـ، وهو أكبر أولاد أبي هـ، وقد أولاه عناية خاصة لأنه ولي عهده، وقد شب الوليد على الصلاح والتقوى، وحب القرآن الكريم والإكثار من تلاوته، ولقد كان الوليد من الرجال المحظوظين في التاريخ، وبويع له بالخلافة في منتصف شوال سنة 86هـ في نفس اليوم الذي مات فيه أبوه عبد الملك، وكان عهده غرة في جبين الدولة الأموية، حيث شهد ذلك العهد للمبارك فتوحات كبرى، وبناء وتعمير، ونعم الناس فيه بالهدوء والاستقرار والبناء وال عمران، وعمهم الرخاء الواسع والازدهار العظيم، وسبق الوليد كل دول العالم في رعاية المرضى وأصحاب العاهات وعلاجهم على حساب الدولة، توفي الوليد في منتصف جمادى الآخرة سنة 96هـ.

انظر ترجمة الوليد وأخباره في: المعارف لابن قتيبة، ص359، اليعقوبي: تاريخ

اليعقوبي مج2، ص283؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج6، ص496؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء ج4، ص347؛ ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ ج9، ص195-169.

(4) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، مج6، ص465؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج4، ص554؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج9، ص86؛ ودرر الفوائد المنظمة ص203. أما اليعقوبي فقد ذكر أن الذي تولى إمارة الحج في تلك السنة هو عمر ابن عبدالعزيز (اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مج2، ص291)، والراجح أنه الخليفة الوليد بن عبد الملك، حيث أجمع على ذكره معظم المؤرخين.

(5) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مج2، ص291؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، مج6، ص426؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج4، ص524؛ ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ ج9 ص65؛ ودرر الفوائد المنظمة ص202، وقد ذكر الجزيري رواية ثانية تقول: إن الذي تولى

- عمر بن عبدالعزيز⁽¹⁾ الذي تولى إمارة الحج في سنوات: سبع وثمانين، وثمان
وثمانين، وتسع وثمانين، وتسعين، واثننتين وتسعين، وثلاث وتسعين⁽²⁾.

إمارة الحج في تلك السنة (86هـ) هو العباس بن الوليد بن عبدالمك. والراجح أنه هشام
بن إسماعيل المخزومي، حيث أجمع على ذكره باقي المؤرخين.

(1) عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، وأمه أم عاصم
بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، ولد عمر بن عبدالعزيز بالمدينة المنورة سنة 62هـ
على الأرجح، ونشأ بها بناء على رغبة أبيه الذي تولى إمارة مصر بعد مولده بثلاث
سنوات (65 هـ)، وقد أخذ عمر العلم عن علماء المدينة، وروى الحديث عن كثير من
الصحابية والتابعين، منهم: أنس بن مالك؛ وعبدالله بن جعفر، وسهل بن وسعيد بن
المسيب، وعروة بن الزبير، وغيرهم. وكان عمر فقيهاً مجتهداً، وتابعاً جليلاً، وهو حجة
عند العلماء، وقد روى عن عمر كثير من التابعين، منهم أبو بكر بن حزم، ورجاء
بن حيوة، والزهري، وكثيرون غيرهم. وقد ظل عمر يقيم في المدينة المنورة حتى وفاة
أبي ه سنة 85هـ، فأخذ عمه عبدالمك بن مروان إلى دمشق، وخطه بأولاده، وزوجه
ابنته فاطمة، ثم عينه على إمارة خنصرة - وهي إمارة صغيرة في الشام أعمال حلب -
وظل عمر في ولايته هذه حتى وفاة عبدالمك سنة 86هـ، ولما تولى الوليد الخلافة بعد
موت أبي ه ظل على الإحسان إلى ابن عمه عمر، وعامله كما كان يعامله أبوه، ثم عينه
واليا على المدينة المنورة سنة 87هـ، وقد ظل والياً على المدينة حوالي سبع سنوات، كان
فيها موضع الرضا من أهلها، وبعد أن توفي الخليفة سليمان بن عبدالمك، بويع لعمر
بن عبدالعزيز بالخلافة في شهر صفر سنة 99هـ، واستمر فيها حوالي سنتين وبضعة
شهور، قام خلالها بعدة إصلاحات هائلة في الداخل والخارج، وأصبح موضع الرضا
والاحترام من أشد الفرق عداً لبني أمية، كالخوارج والشيعية، أما عند علماء الأمة
من أهل السنة فهو من الخلفاء الراشدين المهديين، والعلماء العاملين، وكانت وفاته في
أواخر شهر رجب سنة 101هـ، ترجمته وأخباره بالتفصيل في: فتوح البلدان للبلاذري
ص540، تحقيق: الدكتور صلاح الدين المنجد، القاهرة: النهضة المصرية؛ ابن الأثير:
الكامل في التاريخ لابن الأثير: مج5، ص38 وما بعدها؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج
ه، ص330 وما بعدها؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء للذهبي ج5، ص114؛ ابن كثير: البداية
والنهاية في التاريخ لابن كثير ج9، ص192 وما بعدها.

(2) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مجلد2، ص291؛ والطبري: تاريخ الرسل والملوك، مج2،
ص433، 437، 441، 447، 468؛ وابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج4، ص530، 540، 548،
569؛ وابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ، ج9، ص76، 79، 81، 88، ولم يذكر ابن كثير من
تولى إمارة الحج سنة90هـ، والجزيري: دور الفوائد المنظمة، ص202-203؛ والرشيدي: حسن
الصفاء والابتهاج ص94، وقد ذكر اليعقوبي أن الذي حج بالناس سنة88هـ هو الخليفة
الوليد بن عبدالمك، كما ذكر كل من الطبري: وابن الأثير: وابن كثير، أن الذي حج بالناس
سنة93هـ هو عبدالعزيز بن الوليد بن عبدالمك (تاريخ الرسل والملوك، مج6، ص428؛ ابن
الأثير: الكامل في التاريخ، مج4، ص578؛ ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ ج9، ص93،
كذلك ذكر الجزيري رواية أخرى فيمن حج بالناس سنة92هـ تقول: إنه عثمان بن
الوليد بن عبدالمك، والراجح أنه عمر بن عبدالعزيز حيث ذكره معظم المؤرخين.

- مسلمة بن عبدالمك (1) الذي تولاهما في عام أربع وتسعين (2).
- بشر بن الوليد بن عبدالمك (3)، وقد تولاهما في عام خمس وتسعين (4).
- أما سليمان بن عبدالمك (99-96هـ) فقد تولى إمارة الحج بنفسه في عام سبع وتسعين للهجرة (5)، وأتاب عنه لتلك الإمارة في عام ست وتسعين أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري (6)، الذي كان أميراً على المدينة

(1) مسلمة بن عبدالمك بن مروان القرشي الأموي، كان من رجال بني أمية، وكان يلقب بـ(الجرادة الصفراء)، وله آثار كثيرة وحروب ونكاية في العدو من الروم وغيرهم، وقد فتح حصوناً كثيرة من بلاد الروم، وحاصر القسطنطينية، وولاه أخوه يزيد إمارة العراقين، ثم عزله وتولى أرمينية، وروى الحديث عن كثير من التابعين، وتوفي في شهر المحرم سنة 121هـ في خلافة هشام بن عبدالمك وقيل سنة 120هـ، وكانت وفاته بموضع يقال له: « الحانوت »، ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ، ج9، ص336-337.

(2) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مج2، ص291، والطبري: تاريخ الرسل والملوك، مج6، ص91، وابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج4، ص582، وابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ ج9، ص102، والجزيري: درر الفوائد المنظمة ص203. وقد ذكر كل من الطبري وابن الأثير رواية ثانية تقول: إن الذي حج بالناس في تلك السنة هو عبدالعزيز بن الوليد بن عبدالمك، وشاركهما في هذه الرواية أيضاً الجزيري: وأضاف رواية ثالثة تقول: إن الذي حج فيها هو سليمان بن عبدالمك، ورواية رابعة تقول: إن الذي حج فيها هو عثمان بن حبان المزني. أما ابن كثير فقد ذكر رواية ثانية تقول: إن الذي حج بالناس فيها هو العباس بن الوليد بن عبدالمك. وأرجح أن الذي حج بالناس في تلك السنة (94هـ) هو مسلمة بن عبدالمك، حيث نص عليه اليعقوبي وحده، ولم يذكر أحداً غيره، كما أن كل واحد من باقي هؤلاء المؤرخون قد ذكره ضمن رواياته.

(3) بشر بن الوليد بن عبدالمك بن مروان. قال عنه ابن قتيبة: إن كان عالم بني الوليد. ابن قتيبة: المعارف، ص359.

(4) لطبري: تاريخ الرسل والملوك، مج6، ص493؛ وابن الأثير: الكامل في التاريخ م، مج4، ص591؛ وابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ ج9، ص121. أما اليعقوبي فقد ذكر أن الذي تولى إمارة الحج في تلك السنة (95هـ) هو أبو بكر محمد بن حزم، اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مج2، ص291، كما ذكر الجزيري والرشيدي أن الذي حج بالناس في تلك السنة هو الخليفة الوليد ابن عبدالمك (درر الفوائد المنظمة ص203؛ الرشيدي: حسن الصفا والابتهاج. 94)، والراجح أنه بشر بن الوليد بن عبدالمك حيث ذكره أغلب المؤرخين.

(5) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مج2، ص300؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، مج6، ص529؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج5، ص26؛ ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ ج9، ص177؛ والمقريزي: الذهب المسبوك، ص33؛ والجزيري: درر الفوائد المنظمة، ص203؛ والرشيدي: حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولي إمارة الحاج ص94.

(6) أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري، كان تلميذ الفقهاء الكبار في المسجد النبوي، وما لبث أن تصدر للحديث والفتيا، وقد أعجب به عمر بن عبدالعزيز منذ أن كان بدرس معه في حلقات المسجد، فلما تولى عمر إمارة المدينة ولاء قضاءها، وثبته الخليفة الوليد بن عبدالمك، وقد ظل والياً على قضاء المدينة حتى تولى سليمان بن عبدالمك

المنورة⁽¹⁾، كما أناب عنه لها في عام ثمان وتسعين عبدالعزیز بن عبدالله بن خالد بن أسید الأموي⁽²⁾، الذي كان أميراً على مكة المكرمة⁽³⁾.

وبعد وفاة الخليفة سليمان بن عبدالمك، تولى بعده الخلافة عمر ابن عبدالعزیز (99 - 101هـ)، وعلى الرغم من قصر مدة خلافته، ومع أنه لم يتولى إمارة الحج بنفسه فيها، إلا أنه عني بشئون الحج، وتعيين الأمير الذي يحج بالناس، وتزويده بكل ما يحتاج إليه الحجيج. وقد ذكر لنا المؤرخون أنه عين لهذه الإمارة في سنتي تسع وتسعين ومائة أمير المدينة أبا بكر محمد بن عمرو بن حزم⁽⁴⁾.

- أما يزيد بن عبدالمك فلم يثبت أنه تولى إمارة الحج بنفسه خلال فترة خلافته (101 - 105هـ)، وإنما كان يعين أميراً للحج في كل عام نيابة عنه.
- ففي سنوات: إحدى ومائة، واثنيتين ومائة، وثلاث ومائة للهجرة عين لهذه الإمارة عبدالرحمن بن الضحاک بن قيس الفهري⁽⁵⁾، الذي كان أميراً على

الخلافة، فولاه على إمارة المدينة. وظل على إمارتها حتى عزله الخليفة يزيد بن عبدالمك سنة 101هـ. الطبري تاريخ الرسل والملوك، مج2، ص433، 482، 505، 522، 554، 563، 574. (1) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مج2، ص300؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، مج1، ص522؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد5، ص20؛ ابن كثير: البداية والنهاية ج9، ص173؛ درر الفوائد المنظمة، ص203.

(2) عبدالعزیز بن عبدالله بن خالد بن أبي أسيد بن أبي العاص بن أمية بن عبدشمس بن عبدمناف الأموي، المكي، ولي إمرة مكة سنة 96هـ، وعزل عنها من قبل الخليفة سليمان بن عبدالمك، حيث ولي بدلا عنه على مكة طلحة ابن داود الحضرمي، ثم أعيد في سنة 97هـ إمارة مكة بعد ولاية طلحة عليها ستة أشهر، وظل أميراً على مكة حتى سنة 103هـ، حيث عزل عنها، وضممت إمارتها مع إمرة المدينة إلى عبدالرحمن بن الضحاک الفهري. انظر تفصيل ذلك في: نسب قريش 190 - 191؛ وتاريخ مكة للأزرق ج2، ص163؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج6، ص170-173، 522، 529، 545، 589 - 686؛ والفساسي: العقد الثمين ج5، ص450.

(3) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مج2، ص300؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، مج6، ص545؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد5، ص36؛ والجزيري: درر الفوائد المنظمة، ص240، وقد ذكر الجزيري رواية أخرى يقول فيها: إن الذي حج بالناس في تلك السنة (98هـ) هو أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم، والأرجح الرأي الأول الذي أجمع عليه معظم المؤرخين.

(4) نفس المصادر السابقة على الترتيب، صفحات: 308-305 562 643، 55، 189، 194، 204.

(5) عبدالرحمن بن الضحاک بن قيس بن خالد بن وهب بن ثعلبة بن وائلة بن عمرو بن شيبان بن محارب بن فهر بن مالك الفهري، أمير الحرميين، ولاه يزيد ابن عبدالمك إمارة المدينة

- عبدالواحد بن عبدالله بن بشر النصري⁽²⁾، أمير الحرمين والطائف، وقد تولى إمارة الحج في عام أربع ومائة للهجرة⁽³⁾ أما هشام بن عبدالمالك⁽⁴⁾ فقد تولى إمارة الحج بنفسه في العام السادسة بعد المائة للهجرة⁽⁵⁾. وفي

سنة 101هـ، فحج بالناس ثلاث سنوات متتاليات، ثم ضمت إليه مكة مع المدينة، ثم عزل عنهما للنصف من شهر ربيع الأول سنة 14هـ، فكانت إمارته على المدينة ثلاث سنين وشهور، وكان يأبى أن يستشير العلماء إذا أشكل عليه أمر، فأبغضه الناس وذمه الشعراء، وهذا يتناقض مع ما ذكره ابن عساكر من ثناء الناس عليه بعد عزله. راجع أخباره عند: ابن سعد: الطبقات الكبرى ج8، ص474 وما بعدها، والطبري: تاريخ الرسل والملوك، مج7، ص12 - 14؛ وابن عساكر: مختصر تاريخ دمشق ج14، ص270؛ والفاشي: العقد الثمين ج5، ص359.

(1) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مج2، ص314، الطبري: تاريخ الرسل والملوك، مج4 ص589، 617، 620؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد5، ص77، 101، 105؛ ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ ج9، ص224، 228، ولم يذكر ابن الأثير من تولى إمارة الحج سنة 102هـ، والجزيري: درر الفوائد المنظمة ص204، قد ذكر رواية أخرى تقول: إن الذي حج بالناس سنة 101هـ هو عبدالعزيز بن عبدالله بن خالد أمير مكة.

(2) عبدالواحد بن عبدالله بن كعب بن بشر النصري الدمشقي، أبو بشر، التابعي، من رجال الحديث الثقات، ولي مكة، والمدينة، والطائف سنة 104هـ، واستمر سنة وثمانية أشهر، ثم عزله هشام بن عبدالمالك سنة 106هـ، وتوفي بعد تلك السنة. الزركلي: الأعلام، مجلد4، ص176.

(3) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مج2، ص314، وتاريخ الطبري: مج7، ص20، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج5، ص116، ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ ج9، ص234. أما الجزيري فقد ذكر أن الذي تولى إمارة الحج في تلك السنة (104هـ) هو أمير الحرمين عبدالواحد بن كعب بن عمرو بن منيع بن عباد بن عوف بن فضل بن معاوية بن هوازن النصري (درر الفوائد المنظمة ص204). والراجح الرأي الأول، حيث أجمع عليه باقي المؤرخين.

(4) هشام بن عبدالمالك بن مروان، ولد في دمشق سنة 71هـ، وبويح فيها بعد وفاة أخيه يزيد سنة 105هـ، وخرج على زيد بن علي بن الحسين سنة 120هـ الفأ بأربعة عشر من الكوفة، فوجه إليه من قتله وشتت جمعه، ونشبت في أيامه حرب هائلة مع خاقان الترك فيما وراء النهر، انتهت بمقتل خاقان، واستيلاء المسلمين على بعض بلاده، واجتمع في خزائنه من المال ما لم يجتمع في خزانة أحد من خلفاء بني أمية في الشام، وبني مدينة الرصافة التي تقع على أربعة فراسخ من الرقة، وهي غير رصافتي بغداد والبصرة، وكان يسكنها في الصيف وتوفي فيها سنة 125هـ، وكان حسن السياسة، يقظاً في أمره، يباشر الأعمال بنفسه، ومن كلامه: (ما بقي علي من لذات الدنيا إلا أخ أرفع مؤنة التحفظ بيني وبينه). راجع سيرته وأخباره عند: ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص356؛ واليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ص316 وما بعدها؛ وابن قتيبة: المعارف ص365؛ والذهبي: سير أعلام النبلاء ج5، ص351 - 353؛ وابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ، ج9، ص351.

(5) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مج2، ص328؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، مج7، ص35؛

السنوات الأخرى من خلافته كان يعين أميراً للحج في كل عام نيابة عنه من أبنائه وأفراد أسرته والمقربين منه، وقد اشتهر في عهد هشام عدد من الأمراء ارتبطت أسماؤهم بإمارة الحج، وهم: إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي⁽¹⁾ أمير الحرمين والطائف، وخال هشام بن عبد الملك، وقد ولي الحج في سنوات: خمس ومائة وسبع ومائة إلى ثلاث عشرة ومائة للهجرة⁽²⁾.

- خالد بن عبد الملك بن الحارث بن عبد الحكم⁽³⁾، وقد تولى إمارة الحج في سنتي أربع عشرة وسبع عشرة بعد المائة⁽⁴⁾.

- محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي⁽⁵⁾، الخال الآخر للخليفة هشام بن

ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج 5، ص 130؛ ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ ج 9، ص 239-240؛ الجزيري: دور الفوائد المنظمة، ص 205.

(1) إبراهيم بن هشام بن إسماعيل للمخزومي القرشي، أمير المدينة المنورة، وخال هشام بن عبد الملك، اشتهر بشدته وعتوه، وهو الذي ضرب يحيى بن عروة حتى مات، حج بالناس سنة 105 هـ وبعض السنين التي بعدها، وولي المدينة ومكة والطائف سنة 107 هـ، وكثرت شكوى آل الزبير وغيرهم منه، وعزله هشام سنة 115 هـ، فانقطع خبره، وتوفي بعد سنة 115 هـ. الزركلي: الأعلام، مج 1، ص 78.

(2) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مج 2، ص 328، وقد ذكر اليعقوبي أن الذي تولى إمارة الحج سنة 103 هـ هو سليمان بن هشام بن عبد الملك، الطبري: تاريخ الرسل والملوك، مج 7 ص 26، 42، 45، 53، 66، 19، 87، 89؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج 5 ص 126، 138، 141، 140، 155، 158، 176، وقد ذكر كل من الطبري وابن الأثير رواية أخرى فيمن تولى إمارة الحج سنة 112 هـ تقول أنه سليمان بن هشام بن عبد الملك، ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ ج 9، ص 239، 200، 244، 310، 312، ولم يذكر ابن كثير من تولى إمارة الحج في سنتي 108، 112 هـ، الجزيري: درر الفوائد المنظمة ص 204، 206، وقد ذكر الجزيري أن الذي تولى إمارة الحج سنة 112 هـ هو سليمان بن هشام بن عبد الملك.

(3) خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم بن العاص الأموي، ولي المدينة للخليفة هشام بن عبد الملك سنة 114 هـ، ثم غضب عليه الخليفة هشام وعزله سنة 118 هـ، وقد حج بالناس مرتين أثناء إمارته على المدينة راجع سيرته وأخباره عند: ابن مصعب الزبيري نسب قريش، ص 170، 280؛ والطبري: تاريخ الرسل والملوك ج 7، ص 90، 107، 226؛ والرشيدي: حسن الصفا والابتهاج، ص 95.

(4) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مجلد 2، ص 328؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، مج 7، ص 91، 107؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج 5، ص 170-195؛ الجزيري: درر الفوائد المنظمة، ص 206، 207. وقد ذكر كل من الطبري وابن الأثير والجزيري رواية أخرى فيمن تولى إمارة الحج سنة 114 هـ تقول: إنه محمد بن هشام، والراجح أنه خالد بن عبد الملك، حيث أجمع عليه الكثيرون.

(5) محمد بن هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي، لجده

عبدالمك، وقد ولي إمارة الحج في سنوات: خمس عشرة ومائة، وثمان عشرة ومائة، وعشرين ومائة، وإحدى وعشرين ومائة، واثنين وعشرين ومائة، وأربع وعشرين ومائة للهجرة⁽¹⁾.

- الوليد بن يزيد بن عبدالمك⁽²⁾، ولي عهد هشام بن عبدالمك، وقد ولي إمارة الحج في العام السادسة عشرة بعد المائة⁽³⁾.

- مسلمة بن هشام بن عبدالمك، وقد ولي إمارة الحج في عام تسع عشرة بعد المائة⁽⁴⁾.

- يزيد بن هشام بن عبدالمك، وقد ولي إمارة الحج في العام الثالثة والعشرين بعد المائة⁽⁵⁾.

هشام صحبة، وهو أخو خالد بن الوليد، وقد ولي إمارة مكة والمدينة للخليفة هشام بن عبدالمك، ويروى أنه قد منع النساء من أن يطفن مع الرجال، وعندما تولى الوليد بن يزيد الخلافة بعد وفاة هشام بن عبدالمك (125-126هـ) كتب إلى يوسف بن عمر، فقبض على هشام هذا، وعلى أخيه إبراهيم الذي كان أميراً على المدينة، فعذبهما حتى ماتا سنة 125هـ. ابن كثير: البداية والنهاية ج10، ص5.

(1) اليعقوبي: تاريخ، مج2، ص238 (ولم يذكر اليعقوبي من تولى إمارة الحج سنة 118 هـ)، والطبري تاريخ الرسل والملوك، مج7، ص92، 112، 195، 179، 191، 199؛ وابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج5، ص181، 199، 228، 240، 249، 260؛ وابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ، ج9، ص317، 328، 334، 336، 349. وقد ذكر كل من الطبري: وابن الأثير: وابن كثير رواية أخرى فيمن تولى إمارة الحج سنة 120 هـ تقول: إنه سليمان بن هشام بن عبدالمك. والأرجح الرواية الأولى والجزيري: درر الفوائد المنظمة، ص206-208.

(2) الوليد بن يزيد بن عبدالمك بن مروان، وأمّه أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفي، ولد الوليد في مدينة دمشق سنة 90 هـ، وقيل سنة 92هـ. وبويع له بالخلافة في نفس اليوم الذي مات فيه عمه الخليفة هشام بن عبدالمك في ربيع الآخر سنة 125هـ، وقتل في قصره بقرية تسمى (البخراء، على بعد أميال من تدمر) في يوم الخميس لليلتين بقيتا من شهر جمادى الآخرة سنة 126هـ على إثر ثورة أطاحت به. اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مج2، ص238.

(3) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مج2، ص238؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، مج7، ص98؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج5، ص185؛ ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ ج9، ص331؛ والرشيدي: حسن الصفا والابتهاج، ص95.

(4) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مج2، ص238؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك: مج7، ص138؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج5، ص214، أما الجزيري والرشيدي فقد ذكرا أن الذي تولى إمارة الحج في تلك السنة (119 هـ) هو محمد بن هشام للمخزومي (دور الفوائد المنظمة ص208؛ الرشيدي: حسن الصفا والابتهاج ص95).

(5) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مج2، ص238؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، مج7 ص

وعندما ضعفت الدولة الأموية في أواخر عهدها، أصبحت إمارة الحج تسند إلى كبار القواد، أو إلى أمير الحرمين، الذي كان في بعض الأحيان يتولاها لعدة سنوات متتاليات.

ففي عام خمس وعشرين بعد المائة تولى إمارة الحج يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي⁽¹⁾، أمير الحرمين والطائف، وذلك في خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (125-127هـ)⁽²⁾.

وفي سنوات ست وعشرين، وسبع وعشرين، وثمان وعشرين بعد المائة تولى هذه الإمارة عبدالعزیز بن عمر بن عبدالعزیز⁽³⁾ أمير الحرمين والطائف أيضاً⁽⁴⁾، وذلك في عهد آخر الخلفاء الأمويين، وهو مروان بن محمد⁽⁵⁾.

197؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج5، ص253، ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ، ج9، ص347. أما الجزيري: والرشيدي فقد ذكرا أن الذي تولى إمارة الحج في تلك السنة هو محمد بن هشام المخزومي: الجزيري: درر الفوائد المنظمة، ص208؛ الرشيدي: حسن الصفا والابتهاج، ص95، والراجح أنه يزيد بن هشام بن عبد الملك الذي اجمع على ذكره باقي المؤلفين.

(1) يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي، أحد من تولوا إمارة مكة من غير الأشراف، وهو ابن أخ الحجاج بن يوسف الثقفي، ولاء الوليد بن يزيد بن عبد الملك إمارة مكة والمدينة والطائف سنة 125 هـ، ودامت ولايته إلى انقضاء عهد الوليد سنة 126 هـ، وتوفي يوسف بعد سنة 126 هـ. الزركلي: الأعلام، مج8، ص246.

(2) تاريخ الرسل والملوك، مج7، ص228، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج5، ص275، ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ، ج1، ص6، الجزيري: درر الفوائد المنظمة، ص208، أما اليعقوبي فقد ذكر أن الذي تولى إمارة الحج في تلك السنة هو محمد ابن موسى الثقفي. اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مج2، ص334.

(3) عبدالعزیز بن عمر بن عبدالعزیز بن مروان بن الحكم الأموي، أمير من سكان المدينة، ولاء يزيد بن الوليد إمارة مكة والمدينة سنة 126 هـ، وأقره مروان بن محمد عليها، ثم عزله عنها وولى عليها عبدالواحد بن سليمان بن عبد الملك، توفي عبدالعزیز بن عمر سنة 147 هـ. الزركلي: الأعلام، مج4، ص23.

(4) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، مج7، ص299، 329، 348؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج5، ص319، 30، 351؛ ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ ج10، ص17، 29، 29. وقد ذكر كل من الطبري: وابن الأثير رواية أخرى تقول: إن الذي حج بالناس في سنة 26 هـ هو عمر بن عبدالله بن عبد الملك. والراجح الرواية الأولى، حيث أجمع عليها معظم المؤرخين.

(5) مروان بن محمد بن مروان بن الحكم، وأمه أمة كردية، ولد حوالي سنة 70 هـ، ويعتبر من فرسان بني أمية وشجعانهم ولاء ابن عمه الخليفة هشام بن عبد الملك على أرمينية وأذربيجان سنة 114 هـ، وظل واليا عليها حتى مقتل الوليد بن يزيد سنة 126 هـ، فغضب لقتله وخرج من أرمينية قاصدا دمشق ليطالب بدمه ولكن الخليفة الجديد يزيد بن الوليد ترضاه وأضاف إليه إقليم الجزيرة والموصل، فرضي وباع ليزيد، ولكن يزيد

كما تولاهما في عام تسع وعشرين بعد المائة عبدالواحد بن سليمان بن عبدالملك⁽¹⁾، الذي كان أميراً على الحرمين والطائف⁽²⁾.

وفي عام ثلاثين ومائة تولاهما محمد بن عبدالملك بن مروان⁽³⁾ أمير الحرمين والطائف⁽⁴⁾.

وفي عام إحدى وثلاثين ومائة تولاهما آخر أمير من قبل الحلفاء الأمويين وهو

توفي سريعا وترك الأمر لأخيه إبراهيم بن الوليد الذي لم يستطع السيطرة على الموقف، حيث اندلعت في وجهه الثورات، فما كان من مروان إلا أن زحف على دمشق - وكان إبراهيم قد هرب منها- وأخذ البيعة لنفسه وذلك في شهر صفر سنة 127هـ، وقد ظل في الخلافة حتى قتل في شهر ذي الحجة سنة 132هـ على أيدي العباسيين، فكانت مدة خلافته خمس سنين، وعشرة أشهر، وستة عشر يوما. انظر في ترجمة مروان وأخباره: ابن خياط: تاريخ بن خياط، ص372، الطبري: تاريخ الرسل والملوك، مج7، ص311، 312؛ ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ، ج10، ص46.

(1) عبدالواحد بن سليمان بن عبدالملك بن مروان، أمير مروان الأموي، ولي إمرة مكة والمدينة سنة 129هـ لمروان بن محمد، وله خبر مع الخوارج الحرورية أيام فتنة المختار بن عوف (أبي حمزة) بمكة، وفر منهم عبدالواحد إلى المدينة، فعيره أحد الشعراء بأبي ات، منها: ترك الإمارة والحلائل هاربا ومضى يخط كالبعير الشارد ولما ظفر العباسيون بالأمويين، كان عبدالواحد في جملة من قتلهم صالح بن علي العباسي سنة 132هـ. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص430؛ والزركلي: الأعلام، مج ص175-176.

(2) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مجلد2، ص348؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، مجلد7، ص376؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد5، ص376، ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ، ج10، ص35؛ الجزيري: درر الفوائد المنظمة، ص208.

(3) محمد بن عبدالملك بن مروان بن الحكم الأموي، أمير من بني أمية في الشام، له رواية للحديث، أخذ عنه الأوزاعي وآخرون، ولي الديار المصرية لأخيه هشام، وقال لهشام: أنا أليها على أنك إن أمرتني بخلاف الحق تركتها. فقال: لك ذلك. فوليها سنة 155هـ، وأقام فيها شهراً، فأتاه كتاب لم يعجبه، فرفض العمل وانصرف إلى الأردن، وكان منزله بها في قرية يقال لها: ريسون) ولما قتل الوليد بن معاوية بن مروان بن عبدالملك والي دمشق من قبل مروان بن محمد سنة 132هـ، استقل محمد بالأردن، وظفر به عبدالله بن علي العباسي الهاشمي قرب الرملة بفلسطين، فقتله سنة 132هـ. الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان: تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، مصر: 1368هـ، ج5، ص297؛ وابن تغري بردي: أبو المحاسن جمال الدين يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة: دار الكتب المصرية، 1351هـ/1932م، ج1، ص323؛ والزركلي: الأعلام، مج6، ص248.

(4) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، مج7، ص402، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج5 ص393، ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ، ج10، ص38، الجزيري: درر الفوائد المنظمة، ص208. أما اليعقوبي فقد ذكر أن الذي تولى إمارة الحج في تلك السنة هو عبدالملك بن محمد بن مروان، اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مج2، ص348. والراجح أنه محمد بن عبدالملك بن مروان، حيث أجمع على ذكره باقي المؤرخين.

الوليد بن عروة بن محمد بن عطية السعدي⁽¹⁾ أمير المدينة⁽²⁾.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الدولة الأموية في أواخر عهدها قد بدأت في الانهيار، في الوقت الذي بدأت فيه الدعوة العباسية في الظهور والانتشار، وقد ساعد على ذلك ظهور الفتن والانقسامات في الدولة الأموية، وانعكس هذا الوضع المتردي على عدم ظهور قافلة الحجيج من العاصمة دمشق كما كانت ترد في فترة قوة الدولة.

اهتمام الخلفاء الأمويين بالمدينة المنورة:

حرص الخلفاء دولة الأموية على الاهتمام بمدينة المصطفى ﷺ المدينة المنورة عاصمة الدولة الإسلامية، ومحل إقامة الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، فإذا أراد الرسول ﷺ والخلفاء من بعده الخروج منها إلى الحج أو للجهاد استخلفوا عليها، فعندما خرج الرسول ﷺ في العام الثامن إلى مكة، استخلف عليها كلثوم بن حصين الغفاري⁽³⁾. وعندما حج عمر بن الخطاب ؓ عام (14هـ/635م) استخلف عليها زيد بن ثابت (ت45هـ/665م)⁽⁴⁾. وفي خلافة علي بن أبي طالب ؓ انتقلت عاصمة الإسلام من المدينة إلى الكوفة، فولى المدينة لسهل بن حنيف (ت38هـ/658م)⁽⁵⁾.

-ولأهمية أهل المدينة- رأى معاوية ؓ أن يسجل لها زيارة خاصة ولإبلاغ أهلها

(1) الوليد بن عروة بن محمد بن عطية بن عروة السعدي، ولي مكة والمدينة والطائف من قبل عمه عبد الملك بن محمد السعدي، الذي كان أميراً على تلك البلاد، ثم سافر إلى اليمن سنة 130 هـ لمقاتلة الخوارج بها، ولما قتل عبد الملك في تلك السنة أقر الخليفة مروان بن محمد بن الوليد بن عروة على إمارته لتلك البلاد، فظل أميراً عليها حتى سقطت الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية ولما علم الوليد بن عروة بقدوم داود بن علي العباسي إلى مكة بعد استيلاء ابن أخيه أبي العباس السفاح على الخلافة، هرب الوليد إلى اليمن. راجع سيرة الوليد بن عروة وأخباره في تاريخ خليفة بن خياط ص 603، 618؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، مج 7، ص 410، 411؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج 5، ص 163؛ والعقد الثمين ج 7، ص 397 وما بعدها.

(2) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، مج 7، ص 410؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج 5، ص 402؛ ودرر الفوائد المنظمة، ص 208. أما اليعقوبي فقد ذكر أن الذي تولى إمارة الحج في تلك السنة هو محمد بن عبد الملك بن عطية السعدي. والراجع ما ذكره باقي المؤرخين المذكورين.

(3) ابن خياط، تاريخ ابن خياط، ص 96.

(4) نفس المصدر، ص 153.

(5) نفسه، ص 201.

بأمر إستخلاف ابنه يزيد من بعده لمعرفة أرائهم في هذا الأمر فزارها عام (44هـ - 664م) وعرض الأمر أولاً على أعيان المدينة عندما إجتمع بهم معاوية وقد تحدث منهم عبدالله بن جعفر بن أبي طالب وعبدالرحمن بن أبي بكر الصديق، فكان رأي ابن جعفر أن ترجع الخلافة لآل البيت بعد معاوية وكان رأي عبدالرحمن بن أبي بكر بأن حصر الخلافة في أسرة بعينها يعتبر تشبيهاً بالأكاسرة والقياصرة⁽¹⁾.

وكان من الطبيعي أن تصدر مثل هذه الآراء من أبناء الصحابة خاصة رأي عبدالرحمن بن أبي بكر لأن الخلفاء الراشدين الأربعة لم يشتر واحد منهم إلى تعيين أحد أبنائه بعده، ورد معاوية على تلك الآراء ودافع عن قراره بقوله: «.. قد ذهب الآباء وتبقى الأبناء»⁽²⁾.

وهو يشير بذلك إلى أن الذين كان ينبغي أن يترك لهم الأمر قد مضوا إلى ربهم ولم يتبقى إلا أبنائهم وهذا ابنه يزيد واحد منهم فجاء اختياره له.

غادر معاوية المدينة ولم يتعرض لموضوع البيعة لابنه يزيد إلا بعد مضي فترة من الزمن حيث عاد للأمر مرة أخرى عام (49 هـ - 669م) بعد أن ضمن ولاء ومواقفة أهل الشام إذ عرض عليهم أمر الخلافة لابنه فلم يجد صعوبة في ذلك إذ بايعوا جميعاً ولكن كان لابد من موافقة أهل الحجاز خاصة أهل المدينة فكتب معاوية إلى والي المدينة مروان بن الحكم بن العاص مكلفاً إياه بأخذ البيعة من أهلها ولكنه لم يستطع فتم استبداله بسعيد بن العاص⁽³⁾.

ولتسهيل مهمة الوالي الجديد سعيد بن العاص قام معاوية ﷺ بتحضير عدة رسائل إلى الذين كانوا قد أبدوا آراءهم ورفضهم للأمر موضحاً لهم ضرورة الإستجابة برأيه حتى لا يؤدي رفضهم للفتن والمشاكل، ولكن الرسائل لم تفلح كما فشل سعيد بن العاص في إقناعهم فكتب بذلك إلى معاوية مما اضطره ولأهمية الأمر الحضور بنفسه⁽⁴⁾.

وللمرة الثانية يخرج أهل المدينة لإستقبال معاوية وفي مقدمتهم عبدالله بن

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ص 507.

(2) ابن قتيبة: الإمامة، ج 1، ص 153.

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 3، ص 297؛ عبدالرحمن ابن خلدون (808هـ / 1406م)، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، تحقيق: خليل شحادة، سهيل زكار، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1968م، ص 2، ص 288.

(4) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 3، ص 297.

عمر وعبدالله بن عباس الشيء الذي أدخل السرور في قلب معاوية وأنساه مشاق السفر على حد قوله⁽¹⁾.

دخل معاوية المدينة ولم يتحدث في الأمر الذي أتى من أجله إلا بعد أن زار السيدة عائشة رضي الله عنها، بعد سماحها له بذلك وكانت قد حثته على الإقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم كما أشارت إليه بالرفق واللين مع النفر الذين أبدوا رفضهم لمبايعة ابنه يزيد لأنه إن فعل ذلك معهم ربما أدي ذلك إلى إقناعهم وموافقتهم⁽²⁾.

دعا معاوية عامة الناس في المدينة إلى اجتماع في اليوم التالي بعد أن خص بالدعوة الحسن بن علي وعبدالله بن الزبير لأنهما أكثر معارضة من غيرهم لاستخلاف يزيد بن معاوية⁽³⁾.

اتسم الاجتماع بطابع الشورى إذ أعطى معاوية الحق للجميع لإبداء آرائهم في الأمر وكان أول المناقشين له الحسين بن علي والذي أوضح أن سبب رفضه ليزيد يكمن في بعض تصرفاته والتي هي في رأي الحسين تبعده عن الخلافة مثل حبه لسماع الغناء وترويضه للكلاب واللعب بها.

وأما عبدالله بن الزبير فلم يعترض على يزيد لشخصه ولكنه رفض الطريقة التي على ضوءها تم إختياره بها وطالب معاوية بالاعتداء بالنبي حينما ترك الأمر شورى للمسلمين بعده فجاء اختيارهم لأبي بكر الصديق، فرد معاوية بأنه لا يوجد من هو مثل أبي بكر الصديق حتى يترك الأمر شورى⁽⁴⁾.

كان رد معاوية على الحسين بن علي بمثابة رد لتساؤلات الكثيرين غيره حيث عدّ بعض المناقب التي تتوفر في ابنه مثل معرفته للقرآن الكريم وتلاوته، وعلمه بالعام النبوية بالإضافة إلى ما يتمتع به من حلم وأضاف معاوية بأنه لو كان يعرف شخصاً خيراً من ابنه لولاه واختاره للخلافة بعده⁽⁵⁾.

أوضح معاوية بعد ذلك كل المناطق قد بايعت ليزيد ولم يتبق إلا الحجاز وعقب انتهاء معاوية من حديثه ظهر فريق مؤيد له، بل وقام هذا الفريق

(1) ابن عبدربه: العقد الفريد، ط2، ص372.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج2، ص217؛ أبو الفداء: عماد الدين إسماعيل بن أبي الفداء: المختصر في اخبار البشر، المطبعة الحسينية (د ت)، ج2، ص102.

(3) ابن قتيبة: الإمامة، ج1، ص161.

(4) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج3، ص217.

(5) ابن قتيبة: الإمامة، ج1، ص163.

بتقديم البيعة دون أكراه وقد مثل هذا الفريق عبدالله بن عمر بن الخطاب وعبدالله بن عباس بن عبدالمطلب الشيء الذي طمان معاوية فغادر المدينة بعد أن قام بتوزيع الأعطيات على الجميع بما فيهم بني هاشم بالرغم من عدم موافقة الحسين بن علي وعدم إقناعه بل ورفضه البيعة ليزيد بن معاوية⁽¹⁾.

اهتم الخفاء الأمويين بالطائف التي كان الرسول ﷺ بعد فتح مكة يعين عليهما الولاية من قبله. وكذلك فعل الخفاء الراشدون ﷺ فبعد الفتح عام 8هـ استخلف الرسول ﷺ على مكة عتاب بن سيد (ت11هـ/632م)⁽²⁾. وفي خلافة أبي بكر الصديق ﷺ أقر على الطائف عثمان بن أبي العاص (ت51هـ/671م) حتى وفاته⁽³⁾.

كان لتعاليم الإسلام المتعلقة بحرمة أشهر الحج دور في إشاعة الأمن والاستقرار في مكة المكرمة وما حولها خلال مواسم الحج⁽⁴⁾. وفي العصر الأموي قسمت ولاية الحجاز إلى أربعة مناطق إدارية مراكزها المدينة، مكة، الطائف، اليمامة، فكان ولاتها مسئولون أمام الخليفة الأموي بدمشق عما يحدث داخل ولايته⁽⁵⁾.

وكثيراً ما كان خلفاء بني أمية ينتقون لهذه الأمارة عمالاً من البيت الأموي نفسه، من أصحاب الخبرة ومن القادرين على فهم نفسية الأهالي ومواجهتهم بما يتفق مع ميولهم، ووضع أسس هذه السياسة معاوية بن أبي سفيان، الذي جعل من مدن الحجاز مدرسة يدرّب فيها أبناء البيت الأموي على إدارة تلك الولاية والسماح لهم بالتدرج في تلك الولاية وفق خطوات مقررة. فكان إذا أراد أن يولي رجلاً من بني حرب بدأ بأن عهد عليه بحكم الطائف فإذا

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج3، ص511.

(2) الواقدي: محمد بن عمر (ت207هـ/822م). المغازي، ط3، ج3، تحقيق: مارسدن جونس، بيروت: عالم الكتب، 1202هـ/1982م، ص889؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص220؛ ابن سعد: الطبقات، ج2، ص137؛ ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص79؛ الفاكهي: أبو عبدالله محمد بن إسحاق بن العباس، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق: عبد الملك بن عبدالله بن دهيش، مكة المكرمة: مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، 1407هـ/1987م، ج3، ص175.

(3) ابن خياط: تاريخ، ص123.

(4) حول أشهر الحج الحرم، الطبري: جامع البيان، ج2، ص257؛ الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج1، ص243-242.

(5) ابن حوقل: صورة الأرض، ص29؛ القلقشدي: صبح الأعشى، ج2، ص222.

رأى منه خيراً أو نجاحاً ولاء معها مكة، وإن أحسن إدارة هاتين المدينتين ولي إلى جانبهما المدينة وقيل عندئذ أنه حذق⁽¹⁾.

وتشكل إمارة الحج أهمية كبرى في سياسة الدولة الإسلامية لإمارة من أعظم المراتب السياسية التي تطلق على من حظى بمكانة خاصة عند خليفة المسلمين فهي من أعلى المناصب وأفخمها وأعلاها قدرًا وقد تجلى ذلك عندما اختار ﷺ -أبا بكر الصديق ﷺ- لإمارة الحج على عهده فهي وظيفة تعطي صاحبها حق تمثيل الخليفة وظلت هذه المهمة عام متبعة يتقلدها الخليفة أو من ينوبه⁽²⁾.

وإمارة الحج إلى جانب طابعها السياسي فهي ذات طابع ديني إذ يتولى الأمير قيادة الحجاج منذ انطلاقتهم من ديارهم وحتى دخولهم مكة وأداء الحج وزيارة المدينة المنورة. وعودتهم مرة أخرى يؤمهم في الصلاة ويأمرهم بالصعود إلى منى والوقوف بعرفة ويلقي خطبة يوم عرفة ثم ينفر ويجلس للفتيا ويعلم الناس أمور دينهم⁽³⁾.

وقد تنبه خلفاء بني أمية إلى وظيفة إمارة الحج فأولوها عناية خاصة. فهي من الوظائف المهمة في الدولة الإسلامية. وتأخذ طابعها السياسي أكثر من طابعها الديني لاسيما وأنها تعني قيادة المسلمين القادمين إلى الحجاز ومن ثم لابد من توفير الأمن والطمأنينة لهم وإقرار سلطة الدولة وإظهارها بمظهر القوة أمام الحجاج الذين يفدون إلى الأراضي المقدسة من مختلف الأمصار الإسلامية، لاسيما وأن السلطة الأموية تعلمت من خلال حركة عبدالله بن الزبير ﷺ - درسًا مفاده إنما تحقق الخلافة لمن كان الحرمان بيده ولن أقام الحج للناس⁽⁴⁾.

ثم إن إنقطاعهم القسري عن إقامة الحج إبان فترة انفصال الحجاز لمدة تسع سنوات عن الخلافة الأموية سبب للسلطة في دمشق حرجًا شديدًا حول شرعية خلافتهم لذلك حرص خلفاء بني أمية أن يقودوا الحج بأنفسهم فقد قاد الحج خمسة من خلفائهم هم معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان والوليد بن

(1) الطبري: تاريخ، ج5، ص296.

(2) الجزيري: الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج، وطريق مكة المعظمة، ط1؛ درر الفرائد: 217/1.

(3) الماوردي: الأحكام السلطانية: 108.

(4) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، 269.

عبد الملك وسليمان بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك. وأنابوا في بعض السنوات إخوانهم أو أبنائهم. وقد اتضح من الجداول المرفقة أن خلفاء بني أمية وإخوانهم وأبنائهم تولوا إمارة الحج ما يقارب من أربعين عاماً. وأنابوا عنهم من أبناء عموماتهم من أبناء أبي العاص بن أمية أو من أصهارهم من بني مخزوم أو من ثقيف أكثر من ستة وثلاثين عام وتركوا لكبار القادة في دولتهم من القبائل الموالية لهم قيادة الحج قرابة عشر سنوات.

وفي ذلك إشارة بليغة إلى أهمية الحجاز بالنسبة للدولة الأموية والحرص على عدم تكرار ما حدث في بداية قيام الدولة من حركات مناهضة لها. في نفس الوقت فقد حرص خلفاء بني أمية وأثناء تواجدهم في الحجاز من إيلاء المنطقة جل اهتمامهم ورعايتهم بالعمارة والعناية وتقريب أعيانه من كبار أبناء الصحابة والتابعين وغيرهم من العلماء وإظهار الاهتمام بتفقد أحوالهم والإغداق عليهم بالعطايا والهبات.

وقد برز دور الأمويين في العناية بالحجاز في مواسم الحج، وذلك من خلال إنفاقهم على الحجيج ومرافق الحج، وسياستهم الحازمة في تأمين سلامة الحجيج وقوافل الحجاج.

ومن المهام المناطة بالخليفة تسيير الحجيج من عمله، ومن سلكه من غير أهله حتى يتوجهوا معانين عليه⁽¹⁾، وإذا حج الخليفة يتولى إمارة الحج، وتدبير شؤون الحجاج بنفسه⁽²⁾. خاصة وأن هذا المنصب يزيد من مكانته، ويدعم مركزه عند المسلمين فهذا معاوية أقام الحج بنفسه وأرسل ولي عهده يزيد في عام (44هـ) و(50هـ) و(51هـ)⁽³⁾، وغالباً ما يتولى والي الحجاز مهمة إمارة الحج⁽⁴⁾.

(1) الماوردي: الأحكام السلطانية، 195-197، ج1، الجداول رقم 10، 11، 12، 12، 16.
(2) الجزيري: الدررالفرائد المنظمة في أخبار الحجاج، وطريق مكة المعظمة، أعده للنشر: حمد خسرو: الرياض: دار اليمامة، 1403هـ، ط1، 1/257.

(3) خليفة بن خياط: تاريخ ابن خياط، 1/258، 250، 220.

(4) لما آلت الخلافة لبني أمية، واتخذوا من دمشق عاصمة لدولتهم، وغدت المركز الرئيس الذي تصدر منه الأوامر السياسية والاقتصادية والإدارية للدولة، مما أدى إلى صعوبة إمارة الحج للخلفاء الأمويين، وذلك لبعدهم عن مركز الخلافة لأيام عديدة، فكان عليهم وضع أمير للحج، يتصف بصفات يجب توافرها بأمر الحج، كأن يكون مطاعاً، ذارياً، وشجاعاً، وهيباً، وهدياً، وأن يكون عالماً بمناسك الحج وأحكامه، عارفاً بمواقيته وأيامه. الماوردي: الأحكام السلطانية، 1/195-197.

وكان الخلفاء يقصدون من اهتمامهم بطرق الحج، وسياستهم الحازمة تجاه اللصوص وقطاع الطرق تأمين سلامة الحجيج وهم وفد الرحمن لتأدية فريضته وإشاعة الراحة والأمن والاستقرار في ربوع الدولة الإسلامية.

ويبدو أن العلاقة بين معاوية رضي الله عنه وأهل الحجاز كانت طيبة وقوية والأدلة على ذلك كثيرة نذكر منها:

مسارعة أبناء الحجاز لتلبية نداء الجهاد الذي أعلنه معاوية رضي الله عنه عام 48هـ - 688م فقد تسابق المدنيون بصفة خاصة وشكلوا حضوراً كبيرة في الحملة التي أرسلت لحصار القسطنطينية حيث إستشهد الصحابي المشهور أبو أيوب الأنصاري⁽¹⁾.

وشارك في هذه الحملة أيضاً كل من الحسين بن علي، وعبدالله بن الزبير، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن عمر، وغيرهم من أبناء الصحابة⁽²⁾، وتسابق أبناء المدينة مرة أخرى عندما شاركوا بفرقة كاملة كان لها دور كبير في فتح المغرب⁽³⁾.

ومن المواقف الدالة على الوفاق والانسجام الذي كان بين معاوية وأهل الحجاز أن الحسن بن علي بن أبي طالب وبعد تنازله عن الخلافة لمعاوية إنه كان يطوف معه⁽⁴⁾.

وكان أنس بن مالك قد وافق على إختيار معاوية له لتولي منصب القضاء في مدينة البصرة⁽⁵⁾.

وأبقى معاوية زيداً بن ثابت في منصبه كرئيس للقضاء والفتوى في المدينة

(1) ابن هشام: السيرة، ج1، ص196. المسعودي: مروج الذهب، ج3، ص32؛ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج1، ص186؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج3، ص259. أبو أيوب الأنصاري هو (خالد بن زيد الذي نزل عنده الرسول عليه الصلاة والسلام عندما هاجر إلى المدينة وأقام عنده حتى إكتمل بناء المسجد والحجرات الخاصة به عليه الصلاة والسلام. ابن هشام: السيرة، ج1، ص196.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج3، ص239؛ ابن خلدون: العبر، ج3، ص20.

(3) اليعقوبي: كتاب البلدان، ص327؛ أبو المحاسن (جمال الدين يوسف بن تغري بردي بن عبدالله الطاهري الجويني: النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، القاهرة: المؤسسة المصرية للتأليف والنشر، 1383هـ/1963م، ج1، ص139.

(4) ابن كثير: البداية والنهاية، ج8، ص137.

(5) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج3، ص251؛ الدينوري: الأخبار الطوال، ص225.

هذا المنصب الذي تولاه منذ خلافة عثمان بن عفان فلم يعزله معاوية ولم يستعفيه بل ظل في منصبه حتى وفاته⁽¹⁾.

وحفظ معاوية لأمهات المؤمنين أزواج النبي عليه الصلاة والسلام قدرهن بتفقد أحوالهن وإرسال الأموال فكانت السيدة عائشة رضي الله عنها تستقبل ما يصلها منه ولا ترده⁽²⁾.

وكان معاوية رضي الله عنه يبعث بالأموال إلى الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب وإلى عبدالله بن الزبير بن العوام رضي الله عنهم وغيرهم من أبناء الصحابة لا يقل عطاء أحدهم من ألف درهم فيأخذها ويقبلونها منه⁽³⁾.

وكذلك هناك علاقات صداقة قديمة بين معاوية وبعض أقرانه من أبناء المدينة حافظ عليها معاوية فاستمرت حتى بعد تولية الخلافة فلم يشغله الحكم عنهم ولم ينساهم فهذا صديقه عبدالله بن جعفر بن أبي طالب كان يسافر إلى الشام من أجل زيارة صديقه معاوية فيستقبله ويقدر له ذلك⁽⁴⁾.

وكان معاوية شديد التواضع خاصة مع المدنيين للدرجة التي يشاركون فيها موائدهم أثناء زيارته للمدينة خاصة الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب وعبدالله بن جعفر وغيرهم⁽⁵⁾.

ولعل ذلك يوضح لنا حسن العلاقات بين معاوية والمدنيين وينفي وجود أي خلاف شخصي بينهم مما يؤكد رضاهم به خليفة. حيث استمرت العلاقات هكذا قوية ومتينة بين معاوية بن أبي سفيان وأهل الحجاز خاصة المدنيين، ولكن قراراً أصدره معاوية أدى إلى وجود فئة ترفض ذلك القرار وتعلن رأيها بوضوح وصراحة ولم يشكل ذلك مشكلة في عهد معاوية وإن كان له أثره السلبي فيما بعد، وكان ذلك القرار يتعلق بأمر الخلافة، لمن تكون بعد وفاة معاوية؟

(1) ابن سعد: الطبقات، ج 2، ص 360.

(2) المسعودي: أنساب الأشراف، ص 218.

(3) ابن كثير: البداية والنهاية، ج 8، ص 137.

(4) ابن كثير: البداية والنهاية، ج 9، ص 33.

(5) ابن خلدون: العبر، م 3، ص 261.

المطلب الثاني: أثر تنظيمات الحج على الأوضاع الأمنية خارج المدن:

وقد تنبه المسلمون منذ وقت مبكر إلى العناية بطرق الحج وسلامة الحجيج وقوافلهم، فمنذ العهد النبوي الشريف وعهد الخلفاء الراشدين كان مصدر إمرة الحج وموردها تؤمن من مكة المكرمة والمدينة المنورة، إذ كان الخلفاء يجهزون الحجيج ومن ثم كانت ولايتهم الحاج، وبعد انتقال الخلافة إلى بني أمية، وكانت الشام دار ملكهم، كانت الإمرة تنطلق منها، ولقد حرص الخلفاء على توجيه ركب الحاج في موعده واختيار أميره، ويمكن استخلاص واجبات أمير الحج حسب ما ورد لدى بعض المصادر بأنها تدور حول توفير شروط الأمن والراحة وتأمين الماء والطعام لركب الحاج، وتأدية العبادة والشعائر، وتحديد المنازل للراحة والإقامة⁽¹⁾.

سعى الخلفاء والأمراء إلى العناية بطرق الحج وتمهيدها والتخفيف من قسوتها وإصلاحها، وأمروا بحفر الآبار وبناء المنازل وتحقيق كل ما فيه راحة الحجيج، كما اهتم الخلفاء بسلامة الحجيج وتأمين قوافلهم، بتعقب قطاع الطرق واللصوص الذين كانوا يغيرون على الحجاج وقوافلهم، لإلقاء القبض عليهم والاقتصاص منهم.

ومنذ عهد الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم وطرق الحج تلقى العناية من الخلفاء والمسؤولين، ذكر الطبري أن عمر بن الخطاب قدم مكة عام (17هـ/638م)، وفي الطريق طلب منه أهل المياه أن يسمح لهم بإنشاء المنازل على طول الطريق بين مكة والمدينة - ولم يكن قبل ذلك بناء - فسمح عمر لهم بذلك على أن يكون ابن السبيل أحق بالظل والماء⁽²⁾، كما حفر أبو موسى الأشعري والي البصرة آبار على طول طريق البصرة - مكة، وذلك عام (17هـ/638م)⁽³⁾، وفي خلافة عثمان بن عفان تم حفر عيون للماء في منطقة فيد⁽⁴⁾.

(1) الأزرقي: أخبار مكة، ج2، ص151.

(2) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج2، ص69.

(3) ياقوت: معجم، ج2، ص275.

(4) الحربي: المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق: حمد الجاسر الرياض:

1389هـ/196م، ص309.

أما في عهد بني أمية، فقد أولى الخلفاء الأمويون اهتماماً بطرق الحج وسلامتها، فذكرت المصادر أن الوليد بن عبد الملك كتب إلى عمر بن عبدالعزيز والي المدينة في تسهيل الثنايا وحفر الآبار بالمدينة كما كتب إلى جميع عماله على البلدان بعمل الآبار بطرق الحجاز⁽¹⁾، وذكر القلقشندي أن الوليد أول خليفة انشأ علامات المسافات على الطرق فكان «أول من بنى الأميال في الطرقات»⁽²⁾.

وتابع عمر بن عبدالعزيز أعمال الوليد بن عبد الملك في إصلاح الطرق وتوفير أسباب الراحة فيها، حيث أمر ببناء الخانات على الطرقات للمسافرين، فقد كتب إلى والي خراسان، سليمان بن أبي السري أن يبني الخانات على الطرقات ويطعم المسافرين، ويعتني بدوابهم، ويقدم الخدمة للمرضى منهم، ويدفع النفقات لتأمين سفر المنقطعين منهم إلى أهلهم⁽³⁾.

كما كان لهشام بن عبد الملك اهتماماً بطريق الحج ما بين الشام ومكة، فذكر المسعودي أن هشام أنشأ القنوات والبرك على طريق الشام المؤدية إلى مكة؛ لسد حاجة الحاج من الماء، حيث «اتخذ القني والبرك بطريق مكة»⁽⁴⁾، أما عن عناية الخلفاء والولاة بسلامة الحجيج فلقد تشددوا في تأمين سلامة الحجيج وقوافلهم، وحمایتهم من الصعوبات المتعلقة بأمان الطريق، من ذلك اعتداءات الأعراب على قوافل الحج ونهبها وقتل أفرادها، حيث كان الخلفاء يأمرهم بتعقب اللصوص وقطاع الطرق، الذين كانوا يغيرون على الحجيج وقوافلهم، فعندما عين سعيد بن عثمان والياً على خراسان عام (56هـ/675م)، قام بالقبض على بعض الأعراب من تميم، الذين كانوا يقطعون الطرق على الحجاج ببطن فلج⁽⁵⁾، وذكر الفاكهي أن مروان بن الحكم أول من أرسل إلى الخلفاء بسلامة الحاج بمنى وعرفة ومكة⁽⁶⁾، وأظهر عبد الملك بن مروان موقفاً حازماً من قطاع الطرق الذين يتعرضون للحجاج، فذكر الأصفهاني

(1) الطبري: تاريخ الرسل الملوك، ج6، ص533، المقرئ: الذهب المسبوك، ص60.

(2) القلقشندي: أحمد بن علي (ت820هـ/1217م)، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تح.

عبد الستار أحمد فراج، بيروت: عالم الكتب، 1962م، ط1، ج1، ص136.

(3) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج6، ص567؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص60.

(4) المسعودي: مروج الذهب، ج3، ص217.

(5) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج5، ص305-306، وبطن فلج واد يسلك من طريق

البصرة إلى اليمامة ومنها إلى مكة، وفلج اسم لبلد على هذا الوادي. بطوطة: معجم، ج2،

ص272.

(6) الفاكهي: أخبار مكة، ج3، ص215.

أن مجموعة من قطاع الطرق أغاروا على أحد الحجاج وقتلوه وهو في طريقه إلى الحج، فكتب عبد الملك إلى واليه على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي وإلى ولاته الآخرين على بعض المدن، يلح عليهم بالبحث عن هؤلاء القتلة حتى تم القبض عليهم والقصاص منهم»⁽¹⁾.

ومن المخاطر الطبيعية التي كانت تواجه الحاج الفيضانات التي سببت خسارة فادحة في الأموال والممتلكات، فكانت مكة تعاني أحيانا من السيول الجارفة في بعض مواسم الحج، حيث أشارت المصادر إلى العديد من السيول التي أصابت مكة⁽²⁾، وكان أشد هذه السيول دماراً وترويعاً للحجاج سيل الجحاف والذي حدث في موسم الحج عام (80هـ/699م) يوم التروية، فذهب بمتاع الناس ومالههم وهدم الدور وقتل الهدم ناسا كثيرا، وكان هذا السيل في عهد عبد الملك بن مروان فكتب عبد الملك إلى والي مكة يأمره بعمل ضفائر للدور الشارعة على الوادي، وضفائر للمسجد وعمل الردم على أفواه السكك لتحسين دور الناس، وبعث لعمل⁽³⁾ ذلك رجلا نصرانيا فاتخذ الضفائر وردم الردم الذي يعرف بردم بني قراد، وهو يعرف ببني جمح، واتخذ ردم بأسفل مكة⁽⁴⁾.

واهتم الخلفاء بسلامة الحجيج عند مغادرتهم لمكة بعد انقضاء المواسم، فقد كتب عمر بن عبدالعزيز الى واليه على مكة يأمره بأن يوقد النار ويضع المصابيح في طرقات مكة للحجاج عند رحيلهم، وأن يحرسوهم حتى لا يتعرضوا للسرقة⁽⁵⁾.

الحجاز في عهد عبد الملك بن مروان من (86-65هـ/685 - 705م)؛

تولى عبد الملك بن مروان الخلافة بعد والده ووضع أمامه خطة تتمثل في القضاء على ما تبقى لابن الزبير من نفوذ، فبدأ عبد الملك أعماله العسكرية من أجل إعادة الوحدة للدولة بالاستيلاء على الحجاز أولاً فأرسل قواته والتي

(1) الأصفهاني: الأغاني، ج21، ص257-267.

(2) أهم هذه السيول هي: سيل الجحاف، والمخبل، وأبو شاكر، حول هذه السيول وأثرها، الأزرقى: أخبار مكة، ج2، ص167-168؛ الفاكهي: أخبار مكة، ج3، ص102-106؛ البلاذري: الفتوح، ص61-62؛ الطبري: تاريخ، ج6، ص325.

(3) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج6، ص325؛ الأزرقى: أخبار مكة، ج2، ص168؛ ابن قتيبة: المعارف، ص201؛ الفاكهي: أخبار مكة، ج3، ص105-106؛ البلاذري: الفتوح، ص61؛ اليعقوبي: تاريخ، ج2، ص277.

(4) البلاذري: فتوح، ص61؛ الأزرقى: أخبار مكة، ج2، ص169؛ الفاكهي: أخبار مكة، ج3، ص113.

(5) الأزرقى: أخبار مكة، ج2، ص172؛ الفاكهي: أخبار مكة، ج3، ص115-116.

تمكنت من دخول المدينة وأخذ البيعة من أهلها لعبدالمك⁽¹⁾، ويبدو أن أهل المدينة لم يكن لهم خلاف فيمن تكون له الخلافة عبدالمك أم ابن الزبير تحركت قوات عبدالمك بعد ذلك في طريقها إلى مكة حيث يقيم عبدالله بن الزبير لكن قابلتها قوات ابن الزبير وحقت عليها نصراً كبيراً نسبة للمساعدة العسكرية التي وصلت من البصرة للدفاع عن مكة⁽²⁾، ومن ثم صرف عبدالمك النظر مؤقتاً عن الحجاز بعد تلك الهزيمة التي منيت بها قواته فحاول أن يتخلص من خطر التوابين الذين ظهروا مرة أخرى للانتقام من الأمويين فتحرك بقواته إلا أنه وقبل أن يصل العراق أتته الأنباء بانتصار التوابين وقتلهم لعبيدالله بن زياد عام (66هـ/685م)⁽³⁾.

شغلت تلك الحوادث والهزائم عبدالمك وجعلته يتوقف عن محاربة الزبيريين وذلك للاستفادة من الوقت في استعادة قواه ووضع خطط جديدة تمكنه من تحقيق هدفه المنشود ألا وهو الاستيلاء على مناطق نفوذ الزبيريين، ترك عبدالمك الفرصة لابن الزبير فأصبحت الأحوال مستقرة له خاصة أنه لم يفكر في أي عمل عسكري ضد عبدالمك، وأعطى كل زمنه للإصلاح الإداري فقام بالكثير من الأعمال منها التوسعة في المسجد الحرام فأصبحت مساحته أربعين ومائتين وثلاثة آلاف ذراع⁽⁴⁾.

واهتم بأمر الشرب فحفر العديد من الآبار في مكة كما اهتم بالجانب الزراعي فأنشأ البساتين من ماله الخاص وشجع أصحاب الأموال لاستثمارها في المجال الزراعي خاصة في ضواحي مكة لتوفير الحبوب والخضروات⁽⁵⁾، وعمل على تخطيط الطرق بهدم بعض المنازل وذلك لاستقامتها بين الأحياء، واهتم بالبريد والأمن العام وخاصة في الأسواق فقد عين لها بعض المشرفين⁽⁶⁾.

أعد عبدالمك جيشاً وأوكل قيادته إلى الحجاج بن يوسف الثقفي للتوجه نحو الحجاز؛ للقضاء على حركة عبدالله بن الزبير، وقد أوصاه عبدالمك بعدة

(1) ابن قتيبة: الإمامة، ج1، ص18.

(2) ابن قتيبة: الإمامة، ج1، ص19.

(3) المسعودي: مروج الذهب، ج2، ص112؛ ابن خلدون: العبر، ج3، ص29.

(4) الأزرقي: أخبار مكة، ج1، ص133؛ السيوطي: الحافظ جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر: تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، ط2، مصر: مطبعة السعادة، 1378هـ/1959م، ص212.

(5) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ج1، ص126.

(6) الأزرقي: أخبار مكة، ج1، ص133.

أمور لا يمكن تجاوزها وهي عدم التعرض للكعبة سواء بالقتال فيها أو رميها بالحجارة أو هتك استارها بل عليه محاربة ابن الزبير اقتصادياً بغرض الحصار عليه لكي يضطر للاستسلام⁽¹⁾.

تحرك الحجاج من الشام مواصلاً مسيره حتى توقف في الطائف حيث مسقط رأسه وعشيرته وبقي فيها لمدة شهر واتخذها معسكراً لقواته طيلة هذه الفترة⁽²⁾ وتمكن من دخول المدينة والتي لم يستطيع واليها مقاومة الحجاج فسلمت له وأخذ البيعة من أهلها لعبدالمك سواء كان ذلك طوعاً كما فعل عبدالله بن عمر وأبناؤه أو كرها من الآخرين⁽³⁾.

توجه الحجاج بعد ذلك قاصداً مكة وعسكر في عرفة وحاصر مكة واستمر على ذلك لمدة سبعة أشهر قلت خلالها المواد الغذائية وارتفعت أسعارها حتى أصبح ثمن المد من الذرة حوالي عشرين درهماً⁽⁴⁾.

أدى ذلك الحصار وطول مدته إلى إقناع الكثيرين بعدم جدوى الحرب فتسللوا وقابلوا الحجاج مبايعين لعبدالمك بعد أن ضمن لهم الحجاج سلامة أنفسهم فحاول عروة بن الزبير إقناع أخيه عبدالله بضرورة التسليم للحجاج ولكنه لم يوافق على ذلك كما لم يجبره على الاستمرار معه⁽⁵⁾.

دخلت قوات الحجاج بعد ذلك مكة واشتبكت مع قوات ابن الزبير رضي الله عنه رغم قتلها وقد كان ابن الزبير يأتي والدته أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما يستشيرها في الأمر هل يستسلم أم يستمر في الدفاع عن نفسه ومبده فكانت تترك له حرية الاختيار فواصل دفاعه حتى انتهى به إلى اللاستشهاد وكان ذلك في شهر جمادى الأولى عام (73هـ / 692م)⁽⁶⁾.

نسبة لطول مدة الحصار لم يلتزم الحجاج بالأمر الصادر من عبدالمك بعدم

(1) نفس المصدر، ج2، ص190.

(2) المسعودي: مروج الذهب، ج3، ص119.

(3) أبو الفدا: المختصر، ج1، ص196.

(4) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج3، ص191.

(5) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ص191.

(6) ابن الجوزي: الحافظ جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن عبيد الله بن جعفر: صفة الصفوة، تحقيق: محمود فاخر، حلب: دار الوعي، 1969م، ج1، ص77؛ أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر بن عاصم النمري القرطبي المالكي: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج2، ص295.

القتال في البيت الحرام مما حدي به إلى تجديد بناء الكعبة قبل مغادرته للحجاز⁽¹⁾.

بعد انتهاء الحجاج من مهمته العسكرية جمع له عبدالمك ولآيتي الحجاز، وقد اتصف الحجاج بالشدة في إدارته وربما جاء اختيار عبدالمك له في هذا الوقت بالذات لأن الوضع في الحجاز كان يتطلب وجود شخص حازم يستطيع ضبط الأمور بعد القضاء على نظام ابن الزبير، ولكن الحجاج لم يجانبه التوفيق في التعامل مع بعض الشخصيات الهامة، فأساء التصرف مع أنس بن مالك حينما اتهمه الحجاج بموالاتة الخوارج، فشكاه الناس إلى عبدالمك والذي أزعه هذا التصرف فكتب إلى الحجاج لائماً وأمرأ اياه بالاعتذار لأنس بن مالك بالطريقة التي ترضيه⁽²⁾، وقد وجه الحجاج اتهاماً آخر إلى عبدالله بن عمر بأنه يرغب في الخلافة إلا أن ابن عمر نفي عن نفسه هذا الاتهام⁽³⁾.

استمر الحجاج والياً على الحجاز ولم يتنفس أهله الصعداء إلا عام (75هـ/694م) حينما قام عبدالمك بنقل الحجاج إلى العراق فعادت المنطقة ولايتين كما كانت من قبل فاختر عبدالمك لولاية المدينة يحي بن عبدالمك بن العاص، ومن بعده ابان بن عثمان بن عفان وأخيراً هشام بن إسماعيل المخزومي⁽⁴⁾.

أما ولاته على مكة والطائف فهم مسلمة بن عبدالمك بن مروان، الحارث بن خالد المخزومي، خالد بن عبدالله القسري، نافع بن علقمة الكناني، ويحيى بن الحكم بن العاص⁽⁵⁾.

هدأت الأحوال بعد ذلك في الحجاز واستكان الناس لعبدالمك بن مروان وحاول الجميع تناسي خلافاتهم لا سيما آل الزبير فقد تصالحوا مع عبدالمك، فهذا عروة بن الزبير يذهب إلى الشام لمقابلة ومبايعة عبدالمك، فيقدر له ذلك ويحسن معاملته⁽⁶⁾.

(1) الدينوري: الأخبار الطوال، ص316.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية، ط9، ص65.

(3) ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج1، ص568.

(4) ابن خلكان: وفيات الأعيان: ج2، ص22.

(5) ابن سعد: الطبقات، ج هـ، ص113.

(6) الدينوري: الأخبار الطوال، ص316.

لم تظهر أي معارضة لعبدالمالك في الحجاز إلا في آخر عهده حينما أوصى بالخلافة من بعده لابنيه الوليد وسليمان على التوالي إذ اعترض على ذلك الفقيه العالم سعيد بن المسيب والذي تصدى له والي المدينة وأصدر حكماً عليه بالجلد⁽¹⁾.

عين الوليد في عهده عمر بن عبدالعزيز عام (87هـ/706م) والياً على المدينة خلفاً لهشام بن إسماعيل المخزومي الذي كان قاسياً في إدارته⁽²⁾، وقام بحاسبة إبني هشام وهما إبراهيم ومحمد لأنهما كانا قد استقلا نفوذ والدهما فأخذوا حقوق الناس⁽³⁾.

يذكر أن عمر بن عبدالعزيز لما جاءه كتاب التعيين لم يكن ليفرح لأن الأمر بالنسبة له تكليفاً وليس تشريفاً، بل شرط على قبول الأمر عدم التدخل في سياساته فوافق الوليد على ذلك بل وشجعه على العمل بالحق وإن لم يدفع له درهماً واحداً⁽⁴⁾، ويتضح من ذلك أن الوليد لا يهتم بالحصول على الأموال بقدر ما يهتم بالإصلاح والاستقرار.

تحرك عمر بن عبدالعزيز لاستلام مهامه بالمدينة فخرج أهلها لاستقباله مستبشرين بقدمه⁽⁵⁾، حاول منذ وصوله كسب ثقة أهل المدينة وقد نجح في ذلك بالسماح لهم بالمشاركة في إدارة ولايتهم وذلك عن طريق مجلس الشورى الذي كونه عمر واختار لعضويته فقهاء المدينة وعلمائها وهم سليمان بن يسار، سعيد بن المسيب، أبوبكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي، خارجة بن زيد بن ثابت الأنصاري، القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق وسالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب، وقد أوضح لهم منذ اجتماعه الأول بهم أن مهمتهم الأساسية تتمثل في تقديم النصح والإرشاد بالإضافة للتبليغ الفوري إذا ما حدث أي ظلم من عماله كما أنه سوف لن يصدر أمراً إلا بعد استشارتهم وموافقتهم⁽⁶⁾.

(1) ابن سعد: الطبقات، ج5، ص13.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية، ج9، ص71.

(3) مؤلف مجهول: العيون والحداثق، ج3، ص127.

(4) الطبري: الرسل والملوك، ج5، ص256.

(5) الطبري: الرسل والملوك، ج5، ص256.

(6) الطبري: المصدر نفسه، ج5، ص257؛ ابن خلدون: العبر، م3، ص60؛ ابن كثير: البداية،

ج9، ص192. أبو الفداء: المختصر، ج2، ص116.

تمكن عمر بن عبدالعزيز من إعادة المدينة إلى سيرتها الأولى -أمن واستقرار- حتى لقد لقبه أهلها بالرجل الصالح مما جعل الوليد يضم إليه مكة فأصبحت الحجاز ولاية واحدة تحت إدارته⁽¹⁾.

نسبة للأمن الذي شهدته منطقة الحجاز فقد شاع خبره في سائر أرجاء الدولة الإسلامية فأصبح ملاذاً للكثيرين لاسيما أهل العراق فراراً من سياسات الحجاج فبدأ الحجاج اتصالاته المكثفة بالوليد بن عبدالمك مملفتاً نظره إلى قدوم العراقيين وايوائهم بالحجاز ربما يعطي الفرصة لمجموعات أكبر مما يخل بالأمن الداخلي فالج الحجاج على الوليد حتى قام بإعفاء عمر من منصبه عام (93هـ/711م)⁽²⁾، وقام الوليد بعد ذلك بإرجاع الحجاز ولايتين كما كانتا من قبل فعين لولاية المدينة خالد بن عبدالله القسري وولاية مكة عثمان بن حيان⁽³⁾.

وكان ولاة عمر بن عبدالعزيز بالحجاز ممن عرفوا بالتقوى والصلاح فأبقى أبابكر بن محمد بن حزم في منصبه كوالي للمدينة، واختار لولاية مكة محمد بن طلحة بن عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق⁽⁴⁾.

شهد عهد عمر بن عبدالعزيز أمن ورخاءاً في كل أنحاء الدولة ففي هذه جمدت أموال الزكاة إذ انعدم مستحقوها فأصبحوا لا حاجة لهم بها⁽⁵⁾، بفضل سياسته الناجحة فقد كان حريصاً على تفقد أحوال رعيته عن طريق ولاته وعماله الذين انتقاهم بعناية خاصة فخلص الحجاز من أي مشاكل سياسية أو مالية فجاءه في كتاب من المدينة المنورة فيه: (الظالم فيها مقهور والمظلوم منصور والغني موفور والعائل مجبور)⁽⁶⁾.

خلف يزيد بن عبدالمك ابن عمه عمر بن عبدالعزيز حسب وصية سليمان بن عبدالمك، وفيما يتعلق بالأحوال في الحجاز إبان عهده فنجد له لم يجانبه

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، ج9، ص82.

(2) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج5، م256.

(3) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج5، ص256.

(4) الصفدي، صلاح الدين الصفدي: أمراء دمشق في الإسلام، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دمشق: مطبوعات المجمع العلمي العربي، 1955م، ص55.

(5) الذهبي: تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، ص17.

(6) ابن الحكم: أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله، (ت257هـ)، سيرة عمر بن عبدالعزيز، تحقيق: أحمد عبيد، بيروت: (1387هـ)، ص135.

الصواب حينما قام بعزل ولاة عمر بالحجاز وجعل المنطقة ولاية واحدة فولي عليها عبدالرحمن بن قيس بن الضحاك الفهري، الذي كان سيء السيرة فكرهه الناس وشكوه إلى يزيد فاستجاب لرغبتهم فعزله بعد أن أصدر أمراً باعتقاله ومحاسبته فحكم عليه بالغرامة المالية ثم السجن حتى أصبح فيما بعد يسأل الناس المساعدة⁽¹⁾.

أما خلفه عبدالواحد النضري فقد كان حسن السيرة كسب ثقة الناس فأحبوه وقد اقتدى هذا الوالي بعمر بن عبدالعزيز إبان ولايته للحجاز فجعل له مستشارين من فقهاء المدينة خاصة سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق⁽²⁾.

الحجاز في عهد هشام بن عبدالملك بن مروان (125-105هـ/723-742م)؛

توفي يزيد بن عبدالملك عام 105هـ/723م وخلفه أخوه هشام بن عبدالملك والذي استمرت خلافته لمدة عشرين عاماً إلا بضع أشهر - بدأ هشام عهده بكثير من الإصلاحات خاصة في مجال الزراعة - والذي أولى منطقة الحجاز عناية خاصة فقام بحفر العديد من القنوات والبرك في طريق مكة⁽³⁾.

واقتنى هشام بعمر بن عبدالعزيز برد أملاك الغير التي صودرت لأسباب سياسية أو غيرها فأصدر أمراً بإرجاع المنازل التي كانت ملكاً لعبدالله بن الزبير في مصر فأمر بردها لمستحقيها⁽⁴⁾، وأجرى تغييراً إدارياً في الحجاز فعزل عبدالواحد النضري واستبدله بإبراهيم بن هشام المخزومي⁽⁵⁾.

تعرضت منطقة الحجاز في عهد مروان بن محمد آخر خلفاء الدولة الأموية إلى غزو من الخوارج تحت ستار الدعوة إلى عودة الخلافة إلى البيت العلوي عندما دخلتها قواتهم عام (129هـ / 746م) بقيادة المختار بن عوف أبو حمزة الخارجي⁽⁶⁾، وكان أبو حمزة يأتي المدينة كل عام أثناء موسم الحج فيدعو الناس للخروج على الأمويين حتى التقى عام

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج5، ص367.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص52.

(3) ابن سعد: الطبقات، ج2، ص182.

(4) ابن عبدالحكم: فتوح مصر والمغرب، ص159.

(5) ابن خلدون: العبر، ج3، ص139؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج9، ص232.

(6) ابن خلدون: العبر، ج3، ص167.

(128هـ/745م) — عبدالله بن يحيى بن زيد المعروف «بطالب الحق» والمقيم باليمن فصحبه معه إلى هناك حيث بايعه أبوحزمة على الخلافة فتعهد له بالاستيلاء على الحجاز فدخل المدينة عام (129هـ/746م) ولم يستطع والي الحجاز عبدالواحد بن سليمان بن عبدالعزيز التصدي لهؤلاء الخوارج فولي هاربا⁽¹⁾.

عاث الخوارج فساداً في المدينة إذ قتلوا عدداً كبيراً من أهلها فهب مروان لإنقاذهم فأعد جيشاً أوكل قيادته إلى عبدالملك بن محمد بن عطية السعدي والذي تمكن من تحرير الحجاز من سيطرة الخوارج وتعقب قائدهم إلى أن تمكن من قتله ثم تحرك حتى قضى على طالب الحق نفسه⁽²⁾، واسترد مروان بذلك منطقة الحجاز فولي عليها محمداً بن عبدالملك بن مروان⁽³⁾.

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص186.

(2) الطبري: الرسل والملوك، ج9، ص119.

(3) المسعودي: التنبيه، ص299.

المبحث الثاني

أثر التنظيمات على علاقات الحجاز مع بلدان الحجيج

المطلب الأول: العراق ومن يمر به من الحجاج:

تنبه المسلمون منذ وقت مبكر إلى العناية بطرق الحج وسلامة الحجيج وقوافلهم، فمنذ العهد النبوي الشريف وعهد الخلفاء الراشدين كان مصدر إمرة الحج وموردها تؤمن من مكة المكرمة والمدينة المنورة، إذ كان الخلفاء يجهزون الحجيج، وغالباً ما كان ينتدب لإمارة الحج أحد الصحابة المشهورين بالعلم والكفاية، وقد تسير قافلة الحج تحت إمرة الخليفة نفسه، أو ينيب عنه أحد كبار رجال الدولة من خاصته⁽¹⁾.

نذكر في هذا السياق سعي الخلفاء والأمراء إلى العناية بطرق الحج وتمهيدها والتخفيف من قسوتها وإصلاحها، وأمروا بحفر الآبار وبناء المنازل وتحقيق كل ما فيه راحة الحجيج، كما اهتم الخلفاء بسلامة الحجيج وتأمين قوافلهم، بتعقب قطاع الطرق واللصوص الذين كانوا يغيرون على الحجاج وقوافلهم، لإلقاء القبض عليهم والاقتصاص منهم.

وتعتبر طرق المواصلات مظهراً من مظاهر الحضارة، ودليلاً على قوة الدولة وأهمية موقعها، ونظراً لأهمية الحج وطرقه، تناول هذا المبحث وصفاً لأهم طرق الحج التي تربط الجزيرة العربية والعراق والشام ومصر بالديار الحجازية المقدسة.

فكانت قوافل الحجاج تختار من الطرق أسرها وأكثرها أمناً، بعيداً عن سطوة اللصوص وقطاع الطرق، وكذلك يختارون الطرق التي تتواجد على مساراتها مصادر المياه اللازمة لهم ولرواحلهم بشكل أساسي.

تبدأ رحلة الحج من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة عبر طريق أولى محطاته

(1) انظر ملحق رقم جدول أمراء الحج في العصر الأموي.

هي ذو الحليفة (الشجرة)⁽¹⁾، والتي تبعد مسافة ستة أميال⁽²⁾، جنوب المدينة، وتوجد فيها آبار وبرك⁽³⁾ ماء تغطي حاجة القوافل المارة عبرها من المياه، ومنها يبدأ الحاج المدني بالإحرام، وإلى الجنوب منها وعلى بعد ستة أميال⁽⁴⁾ أيضاً تصل القوافل إلى موقع الحفير⁽⁵⁾، وإلى الجنوب من هذا بمسافة ستة أميال أخرى تحط الرحال في محطة ملل ذات الآبار الكثيرة⁽⁶⁾ للراحة والتزود بالماء، وتستمر الرحلة وبعد مسير سبعة أميال⁽⁷⁾ حيث موقع السيالة⁽⁸⁾ التي تكثر فيها آبار المياه⁽⁹⁾، وعلى بعد أحد عشر ميلاً⁽¹⁰⁾ منها تصل القوافل محطة الروحاء⁽¹¹⁾ حيث السوق التجاري الصغير وآبار المياه⁽¹²⁾، وبعد ثلاثة

(1) ورد ذكر هذا المكان باسم ذو الحليفة، عند اليعقوبي: معجم البلدان، ص313؛ الحربي: المناسك، ص225. وورد هذا المكان باسم الشجرة عند ابن رسته: الأعلاق، ص177؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص112؛ قدامة: أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد (ت328هـ وقيل 337هـ)، الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق: محمد حسين الزبيدي، بغداد: دار الحرية للطباعة، 1981م، ص80، سيشار إليه لاحقاً: قدامة: الخراج، الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص122.

(2) ابن خرداذبة: المسالك، ص112؛ ياقوت: معجم، ج2، ص295. وذكر اليعقوبي أنها تبعد عن المدينة أربعة أميال، وذكر الحربي أنها تبعد عن المدينة خمسة أميال ونصف. والميل: يساوي 200 ذراع شرعية = 1/3 فرسخ = حوالي 2 كم. هنتس، فالتر، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ط2، ترجمة: كامل العسلي، عمان: منشورات الجامعة الأردنية، د.ت، ص95.

(3) ابن قدامة: كتاب الخراج، دى غوى ليدن: (1889م)، ص80.

(4) الحربي: المناسك، ص220. ورد هذا الموضع لدى اليعقوبي تحت اسم الحفيرة، ولم يرد ذكر له لدى ابن رسته وابن خرداذبة وقدامة والإدريسي.

(5) الحربي: المناسك، ص220.

(6) المصدر نفسه، ص221؛ قدامة: الخراج، ص80؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص112؛ البكري: معجم ما استعجم، ج2، ص1256؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص122.

(7) الحربي: المناسك، ص221؛ البكري: معجم ما استعجم، ج2، ص1256. ورد لدى ابن خرداذبة وقدامة تسعة عشر ميلاً، ولدى الإدريسي سبعة عشر ميلاً.

(8) اليعقوبي: البلدان، ص313؛ الحربي: المناسك، ص221؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص112؛ قدامة: الخراج، ص80؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص122.

(9) الحربي: المناسك، ص223؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص112؛ قدامة: الخراج، ص80؛ البكري: معجم ما استعجم، ج3، ص770؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص122.

(10) الحربي: مناسك، ص223. ورد لدى البكري اثنا عشر ميلاً، ج3، ص770.

(11) اليعقوبي: البلدان، ص312؛ الحربي: مناسك، ص223؛ البكري: معجم ما استعجم، ج3، ص770.

(12) ابن رسته: الأعلاق، ص178.

عشر ميلاً⁽¹⁾ من الروحاء باتجاه مكة تقع الرويثة، التي تعمر وتزدهر أيام الحج وفيها أربعة برك⁽²⁾، ومن الرويثة إلى العرج أربعة عشر ميلاً⁽³⁾، وفي العرج آبار كثيرة⁽⁴⁾، ومن العرج إلى السقيا⁽⁵⁾ سبعة عشر ميلاً⁽⁶⁾، وفي السقيا بساتين ونخل⁽⁷⁾ وآبار كثيرة⁽⁸⁾، وتستمر الطريق من السقيا إلى الأبواء⁽⁹⁾ سبعة عشر ميلاً⁽¹⁰⁾، والأبواء هذه قرية قريبة من البحر⁽¹¹⁾ وفيها آبار كثيرة⁽¹²⁾ ومنها إلى الجحفة⁽¹³⁾ بعد مسافة ثلاثة وعشرون ميلاً⁽¹⁴⁾، وفي الجحفة سوق وماؤها من الآبار⁽¹⁵⁾، ومن الجحفة إلى قيد⁽¹⁶⁾ أربعة وعشرون

- (1) الحربي: المناسك، ص225، وورد لدى قدامة والإدريسي أن ركب الحاج ينتقل من السيالة إلى الرويثة ولم يذكروا الروحاء.
- (2) ابن رسته: الأعلاق، ص178؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص112؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص122.
- (3) اليعقوبي: البلدان، ص312؛ الحربي: مناسك، ص227-228؛ ابن رسته: الأعلاق، ص178؛ البكري: معجم ما استعجم، ج3، ص930.
- (4) الحربي: مناسك، ص228.
- (5) اليعقوبي: البلدان، ص312؛ الحربي: مناسك، ص228؛ ابن رسته: الأعلاق، ص178؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص112، ولم يرد ذكر لموضع العرج عند قدامة والإدريسي.
- (6) الحربي: المناسك، ص228؛ البكري: معجم ما استعجم، ج3، ص931.
- (7) ابن رسته: الأعلاق، ص178؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص112؛ قدامة: الخراج، ص80؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص122.
- (8) الحربي: المناسك، ص251؛ البكري: معجم ما استعجم، ج3، ص723.
- (9) اليعقوبي: البلدان، ص312؛ الحرب:، المناسك، ص251؛ ابن رسته: الأعلاق، ص178؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص112؛ قدامة: الخراج، ص80؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص122.
- (10) الحربي: مناسك، ص251؛ ورد لدى ابن خرداذبة: تسعة وعشرون ميلاً.
- (11) ابن رسته: الأعلاق، ص178.
- (12) المصدر نفسه، ص178؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص112؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص122.
- (13) اليعقوبي: البلدان، ص312؛ الحربي: المناسك، ص252؛ ابن رسته: الأعلاق، ص178؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص112؛ قدامة: الخراج، ص81؛ وعشرون ميلاً.
- (14) الحربي: المناسك، ص252. ورد لدى ابن خرداذبة وقدامة والإدريسي سبعة وعشرون ميلاً.
- (15) ابن رسته: الأعلاق، ص178؛ قدامة: الخراج، ص81.
- (16) اليعقوبي: البلدان، ص312؛ الحربي: المناسك، ص257؛ ابن رسته: الأعلاق، ص178؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص112؛ قدامة: الخراج، ص81؛ الإدريسي: نزهة المشتاق ج1، ص122.

ميلاً⁽¹⁾، والقديد قرية كثيرة السكان، خصبة⁽²⁾ وماؤها من الآبار⁽³⁾ أيضاً، ومن قديد إلى عسفان⁽⁴⁾ ثلاثة وعشرون ميلاً⁽⁵⁾، وفي عسفان آبار كثيرة⁽⁶⁾، ومن عسفان إلى بطن مرا⁽⁷⁾ ثلاثة وعشرون ميلاً⁽⁸⁾، وبطن مر قرية كثيرة السكان والنخل والزرع وفيها برك⁽⁹⁾، وهي المحطة الأخيرة قبل الوصول إلى مكة⁽¹⁰⁾ بثلاثة عشر ميلاً⁽¹¹⁾.

الطريق من العراق إلى مكة :

يبدأ هذا الطريق من مدينة الكوفة، حيث تتجمع فيها قوافل الحجاج من العراق ومن جميع المدن والقرى المجاورة لها والتي تقع شرقي العراق⁽¹²⁾ ومن الكوفة ينتقل ركب الحاج إلى القادسية⁽¹³⁾ وبينهما خمسة

(1) الحربي: المناسك، ص257. ورد لدى ابن خراذبة سبعة وعشرون ميلاً، وورد لدى

قدامة والإدريسي ستة وعشرون ميلاً.

(2) ابن رسته: الأعلام، ص178؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص121-122.

(3) اليعقوبي: البلدان، ص312؛ الحربي: المناسك، ص260؛ ابن رسته: الأعلام، ص178؛

قدامة: الخراج، ص81.

(4) اليعقوبي: البلدان، ص312؛ الحربي: المناسك، ص259؛ ابن رسته: الأعلام، ص178؛ ابن

خرادذبة: المسالك، ص112-115؛ قدامة: الخراج، ص81؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص122.

(5) الحربي: المناسك، ص259، ورد لدى ابن خراذبة وقدامة والإدريسي أربعة وعشرون

ميلاً.

(6) ابن رسته: الأعلام، ص178؛ ابن خراذبة: المسالك، ص115؛ قدامة: الخراج، ص81؛

البكري: معجم ما استعجم، ج3، ص923؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص121.

(7) الحربي: المناسك، ص263؛ ابن رسته: الأعلام، ص178؛ ابن خراذبة: المسالك، ص115؛

قدامة: الخراج، ص81؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص121.

(8) الحربي: المناسك، ص263. ورد لدى قدامة ستة وعشرون ميلاً، ولدى ابن خراذبة

والإدريسي ثلاثة وثلاثون ميلاً.

(9) ابن رسته: الأعلام النفسية تحقيق: لدى غوى، ليدن: 1891م، ص178؛ قدامة: الخراج،

ص81.

(10) الحربي: المناسك، ص265؛ ابن رسته: الأعلام، ص178؛ ابن خراذبة: المسالك، ص115؛

قدامة: الخراج، ص81؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص121.

(11) الحربي: المناسك، ص265. ورد لدى ابن خراذبة وقدامة والإدريسي ستة عشر ميلاً.

ص72.

(12) جزيري: درر الفرائد، م2، ص72.

(13) اليعقوبي: البلدان، ص311؛ ابن رسته: الأعلام، ص172-175؛ ابن خراذبة: المسالك،

ص110؛ قدامة: الخراج، ص78؛ الجزيري: درر الفرائد، م2، ص72.

عشر ميلاً⁽¹⁾، ومن القادسية إلى العذيب⁽²⁾ بعد مسافة تسعة أميال⁽³⁾، ومن العذيب إلى المغيثة⁽⁴⁾ أربعة وعشرين ميلاً⁽⁵⁾، والمغيثة تكثر فيها البرك⁽⁶⁾، ومن المغيثة إلى القرعاء⁽⁷⁾ اثنان وثلاثون ميلاً⁽⁸⁾، والقرعاء تكثر فيها الآبار⁽⁹⁾، ويورد الجزيري عدة محطات على طريق الحاج العراقي لم يرد ذكرها في المصادر المتقدمة، حيث ذكر أنه بعد محطة العذيب ينتقل الحاج إلى الرحبة ثم إلى سلمى⁽¹⁰⁾، وتذكر المصادر المتقدمة أنه بعد القرعاء ينتقل ركب الحاج إلى الواقصة⁽¹¹⁾ والمسافة بينهما أربعة عشر ميلاً⁽¹²⁾، الواقصة كثيرة السكان⁽¹³⁾ وماؤها من البرك والآبار⁽¹⁴⁾ من الواقصة إلى العقبة⁽¹⁵⁾، تسعة وعشرون ميلاً⁽¹⁶⁾،

(1) ابن رسته: الأعلام، ص 172-175؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 110؛ قدامة: الخراج، ص 78.

(2) ابن رسته: الأعلام، ص 175؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 110؛ قدامة: الخراج، ص 78؛ الجزيري: درر الفرائد، م 2، ص 72. ورد عند اليعقوبي أن المحطة التي تلي القادسية هي المغيثة ولم يذكر العذيب.

(3) ابن رسته: الأعلام، ص 175؛ ورد عند قدامة أن المسافة بينهما ستة أميال.

(4) ابن رسته: الأعلام، ص 175؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 110-111؛ قدامة: الخراج، ص 78؛ بطوطة: معجم، ج 5، ص 162.

(5) ابن خرداذبة: المسالك، ص 111؛ ورد عند قدامة أن المسافة بينهما أربعة عشر ميلاً.

(6) ابن رسته: الأعلام، ص 175؛ قدامة: الخراج، ص 78.

(7) اليعقوبي: البلدان، ص 311؛ ابن رسته: الأعلام، ص 175؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 111؛ قدامة: الخراج، ص 78.

(8) ابن رسته: الأعلام، ص 175؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 111؛ قدامة: الخراج، ص 78.

(9) ابن رسته: الأعلام، ص 175؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 111؛ قدامة: الخراج، ص 78.

(10) الجزيري: درر الفرائد، م 2، ص 72. لم ترد هذه المواقع عند اليعقوبي وابن رسته وابن خرداذبة.

(11) اليعقوبي: البلدان، ص 311؛ ابن رسته: الأعلام، ص 175؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 111؛ قدامة: الخراج، ص 78-79.

(12) ابن رسته: الأعلام، ص 175؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 111؛ قدامة: الخراج، ص 79.

(13) ابن رسته: الأعلام، ص 175.

(14) المصدر نفسه، ص 175؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 111.

(15) اليعقوبي: البلدان، ص 311؛ ابن رسته: الأعلام، ص 175؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 111؛ قدامة: الخراج، ص 79.

(16) ابن رسته: الأعلام، ص 175؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 111؛ قدامة: الخراج، ص 79.

والعقبة فيها آبار وبرك⁽¹⁾، ومن العقبة إلى القاع⁽²⁾ أربعة وعشرون ميلاً⁽³⁾، والقاع قليلة الماء وفيه بئر⁽⁴⁾، ومن القاع إلى زباله⁽⁵⁾ أربعة وعشرون ميلاً⁽⁶⁾، وزباله عامرة كثيرة السكان وفيها سوق⁽⁷⁾ وماؤها كثير⁽⁸⁾، ومن زباله إلى الشقوق⁽⁹⁾ أحد وعشرين والشقوق⁽¹⁰⁾ فيها برك وآبار⁽¹¹⁾، ومن الشقوق إلى البطان (البطانية)⁽¹²⁾ تسعة وعشرون ميلاً والبطان تكثر فيها البرك⁽¹³⁾، ومن البطان إلى الثعلبية⁽¹⁴⁾ تسعة وعشرون ميلاً⁽¹⁵⁾، والثعلبية مدينة عليها سور وفيها حمامات وسوق ومسجد جامع وماؤها من البرك⁽¹⁶⁾، ومن الثعلبية إلى الخزيمية⁽¹⁷⁾ اثنان وثلاثون ميلاً⁽¹⁸⁾ والخزيمية

- (1) ابن رسته: الأعلاق، ص 175؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 111؛ قدامة: الخراج، ص 79.
(2) اليعقوبي: البلدان، ص 311؛ ابن رسته: الأعلاق، ص 175؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 111، قدامة: الخراج، ص 79.
(3) ابن رسته: الأعلاق، ص 175؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 111؛ قدامة: الخراج، ص 79.
(4) ابن رسته: الأعلاق، ص 175؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 111.
(5) اليعقوبي: البلدان، ص 311؛ ابن رسته: الأعلاق، ص 175؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 111؛ قدامة: الخراج، ص 79.
(6) ابن رسته: الأعلاق، ص 175؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 111؛ قدامة: الخراج، ص 79.
(7) ابن رسته: الأعلاق، ص 175.
(8) ابن رسته: الأعلاق، ص 175.
(9) اليعقوبي: البلدان، ص 311؛ ابن رسته: الأعلاق، ص 175؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 111؛ قدامة: الخراج، ص 79.
(10) ابن رسته: الأعلاق، ص 175؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 111. ورد عند قدامة أن المسافة بينهما ثمانية عشر ميلاً.
(11) ابن رسته: الأعلاق، ص 175؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 111؛ قدامة: الخراج، ص 79.
(12) اليعقوبي: البلدان، ص 311؛ ابن رسته: الأعلاق، ص 175؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 111، لم يرد عند قدامة موضع البطان (البطانية).
(13) ابن رسته: الأعلاق، ص 175؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 111.
(14) اليعقوبي: البلدان، ص 311؛ ابن رسته: الأعلاق، ص 175؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 111.

- (15) ابن رسته: الأعلاق، ص 175؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 111.
(16) ابن رسته: الأعلاق، ص 175.
(17) المصدر نفسه، ص 175؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 111-112؛ ابن قدامة: الخراج، ص 79، لم ترد الخزيمية عند اليعقوبي: والجزيري: كما أن الجزيري أورد عدة محطات لم ترد في المصادر المتقدمة، حيث ذكر أنه بعد الواقعة تأتي خاديت وزرود.
(18) ابن رسته: الأعلاق، ص 175؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 111-112. ورد عند قدامة

أن المسافة بينهما ثلاثة وثلاثون ميلاً.

مدينة عليها سور وفيها منبر وحمام وبرك⁽¹⁾، ثم تأتي الأجر⁽²⁾، والمسافة بين الخزيمية والأجر أربعة وعشرون ميلاً⁽³⁾ والأجر فيها برك وآبار⁽⁴⁾، ومن الأجر إلى فيدا⁽⁵⁾ تسعة وثلاثون ميلاً⁽⁶⁾، وفيه موضع كثير السكان وفيها مسجد وقناة⁽⁷⁾، وأسواق وبرك وعيون⁽⁸⁾، ومن فيد إلى توز⁽⁹⁾ أحد وثلاثون ميلاً⁽¹⁰⁾، وتوز تكثر فيها البرك والآبار⁽¹¹⁾، ومن توز إلى سميراء⁽¹²⁾

عشرون ميلاً⁽¹³⁾ وسميراء فيها آبار وبرك⁽¹⁴⁾ وينتقل ركب الحاج العراقي بعد ذلك من سميراء إلى الحاجر⁽¹⁵⁾ أربعة وثلاثون ميلاً⁽¹⁶⁾، تكثر فيها البرك

(1) قدامة: الخراج، ص 79.

(2) اليعقوبي: البلدان، ص 311-312؛ ابن رسته: الأعلام، ص 176؛ ابن خرداذبة:

المسالك، ص 112؛ قدامة: الخراج، ص 79.

(3) ابن رسته: الأعلام، ص 176؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 112؛ قدامة: الخراج، ص 79.

(4) ابن رسته: الأعلام، ص 176؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 112.

(5) اليعقوبي: البلدان، ص 312؛ ابن رسته: الأعلام، ص 176؛ ابن خرداذبة: المسالك،

ص 112؛ قدامة: الخراج، ص 79.

(6) ابن رسته: الأعلام، ص 176. ورد عند قدامة أن المسافة بينهما ستة وثلاثون ميلاً.

(7) ابن رسته: الأعلام، ص 176.

(8) ابن خرداذبة: المسالك، ص 112.

(9) اليعقوبي: البلدان، ص 312؛ ابن رسته: الأعلام، ص 176؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 112؛

قدامة: الخراج، ص 79. ورد هذا الموضع عند قدامة باسم (ثوز).

(10) ابن رسته: الأعلام، ص 176؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 112؛ ورد عند قدامة أن المسافة

بينهما ثلاثة وثلاثون ميلاً.

(11) ابن رسته: الأعلام، ص 176؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 112؛ قدامة: الخراج، ص 79.

(12) اليعقوبي: البلدان، ص 312؛ ابن رسته: الأعلام، ص 176؛ ابن خرداذبة: المسالك،

ص 112؛ قدامة: الخراج، ص 79؛ معجم ما استعجم، ج 1، ص 322.

(13) ابن رسته: الأعلام، ص 176؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 112. ورد عند قدامة أن المسافة

بينهما ستة عشر ميلاً.

(14) ابن رسته: الأعلام، ص 176؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 112؛ قدامة: الخراج، ص 79.

(15) اليعقوبي: البلدان، ص 312؛ ابن رسته: الأعلام، ص 176؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 112؛

قدامة: الخراج، ص 79. ورد هذا الموضع عند قدامة باسم (الحاجز).

(16) ابن رسته: الأعلام، ص 176. ورد لدى ابن خرداذبة أن المسافة بينهما ثلاثة وثلاثون ميلاً

ولدى قدامة ثلاثة وعشرون ميلاً.

والآبار⁽¹⁾ ومن الحاجر إلى معدن النقرة⁽²⁾ أربعة وثلاثون ميلاً⁽³⁾، ومعدن النقرة فيه آبار⁽⁴⁾، ومن معدن النقرة إلى مغيثة الماوان⁽⁵⁾ أربعة وثلاثون ميلاً⁽⁶⁾، ومغيثة الماوان تكثر فيها البرك والآبار⁽⁷⁾، ومن مغيثة الماوان إلى الربذة⁽⁸⁾ أربعة وعشرون ميلاً⁽⁹⁾، والربذة مأوها كثير وفيها برك وآبار⁽¹⁰⁾، ومن الربذة إلى السليلة⁽¹¹⁾ تسعة وعشرون ميلاً⁽¹²⁾، والسليلة فيها برك وآبار⁽¹³⁾، ومن السليلة إلى العمق⁽¹⁴⁾ أحد وعشرون ميلاً⁽¹⁵⁾، والعمق مأوها من البرك والآبار⁽¹⁶⁾ ومن العمق إلى معدن بني سليم⁽¹⁷⁾ تسعة عشر ميلاً⁽¹⁸⁾، ومعدن بني سليم مأوها

-
- (1) ابن رسته: الأعلاق، ص176؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص112؛ قدامة: الخراج، ص79.
(2) اليعقوبي: البلدان، ص312؛ ابن رسته: الأعلاق، ص176؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص112؛ قدامة: الخراج، ص80.
(3) ابن رسته: الأعلاق، ص176؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص112. ورد عند قدامة أن المسافة بينهما سبعة وعشرون ميلاً.
(4) ابن رسته: الأعلاق، ص176؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص112؛ قدامة: الخراج، ص80.
(5) اليعقوبي: البلدان، ص312؛ ابن رسته: الأعلاق، ص178؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص115؛ قدامة: الخراج، ص80.
(6) ابن رسته: الأعلاق، ص178. ورد لدى ابن خرداذبة أن المسافة بينهما ثلاثة وثلاثون ميلاً، ولدى قدامة سبعة وعشرون ميلاً.
(7) ابن رسته: الأعلاق، ص178؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص115.
(8) اليعقوبي: البلدان، ص312؛ ابن رسته: الأعلاق، ص178-179؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص115؛ قدامة: الخراج، ص80.
(9) ابن رسته: الأعلاق، ص179؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص115؛ قدامة: الخراج، ص80.
(10) ابن رسته: الأعلاق، ص179؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص115؛ قدامة: الخراج، ص80.
(11) اليعقوبي: البلدان، ص312؛ ابن رسته: الأعلاق، ص179؛ ورد لدى ابن خرداذبة وقدامة أن ركب الحاج العراقي ينتقل من الربذة إلى معدن بني سليم.
(12) ابن رسته: الأعلاق، ص179.
(13) ابن رسته: الأعلاق، ص179.
(14) اليعقوبي: البلدان، ص312؛ ابن رسته: الأعلاق، ص179؛ ورد لدى ابن خرداذبة وقدامة أن ركب الحاج ينتقل من معدن بني سليم إلى العمق.
(15) ابن رسته: الأعلاق، ص179.
(16) المصدر نفسه، ص179؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص115.
(17) اليعقوبي: البلدان، ص312؛ ابن رسته: الأعلاق، ص179.
(18) ابن رسته: الأعلاق، ص179.

من البرك⁽¹⁾، ومن معدن بني سليم إلى الأفيعية⁽²⁾ اثنين وثلاثون ميلاً⁽³⁾، والأفيعية عامرة تكثر فيها البرك والآبار⁽⁴⁾، ومن الأفيعية إلى المسلح⁽⁵⁾ ثمان وثلاثون ميلاً⁽⁶⁾، والمسلح كثيرة المياه وفيها آبار وبرك⁽⁷⁾، ومن المسلح إلى الغمرة⁽⁸⁾ ثمانية عشر ميلاً⁽⁹⁾، والغمرة موضع خصب كثير الآبار والبرك⁽¹⁰⁾، ومن الغمرة إلى ذات عرق⁽¹¹⁾ تسع وعشرون ميلاً⁽¹²⁾، وذات عرق منزل كثير السكان وكثير الشجر والماء⁽¹³⁾، ثم ينتقل ركب الحاج العراقي إلى بستان ابن عامر⁽¹⁴⁾ والمسافة بين ذات عرق وبستان ابن عامر اثنان وعشرون ميلاً⁽¹⁵⁾، وبستان ابن عامر كثير الماء⁽¹⁶⁾، ومن بستان ابن عامر إلى مكة⁽¹⁷⁾، والمسافة بينهما أربعة وعشرون ميلاً⁽¹⁸⁾ لقد أورد الجزيري عدة محطات لم توردها المصادر المتقدمة كما لم يذكر محطات أوردتها هذه المصادر، حيث أن الجزيري يذكر أنه بعد منطقة الأجر تاتي مرشيت ثم فنن ثم تخت

- (1) المصدر نفسه، ص179؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص115.
- (2) اليعقوبي: البلدان، ص312؛ ابن رسته: الأعلاق، ص179. ذكر ابن خرداذبة وقدامة أن المحطة التي تلي الربذة هي معدن بني سليم ثم السليبة (لم يذكرها قدامة) ثم العمق.
- (3) ابن رسته: الأعلاق، ص179.
- (4) المصدر نفسه، ص179؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص115.
- (5) اليعقوبي: البلدان، ص312؛ ابن رسته: الأعلاق، ص179؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص115؛ ابن قدامة: الخراج، ص80. ورد عند قدامة باسم (أفياعية).
- (6) ابن رسته: الأعلاق، ص179. ورد لدى قدامة أربعة وثلاثون ميلاً.
- (7) ابن خرداذبة: المسالك، ص115؛ قدامة: الخراج، ص80.
- (8) اليعقوبي: البلدان، ص312؛ ابن رسته: الأعلاق، ص179؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص115؛ قدامة: الخراج، ص80.
- (9) ابن رسته: الأعلاق، ص179؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص115؛ قدامة: الخراج، ص80.
- (10) ابن رسته: الأعلاق، ص179.
- (11) اليعقوبي: البلدان، ص312؛ ابن رسته: الأعلاق، ص179؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص115؛ قدامة: الخراج، ص80.
- (12) ابن رسته: الأعلاق، ص179 ورد عند قدامة أن المسافة بينهما ست وعشرون ميلاً.
- (13) ابن رسته: الأعلاق، ص179.
- (14) اليعقوبي: البلدان، ص312؛ ابن رسته: الأعلاق، ص179؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص115.
- (15) ابن رسته: الأعلاق، ص179؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص115.
- (16) ابن رسته: الأعلاق، ص179؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص115.
- (17) اليعقوبي: البلدان، ص312؛ ابن رسته: الأعلاق، ص179-180؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص115.
- (18) ابن رسته: الأعلاق، ص180؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص115.

سليمان ثم عاج ثم بويرات ثم ذات عرق ثم وادي نخلة ثم مكة⁽¹⁾ وقد يتجه من أراد من الحجاج بعد معدن النقرة إلى المدينة المنورة ومنها يتجه إلى مكة المكرمة⁽²⁾.

المطلب الثاني: الشام ومن يمر به من الحجاج:

يبدأ طريق الحج الشامي من مدينة دمشق⁽³⁾، ثم ينتقل ركب الحاج الشامي إلى الكسوة⁽⁴⁾ ومنها إلى الصنمين⁽⁵⁾، ثم إلى أذرعات (ذات المنازل)⁽⁶⁾، ثم إلى سرغ⁽⁷⁾، وذكر الحربي سبعة مناطق ما بين أذرعات (ذات المنازل) وسرغ وهي: الزرقاء، والقسطل، وقبال، وبالعة، والحفير، ومعان، وذات المثار والمغيثة، ومنها إلى سرغ⁽⁸⁾، ثم ينتقل ركب الحاج الشامي من سرغ إلى تبوك⁽⁹⁾، وتبوك حصن فيه عين ماء وشجر⁽¹⁰⁾، وذكر الجزيري عدة مواقع بين سرغ وتبوك وهي: بصري، والزرقاء، وزياء، والكرك، والحسا، ومعان، والعقبة، وذات حج ثم تبوك⁽¹¹⁾، وذكر الإدريسي عدة مواقع بين ذات المنازل وتبوك وهي: ينوع ثم إلى البثنية ثم إلى دمة ومنها إلى تبوك⁽¹²⁾، ومن تبوك يستمر ركب الحاج إلى المحدث⁽¹³⁾

(1) الجزيري: درر الفرائد، م2، ص72-73.

(2) اليعقوبي: البلدان، ص312؛ ابن رسته: الأعلام، ص176؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص112؛ قدامة: الخراج، ص80.

(3) الحربي: المناسك، ص653؛ ابن رسته: الأعلام، ص183؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص128؛ قدامة: الخراج، ص85؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص376؛ الجزيري: درر الفرائد، م2، ص58.

(4) الجزيري: درر الفرائد، م2، ص58. ذكر ابن رسته وابن خرداذبة والإدريسي أن ركب الحاج يخرج من دمشق ثم إلى منزل ثم إلى منزل آخر (ورد عند الإدريسي باسم دعة) ثم إلى ذات المنازل. ولم يذكر الكسوة عندهم وعند الحربي وقدامة.

(5) الجزيري: درر الفرائد، م2، ص58. وردت لدى الحربي بعد دمشق، ولم يرد ذكرها عند ابن رسته وابن خرداذبة وقدامة والإدريسي.

(6) الحربي: المناسك، ص653. ورد هذا المنزل عند الحربي باسم أذرعات وعند ابن رسته وابن خرداذبة وقدامة والإدريسي باسم ذات المنازل.

(7) ابن رسته: الأعلام، ص183؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص128؛ قدامة: الخراج، ص85.

(8) الحربي: المناسك، ص653.

(9) المصدر نفسه، ص653؛ ابن رسته: الأعلام، ص183؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص128؛

ابن قدامة: الخراج، ص85؛ ياقوت: معجم البلدان، ج3، ص211.212.

(10) ياقوت: معجم البلدان، ج2، ص12.

(11) الجزيري: درر الفرائد، م2، ص59-60.

(12) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص376.

(13) الحربي: المناسك، ص653؛ ابن رسته: الأعلام، ص183؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص128؛

ومن المحدثة إلى الأقرع⁽¹⁾، ثم إلى الجنيثة⁽²⁾، ومنها إلى الحجر⁽³⁾، ثم إلى وادي القرى⁽⁴⁾، وينتقل الراكب بعد ذلك إلى الرحبة أو الرحيبة⁽⁵⁾.

وذكر الحربي أنه بعد منزل أم القرى يأتي موقع السقيا، وهذا الموقع مكان التقاء طريق الحاج المصري والشامي⁽⁶⁾ وعند ابن رسته وابن خرداذبة والإدرسي ينتقل ركب الحاج بعد موقع الرحبة أو الرحيبة إلى ذي المروة، ثم المر ثم السويداء، ثم إلى ذي خشب، ومن ذي خشب إلى المدينة⁽⁷⁾، ومن المدينة إلى مكة يمر ركب الحاج عبر المواقع التي سبق ذكرها. ورد لدى الحربي أن الموقع الذي يلي منزل السقيا هو عتاب ثم المروة ثم إلى المر ثم إلى السويداء ثم إلى الأراك ثم إلى ذي خشب ثم إلى المدينة⁽⁸⁾، وورد لدى الجزيري أن الموقع الذي يلي تبوك هو الغلا ثم هدية ثم عيون حمزة ثم إلى المدينة المنورة⁽⁹⁾.

-
- ابن قدامة: الخراج، ص 85؛ الإدرسي: نزهة المشتاق، ج 1، ص 376.
- (1) الحربي: المناسك، ص 653؛ ابن رسته: الأعلام، ص 183؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 128؛ قدامة: الخراج، ص 85؛ الإدرسي: نزهة المشتاق، ج 1، ص 376.
- (2) الحربي: المناسك، ص 653؛ ابن رسته: الأعلام، ص 183؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 128؛ قدامة: الخراج، ص 85. ورد عند الإدرسي باسم الحنيفة.
- (3) الحربي: المناسك، ص 653؛ ابن رسته: الأعلام، ص 183؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 128، قدامة: الخراج، ص 85؛ الإدرسي: نزهة المشتاق، ج 1، ص 376.
- (4) الحربي: المناسك، ص 653؛ ابن رسته: الأعلام، ص 183؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 128؛ قدامة: الخراج، ص 85. وورد عند قدامة: ينتقل ركب الحاج إلى المدينة ومنها إلى مكة. ورد عند الإدرسي منزل وادي فقط بدون ذكر وادي القرى.
- (5) ابن رسته: الأعلام، ص 183؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 128؛ الإدرسي: نزهة المشتاق، ج 1، ص 376.
- (6) الحربي: المناسك، ص 653.
- (7) ابن رسته: الأعلام، ص 183؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 128؛ الإدرسي: نزهة المشتاق، ج 1، ص 376.
- (8) الحربي: المناسك، ص 650-651.
- (9) الجزيري: درر الفرائد، م 2، ص 63-65.

المطلب الثالث: مصر ومن يمر بها من الحجاج:

ويبدأ هذا الطريق من مدينة الفسطاط⁽¹⁾،⁽²⁾ -القاهرة حالياً-، حيث يتجمع الفسطاط، الحجاج من جميع أمصار شمال إفريقيا والأندلس في وبعد خروج حجاج الركب المصري من مدينة الفسطاط يتجهون إلى الجب⁽³⁾ أو جب عمير⁽⁴⁾ ومن الجب ينتقلون إلى البوي⁽⁵⁾، وذكر ياقوت أنها مدخل أهل الحجاز إلى مصر⁽⁶⁾، وذكر اليعقوبي أنه بعد منطقة الجب ينتقل الحاج إلى منزل يقال له القرقرة⁽⁷⁾، وورد عند الحربي أنه بعد منطقة الجب ينتقل الحاج إلى الحف⁽⁸⁾، وذكر ابن رسته وابن خرداذبة ينتقل الحاج من البويب إلى منزل ابن بندقة⁽⁹⁾ وورد عند الحربي منزل أم سع⁽¹⁰⁾، وعند الإدريسي منزل ابن صدقة⁽¹¹⁾، ولم يرد ذكر لهذا الموضع عند اليعقوبي، والمحطة اللاحقة عند اليعقوبي والحربي وابن رسته وابن خرداذبة وقدامة والإدريسي هي عجرو⁽¹²⁾ ومن عجرو إلى القلزم⁽¹³⁾ وهي مدينة على ساحل البحر يجتمع فيها التجا⁽¹⁴⁾

- (1) الفسطاط: نسبة لفسطاط [خيمة] عمرو بن العاص، حين دخل بلاد مصر لقتال من بها من الروم، واختط عمرو بن العاص منازل العرب حول فسطاطه فسمي ذلك المكان بالفسطاط. بطوطة: معجم، ج2، ص261، 266.
- (2) الحربي: المناسك، ص629؛ ابن رسته: الأعلاق، ص183؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص127؛ ابن قدامة: الخراج، ص82. لم يرد ذكر الفسطاط عند اليعقوبي والإدريسي.
- (3) الحربي: المناسك، ص629؛ ابن رسته: الأعلاق، ص183؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص127؛ قدامة: الخراج، ص82.
- (4) اليعقوبي: البلدان، ص320. ورد عند اليعقوبي أن جب عميرة هو أول منزل يخرج منه ركب الحاج المصري، حيث فيه يتجمع الحاج عند خروجهم.
- (5) ابن رسته: الأعلاق، ص183؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص127؛ قدامة: الخراج، ص82؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص325.
- (6) ياقوت: معجم، ج1، ص512.
- (7) اليعقوبي: البلدان، ص320.
- (8) الحربي: المناسك، ص629.
- (9) ابن رسته: الأعلاق، ص183؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص127.
- (10) الحربي: المناسك، ص629.
- (11) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص325.
- (12) اليعقوبي: البلدان، ص320؛ الحربي: المناسك، ص629؛ ابن رسته: الأعلاق، ص183؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص128؛ قدامة: الخراج، ص82، (ورد عند قدامة باسم عجرون)؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص325.
- (13) اليعقوبي: البلدان، ص320؛ الحربي: المناسك، ص629.
- (14) اليعقوبي: البلدان، ص320.

وذكرت باقي المصادر موضع آخر بعد عجرود واختلفت في صيغته، فورد عند ابن رسته منزل الريثة⁽¹⁾، وعند ابن خرداذبة منزل الذنبة⁽²⁾، وعند قدامة منزل الربيبة⁽³⁾، وعند الإدريسي منزل الدوين⁽⁴⁾، وينتقل ركب الحاج المصري بعد ذلك إلى منزل الكرسي⁽⁵⁾، ومنها إلى موضع يقال له الحفر⁽⁶⁾، ومن الحفر إلى نخل⁽⁷⁾، ويتفق الجميع أن المحطة اللاحقة هي أيلة⁽⁸⁾، ومدينة أيلة تقع على ساحل البحر، يجتمع بها حاج الشام وحاج مصر والمغرب وهي مركز للتجار⁽⁹⁾ ومن أيلة ينتقل ركب الحاج إلى وضع يقال له شرف البعل أو شرف النم⁽¹⁰⁾، وذكرت بعض المصادر موضع آخر وهو الحق⁽¹¹⁾، وينتقل ركب الحاج بعد ذلك إلى مدين⁽¹²⁾ وهي مدينة عامرة بالسكان وتكثر فيها العيون والأنهار

(1) ابن رسته: الأغلاق، ص 183.

(2) ابن خرداذبة: المسالك، ص 128.

(3) قدامة: الخراج، ص 82.

(4) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج 1، ص 325.

(5) الحربي: المناسك، ص 629؛ ابن رسته: الأغلاق، ص 183؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 128؛ قدامة: الخراج، ص 82؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج 1، ص 325. ولم يرد هذا الموضع عند اليعقوبي.

(6) الحربي: المناسك، ص 629؛ ابن رسته: الأغلاق، ص 183؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 128؛ قدامة: الخراج، ص 82؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج 1، ص 325. ورد هذا الموضع عند الإدريسي باسم (الخفر)، ولم يرد عند اليعقوبي.

(7) الحربي: المناسك، ص 629. ورد هذا الموضع عند ابن رسته وابن خرداذبة وقدامة والإدريسي باسم منزل ولم يذكروا اسمه كما لم يرد هذا الموضع عند اليعقوبي.

(8) اليعقوبي: البلدان، ص 320؛ الحربي: المناسك، ص 629؛ ابن رسته: الأغلاق، ص 183؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 128؛ قدامة: الخراج، ص 82؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج 1، ص 325.

(9) اليعقوبي: البلدان، ص 320-321.

(10) المصدر نفسه، ص 321؛ الحربي: المناسك، ص 629؛ ابن رسته: الأغلاق، ص 183؛ قدامة:

الخراج، ص 82.

(11) ابن خرداذبة: المسالك، ص 128؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج 1، ص 325.

(12) اليعقوبي: البلدان، ص 321؛ الحربي: المناسك، ص 629؛ ابن رسته: الأغلاق، ص 183؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 128؛ قدامة: الخراج، ص 82؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج 1، ص 325.

والبساتين والنخل⁽¹⁾، ومن مدين إلى الإغراء⁽²⁾ ومنها إلى منزل لم يذكر اسمه⁽³⁾، وينفرد اليعقوبي بذكر منزل قالس بعد الأغراء⁽⁴⁾، ثم إلى الكلابية أو الكلابية⁽⁵⁾، والمحطة اللاحقة تكون شغب ومنها إلى بـدا⁽⁶⁾، عند الحربي تقديم بدا على شغب⁽⁷⁾، وورد عند الإدريسي موضع شغب باسم شعب⁽⁸⁾، وتكون المحطة اللاحقة هي السرحتين⁽⁹⁾ وورد عند قدامة موضع شعب بني السرحتين⁽¹⁰⁾.

ويبدو أن هنالك تحريف، فكلمة شعب تقابل موضع شغب السالف ذكره، وكلمة بني تقابل بدا السابق ذكرها ثم السرحتين، كما لم يرد موضعا شغب وبدا عند قدامة ويبدو أن قدامة قد جمعها جميعا في موضع واحد (شعب بني السرحتين)، أو أن المصادر سابقة الذكر ذكرتها منفردة ومحرفة. تختلف بعض المصادر في ذكر المواقع المؤدية بالركب إلى المدينة، فذكر اليعقوبي أنه بعد منزل بدا ينتقل الركب إلى السقيا ثم ذي المروة ثم إلى ذي خشب ثم إلى المدينة⁽¹¹⁾.

وذكر الحربي أن الركب ينتقل إلى السقيا ثم إلى عتاب، ومنها إلى المروة ثم إلى المر ثم إلى السويداء، ومنها إلى الأراك، ثم إلى ذي خشب ومنها إلى المدينة⁽¹²⁾.

- (1) اليعقوبي: البلدان، ص 321.
- (2) المصدر نفسه، ص 321؛ ابن رسته: الأعلام، ص 183؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 128؛ قدامة: الخراج، ص 82؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج 1، ص 325. ورد هذا الموضع عند الإدريسي بلفظ (الأغراء)، وورد عند الحربي بلفظ (الأغراء)، وأورد الحربي موضع بين مدين والأغراء لم يرد عند المصادر الأخرى وهو (فالس).
- (3) ابن رسته: الأعلام، ص 183؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 128؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج 1، ص 325. لم يرد هذا الموضع عند اليعقوبي والحربي وقدامة.
- (4) اليعقوبي: البلدان، ص 321.
- (5) الحربي: المناسك، ص 650؛ ابن رسته: الأعلام، ص 183؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 128؛ قدامة: الخراج، ص 82؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج 1، ص 325. ورد هذا الموضع عند الإدريسي باسم (الكلابية) ولم يرد عند اليعقوبي.
- (6) اليعقوبي: البلدان، ص 321؛ ابن رسته: الأعلام، ص 183؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 128. لم يذكر قدامة هذين الموضعين.
- (7) الحربي: المناسك، ص 650.
- (8) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج 1، ص 325.
- (9) الحربي: المناسك، ص 650؛ ابن رسته: الأعلام، ص 183؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 128. ولم يرد ذكر لهذا الموضع عند الإدريسي.
- (10) قدامة: الخراج، ص 82.
- (11) اليعقوبي: البلدان، ص 321.
- (12) الحربي: المناسك، ص 650-651.

ويتفق ابن رسته وابن خرداذبة وقدامة والإدريسي في ذكر المحطات المؤدية بالركب إلى المدينة، فذكروا أن الركب ينتقل بعد السرحتين إلى البيضاء، ثم إلى وادي القرى، ومنها إلى الرحبة أو الرحبية، ثم إلى ذي المروة، ثم إلى المر لم ترد عند قدامة، ثم إلى السويداء، ثم إلى خشب، ومنها إلى المدينة⁽¹⁾.

ثم ينتقل الركب من المدينة إلى مكة مروراً بالمواقع التي سبق ذكرها. وقد يعبر ركب الحاج طريق الساحل إلى مكة من منتصف الطريق سابق الذكر ولا تتفق المصادر المتقدمة التي أوردت هذا الطريق في ذكرها المنازل التي يعبرها الحاج أو ترتيبها، حيث يظهر الاختلاط واضحاً في ذكر هذه المنازل بين المصادر⁽²⁾.

فورد لدى اليعقوبي أن ركب الحاج ينطلق من مدين لمن أراد طريق الساحل إلى عينونا، ومنها إلى العونيد، ثم إلى الصلا، ثم إلى النبك، ومنها إلى القصيبة ثم إلى البحرة، ثم إلى المغنية، ثم إلى ظبة، ثم إلى الوجه ومنها إلى منحوس ثم إلى الحوراء، ثم إلى الجار، ثم إلى الجحفة ثم إلى قديد ثم إلى عسفان، ثم إلى بطن مر ومنها إلى مكة⁽³⁾.

وبداية هذا الطريق عند الحربي من أيلة، ثم إلى عينونا، ثم إلى المصلى، ثم إلى النبك، ومنها إلى ظبة، ثم إلى المرة، ثم إلى عونيد، ومن عونيد إلى الوجه، ثم إلى منحوس، ثم إلى الحوراء، ثم إلى قصيبة، ومنها إلى البحرة، ثم إلى ينبع، ثم إلى منزل لم يذكر اسمه ثم إلى منزل آخر، ثم إلى الجار ومنه إلى المدينة، ويتجه منها إلى مكة⁽⁴⁾.

ويبدأ هذا الطريق عند قدامة من شرف ذي النمل إلى الصلا، ثم إلى النبك، ومنها إلى ضبة ثم إلى عوتيد، ثم إلى الرحبة، ثم إلى منحوس، ومنها إلى التحريم، ثم إلى الإحساء، ثم إلى ينبع، ثم إلى مسؤلان، ثم إلى الجار ومنها إلى المدينة، ومنها يتجه ركب الحاج إلى مكة⁽⁵⁾.

وذكر الإدريسي أن أيلة بداية هذا الطريق ومنها إلى الحقل ثم مدين ثم الحوراء ثم الجار ثم قديد ثم عسفان ثم بطن مر ثم مكة⁽⁶⁾.

(1) ابن رسته: الأعلاق، ص 183؛ ابن خرداذبة: المسالك، ص 128؛ قدامة: الخراج، ص 82؛

الإدريسي: نزهة المشتاق، ج 1، ص 325.

(2) انظر جدول رقم (5).

(3) اليعقوبي: البلدان، ص 321.

(4) الحربي: المناسك، ص 651-652.

(5) قدامة: الخراج، ص 85.

(6) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج 1، ص 326.

وذكر ابن رسته طريقاً آخر من مصر إلى مكة عبر البحر الأحمر، عن طريق أسوان، فذكر أن الطريق يبدأ من سوان إلى العلاقي، ومنها إلى الساحل، ثم إلى جدة ومن جدة إلى مكة المكرمة⁽¹⁾.

المطلب الرابع: اليمن ومن يمر به من الحجاج:

وتضم حجيج اليمن والهند وماليزيا وأندونيسيا، وينضم إليها حجاج الحبشة والصومال والأفارقة الذين يصلون إلى مصوع وسواكن وموانئ اليمن.

يبدأ هذا الطريق من صنعاء مروراً بصعدة، ويسلك المناطق الجبلية لمنطقة عسير، والحجاز ماراً بالقرب من موقع جُرش، ثم يتجمع إلى بيشة، وتبالة، وتربة، حتى يصل قرن المنازل، فمكة المكرمة. وهو ذات الطريق الذي استخدم في الأزمنة القديمة للتجارة⁽²⁾.

المطلب الخامس: عمان، البحرين، واليمامة ومن مر بها من الحجاج:

أغلب مراحل طريق حج البحرين اليمامة تتبع التضاريس الطبيعية، وتسلك مساراته أسهل الطرق ملتفة حول الجبال، أو سائرة عبر الكثبان الرملية وبطون الأودية الجافة، ويحدد مساره نقاط توزيع مصادر المياه من برك وآبار حتى يلتقي بطريق الحج البصري الذي نال عناية وافية من قبل خلفاء بني العباس فطالت منافعه حجاج بلاد البحرين واليمامة، ويبين لنا ابن رسته طريق الحج ويقول بأنه يخرج الحاج من البحرين إلى بلاد اليمامة، ومنها تصل إلى ضرية الواقعة على طريق الحج البصري ثم إلى مكة وبعد انقضاء الموسم يفترق حجاج البصرة والبحرين عند ضرية فيتجه حجاج البحرين ذات اليمين، وحجاج البصرة ذات الشمال⁽³⁾.

ويزودنا الإدريسي بذكر للمحطات التي يعبرها الحجاج، وحدد المسافة بين كل محطة وأخرى بالمرحلة، ورتبها على النحو التالي ابتداء من اليمامة: العرض، الحذيفة، الثنية، السفراء صداء القريتين وهي المحطة الواقعة على طريق حاج البصرة ومنها يتحد المسارات في طريق واحد، ويمر على محطة

(1) ابن رسته: الأعلاق، ص183.

(2) القطوري: أحمد، مجلة حراء، ص35.

(3) ابن رسته: الاعلاق النفيسة، ص186.

رامة، ثم طحفة، ضربة، جديلة، فلجة، الرقية، قباء مران، وجرة، أوطاس، ذات عرق، ثم إلى بستان ابن عامر بمكة المكرمة⁽¹⁾.

وقامت على امتداد مسارات طرق الحج من البحرين واليمامة مرورا بتجد حتى المدينة المنورة ومكة المكرمة عددا من المدن التي تحمل خلفيات مختلفة، فمنها ما قامت على توفر الموارد مائية ومناطق الزراعة والرعي، وبعضها قام بناء على الموقع المتميز على شبكة الطرق التجارية.

مدينة حجر: مما جاء في كتاب العبر لابن خلدون، أن قبيلة بني هوازن كانت أول من سكن إقليم اليمامة، وأن حجرا كانت مركزا له، ثم قدمت قبيلة عنيزة بعد هوازن، وشهدت حجر ازدهارا كبيرا خلال حكم بني حنيفة واتخذ منها العرب سوقًا سنويا كانت تقام في شهر محرم⁽²⁾.

القريتان: هما إحدى نقاط طريق الحج البصري تسميان (أبوي)⁽³⁾، كان يمر بهما حجاج البحرين واليمامة، وهما قريتان في أرض القصيم⁽⁴⁾؛ أحدهما بناها عبدالله بن عامر بن كريز، والأخرى بناها جعفر بن سليمان⁽⁵⁾. توجد عيون كثيرة بالمحطة، وتنتشر في أرجائها بساتين النخيل، وقد أحاط جعفر بن سليمان قريته بحصن وسماها العسكرة. غير أن مياه القريتين غير عذبة؛ لذلك كان الأهالي يجلبون مياه الشرب من ماء تسمى العنيزة على بعد ميلين من القريتين، وماء العنيزة تقع في بطن وادي بطن رمة وهي لبني عامر بن كريز⁽⁶⁾، وعلى بعد⁽⁹⁾ أميال من القريتين ماء عجلز، وهو ينتصف الطريق بين البصرة ومكة، أقيم عليها بركة وآبار، وبني عندها مسجدا⁽⁷⁾.

(1) الإدريسي: نزهة المشتاق، ص186.

(2) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، 7/44.

(3) ياقوت: المعجم، 1/80.

(4) القصيم موضع دو عضا فيه مياه كثيرة وقرى، لغذاء بلاد العرب. ص340.

(5) الحربي: المناسك، ص588.

(6) الحربي: المناسك، ص589، بطن رمة، واد عظيم يدفع عن يمين فلجة والدينية حتى يمر بين إبانين الأبيض والأسود (جيلان). والرمة تجيء من الغور والعجاز فاعلى الرمة لأهل المدينة وبني سليم ووسطها لبني كلاب وغطفان، وأسفلها لبني أسد وعبس ثم ينقطع في رمل العيون» بطول: المعجم 3/74.

(7) حربي: المناسك، ص9.

مران: هي من مياه حرة كشب تقع في واد كثير المياه والأشجار، كان يمر عليه طريق حج البصرة القديم، وهو قاعدة لقبيلة، بني هلال بن عامر، وذكر الحربي بأن المحطة محصنة وبها منبر وبها ناس كثير.

ومنذ عهد الخلفاء الراشدين وطرق الحج تلقى العناية من الخلفاء والمسؤولين، ذكر الطبري أن عمر بن الخطاب قدم مكة عام (17هـ/638م)، وفي الطريق طلب منه أهل المياه أن يسمح لهم بإنشاء المنازل على طول الطريق بين مكة والمدينة - ولم يكن قبل ذلك بناء - فسمح عمر لهم بذلك على أن يكون ابن السبيل أحق بالظل والماء⁽¹⁾، كما حفر أبو موسى الأشعري والي البصرة آبار على طول طريق البصرة - مكة، وذلك عام (17هـ/638م)⁽²⁾، وفي خلافة عثمان بن عفان تم حفر عيون للماء في منطقة فيد⁽³⁾.

أما في عهد بني أمية، فقد أولى الخلفاء الأمويون اهتماماً بطرق الحج وسلامتها، وبدأ الاهتمام بطرق الحج عام (91هـ/709م)، فذكرت المصادر أن الوليد بن عبد الملك كتب إلى عمر بن عبدالعزيز والي المدينة في تسهيل الثنايا وحفر الآبار بالمدينة كما كتب إلى جميع عماله على البلدان بعمل الآبار بطرق الحجاز⁽⁴⁾، وذكر القلقشندي أن الوليد أول خليفة أنشأ علامات المسافات على الطرق فكان «أول من بنى الأميال في الطرقات»⁽⁵⁾.

وتابع عمر بن عبدالعزيز أعمال الوليد في إصلاح الطرق وتوفير أسباب الراحة فيها، حيث أمر ببناء الخانات على الطرقات للمسافرين، فقد كتب إلى والي خراسان، سليمان بن أبي السري أن يبني الخانات على الطرقات ويطعم المسافرين، ويعتني بدوابهم، ويقدم الخدمة للمرضى منهم، ويدفع النفقات لتأمين سفر المنقطعين منهم إلى أهلهم⁽⁶⁾.

كما كان هشام بن عبد الملك اهتماماً بطريق الحج ما بين الشام ومكة، فذكر المسعودي أن هشام أنشأ القنوات والبرك على طريق الشام المؤدية إلى مكة؛ لسد

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج2، ص69.

(2) ياقوت: معجم البلدان، ج2، ص275.

(3) الحربي: المناسك، ص309.

(4) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج6، ص237؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج2، ص533؛ المقرئزي: الذهب المسبوك، ص60.

(5) القلقشندي: أحمد بن علي (ت820هـ/1217م)، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج، بيروت: عالم الكتب، 1962م، ط1، ج1، ص136.

(6) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج6، ص567؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص60.

حاجة الحاج من الماء، حيث «اتخذ القني والبرك بطريق مكة⁽¹⁾، وكان هشام من بين أوائل الخلفاء الأمويين الذين كان لهم اهتمامات بإنشاء القصور المزودة بالحدائق الغناء والمياه الوفيرة، وخزانات المياه، وحفر القنوات والآبار، واشتهرت منشآته بروعتها وبجمالها الأخاذ التي لا يزال بعضها قائما في شرق الأردن، وبادية الشام وبلدان أخرى⁽²⁾.

وأشار الراشد إلى ما أسفرت عنه الاكتشافات الأثرية الحديثة فيما يتعلق بأعمال هشام بن عبدالمك على الطرق المؤدية إلى الجزيرة العربية، حيث عثر بالوادي القريب من القرية القديمة المسماة (ريمة حازم) والتي تقع على 7 كم من بلدة السويداء، على لوح حجري عليه خمسة أسطر بالخط الكوفي البسيط تشير إلى بناء بركة للمياه، وهذه البركة تقع على الطريق من دمشق باتجاه الجزيرة العربية، ويروي النقش أن هذه البركة بنيت بأمر من الخليفة هشام⁽³⁾.

أما عن عناية الخلفاء والولاة بسلامة الحجيج فلقد تشددوا في تأمين سلامة الحجيج وقوافلهم، وحمائتهم من الصعوبات المتعلقة بأمان الطريق، من ذلك اعتداءات الأعراب على قوافل الحج ونهبها وقتل أفرادها، حيث كان الخلفاء يأمرهم بتعقب اللصوص وقطاع الطرق، الذين كانوا يغيرون على الحجيج وقوافلهم، فعندما عين سعيد بن عثمان واليا على خراسان عام (56هـ/675م)، قام بالقبض على بعض الأعراب من تميم، الذين كانوا يقطعون الطرق على الحجاج ببطن فلج⁽⁴⁾، وذكر الفاكهي أن مروان بن الحكم أول من أرسل إلى الخلفاء بسلامة الحاج بمنى وعرفة ومكة⁽⁵⁾، وأظهر عبدالمك بن مروان موقفا حازما من قطاع الطرق الذين يتعرضون للحجاج، فذكر الأصفهاني أن مجموعة من قطاع الطرق أغاروا على أحد الحجاج وقتلوه وهو في طريقه إلى الحج، فكتب عبدالمك إلى واليه على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي وإلى ولاته الآخرين على بعض المدن، يلح عليهم

(1) المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص217.

(2) سعد عبدالعزيز الراشد: درب زبيدة (طريق الحج من الكوفة إلى مكة المكرمة)، الرياض: دار الوطن للنشر والإعلام، 1993م، ط1، ص38.

(3) المرجع نفسه، ص39.

(4) الطبري: تاريخ، ج5، ص305-306، وبطن فلج واد يسلك من طريق البصرة إلى اليمامة ومنها إلى مكة، وقلج اسم لبلد على هذا الوادي. بطوطة: معجم، ج2، ص272.

(5) الفاكهي: أخبار مكة، ج3، ص215.

بالبحث عن هؤلاء القتلة حتى تم القبض عليهم والقصاص منهم»⁽¹⁾.

ومن المخاطر الطبيعية التي كانت تواجه الحاج الفيضانات التي سببت خسارة فادحة في الأموال والممتلكات، فكانت مكة تعاني أحيانا من السيول الجارفة في بعض مواسم الحج، حيث أشارت المصادر إلى العديد من السيول التي أصابت مكة⁽²⁾، وكان أشد هذه السيول دماراً وترويعاً للحجاج سيل الجحاف والذي حدث في موسم الحج عام (80هـ/699م) يوم التروية، فذهب بمتاع الناس ومالهم وهدم الدور وقتل الهدم ناسا كثيرا، وكان هذا السيل في عهد عبدالمك بن مروان فكتب عبدالمك إلى والي مكة يأمره بعمل ضفائر للدور الشارعة على الوادي، وضمفائر للمسجد وعمل الردم على أفواه السكك لتحسين دور الناس، وبعث لعمل⁽³⁾ ذلك رجلا نصرانيا فاتخذ الضفائر وردم الردم الذي يعرف بردم بني قراد، وهو يعرف ببني جمح، واتخذ ردم بأسفل مكة⁽⁴⁾.

واهتم الخلفاء بسلامة الحجيج عند مغادرتهم لمكة بعد انقضاء المواسم، فقد كتب عمر بن عبدالعزيز الى واليه على مكة يأمره بأن يوقد النار ويضع المصابيح في طرقات مكة للحجاج عند رحيلهم، وأن يحرسوهم حتى لا يتعرضوا للسرقة⁽⁵⁾.

وأخيراً، كان الخلفاء يقصدون من اهتمامهم بطرق الحج، وسياستهم الحازمة تجاه اللصوص وقطاع الطرق تأمين سلامة الحجيج وهم وفد الرحمن لتأدية فريضته وإشاعة الراحة والأمن والاستقرار في ربوع الدولة الإسلامي

(1) الأصفهاني: الأغاني، ج21، ص257-267.

(2) أهم هذه السيول هي: سيل الجحاف، والمخبل، وأبو شاكر، حول هذه السيول وأثرها، الأزرقى: أخبار مكة، ج2، ص167-168؛ الفاكهي: أخبار مكة، ج3، ص102-106؛ البلاذري: الفتوح، ص61-62؛ الطبري: تاريخ، ج6، ص325.

(3) الطبري: تاريخ، ج6، ص325. الأزرقى: أخبار مكة، ج2، ص168؛ ابن قتيبة: المعارف، ص201؛ الفاكهي: أخبار مكة، ج3، ص105-106؛ البلاذري: الفتوح، ص61؛ اليعقوبي: تاريخ، ج2، ص277.

(4) البلاذري: فتوح، ص61. الأزرقى: أخبار مكة، ج2، ص169؛ الفاكهي: أخبار مكة، ج3، ص113.

(5) الأزرقى: أخبار مكة، ج2، ص172؛ الفاكهي: أخبار مكة، ج3، ص115-116.

الفصل الثاني

أثر تنظيمات الحج على النشاط الاقتصادي في الحجاز خلال العصر الأموي

المبحث الأول

الأثر على النشاط الزراعي

المطلب الأول: الأيدي العاملة

المطلب الثاني: المنتجات والسلع الزراعية

المبحث الثاني

الأثر على النشاط التجاري

المطلب الأول: أثرها على التجارة الداخلية، الأسواق الموسمية والدائمة

المطلب الثاني: الصادرات والواردات

المطلب الثالث: أثرها على العملات والتعاملات التجارية

المطلب الخامس: عمان، البحرين، واليمنية ومن مر بها من الجاج

المبحث الثالث

الأثر على التصنيع والحرف والمهن

المطلب الأول: التصنيع

المطلب الثاني: الحرف

المطلب الثالث: المهن

المبحث الأول

الأثر على النشاط الزراعي

المطلب الأول: الأيدي العاملة:

مواسم الحج لم تكن مقصورة على الجانب الديني فقط، والمتمثل في أداء فريضة الحج الدينية، بل صاحب ذلك إلتماس بعض الحجاج -بالإضافة إلى تأدية هذه الفريضة الدينية- أنواعاً عديدة من المنفعة المادية، خصوصاً وأن الإسلام أباح التجارة في مواسم الحج. كما صاحب تأدية هذه الفريضة، وما ترتب عليها من إجتماع المسلمين في بقعة واحدة وزمن واحد، تنوع الأنشطة المالية والتجارية، الذي تمثل في تعدد الأسواق، وازدهار البيع والشراء فيها، ووفرة وتنوع السلع المتاحة لحجاج بيت في هذه الأسواق. كما ترتب على قدوم الحجاج إلى مكة والمدينة لتأدية فريضة الحج، وزيارة مسجد الرسول ﷺ، إنتعاش إقتصادي تمثل في إنتعاش العقار وازدياد الطلب على تأجير الدور والحوانيت، ورواج مهنة كراء الإبل لحجاج بيت الله الحرام، سواء للقدامين إلى مكة لتأدية فريضة الحج أو للمغادرين منها.

وقد كان لفريضة الحج وما يتعلق بها من مناسك دور في الحياة الاقتصادية العامة، حيث ارتبطت هذه الفريضة بأنواع عديدة من الأنشطة المالية والمهنية. كما ازداد التبادل التجاري بين المسلمين خلال تأديتهم لهذه الفريضة، وذلك بما يجلبونه معهم للتجارة، أو بما يبتاعونه من أسواق الحجاز خلال هذه المواسم العامرة.

كما إن الإسلام أباح للحاج أن يتاجر ويتكسب وهو يؤدي فريضة الحج الأثر الكبير في إنعاش الحياة الاقتصادية في مواسم الحج. وتشير بعض الآيات القرآنية إلى هذه الإباحة، حيث يقول عز وجل في محكم كتابه: ﴿ وَأَدْنَىٰ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (28) ﴾⁽¹⁾.

(1) سورة الحج، الآيتان 27-28.

ويقول تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِّن قَبْلِهِ لَمِن الضَّالِّينَ (198)﴾ (1).

لقد فسرت المنافع وابتغاء الفضل في الآيات السابقة بإباحة التجارة في موسم الحج (2).

وهو الوقت الذي يجتمع فيه المسلمون كل عام لأداء فريضة الحج ومناسكها، أما المنافع المذكورة في قوله تعالى: وليشهدوا منافع لهم فإن المقصود بها، كما ذكر المفسرون التجارة ومنافع الدنيا، وقيل بأنها تعنى الأسواق وما فيها من بيع وشراء، كما قيل بأنها تعني الأجر في الآخرة، والتجارة وما ينتج عنها من ربح في الدنيا (3)، أما إبتغاء الفضل في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (4).

فإنه يعني التماس رزق الله بالتجارة، والانتفاع بها والربح منها، وأنه لا حرج ولا إثم على المسلمين في الشراء والبيع قبل الإحرام وبعده (5). ولهذا فقد اعتبر الزمخشري في تفسيره أن في فريضة « الحج منافع دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات (6)».

(1) سورة البقرة: 198.

(2) سمي الحج موسماً لأنه معلم يجتمع فيه الناس. أبو الفضل محمد بن مكرم، ابن منظور: لسان العرب، بيروت: دار الفكر ودار صادر، د.ت، ج 12، ص 636.

(3) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، بيروت: دار الفكر، 1988، ج 17، ص 126-127؛ أبو عبدالله محمد بن أحمد القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، القاهرة: دار الكتاب العربي، 1967م، ط 2، ج 12، ص 41.

(4) قرأ عبدالله بن العباس الآية: (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم) بإضافة (في موسم الحج) الطبري: جامع البيان، ج 2، ص 283. أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني: سنن أبي داود، ط 1، حمص: دار الحديث، (1970م)، ج 2، ص 351. أحمد بن عبدالله بن محمد بن أبي بكر الطبري: القرى لقاصد أم القرى، تحقيق: مصطفى السقا، ط 3، القاهرة: دار الفكر، 1983م، ص 79؛ السيد سابق: فقه السنة، بيروت: دار الكتاب العربي، (د.ت)، ج 1، ص 621. وقد ذكر ابن حجر في تعليقه على هذه الإضافة بأن حكم القراءة هذه عند الأئمة حكم التفسير، وهي من القراءات الشادة، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري: شرح صحيح البخاري: بيروت: دار المعرفة، د.ت، ج 3، ص 595.

(5) الطبري: جامع البيان، ج 2، ص 282-283؛ محمود بن عمر الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج 1، ص 245. القرطبي، أحكام القرآن، ج 2، ص 213-212.

(6) الزمخشري: الكشاف، ج 3، ص 152؛ الطبري: جامع البيان، ج 2، ص 282-284. وقد أجاز الإسلام حج من يكري ويؤجر الدواب إذا أدى جميع مناسك الحج. الطبري: نفس

كما كان لتعاليم الإسلام المتعلقة بحرمة أشهر الحج دور في إشاعة الأمن والاستقرار في مكة المكرمة وما حولها خلال مواسم الحج. وكان هذا سببا كافيا لازدهار التجارة وانتعاش الأنشطة الاقتصادية عامة. يقول تعالى ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (1).

ويقول تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهُدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا أَمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ (2).

ولا شك أن أشهر الحج الحرام وهي، شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة (3).

وهي أيام اجتماع المسلمين لتأدية مناسك الحج والعمرة - كان يتوافر فيها أكبر قدر متاح من الأمن والسلام اللازمين لتأدية هذه الفريضة الدينية وما يصاحبها من منفعة دنيوية متمثلة في التجارة. وهكذا فقد ترتب على إباحة الإسلام للتجارة وتشديده على حرمة أشهر الحج أن أصبحت مواسم الحج الدينية مواسم أيضا للأسواق التجارية.

كما وجد في مواسم الحج العديد من الأعمال التي يقوم بها أهل الحجاز في خدمة ضيوف الرحمن، ومن هذه الأعمال من يكرى نفسه لخدمة الحجاج. وقد أجاز الإسلام حج من يكرى نفسه إذا أدى جميع مناسك الحج (4). ولا شك أن وجود هذه المهنة كان راجعاً لعجز بعض الحجاج مالياً عن تأدية فريضة الحج. ويلاحظ هنا أن الإسلام قد رفع عن المسلمين التأمم والتحرج من عدم المقدرة على الحج مالياً، وذلك بأن قيد فريضة الحج بالاستطاعة. وفي ذلك

المصدر، ج2، ص285؛ الزمخشري: الكشاف، ج1، 245.

(1) سورة البقرة: 197.

(2) سورة المائدة: 2. وتشير آيات عديدة في القرآن الكريم إلى حرمة مكة المكرمة والأشهر الحرم. سورة الحج: 25. سورة النمل: 91. سورة التوبة: 5، 36. سورة البقرة: 122، 129، 198؛ محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، اسطنبول: المكتبة الإسلامية، 1984م، ص ص192، 198.

(3) حول أشهر الحج الحرم، الطبري: جامع البيان، ج2، ص257؛ القرطبي، أحكام القرآن، ج2، ص205؛ ابن حجر: فتح الباري، ج3، ص ص219-291؛ الطبري: القرى، ص 89 - 9.

(4) أبو داود: السنن، ج2، ص351؛ الفاكهي: أخبار مكة، ج1، ص379؛ ابن تيمية: شرح العمدة، ج2، ص251؛ الطبري: القرى، ص79؛ فقه السنة، ج1، ص ص441-222.

يقول تعالى ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (1).

وتشير المصادر بأن الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك (96 - 99هـ)، عندما حج في خلافته ورأى الحجاج بالموسم تعجب من هول أعدادهم التي لا يحصيها إلا الله ولا يسع رزقهم غيره (2).

المياه والآبار والعيون بمكة:

عانت مكة على مر العصور من ندرة مياهها، باستثناء ماء زمزم الذي لا ينقطع، ولذلك وردت إشارات كثيرة عن هذه المعاناة، ومن ذلك، ما قيل: «وليس بمكة ماء جارٍ إلا شيء أجري إليها من عين، وكانت أكثر مياههم من السماء» (3). «ومياهها من السماء، وليس لهم آبار يشربون منها، وأطيبها زمزم ولا يمكن الإدمان على شربها» (4) «ومياه مكة زعاق لا تسوخ لشارب وأطيبها ماء بئر زمزم وماؤه شروب غير أنه لا يمكن إدمان شربه». «وشرب أهل مكة من آبار ملححة» (5).

وذكر أن بمنى آبار ومصانع (6)، وقياسر وحوانيت (7)، وفي مزدلفة مصلى وسقاية وبرك عدة (8) وذكر الإصطخري: «أن البرك والعيون والسواري (9) كثيرة جدا في ديار العرب» (10). وهذا يشمل ضمنا مكة وما حولها.

(1) سورة آل عمران: 97.

(2) أبو الفداء إسماعيل بن كثير، الفصول في سيرة الرسول ﷺ، تحقيق: محمد العيد الخطراوي، ومضى الدين مستو، ط3، دمشق: مؤسسة علوم القرآن، 1203هـ، ج1، ص

ص 377-382.

(3) ابن الحوقل: صورة الأرض، ص37.

(4) الإدريسي: نزهة المشتاق، ص32.

(5) اليعقوبي: البلدان، ص101.

(6) المصانع: محابس تتخذ للماء، ومفردها مصنع. الحموي، معجم البلدان، 5/159.

(7) حوانيت: مفردها حانوت، ويقصد بها الدكاكين، الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص150.

(8) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرف الاقاليم، ص33، 35، 36.

(9) السواري، مفرد سارية وهي السحابة الليلية المطرة، أبو حاققة، معجم النفاثس

الوسيط، ص556.

(10) الإصطخري، مسالك الممالك: ص12، 15.

وتحدث المقدسي عن اختلاط وامتزاج المياه، وأثر ذلك على الصحة الجسدية وبين أسباب التيقن من صلاحية المياه، من خلال معرفة أنواعها التي تبين صلاحيتها من عدمها؛ فقال واصفا مياه إقليم العرب: «ومياه هذا الإقليم مختلفة، ماء عدن وقناة مكة، وماء زبيد ويثرب خفيف، وماء غلافقة قاتل، وماء قرح وينبع رديء، وسائر المياه متقاربة، وأكثر مياه السواحل عذيبات. فإن قال قائل: ومن أين علمت خفة المياه وثقلها؟ قيل له بأربعة أشياء؛ إحداهن: أن كل ماء يبرد سريعا فهو خفيف، وما رأيت أسرع برودة من ماء تيماء وأريحا، وهما أخف مياه الإسلام، فمن هذا استنبطت هذا الوجه، ثم صح لي بكثرة التجارب.

والثانية أن الماء الخفيف يبطؤ تحليه، ومن شرب ماء ثقيلاً أسرع بوله. والثالثة الماء الخفيف يشهي الطعام ويهضمه، والرابعة إذا أردت أن تعرف ماء بلد فاذهب إلى البزازين والعطارين، فتصفح وجوههم فإن رأيت فيها الماء؛ فاعلم خفته على قدر ما ترى من نضارتهم، وأن رأيتها كوجوه الموتى ورأيتهم مطئطي الرؤوس فعجل الخروج منه»⁽¹²⁾.

وعلى ذلك يمكن تصنيف مياه مكة بالخفة، فهي: تبرد بسرعة، وهذه الخفة تبطئ التبول، وهي من الأشياء الضرورية للحاج أو المعتمر، كما أنه يفتح الشهية للطعام، ويساعد في عملية تنشيط الجهاز الهضمي، وعلى ذلك فإن أهل مكة وصفوا بالنضارة في أشكالهم.

وذكر ناصر خسرو: «أن المياه بمكة المكرمة شديدة الملوحة، ظاهرة المرارة، حتى لا يمكن استساغتها، ولكن يوجد بمكة كثير من المصانع، والأحواض العظيمة، والتي بلغت تكاليف إنشائها بعضها عشرة آلاف دينار، وتملاً هذه الأحواض من السنين الخصب التي تجود بها السماء من الماء». وذكر أيضاً أن أحد أمراء عدن واسمه (ابن شاه دل)، كشف عن عين ماء غزيرة تحت الأرض، فأمر بإجراء مائها لمكة، ولقد أنفق أموالاً طائلة لإجراء هذه العين، ويقول إنه: «رأى خارج مكة بئراً يقال لها (بئر الزاهر)، وبجانبها بئر عذبة، يستقي منها الساقون ويجلب من مائها إلى مكة»⁽³⁾.

(1) وهي ساحل على بحر اليمن مقابل زبيده وهو مرسى زبيد وبينها وبين زبيد خمسة عشر ميلاً، الحموي معجم البلدان ج 4، ص 208.

(2) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 51.

(3) ناصر خسرو: سفرنامه، ص 120، 151.

وذكر ابن جبير أن بمكة آبارا عذبة على طريق التنعيم تسمى الشبيكة⁽¹⁾، وذكر أن عندها خدما يملؤون أواني الشرب، وأن قعرها بعيد جدا، وأن بئر ذي طوى يتصل بالزاهر⁽²⁾. وبها بعض الآبار التي تسقى منها النخل والمزارع⁽³⁾، تجرها النواضح⁽⁴⁾.

ففي عهد بني أمية تم حفر عدد من الأنهار، التي جرت من الينابيع القريبة من مكة المكرمة، فقد ذكر الأزرقى: أن من عيون معاوية بن أبي سفيان عشرة عيون بمكة⁽⁵⁾.

ولذلك ومما لا شك فيه أن سكان مكة كانوا يعتمدون على المناطق المجاورة في جلب المياه، ونستدل على ذلك مما قيل: «وإذا جرت الحرم فهناك عيون وآبار وحوائط كثيرة، وأودية ذات خضر ومزارع ونخيل»⁽⁶⁾.

التجارة:

وللتجارة دور بارز في مكة، فهي رائجة طوال العام، رغم أن بعض كتب الرحالة قد حددتها بأوقات معينة، وربما كان القصد من ذلك أن ازدهار التجارة وبلوغ أوجها يكون في أعلى درجاته في موسم الحج. فقول: ولما كان موسم الحج⁽⁷⁾. والثمرات تجبى إليها من كل مكان فهي أكثر البلاد منافع ونعا وفواكه ومنافع ومرافق ومتاجر⁽⁸⁾.

ولو لم يكن لها من المتاجر إلا أوان الموسم ففيه مجتمع أهل المشرق والمغرب، فيباع فيها في يوم واحد، فضلا عما يتبعه من الذخائر النفيسة

(1) الشبيكة: بين مكة والطائف، على طريق التنعيم. معجم البلدان، ص367؛ وابن جبير: رحلة ابن جبير، ص88.

(2) بئر ذي طوى: بئر حفرها عبدشمس بن مناف، موقعها دار ابن يوسف بالبطحاء. الأزرقى: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، 2/820.

وبئر الزاهر: على طريق التنعيم، نحو ميلين من مكة. ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة المسماة «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»، ص122.

(3) اليعقوبي: البلدان، ص98.

(4) النواضح: الإبل التي تقوم على سحب الماء. اليعقوبي: البلدان، ص98.

(5) الأزرقى: أخبار مكة، 2/153.

(6) ابن حوقل: صورة الأرض، ص37.

(7) الإدريسي: نزهة المشتاق، ص32.

(8) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص97.

كالجواهر، والياقوت، وسائر الأحجار، ومن أنواع الطيب: كالمسك، والكافور، والعنبر، والعود، والعقاقير الهندية إلى غير ذلك مما يجلب من الهند والحبشة، إلى الأمتعة العراقية واليمانية، إلى غير ذلك من السلع الخراسانية، والبضائع المغربية، إلى ما لا ينحصر ولا ينضب، ما لو تفرق على البلاد كلها لأقام لها الأسواق النافقة، ولعم جميعها بالمنفعة التجارية، كل ذلك في ثانية أيام بعد الموسم حاشا ما يطرأ بها مع طول الأيام من اليمن وسواها، فاعلى الأرض سلعة من السلع ولا ذخيرة من الذخائر إلا وهي موجودة فيها مدة الموسم، فهذه بركة لا خفاء بها، (فهي بركة واضحة للقاصي والداني)، وآية من آياتها خصها الله بها⁽¹⁾.

ومن الطائف أكثر فواكه مكة؛ منها الرمان والزبيب والعنب الجيد والفواكه الحوام⁽²⁾. كما أشار البعض إلى مدينة جدة ووصفها بخزانة مكة⁽³⁾. ومن الأماكن التي تجلب التجارة لمكة مصر «الميرة تحمل إليها من مصر إلى ساحلها وهو جدة»⁽⁴⁾.

المطلب الثاني: المنتجات والسلع الزراعية:

لم يعتمد أبناء الحجاز إبان هذا العصر على ما تركه أبائهم من ثروات بل عملوا على زيادتها وتنميتها فشرعوا في استثمارها فتوسع المزارعون وأصلحوا كثيراً من الأراضي غير المستقلة، وتنافسوا في حفر الآبار فاتسعت إقطاعاتهم الزراعية خاصة في مدينة الطائف التي إشتهرت إبان هذا العصر بكثرة البساتين⁽⁵⁾.

وقد ساهم الخلفاء الأمويون في هذا التطور الزراعي الذي شهدته منطقة الحجاز إبان هذا العصر ففي عهد معاوية بن أبي سفيان وبتوجيه خاص منه تم حفر حوالي عشر عيون في مكة لتوفير المياه للبساتين مما زاد من عددها خاصة بساتين النخيل⁽⁶⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 97

(2) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 20

(3) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 21.

(4) اليعقوبي: البلدان، ص 103.

(5) بطوطة: معجم البلدان: ج 2، ص 11.

(6) الأزرقى: أخبار مكة، ج 2، ص 183.

وأصدر معاوية أمراً آخر بإصلاح الأراضي البور وتم في عهده أيضاً بناء العديد من السدود أشهرها السد المعروف بسد عبدالله بن معاوية بالقرب من الطائف⁽¹⁾.

وإبان عهد الوليد بن عبدالمك حفرت العديد من الآبار والعيون حول المدينة لنفوس الأغراض⁽²⁾، وكان الخليفة عمر بن العزيز قد أصدر أوامره لعمال الولايات بما فيها الحجاز بإصلاح كل الأراضي البور⁽³⁾، وقام هشام بحفر العديد من القنوات والبرك في طريق مكة مما ساهم أيضاً في زيادة الإنتاج الزراعي⁽⁴⁾.

وتمتلك بعض الأسر في الحجاز قطعاناً من الأغنام أو الإبل تقل أو تكثر حسب الوضع الاقتصادي للأسرة، ففي المدينة كان للرسول ﷺ قطعة من ضأن ترعى بالقف⁽⁵⁾، ولقاح⁽⁶⁾ بنذي الجدر⁽⁷⁾، وكان لسحيم بن خفاف⁽⁸⁾ خمس مئة شاة⁽⁹⁾، وفي مكة تآلف الرسول ﷺ بعض زعماء مكة بمنح كل منهم مئة من الإبل أو دونها⁽¹⁰⁾.

(1) أبو يوسف: كتاب الخراج، ص93، بيروت: دار الفكر المعاصر، 1415هـ، ط1.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية، ج9 ص71.

(3) أبو يوسف: الخراج، ص93.

(4) ابن سعد: الطبقات، ج2، ص184.

(5) السمهودي، وفاء الوفاء، 4/1291. والقف: واد من أودية المدينة وهو في الأصل ما ارتفع من الأرض وغلظ. البكري، 3/1087؛ الفيروزآبادي: محمد بن يعقوب، المغانم المطابفة في معالم طابة (قسم المواضع) تحقيق: حمد الجاسر، الرياض: منشورات دار اليمامة للبحث الترجمة والنشر، 1389هـ/1969م، ط، ص349.

(6) اللقاح: جمع لقحة وهي الناقة القريبة العهد بالنتاج. ابن منظور: لسان العرب، 3/384.

(7) الواقدي: 538/2-539؛ الفيروزآبادي: المغانم، ص87؛ وذو الجدر: مسرح للإبل على بعد ستة أميال من المدينة من جهة قباء. بطوطة: البلدان، 2/114؛ الفيروزآبادي: المغانم، ص87؛ السمهودي: وفاء الوفاء، 4/1175.

(8) سحيم بن خفاف. صحابي، نزل حمص. ابن حجر: الإصابة، 2/16.

(9) ابن حجر: الإصابة، 2/16.

(10) سيف بن عمر: الردة، ص264، 268؛ الواقدي، 944/3-945؛ ابن هشام، 4/140؛ ابن حبيب: أبو جعفر محمد البغدادي، (ت225هـ)، المحبر، تحقيق: إيلزة ليختن شتير، بيروت: دار الآفاق الجديدة، (د.ت)، ص473 - 474؛ ابن حبيب: المنطق في أخبار قريش، ص422-423؛ الطبري: تاريخ، 3/90؛ ابن كثير، البداية، 8/68.

وفي العصر الأموي استمر تملك الحجازيين لقطعان الإبل والغنم فقد كان لعبدالله بن عمر إبل تزيد على المئتين يرعاها له أحد غلمانه⁽¹⁾، وكان لعبدالله ابن صفوان غنم كثيرة قدرت بحوالي الألفين⁽²⁾.

أما بعض الأسر الفقيرة فيعد ما يمتلكونه هو مورد دخلهم الوحيد على الرغم من قلة ما يدره عليهم، فقد كانت لرجل من بني غفار⁽³⁾ عين أو بئر يقال لها رومة⁽⁴⁾ وكان يبيع منها القربة بالمد⁽⁵⁾، فقال له رسول الله ﷺ: «بعنيها بعين في الجنة». فقال: «يا رسول الله ليس لي ولا لعيالي غيرها لا أستطيع ذلك»⁽⁶⁾.

أما المهاجرون فعلى الرغم من أنهم لم يكونوا أهل زراعة بل أهل تجارة يدلنا على ذلك قول أبي هريرة: «إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم»⁽⁷⁾، إلا أنهم حاولوا أن يتكيفوا مع وضعهم الجديد في المدينة ويمارسوا الزراعة، خاصة بعد أن أقطع الرسول ﷺ بعض كبار الصحابة أمثال أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب والزبير بن العوام وعبدالرحمن بن عوف أراضي زراعية⁽⁸⁾،

(1) الأصفهاني: الأغاني، 1/300.

(2) الذهبي: سير أعلام النبلاء، 4/151؛ ابن كثير: البداية، 8/345.

(3) بنو غفار: هم ولد مليل بن ضمرة بن بكر بن عبدمناة بن كنانة. كانت ديارهم وادي الصفراء بين مكة والمدينة. وليس لغفار اسم اليوم في الحجاز ويظهر أنها اندمجت مع حرب الخولانية. الخراز، نهاية، ورقة 330. ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص186؛ عاتق البلادي: قبائل، -384 385.

(4) رومة: تقع في عقيق المدينة، اشتراها عثمان بن عفان وتصدق بها. بطوطة: البلدان، 1/299. الفيروزآبادي: المغانم، ص40.

(5) المد: مكبال مقدارة رطل وتلث الرطل عند أهل الحجاز ويساوي ربع صاع، وأصل المد مقدر بأن يمد الرجل يديه فيملاً كفيه طعاماً، ابن منظور: لسان العرب، 3/454.

(6) الطبراني: الكبير، 2/29؛ أيضاً ابن الأثير: أسد، 2/239.

(7) البخاري: صحيح، 1/38، 3/2؛ وابن عبدبر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، 208-209.

(8) ابن سعد: 2/58. أيضاً في إقطاع الرسول ﷺ للأراضي الزراعية: أبو يوسف، يعقوب ابن إبراهيم، الخراج، ضمن كتاب موسوعة الخراج، بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، 1399هـ / 1979م، (د. ط.)، ص61. قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق: محمد حسين الزبيدي، بغداد: دار الرشيد للنشر، 1981م، (د. ط.)، ص-215 217. إبراهيم علي طرخان، النظام الإقطاعي الإسلامي في الجزيرة العربية في العصر النبوي وعصر الخلفاء الراشدين، دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثالث، الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين، الرياض: جامعة الملك سعود، 1210هـ / 1989م، ج1، ط1، ص-275 307؛ عبدالله الخراشي: ، ص95-107.

ويؤيد ذلك ما قاله رجل من أهل البادية رداً على قول الرسول ﷺ: إن رجلاً من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع. فقال: والله لن تجده إلا قرشياً أو أنصاريًا فإنهم أصحاب زرع وأما نحن فلسنا بأصحاب زرع⁽¹⁾.

واستمر هذا الوضع حتى القرن الثاني الهجري، وهناك إشارات كثيرة عن إقطاعات تمنح وأراض تزرع للقرشيين في المدينة ومكة وغيرهما من الأراضي الحجازية طوال مدة الدراسة⁽²⁾.

ولكن يبدو أنهم كانوا يتعاملون مع تلك الأراضي الزراعية بأسلوب التاجر وليس الزارع لعدم معرفتهم بأمور الزراعة بالشكل الذي يحقق لهم الربح الوفير. فاستخدموا نظام المزارعة في الأرض وهو أن يدفع الأرض إلى من يزرعها مقابل مقدار معين من المحصول فقد جاء في فتح الباري⁽³⁾: «ما بالمدينة أهل بيت هجرة إلا يزرعون على الثلث والربع». ومنهم من كان يؤجر أرضه سنوياً بالدنانير أو الدراهم⁽⁴⁾، أما من له خبرة بالزراعة من أهل الحجاز فقد كان يمارسها بنفسه⁽⁵⁾، أو يستعين بالأجراء لمساعدته في الزراعة⁽⁶⁾، والأسر الغنية كانت تعتمد على رقيقها في ذلك⁽⁷⁾.

لا شك أن تلك الأراضي الزراعية كانت غلالها تدر أموالاً تعد مورداً رئيساً من الموارد المالية التي تعتمد عليها الأسرة في حياتها المعيشية، قال اليعقوبي في حديثه عن المدينة⁽⁸⁾: «وأكثر أموال أهلها النخل، ومنه معاشهم وأقواتهم». وإن اختلفت مدخولاتها حسب مساحة الأرض المزروعة ونوعية الإنتاج. فقد كان لجعفر بن طلحة⁽⁹⁾ ضيعة غلتها السنوية أربعة آلاف دينار⁽¹⁰⁾، فيما كان لعمر بن

(1) البخاري: صحيح، 3/73.

(2) الزبيدي: تاج العروس، ص128؛ الأزرقى: أخبار مكة، 2/227 - 232.

(3) ابن حجر: الإصابة، 5/11.

(4) البخاري: صحيح، 3/73.

(5) البكري: معجم ما استعجم، 3/1096-1097.

(6) الواقدى، 1/181؛ البلاذري: انساب، 1/310؛ الأصفهاني: الأغاني، 1/71.

(7) البلاذري: انساب، ق 3، 28/53؛ الطبري: تاريخ، 8/532، 539.

(8) اليعقوبي: البلدان، ص77.

(9) هو جعفر بن طلحة بن عمر بن عبيدالله بن معمر بن عثمان بن عمر بن كعب

التمي. الزبيدي: ص290؛ ابن حزم: ص140.

(10) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص140.

العاص ضيعة في الطائف غلتها السنوية عشرة آلاف درهم⁽¹⁾، كما كان لسعيد بن محمد⁽²⁾ أريضة سبخة تُغل في العام دينارين. قال ابن سعد⁽³⁾: «وكان يقتصد في ذلك ويجتزئ به ويغدو هو وجاريتيه فيلقط لها بلحات من أرضه ويرسل بها مع جاريتيه إلى أهله صبورا على تلك الشدة لا يشك من ذلك قليلاً ولا كثيراً». وعلى الرغم مما في هذه الرواية من مبالغة إلا أنها تعطي دلالة على اعتماد بعض الأسر على واردات أراضيهم الزراعية فقط في تصريف حياتهم المعيشية.

بالإضافة إلى الموارد السابقة هناك مورد مالي استفادت منه الأسر الفقيرة فقد كانت تعتمد على عائده اليومي في تصريف شؤونها الحياتية، ويرتبط هذا المورد بالمهن والصناعات والإجارة، وقد زاول هذا النوع من العمل: الأحرار، والموالي، والرقيق المأذون لهم بالعمل، فقد كان أبو هريرة أجيراً عند بسرة بنت غزوان⁽⁴⁾ يقول في ذلك: «فكنت أخدم إذا نزلوا وأحدو إذا ركبوا»⁽⁵⁾، كما كان سعيد بن مسعود الهذلي⁽⁶⁾ نقاشا يصنع البرم من حجارة أبي قبيس بمكة⁽⁷⁾، وقد يختص بعضهم بمهنة واحدة. وقد يزاولون عدة مهن رغبة في زيادة الدخل اليومي فقد كان عيسى بن أبي عيسى⁽⁸⁾ يقول: «أنا خياط وحناط وخباط، كل قد عالجت»⁽⁹⁾، ولا شك أن عائدهم اليومي يرتبط بأمرين هما خبرتهم ومهارتهم في

- (1) ابن الزبير: كتاب الذخائر، ص205.
- (2) هو سعيد بن محمد بن أبي زيد، من الخزرج. كان من أهل الدين والورع والفضل، من الطبقة السادسة من تابعي أهل المدينة. ابن سعد: 5/411.
- (3) ابن سعد: الطبقات الكبرى، 5/411.
- (4) هي بسرة بنت غزوان المازني. أخت عتبة بن غزوان. كانت قد استأجرت أبا هريرة في العهد النبوي ثم تزوجها بعد ذلك. ابن حجر: الإصابة، 4/252.
- (5) ابن سعد: الطبقات، 4/326. وانظر أيضاً ابن قتيبة: المعارف، ص277.
- (6) هو سعيد بن مسعود الهذلي. تزوج ابنة ابن سريج فأخذ منها غناء أبي هاكله، كان يسكن منى، توفي حوالي 110هـ / 728م. الأصفهاني: الأغاني، 5/70، 72. خير الدين الزركلي: 3/102.
- (7) الأصفهاني: الأغاني، 5/70.
- (8) عيسى بن أبي عيسى هو: عيسى بن ميسرة، مولى لقريش، كان كثير الحديث ولا يحتج به، توفي في خلافة أبي جعفر المنصور. ابن سعد (القسم المتتم) ص-424 425.
- (9) ابن سعد (القسم المتتم) ص424؛ وأيضاً إشارات أخرى: البخاري: صحيح، 3/13، 5/42؛ مسلم: 2/707؛ السيوطي: مسند علي، ص54، 79، 139، 175؛ السيوطي: مسند فاطمة، ص96.

الأعمال التي يمتهنونها⁽¹⁾، وارتفاع المستوى المعيشي، فكلما كثرت الأموال في أيدي الناس فإنهم يرغبون في استخدامهم ومن ثم يزداد أجرهم اليومي وترتفع أحوالهم المعيشية، ففي عهد الرسول ﷺ كان العائد اليومي عينا في أغلبه، فقد يكون صاعا من تمر⁽²⁾، وقد يعمل بعضهم مقابل إطعامه فقط⁽³⁾، كما قد يكسب بعضهم مقابل عملهم في سقاية النخل ثمرة عن كل دلو ماء⁽⁴⁾.

يحاول رب الأسرة تحسين الوضع المعيشي لأسرته عن طريق البحث عن موارد مالية جديدة، فقد كان ابن أبي معقل⁽⁵⁾ كثير الأسفار في طلب الرزق، وعندما لامته زوجته بقولها: «لن تزال في أسفارك هذه تتردد حتى تموت». قال لها: «أو أثري»⁽⁶⁾، كما كان بعضهم يستعين بما يمنحه لهم ذوو النفوذ والسلطة في الدولة، ومن ذلك أن قوما من أهل المدينة خرجوا إلى الخليفة هشام بن عبد الملك فأمر لهم بجوائز⁽⁷⁾،

كما يعتمد بعضهم على مدح أصحاب النفوذ والثروة كابن هرمة الذي سأل عن أعطية إبراهيم بن طلحة⁽⁸⁾ له فقالوا بأنه أمر أن يعطى «مئة شاة برعائها وأربعة أجمال ومظلة»⁽⁹⁾ وما تحتاج إليه وقوتك وقوت عيالك

(1) عبدالله السيف: الحياة الاقتصادية في الحجاز، ص 172.

(2) مالك: 2/245.

(3) ابن سعد: 4/326.

(4) ابن ماجه: محمد بن يزيد، (ت 275هـ)، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي: دار إحياء الكتب العربية، القاهرة: (د.ت) 2/64؛ البلاذري: أنساب، 2/152.

(5) ابن أبي معقل هو: عبدالله بن أبي معقل بن نهيك بن إساف الخزرجي، شاعر حجازي مقل، من شعراء الدولة الأموية. الأصفهاني: الأغاني، 24/15.

(6) الأصفهاني: الأغاني، 24/17-18.

(7) ابن سعد: الطبقات الكبرى، 5/426.

(8) إبراهيم بن طلحة بن عمر بن عبيدالله بن معمر التيمي. من قریش. الزبيدي: ص 290.

(9) انظر الفصل الخامس عن مسكن البادية.

عام»⁽¹⁾، ومثله أبو وجزة⁽²⁾ الذي كان «منقطعاً إلى ابن عطية⁽³⁾ يقوم بقوت عياله وكسوته ويفضل عليه⁽⁴⁾.

على الرغم من أن مسؤولية الإنفاق على الأسرة هي من اختصاص الرجل حسبما تقتضيه أحكام الشريعة الإسلامية والعرف إلا أن ذلك لا يمنع من ظهور استثناءات دلت على أن لبعض أفراد الأسرة دوراً في تحمل بعض تبعات الحياة المعيشية وتحسين الوضع المادي للأسرة، فقد كانت ربيعة بنت عبد الله⁽⁵⁾ امرأة صناعاً تبيع ما تصنع وتنفق على زوجها وولدها⁽⁶⁾، كما روي أن أسماء بنت عميس دبغت أربعين إهاباً⁽⁷⁾، ولا شك أنها كانت تبيع ما تدبغ لتحسين مواردهم المعيشية.

وقد يشارك الأبناء أيضاً في تحسين موارد دخل الأسرة، فقد كان عبدالله بن جعفر وهو صبي يصنع شيئاً من طين يلعب به ويبيعه للصبيان⁽⁸⁾.

(1) الأصفهاني: الأغاني، 4/374.

(2) أبو وجزة هو: يزيد بن عبيد شاعر من سليم. وانتسب إلى بني سعد بن بكر بن هوازن لولائه فيهم، فقد أصاب والده سباً في الجاهلية فابتاعه رجل من بني سعد فانتسب هو وولده إليهم. كان من التابعين وروى عن جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ، سكن المدينة، توفي سنة 130هـ / 747م. الأصفهاني: الأغاني، 12/279، 281؛ الزركلي: الأعلام، 8/185.

(3) ابن عطية هو: عبد الملك بن يزيد بن محمد بن عطية السعدي. كان قد ندبه الخليفة مروان بن محمد لمواجهة أبي حمزة الأزدي الشاري عندما جاء إلى المدينة فانتصر عليه. الأصفهاني: الأغاني، 12/291.

(4) الأصفهاني: الأغاني، 12/292.

(5) ربيعة بنت عبد الله بن معاوية الثقفية. امرأة عبد الله بن مسعود. ابن سعد: الطبقات، 8/290؛ ابن الأثير: أسد، 2/121.

(6) ابن سعد: الطبقات، 8/290.

(7) ابن هشام: السيرة النبوية، 3/436.

(8) ابن حجر: الإصابة، 2/289.

كما جاء في الأغاني⁽¹⁾ رواية عن العرجي⁽²⁾ يقول فيها لابن غرير⁽³⁾ وقد رأى صبياناً يلقطون النوى فوقفوا ينظرون إليهما: «ما أعرف في الدنيا سخلين⁽⁴⁾ أشأم مني ومنك، إن هؤلاء الصبيان لأهليهم، عليهم في كل يوم على كل واحد منهم مد نوى، فقد تركوا لقطهم للنوى وقد وقفوا ينظرون إلي وإليك وينصرفون بغير شيء فيضربون، فيكون شؤمنا قد لحقهم».

أما في البادية فمن المرجح أن وضعهم لم يحدث فيه تغيير ذو بال في الإسلام، فقد ظل الرعي، وتملك قطعان الإبل والغنم، والأنفة من ممارسة المهن لدى الأسر الشريفة، والاعتماد على الرقيق والإماء في ذلك كما كان في العصر الجاهلي، والتطور الوحيد الذي حصل هو مشاركة بعضهم في الجهاد، مما فتح عليهم مورداً جديداً يرتبط بالغنائم والفيء، وشجعهم على الاستقرار في الأمصار الجديدة والمفتوحة، واستبدلوا بحياة الترحل حياة الاستقرار. أما من بقي في البادية فلم يكن لهم حق في الأعطية والأرزاق كأهل الحاضرة⁽⁵⁾.

الحبوب:

كانت تجارة الحبوب كالقمح والشعير والحنطة والأطعمة الغذائية من التجارات الرائجة في مواسم الحج وذلك لوجود الآلاف من الحجاج سنوياً في مكة الفقيرة في مواردها الطبيعية والغذائية مما أدى إلى ندرة السلع الغذائية المتاحة لأهل مكة⁽⁶⁾. وكانت الحبوب والأطعمة تجلب إلى مكة بواسطة القوافل سواء من خارج الجزيرة العربية أو من داخلها. وقد تميزت قوافل الحجيج القادمة عبر

(1) الأصفهاني: الأغاني، 1/399.

(2) العرجي هو: عبدالله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان الأموي القرشي. لقب بالعرجي لأنه كان يسكن عرج الطائف، كان من شعراء قريش الغزليين، ومن الفرسان المعدودين، مات حوالي سنة 120هـ / 737م. الأصفهاني: الأغاني؛ 1/369، 371؛ خير الدين الزركلي: 4/109.

(3) ابن غرير هو: الحصين بن غرير الحميري. كان صديقاً للعرجي. الأصفهاني: الأغاني، 1/397.

(4) سخلان: مثني سخل، والمقصود به رذيل القوم أو وضعهم. ابن منظور: لسان العرب، 2/114.

(5) أبو عبيد: الأموال، ص 240، 243.

(6) يشير القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة حيث يقول تعالى ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ سورة إبراهيم: 37.

ميناء الجار⁽¹⁾ ومن العراق بأنها كانت غنية ومحملة بالأمثلة والسلع. حيث كان التجار العراقيون ينقلون كميات كبيرة من الحبوب كالحنطة والشعير إلى الحجاز لبيعها في مواسم الحج⁽²⁾. وكان وادي القرى⁽³⁾ -وهو طريق تجاري قديم ويمر به الحجاج- محطة استقبال البضائع العراقية ومنها تنقل إلى مكة⁽⁴⁾.

ولم تكن تجارة الحبوب والأطعمة مقصورة على التجار، بل شارك فيها بعض الأمويين. فقد كان لمعاوية بن أبي سفيان ساحة بمكة تسمى بين الدارين حيث كانت القوافل القادمة من الطائف والسراة⁽⁵⁾ والمحملة بالحبوب والسمن والعسل تنزل حمولتها في بين الدارين وتباع فيها.

ويرجع قدوم القوافل والسفن المحملة بالحبوب والسلع الغذائية إلى الحجاز لازدياد الطلب عليها، ولا سيما في أوقات الحج حيث يتوافد الآلاف على مكة التي تعتمد في غذائها على ما يرد عليها من الأمصار والأقاليم الإسلامية المجاورة. وتبين حالة تعرضت لها مكة في أحد مواسم الحج مدى اعتمادها الغذائي الكلي على ما يفد عليها من الأمصار والأقاليم الإسلامية. ففي حج عام 72 هـ، تعرضت مكة للحصار الاقتصادي الذي ضرب عليها بهدف إنهاء حركة عبدالله بن الزبير السياسية⁽⁶⁾، وذلك عندما حاصر الحجاج بن

(1) الجار: فهي مدينة على ساحل البحر الأحمر وبينها وبين جدة مسيرة يوم وليلة، وقد كانت مرسى لسفن الحبشة ومصر وعدن وكان أهلها أهل تجارة، بطوطة: معجم البلدان، ج2، ص92-93. وقد كان الجار ميناء المدينة القديم، وكان خزانة المدينة حيث يجلب إليه الطعام من مصر، ويعرف موقع الحار الآن باسم الرايس غرب بلدة بدر على الطريق من المدينة إلى مكة. محمد بن إسحاق الحربي: كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالج الجزيرة، تحقيق: حمد خسرو: الرياض: دار اليمامة، ط2، هامش(4)، ص419-420، ص21؛ حمد الجاسر «حول الجار والشعبية»، مجلة العرب، ملحق12.

(2) على حسني الخربوطلي: تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي: السياسي، الاجتماعي، الاقتصادي، القاهرة: دار المعارف، (1959م)، ص378؛ السيف: الحياة الاقتصادية، ص121.

(3) وادي القرى: هو واد فيه قرى كثيرة، من أعمال المدينة ويمر به حجاج الشام، بطوطة: معجم البلدان، ج5، ص325، ويدعى وادي القرى الآن العلا. الحربي: كتاب المناسك.

(4) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص97؛ عبدالله بن عبدالله بن خردادبه: المسالك والممالك: بريل 1889، ص129.

(5) «السراة» جمع السروات، واشتهرت بإنتاج الحبوب والتمور والعسل، المقدسي: أحسن التقاسيم، ص86. وحول السراة وأقسامها، بطوطة: معجم البلدان، ج3، ص204-205.

(6) استقل عبدالله بن الزبير بالحجاز بعد موت يزيد بن معاوية سنة 62هـ، وأعلن نفسه خليفة، وبويع له كأمرير للمؤمنين، وقد سيطر على العراق واليمن ومصر، وأكثر الشام، إلى أن تم القضاء على حركته وقتله على يد الحجاج بن يوسف في خلافة عبدالملك

يوسف الثقفي⁽¹⁾ عبدالله بن الزبير ومنع عنه وأصحابه وصول الأطعمة والحبوب⁽²⁾، وقد ترتب على عدم وصول الامدادات والمؤن الغذائية إلى مكة أن غلت الأسعار وارتفعت ارتفاعاً شديداً، ويؤكد الفاكهي ذلك حيث يروي عن شاهد عيان قوله: «رأيت الدجاجة (تباع) بعشرة دراهم، واشترت مداً من ذرة بعشرين درهماً،...»⁽³⁾.

وفي هذا الحصار ساهمت القوافل في تأمين أصحاب الحجاج بن يوسف، فقد كانوا مكتفين غذائياً حيث كانت القوافل تأتي إليهم من الشام وهي محملة بالأشربة والأطعمة من سويق⁽⁴⁾، وكعك ودقيق⁽⁵⁾.

ويصف أحد حجاج ذلك العام (72هـ) أصحاب الحجاج بن يوسف بقوله: «ورأيت أصحابه مخصيب⁽⁶⁾. ولقد ابتعنا من بعضهم كعكاً بدرهم إلى أن بلغنا الجحفة⁽⁷⁾ وإنا لثلاثة نفر»⁽⁸⁾.

بن مروان سنة 73هـ. سبق الحديث عنه في الفصل الأول، انظر ترجمته عند ابن عساکر: تهذيب تاريخ دمشق، ج7، ص399 - 526؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ص (1) كان للحجاج بن يوسف الثقفي دور كبير في تدعيم سلطة بني أمية ومحاربة الخارجين عليها. احسان صدقي العمدة، الحجاج بن يوسف الثقفي: حياته وأراؤه السياسية، ط2، بيروت: دار الثقافة، 1981م.

(2) البلاذري: أنساب الأشراف، ص357، 368.
(3) الفاكهي: أخبار مكة، ج2، ص370، البلاذري: أنساب الأشراف، ج1، ص361؛ علي بن محمد بن عبدالكريم الجزري ابن الأثير: الكامل في التاريخ، بيروت: دار الفكر، 1978م، ج2، ص23؛ العمدة: الحجاج بن يوسف، ص131.

(4) «السويق»: شراب يتخذ من الحنطة والشعير، ابن منظور: لسان العرب، ج10، ص170.
(5) البلاذري: أنساب الأشراف ج5، ص360.

(6) تعني مخصيب أن طعامهم ولينهم كثير؛ ابن منظور: لسان العرب، ج1، ص356.
(7) الجحفة: قرية على الطريق بين مكة والمدينة وهي ميقات لأهل مصر والشام. بطوطة: معجم البلدان، ج2، ص111، ابن حجر: فتح الباري، ج3، ص384، 385؛ مالك بن أنس الأصبحي: الموطن، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي: بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1985م، ج1، ص330؛ و بكر: دروب الحجيج، ص75 - 76.
(8) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ط2، ج6، ص175.

المبحث الثاني

الأثر على النشاط التجاري

المطلب الأول: أثرها على الأسواق الدائمة:

ترتب على قدوم الآلاف⁽¹⁾ من الحجاج سنويا إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج أن تعددت الأسواق وتنوعت. وقد تميزت بعض الأسواق بأهميتها كأسواق موسمية، مثل سوق عكاظ⁽²⁾، وسوق مجنة⁽³⁾ وذو المجاز⁽⁴⁾.

حيث كانت تعقد في مواسم الحج، وكان الغرض منها المتاجرة في السلع والبضائع المختلفة، سواء ما كان منها محليا أو مستوردا. وكان يتوافد على هذه الأسواق كل من يرغب في شراء أو بيع أية سلعة من السلع المعروضة والمتداولة. ومن هنا سميت هذه الأسواق بالمواسم لأنها معلّم لاجتماع الناس فيها حيث البيع والشراء⁽⁵⁾.

وقد ظلت هذه الأسواق مستمرة من عصر ما قبل الإسلام حتى العصر الأموي وما بعده، وكانت تقام في أشهر الحج، وكان كل سوق يعقد في موعد

(1) لم تتوفر في المصادر المتاحة احصائية عن أعداد الحجاج في العصر الأموي، ولكن يبيّض أن أعدادهم كانت هائلة وتقدر بعشرات الآلاف، فإذا كان قد وقف مع الرسول ﷺ في حجة الوداع حوالي أربعين ألفا، فكيف بأعداد الحجيج في العصر الأموي وقد انتشر الإسلام واعتنقه الكثير من الأقوام والشعوب. وتجدر الملاحظة هنا بأن الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك (96-99هـ)، عندما حج في خلافته ورأى الحجاج بالموسم تعجب من هول أعدادهم التي لا يحصيها إلا الله ولا يسع رزقهم غيره. الوداع، انظر أبو الفداء إسماعيل بن كثير، الفصول في سيرة الرسول ﷺ، ص .

(2) عكاظ: هي من أشهر وأعظم أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، وتقع بين نخلة والطائف. ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، بيروت: دار صادر، 1977م، ج2، ص142.

(3) مجنة: سوق من أسواق العرب المشهورة، تقع قرب جبل بأسفل مكة وهي بالقرب من عرفة وعلى أميال من مكة، بطوطة: معجم البلدان، ج5، ص58-59.

(4) ذو المجاز: سوق من أسواق العرب ويقع خلف عرفة. بطوطة: معجم البلدان، ج2، ص121.

(5) ابن منظور: لسان العرب، ج12، ص616-637.

محدد، فسوق عكاظ كان يعقد في بداية شهر ذي القعدة، وتستمر عشرين يوماً، ثم ينتقل الحجاج بعد ذلك إلى سوق مجنة فيمضون فيها عشرة أيام، وفي بداية شهر ذي الحجة ينتقلون إلى ذي المجاز فيمضون فيها ثمانية أيام⁽¹⁾، إن أيام هذه الأسواق كانت

عامرة بالحياة التجارية من بيع وشراء، حتى يوم التروية⁽²⁾. وهو اليوم الثامن من ذي الحجة⁽³⁾.

وبعد ظهور الإسلام طرأ تغير كبير على مكانة الأسواق. إذ ترتب على إباحة الإسلام للمسلمين بالمتاجرة في أيام الحج، ظهور أسواق موسمية جديدة في مكة ومنى وعرفة. وبالإضافة إلى ذلك، كان لبعض المواقيت التي حددها الإسلام للحجاج أهمية تجارية، حيث أصبحت أسواق رائجة يتوافد عليها ويجتمع بها الحجاج قبل توجههم إلى مكة لأداء مناسك الحج والعمرة. ومن المتوقع أن ظهور الأسواق الجديدة قلل من دور الأسواق القديمة كعكاظ ومجنة وذي المجاز.

وتعددت مناطق الجذب الاقتصادي لأسواق مكة فنجد باب البشارة في الحرم كانت تفد إليه الأسواق من المشرق والجنوب، ودور المصريين ومنازلهم من جهة الغرب، ويقع المسعى بين الصفا والمروة في السوق الشرقي، وخلف هذين السوقين آخران إلى آخر المعلاة بينها منافذ. فمن دخل من العراق وأراد باب بني شيبه فيتيامن، وليسلك سوق رأس الردم ولا يسلك سوق الليل. ومن أراد من المصريين فإذا بلغ الجراحية خارج البلد عطف على اليسار إلى الثانية، ثم انحدر على المقابر إلى مدخل العراقيين. ويدخل إليها من ثلاثة وجوه، أبواب منى نحو العراق دربان ثم درب العمرة ثم درب اليمن بالمسفلة، الجميع مصفحة بالحديد والبلد محصن. وأبو قبيس مطل على المسجد يصعد إليه من الصفا في درج. وقد أحاط بالطواف أميال من الصفر وخشبات فيها قناديل معلقة، ويجعل فوقها الشمع للموك مصر واليمن وغيرهم⁽⁴⁾.

(1) الأزرقي: أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ط3، ج1، ص188.

(2) يوم التروية هو اليوم الثامن قبل الوقوف بعرفة وقد سمي بيوم التروية لأن الحجاج كانوا يتروون فيه من الماء، حيث يسقون إبلهم إستعداداً للإنتقال إلى عرفة التي لم يكن بها ماء. الفاكهي: أخبار مكة، ط1، ج3، ص189؛ ابن منظور: لسان العرب، ج2، ص327؛ عتر: الحج والعمرة، ص211.

(3) الأزرقي: أخبار مكة، ج1، ص188 - 189؛ الفاسي: العقد الثمين، ج1، ص213، 214.

(4) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص37.

ومن الأسواق مني وهو يزدهر كل عام في أيام الموسم (الحج)، ويجتمع فيه التجار من الشام واليمن وغيرها من المناطق جالبين معهم سلعهم ومنتجاتهم⁽¹⁾.

وهناك أيضاً مصدر دخل قوي يتمثل في كراء العقارات والمباني، حيث أشار أحد المؤرخين بقوله: «وبمني بيوت هي كالقرية؛ منها ما هو مسكون، ومنها ما هو برسم البضائع، تكرر بأجور طائلة»⁽²⁾؛ أي بنظام الأجور.

ومن الأسواق بين الصفا والمروة سوق مسيل، فيه سوق عظيمة، يباع فيها الحبوب واللحم والتمر والسمن، وسواها من الفواكه، ويذكر أن الساعين بين الصفا والمروة لا يكادون يفرغون من زحمة هؤلاء الباعة، التي ليس بمكة سوق منتظمة سواها إلا البزازين والعطارين، عند باب بني شيبية تحت السوق المذكورة وبمقربة تكاد تتصل بها، فهي سوق حافلة بجميع الفواكه وغيرها من الحبوب وسائر المبيعات الطعمية⁽³⁾. ومن أسواق الحرم سوق العطارين وهي سوق جميلة البناء ولها عطارون⁽⁴⁾.

ويذكر العياشي، أنه عند زيارته لمكة المكرمة، دخل سوق منى فرأى أصناف البضائع، ذوات الأثمان، وصنوف التجارات، وتزاحم الناس على شراء هذه البضائع رجاء بركة الشراء من بركة هذا المكان، وكان التجار يرددون: من شري شيئاً من هذا المكان، وجد فيه البركة، وهذا الموقع شريف ومحل مبارك، يأتونه الناس من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم⁽⁵⁾.

وهناك أنواع من الأسواق بمكة المكرمة يقال لها الأسواق الشامية، في شال الحرم وهي أشبه بالأسواق التركية، لها أسقف من خشب، وشوارعها ضيقة فتضيق بالمارين خصوصاً عند مرور الجمال، وهناك أيضاً الأسواق الصغير، جل ما فيه هو الغذاء كالخبز واللحوم والبقول الجافة والخضر التي يؤتى بها من الأودية المحيطة بمكة المكرمة كوادي فاطمة شمالاً، ووادي الليمون شرقاً، ووادي العبيدية والحسينية جنوباً، ومنها ما يؤتى به من الفاكهة من جهة الطائف، وترى في هذا السوق دكاكين كثيرة، يبيعون فيها السمك المقلي،

(1) العمري: مسالك الأبصار، ص 115.

(2) العمري: مسالك الأبصار، ص 115.

(3) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة: ص 121؛ وابن جبير: رحلة ابن جبير، ص 85.

(4) ناصر خسرو: سفرنامه، ص 120.

(5) الجاسر: مقتطفات من رحلة العياشي «ماء الموائد»، ص 67.

وفي شرق المسجد سوق الليل؛ وهو سوق كبير مختلط فيه جميع احتياجات الحاج، وفي جميع هذه الأسواق المذكورة حركة عجيبة لا تنقطع، يجنى من ورائها أرباح طائلة⁽¹⁾.

فهذه الأسواق يستفيد منها البائعون؛ حيث يبيعون السلع التي يجلبونها، ويستفيد أيضا أهل الأشغال من العبيد والحمالون والحطابون والهارون والجالون والسقاؤون والخدامون⁽²⁾. إن كل ما يصرفونه الحجاج في موسم الحج فقط يكفي لكي يأتي بأرباح طائلة، فهو يشتري الأدوات اللازمة للإحرام في الحج، وكذلك يشتري القوت اليومي الذي يعيشه، وكذلك السكن، وكذلك ما يشتريه من المقتنيات التي يعود بها لأهله حينما يرجع، فكل ذلك له عوائد ربحية كبيرة جدا، يرجع بالنفع على مكة وأهلها⁽³⁾.

المطلب الثاني: الصادرات والواردات:

اشتهرت مكة بمنتجاتها التي كانت تستوردها من اليمن والهند عن طريق البحر الأحمر⁽⁴⁾. كما كانت تستورد العطور وتستورد أيضا من الطائف التي اشتهرت بأزهارها وورودها المتنوعة والتي يستخرج ويصنع منها العطور⁽⁵⁾.

كما أن بعض الحجاج كانوا يجلبون معهم عددا من السلع كالطيب وغيرها للتجارة، كما كان البعض الآخر يشترونه كهدايا عند مغادرتهم لمكة والمدينة وذلك بعد قضائهم لفريضة الحج⁽⁶⁾.

(1) البتوني: الرحلة الحجازية لولي النعم الحاج عباس حلمي باشا الثاني خديو مصر، ص135.

(2) البتوني: الرحلة الحجازية، ص136.

(3) البتوني: الرحلة الحجازية، ص136.

(4) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، بيروت: 1971م، ج7، ص293.

(5) عبدالجبار منسي العبيدي: الطائف ودور قبيلة ثقيف العربية، طاء، الرياض: دار الرفاعي للنشر، 1982م، ص51-52.

(6) ابن تيمية: شرح العمدة، ج2، ص88-90. وهنا يذكر ابن تيمية أن الإسلام اشترط لمن يحمل الطيب للتجارة وهو محرم أن يستتره ولا يشمه. فإن شمه فعليه كفارة. الطبري: القرى، مقدمة المحقق مصطفى السقا، ص8. وقد نهى سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب، الوليد بن عبدالمك عن استعمال الطيب قبل طواف الإفاضة. الأصبحي، الموطأ، ج1، ص329. وعن حكم الطيب خلال الإحرام. برهان الدين إبراهيم بن فرحون، إرشاد السالك إلى أفعال المسالك، تحقيق: محمد بن الهادي أبو الأجنان، قرطاج: بيت الحكمة، (1989م)، ج2، ص202-205.

تعددت أنواع السلع الجلوبة لمكة، يقول ابن بطوطة: «كل طرفة تجلب لها، وثمرات كل شيء تجبى لها، ولقد أكلت بها من الفواكه العنب والتين والخوخ والرطب وما لا نظير له في الدنيا، وكذلك البطيخ المجلوب إليها، والرمان لذيد الطعم، وكل ما يتفرق من البلاد من السلع فيها اجتماعه هذا لطف الله بسكان حرمة الأمين و مجاوري بيته العتيق»⁽¹⁾. ومن السلع الجلوبة أيضا الخشب، فعلى قلة الأشجار التي تستخدم في بناء البيوت في مكة، فإن أكثر بيوت مكة تبنى سقوفها من الأخشاب، فذكر غلام في رحلته «ورغم أن الخشب نادر جدا في الحجاز، فإن أهل مكة يستعملون الخشب كثيرا في بناء بيوتهم، ويقال إن معظم الخشب يأتي من جاوة»⁽²⁾. وفواكه مكة ويقولها من الطائف⁽³⁾.

وقد أبدى ابن جبير تعجبه من وفرة بعض السلع كالفواكه، ظاننا أنها غير متوفرة في مكة، وأنها لا توجد إلا في الأندلس فيذكر: «وأما الأرزاق والفواكه وسائر الطيبات، فنكنا نظن أن الأندلس اختصت من ذلك بحظ له المزية على سائر حظوظ البلاد، حتى حللنا بهذه البلاد المباركة فألفيناها تغض بالنعيم والفواكه»⁽⁴⁾، فهذا دليل على نقل الفواكه والسلع، ووجدها قد اختصت بالنعيم والفواكه، فوجد التين والعنب والرمان والسفرجل والخوخ والجوز والبطيخ والأترج والقثاء والخيار والجزر والكرنب، بالإضافة إلى جميع البقول كالباذنجان واليقطين والسلجم (اللفت) والجزر والكرنب إلى سائرهما، وأكثر هذه البقول كالباذنجان والقثاء، لا يكاد ينقطع مع طول العام، إلى غير ذلك من الرياحين العبقية والمشومات العطرة، وذلك من عجيب ما شاهدناه مما يطول تعداداه وذكره، ولكل نوع من هذه الأنواع فضيلة موجودة في حاسة الذوق يفضل بها نوعها الموجود في سائر البلاد، فالعجب من ذلك يطول⁽⁵⁾.

ومن أعجب ما اختبره ابن جبير البطيخ المتوفر طوال العام، وذلك لأن رائحته من أعطر الروائح وأطيبها، يدخل به الداخل عليك فتجد رائحته العبقية قد سبقت إليك، فيكاد يشغلك الاستمتاع بطيب رياه عن

(1) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة: ص 132.

(2) مهر: يوميات رحلة في الحجاز، ص 72.

(3) ابن حوقل: صورة الأرض، ص 39.

(4) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص 92، 121.

(5) المصدر نفسه، ص 97.

أكلك إياه، حتى إذا ذقته خيل إليك أنه شيب بسكر مذاب أو بجني النحل اللباب⁽¹⁾، وقد دافع ابن جبير عن عدم المبالغة في رأيه بقوله: «ولعل متصفح هذه الأحرف يظن أن في الوصف بعض غلو، كلا لعمرك ! إنه لأكثر مما وصفت و فوق ما قلت»⁽²⁾.

كما شاهد بعض الرحالة بأعينهم بعض تلك المنتجات: «رأيت بها الخيار والأترج والبادنجان، وكانت كلها طازجة، وقد أثمر بها العنب وبيع بالأسواق، وكان البطيخ كثيراً، وكانت الفاكهة متوفرة طول الشتاء فلم تنقطع أبداً». وبها عسل أطيب من الماذي (العسل الأبيض) المضروب به المثل والمعروف بالمسعودي، وأنواع اللبن بها في نهاية الطيب، وكل ما يصنع منه من السمن، فإنك لا تكاد تميزه من العسل طيباً ولذادة⁽³⁾.

ويجلب لها تجار اليمن -يقال لهم ونسبة إلى جبال السراة في اليمن- الزبيب الأسود والأحمر واللوز، والحنطة وسائر الحبوب؛ مثل اللوبيا إلى ما دونها، ويجلبون السمن والعسل والزبيب واللوز، فتجمع ميرتهم بين الطعام والإدام والفاكهة، ويصلون في آلاف من العدد رجالاً وجمالاً موقرة بجميع ما ذكر، فيرغدون معاش أهل البلد والمجاورين فيه، يتقوتون ويدخرون، فيعد منها الناس ما يكفيهم لعامهم إلى مرة أخرى، وقصب السكر يجلب أيضاً من حيث تجلب البقول.

وكانت مكة المكرمة منطقة جذب وقحط، شديدة الحرارة، ولذلك فهي تعتبر منطقة طرد سكاني، ولكن الله جل جلاله امتن على أهلها بعد دعوة إبراهيم عليه السلام، فكان الحجاج يأتونها من جميع الأقطار، وكذلك الرحالة بعضهم يقصدها للحج، ويدون ما يعرفه وما يشاهده فيها، من مشرق الأرض ومغربها، وبقاء بعض هؤلاء الرحالة والقاصدين لمكة لأشهر بل لسنوات، يجعلهم يتخذون أحياناً أعمالاً حرفية ويديوية، وهذا يعد من العوامل المساعدة على ازدهار الاقتصاد بمكة المكرمة لما يحملونه من خبرات ومعارف من أقاليم أخرى متنوعة.

ومن جانب آخر ذكر القرآن الكريم رحلة الشتاء والصيف التي كانت تقوم بها قريش، والتي تدرس الآن في جامعات أوروبا تحت مسمى التاريخ الاقتصادي.

(1) المصدر نفسه، ص 98.

(2) المصدر نفسه، ص 98.

(3) المصدر نفسه، ص 98، 121.

فيتضح أن مكة المكرمة، مدينة تجارية من الدرجة الأولى، لأنها على طريق الشمال والجنوب، وطريق تبادل السلع التي تأتي إليها من جميع الأقطار وفي موسم الحج تحديداً⁽¹⁾ فتجارة مكة المكرمة، في كل ما تنتجه الجزيرة العربية -إذا صح القول- يعود إلى الموقع الجغرافي الذي كانت مكة المكرمة تنعم به، والمكانة التي كانت تشهدها مكة المكرمة في نفوس الأمة الإسلامية فهي ذات طابع جذب من الدرجة الأولى من جانب، ومن جانب آخر فهي مجمع للأمة، تقام فيها شعائر الإسلام، ويجتمعون فيها في المواسم ويتبادلون السلع بالبيع والشراء.

ولما كانت مكة المكرمة بلداً غير ذي زرع، فقد اعتمدت على التجارة الخارجية، وما يجلب إليها من الخارج، وقد كانت مكة المكرمة، قبل القرن السادس الهجري، تعتمد على التجارة الداخلية؛ حيث كانت التجارة الخارجية في يد اليمن⁽²⁾. وبعد القرن السادس الهجري مارسوا التجارة الخارجية، فارتفع بذلك أفقهم الاقتصادي بسبب اتصالهم بالأمم والشعوب من حولهم، فقط عرفوا عن النبط وأهل الحيرة الكتابة، وعرفوا عن الأبحاش بعض الأدوية، وعلاقتهم مع مصر أيضاً قديمة جداً؛ حيث ذكر أنهم نقلوا لها حاصلات الجنوب من المر والبخور الذي كان لازماً لمعابدها، وذكر أيضاً أنهم وصلوا إلى مصر وشاهدوا أنهارها وأهراماتها.

فيتضح أن أهل مكة كانوا يستوردون ويصدرون البضائع، كما كانت لهم علاقات جيدة مع الشعوب المجاورة وغير المجاورة؛ ففي المواسم يجتمع أهل المشرق والمغرب، فيباع فيها الشيء الكثير، فضلاً عما يجنى من الذخائر النفيسة كالجواهر والياقوت وسائر الأحجار، ومن أنواع الطيب والمسك والكافور والعنبر والعود، والعقاقير الهندية، إلى غير ذلك مما يجلب من الهند والحبشة، والأمتعة العراقية واليمانية، والسلع والبضائع المغربية، كل هذا في ثمانية أيام بعد الموسم فلا يوجد على الأرض كلها سلعة من السلع إلا توجد فيها مما يفد مع قوافل الحجاج⁽³⁾.

(1) الحليسي: رحلة الشتاء والصيف، ص 130.

(2) الحليسي: رحلة الشتاء والصيف، ص 130.

(3) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص 97.

المطلب الثالث: العملات والتعاملات التجارية:

التعاملات التجارية:

على الرغم من قصر مواسم الحج فقد كانت فترة رخاء اقتصادي، تتسم بنشاط كبير في المعاملات المالية. فقد تعددت وتنوعت الأنشطة المالية لقدم الآلاف من الحجاج والتقاء مصالح الناس الاقتصادية في هذه المواسم العظيمة. فليس غريباً والحالة هذه إذا وجدت أنواع من المعاملات المالية والتجارية، كقضاء الدين، والمراجعة التجارية، وسيولة ووفرة الأموال، والادخار والاقتراض. وليس أدل على أهمية مواسم الحج من أنها كانت مناسبة إعلانية لسداد حقوق الدائنين، فقبل أن يقسم عبدالله بن الزبير ورث والده كان ينادي بالموسم أربع سنين قائلاً: «ألا على الزبير دين فليأتنا فلنقضيه»⁽¹⁾.

والملاحظ أن مواسم الحج كانت فرصة للتشاور والمراجعة في الأمور التجارية والمالية. فقد كان سفيان بن سعيد الثوري يستثمر رأس ماله وهو مبلغ مائتي دينار، حيث يوزعه أجزاء على بعض رفقائه ليتاجروا له، ثم يقابلهم في موسم الحج فيحاسبهم ويأخذ ما ربحوا⁽²⁾.

وفي العصر الأموي حرص الخلفاء الأمويون على كسب ود أهل الحجاز فكانوا يغدقون عليهم الأموال الكثيرة⁽³⁾. وكذلك عندما نجح عبدالله بن الزبير رضي الله عنه، في السيطرة على الحجاز والعراق ومصر وبعض أجزاء الشام، أصبحت الأموال تتدفق على الحجاز من هذه الأمصار⁽⁴⁾.

وعندما عادت الحجاز للدولة الأموية، سار بنو مروان على سياسة معاوية بن أبي سفيان في إغداق الأموال عليهم لكسب ودهم ورضاهم⁽⁵⁾.

كما كان بعض الحجاج من ميسوري الحال يساهمون في رفع العوز والحاجة عن أهل مكة، ففي إحدى السنوات التي حج فيها الحجاج بن

(1) ابن سعد: الطبقات، ج3، ص109. الأصبهاني: أبو نعيم أحمد بن عبدالله، (ت230هـ)، حلية الأولياء، القاهرة، ج1، ص91: ابن عبدربه: العقد الفريد، ج5، ص73: ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج1، ص328: ابن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق، ج5، ص371.

(2) ابن سعد: الطبقات، ج6، ص372: الذهبي: تاريخ الإسلام 161-170هـ، ص235.

(3) ابن سعد: الطبقات، ج3، قسم 1، ص77: المسعودي: مروج الذهب، 2/33 - 333.

(4) البلاذري: أنساب الأشراف، ج2، قسم 2، ص31.

(5) المسعودي: مروج الذهب، 3/115.

يوسف الثقفي أصابه وأهل مكة مجاعة فاحتاج للطعام، فلم يجد بدا من أن يستدين من بعض أعيان أهل العراق ممن قدموا للحج إبلًا وأغنامًا ثم قسمها على أهل مكة⁽¹⁾.

لقد كانت مواسم الحج تتميز بسيولة في الأموال ووفرة في تداولها، حيث كانت تنصب على إقليم الحجاز من كافة أرجاء الدولة الإسلامية. وقد كانت هذه الأموال تأتي نقداً مع الحجاج وبطرق شتى وقد بلغ من اهتمام المسلمين بأداء فريضة الحج أن بعضهم كان يدخر ويوفر الأموال، حيث يمتنع الفرد المسلم عن إنفاق نسبة من دخله، وتصبح جزءاً من مدخراته يتطلع لإنفاقها على تكاليف فريضة الحج.

وتشير المصادر إلى هذا الميل للإدخار بين المسلمين؛ فقد كان سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب⁽²⁾ يقتطع جزءاً من عطائه ويعده للحج⁽³⁾، كما ادخر الليث بن سعد⁽⁴⁾ ثلاثمائة دينار وأعدّها للحج⁽⁵⁾.

ومع أن الإسلام اشترط لوجوب الحج الإستطاعة، وهي المقدرة المالية والبدنية، ولا يجب على المسلم أن يقتصر للحج، بل فضل قضاء الدين على الحج⁽⁶⁾، فقد بلغ من حرص المسلمين على تأدية هذه الفريضة أن بعضهم كانوا يستدينون فيحجون ويعتمرون. فقد كان محمد بن المنكدر⁽⁷⁾ يستدين ويحج⁽⁸⁾، ويذكر ابن سعد أن بعض المسلمين كان يموت ولا يقضى عنه دينه الذي أنفقه على تكاليف فريضة الحج⁽⁹⁾.

- (1) الفاكهي: أخبار مكة، ج3، ص ص137-138.
- (2) هو أحد فقهاء المدينة توفي سنة 106هـ. ترجمته عند ابن سعد: الطبقات، ج6، ص ص195 - 202؛ الذهبي: تاريخ الإسلام (101-120هـ)، ص ص88-93.
- (3) ابن عساکر: تهذيب تاريخ دمشق، ج6، ص55.
- (4) الليث بن سعد (92-165هـ): هو مفتي مصر في زمانه وقد كان ثقة كثير الحديث. ابن سعد: الطبقات، ج7، ص517.
- (5) ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج2، ص311.
- (6) نهى الرسول ﷺ رجلاً أن يقتصر للحج. الطبري: القري، ص267، كما يذكر ابن تيمية بأن وجوب قضاء الدين متقدم على وجوب الحج. ابن تيمية: شرح العمدة، ج1، ص152.
- (7) محمد بن المنكدر: هو أحد الزهاد والعابدين توفي سنة 130هـ. الذهبي: تاريخ الإسلام، ص ص253-258.
- (8) ابن قتيبة: المعارف، ص261؛ الفاكهي: أخبار مكة، ج1، ص412؛ الأصبهاني: حلية الأولياء، ج6، ص255؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ص255.
- (9) ابن سعد: الطبقات، ج5، ص128.

لقد كان في الحج إلى مكة مشقة مالية وجسمية، ولهذا اعتبره بعض المسلمين من أفضل أعمال الخير، يقول جابر بن زيد: «نظرت في أعمال البر فإذا الصلاة تجهد البدن ولا تجهد المال، والصيام مثل ذلك، والحج يجهد المال والبدن: فرأيت الحج أفضل من ذلك كله»⁽¹⁾.

تعريب النقود:

ضربت الدراهم الإسلامية في العصر الأموي في عهد الخليفة معاوية بن ابي سفيان وعليها صورته متقلدا سيفاً، ولكن لم يعثر على أي منها بسبب الإصلاح النقدي الذي قام به الخليفة عبد الملك بن مروان، ولما اجتمع الأمر لزياد بن ابيه في ولايتي البصرة والكوفة في عهد الخليفة معاوية ضرب دراهم مماثلة لدراهم معاوية، ولم يكن لخلفاء معاوية أمثال يزيد بن معاوية، ومعاوية الثاني، ومروان بن الحكم محاولات فعالة وإيجابية في ميدان ضرب النقود أو تعريبها، إلا أن بعض الثوار والمطالبين بالخلافة فطنوا إلى أهمية العملة لكونها مظهراً من مظاهر السلطان وسمة من سمات السيادة ف ضربوا بأسمائهم عملات على غرار ما فعله الخلفاء تعبيرا عن استقلالهم، ومن هؤلاء قطري بن الفجاءة الخارجي، وعبدالله بن الزبير، وأخوه مصعب الذي ضرب الدراهم عام 70 هـ على ضرب الأكاسرة، وعليها بركة، وعليها الله، وذكر أن عبدالله بن الزبير أول من ضرب الدراهم المستديرة ونقش على احد وجهي الدراهم «محمد رسول الله»، وعلى الوجه الآخر «أمر الله بالوفاء والعدل» غير أن هذه العملات لم تستكمل عناصرها من حيث إصلاحها وتعريبها إلا في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان⁽²⁾.

بدأ عبد الملك بن مروان تعريب السكة وتوحيدها، حيث لم تصدر العملات الإسلامية الخالصة إلا في عهده الذي شهد ظاهرة صبغ الدولة بصبغة عربية في جميع الشؤون الإدارية والمالية والفنية، وعلى هذا النحو ظهر في عام (77 هـ/696م) أول نقد إسلامي خالص خال من التأثيرات المسيحية كضرورة من ضرورات الاستقرار الاقتصادي، قال ابن الأثير في حوادث عام 76 هـ/695 م، وفي هذه العام ضرب عبد الملك الدنانير والدراهم، وهو أول من أحدث ضربها في الإسلام، فانتفع الناس بذلك. وكان سبب ضربها أنه

(1) ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج3، ص237؛ الفاكهي: أخبار مكة، ج1، ص412.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج3، ص252-253.

كتب في صدور الكتب إلى الروم: « قل هو الله أحد»، وذكر النبي ﷺ مع التاريخ، فكتب إليه ملك الروم: إنكم قد أحدثتم كذا وكذا، فأتركوه وإلا أتاكم في دنائنا من ذكر نبيكم ما تكرهون، فعظم ذلك عليه. فأحضر خالد بن يزيد فاستشاره فيه، فقال: حرم دنائيرهم، واضرب للناس سكة فيها ذكر الله تعالى. ف ضرب الدينار والدرهم⁽¹⁾.

ومن النقود المتداولة في مكة الدينار⁽²⁾، والنقود الأخرى المختلفة، ولأهلها أموال صامته وأحوال فاشية⁽³⁾، فلأهل مكة المطوقة وهي العثريّة ثلثا المثقال، تؤخذ كدراهم اليمن عدداً، وتفصل العثريّة حتى ربما كان بينها دريهم، ودينار عدن قيمته سبعة دراهم، وهو ثلثا البغوي توزن ولا تعد، ودينار عان ثلاثون غير أنه يوزن. والدرهم المستعملة في الإقليم تسمى بمكة المحمدية⁽⁴⁾.

المكاييل في مكة: الصاع⁽⁵⁾ والمد⁽⁶⁾ والمكوك⁽⁷⁾، فالمد ربع الصاع والصاع ثلث المكوك، هذا بالحجاز وهي مختلفة، وأرطالهم بمكة المن⁽⁸⁾، المعروف في جميع بلاد الإسلام إلا أنهم يسمونه⁽⁹⁾ رطلاً⁽¹⁰⁾. المستعمل منها يزن خمسة أرطال وثلثا. وأما الصاع الذي قدره عمر بمشهد الصحابة وكان يكفر به أيانه فهو ثانية أرطال، إلا أن سعيد بن العاصي رده إلى خمسة وثلث، ولهم بالمراكب صاعان يعطون بأحدهما جرايات الملاحين ويتعاملون بالكبير، ورطل يثرب إلى قرح مائتا درهم، ورطل اليمن بغدادي، وبقية الإقليم بغدادي، ولهم البهار وهو ثلاثمائة رطل⁽¹¹⁾.

(1) الطبري: الرسل والملوك، ج2، ص152.

(2) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص125.

(3) الإدريسي: نزهة المشتاق، ص23.

(4) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص50.

(5) الصاع = 2.02 غرام. أبو حاقه: معجم النفاثس الوسيط، ص1206.

(6) المد = 5.10 غرام. معجم النفاثس، ص1207.

(7) المكوك = 3.06 غرام. معجم النفاثس، ص1207.

(8) المن = 773.5 غرام. معجم النفاثس، ص1207.

(9) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص26.

(10) الرطل: الرطل العراقي = 382.5 غرام، الرطل الشامي = 1785 غرام الرطل =

229.28 غرام. أبو حاقه: معجم النفاثس، ص1206.

(11) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص29-50.

المبحث الثالث

أثر التنظيمات على التصنيع والحرف والمهن

المطلب الأول: التصنيع:

دباغة الجلود:

ان احتراف دباغة الجلود وصناعتها قد عرفت في أجزاء عديدة من شبه الجزيرة العربية من عصور مبكرة قبل الاسلام، فلم يكن استخدامها والتجارة فيها على نطاق المستوى المحلي والاقليمي فقط، انما كانت سلعة عالمية يتاجر فيها تجار شبه الجزيرة، وخصوصا الحجازيين، الى أنحاء بعيدة ومتعددة من العالم⁽¹⁾.

وقد أفادتنا بعض المصادر الاسلامية المبكرة عن المدن الحجازية التي كانت ذات شهرة عالمية في هذه الحرفة، فيذكر الهمداني⁽²⁾، والبكري⁽³⁾ ان مدينة الطائف كانت المدينة الرئيسية في دباغة وتصنيع وتجارة الجلود الجيدة النوعية. الادريسي⁽⁴⁾، ورد ذكرها كذلك عند ابن الجاور⁽⁵⁾، وياقوت الحموي⁽⁶⁾ وقد وافق الهمداني والبكري على ما ذكرنا ثم اضافوا ان سلعة الجلود المدبوغة في الطائف كانت من السلع الأساسية التي يعتمد عليها المجتمع الطائفي وذلك بترويجها والتجارة فيها ليس في شبه الجزيرة فحسب ولكن في أماكن عديدة من العالم.

الا أن الطائف لم تكن هي الوحيدة في الحجاز التي مورست فيها مهنة دباغة

(1) الجاحظ: التبصر بالتجارة، تحقيق:، حسن حسنى عبدالوهاب بيروت: 1966م، ص32؛ جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ص537، 587.

(2) صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد الأكوخ الحوالى، الرياض: 1392هـ / 1972م.

(3) جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك: الكويت: 1397هـ / 1977م، ص27، 122.

(4) « جزيرة العرب من نزهة المشتاق للادريس » ص 511 تحقيق: ابراهيم شوكت.

(5) صفة بلاد اليمن ومكة وبلاد الحجاز المسمى تاريخ المستبصر، ج1، ليدن: 1951م، ص250.

(6) معجم البلدان ج2، بيروت: 1376/1957م، ص9.

الجلود، وانما وجد في مكة وجدة والمدينة من يزاول هذه الحرفة، لكن لم تكن في مستوى النوعية وكثرة الانتاج التي كانت في مدينة الطائف⁽¹⁾، كما ان هذه المدن نفسها لم تكن في مستوى واحد من حيث الجودة والانتاج للجنود المدبوغة، وتأتى مكة في المرتبة الثانية بعد الطائف، غير أنها تُعد السوق المركزي لترويج وتصدير انتاج أهالي الطائف من الجلود المدبوغة الجاهزة، ثم ان بعض الطائفيين أنفسهم قد يذهبون الى مكة للاستقرار بها ومزاولة حرفة الدباغة الا أن مثل هذا الانتقال من الطائف الى مكة لم يؤثر على سمعة الطائف في أن تتصدر المنطقة الحجازية في مزاولة هذه الحرفة⁽²⁾.

وبما أن أي حرفة أو صناعة تحتاج الى عوامل مساعدة ومواد أولية، فان دباغة الجلود تحتاج الى الجو الملائم للدباغة، كأن يكون جافاً وذا هواء معتدل، ثم يستلزم وجود المادة الأولية للدباغة الا وهي جلود الحيوانات الصالحة لمزاولة حرفة الدباغة، ثم المواد والمحتويات التي تضاف الى الجلود أثناء دباغتها وعادة تكون من أوراق ولحاء بعض الأشجار المخصصة لمثل هذه المهنة. واذا كانت هذه اللوازم التي يحتاج اليها من يحترف مهنة الدباغة، فإنها لحسن الحظ كانت متوفرة في الحجاز وخصوصا في مدينة الطائف وما يحيط بها، فهي ذات جو عليل جداً لممارسة الدباغة ثم ان الحيوانات والأشجار الضرورية للدباغة كانت موجودة وبكثرة ليس في الطائف وضواحيها وانما في أماكن عديدة من أرض الحجاز⁽³⁾، ولهذا لم يكن هناك أي عقبة لمزاولة مهنة الدباغة في الطائف وغيرها من المدن الحجازية.

ولكن نشاط حرفة الدباغة في المدن الحجازية ربما كانت واسعة ونشيطة حتى تستهلك جميع جلود الحيوانات التي كانت موجودة في المنطقة، والدليل على ذلك أن عدداً من المصادر تذكر نشاط استيراد الجلود غير المدبوغة من غير مناطق الحجاز حتى يتم دباغتها في كل من مكة والطائف، وكانت المدن

(1) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج 5، بيروت: 1376/1957م، ص500، 52232؛ الأزرقى: أخبار مكة، تحقيق: رشدى ملحس، ط2، ج2، مكة: 1203هـ/1983م، ص26332؛ الهمداني، صفة، ص326، 7.

(2) ابن سعد: الطبقات، ج5، ص52232؛ الأزرقى: المصدر السابق نفسه32؛ الهمداني: صفة، ص26032؛ المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص79.

(3) الجاحظ: التبصر، ص32؛ الهمداني: صفة، ص260، 363؛ عرام السلمي: كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها، تحقيق: عبدالسلام هارون القاهرة: 1372/1955م، ص203، 231؛ المقدسي: أحسن التقاسيم، ص79.

اليمنية وكذلك المدن العراقية وبلاد فارس وخراسان من انشط البلاد التي تصدر هذه السلعة الى الحجاز حيث يتم دباغتها هناك ثم تصديرها مرة ثانية الى أنحاء العالم⁽¹⁾.

أما المواد الأساسية التي تضاف الى الجلود أثناء دباغتها، والتي يمكن الحصول عليها من بعض الأشجار والنباتات، فنجد كلا من الدينوري⁽²⁾ وابن سيده⁽³⁾ يذكران قائمة بأسماء الأشجار والنباتات التي تستخدم أوراقها في حرفة ودباغة الجلود، ولم يكونا يكتفيان بذكر الأسماء فقط وإنما استطرادا في وصف كل شجر أو نبات ونوعية الجلد الذي يتم دبغه مع التوضيح لبعض الأشجار المهمة والتي تكون أكثر صلاحية من غيرها في دباغة الجلود واعطاء صفات جيدة كالنعومة، واللون لجلد المذبوغ ومن يطلع على أسماء الأشجار والنباتات التي ذكرها كل من الدينوري وابن سيده، فإنه سيجدها جميعا في شبه الجزيرة العربية وخصوصاً أراضي الحجاز مع العلم أن من أهم وأحسن الأشجار التي تستخدم والمتواجدة بوفرة في المناطق الحجازية، هي أشجار القرظ⁽⁴⁾ التي لا تزال تغطي أجزاء واسعة من أودية وجبال الحجاز والتي كانت من أهم المواد الأساسية التي يعتمد عليها العاملون في مهنة الدباغة، إذ كانوا يذهبون لجمعها من أماكنها واحضارها الى الأماكن التي تمارس فيها المهنة، أو أنه كان هناك من هو متخصص في جمع الأخشاب والأشجار المتنوعة ومن ضمنها شجر وأوراق القرظ الذي يحضر الى الأسواق والأماكن المتخصصة في بيعها فيتصل الدباغون بهؤلاء المهنيين ويشترون منهم ما أرادوا لكي يمارسوا حرفتهم في الدباغة⁽⁵⁾.

(1) ابن خرداذبه، كتاب المسالك والممالك تحقيق: دى غوى ليدن: 1306هـ/1889م، ص35؛ الأصفهاني: بلاد العرب، تحقيق: حمد خسرو؛ وصالح أحمد العلي الرياض: 1388هـ/1968م، ص 308؛ ابن قدامة: كتاب الخراج، ص؛ ابن الجاور: تاريخ ج1، ص13، 2، 97.

(2) الدينوري: كتاب النبات، الجزء الثالث والنصف الأول من الجزء الخامس، تحقيق: بى ليون؛ ويسپادن: 1392/1972م، ص102-121.

(3) كتاب المخصص، ج2 بولاق: 1316هـ/1898م، ص102-116.

(4) القرظ، نوع من الأشجار التي تنبت في الجبال والأودية، وله سيقان كبيرة وأوراق تشبه ورق التفاح، الدينوري: النبات، ج3، ص 105، ابن سيده: المخصص الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، حققه مجموعة من العلماء، ج20، الكويت: (1983م)، 3/ ص256، ص، ج 2، ص105.

(5) الدينوري: النبات، ج3، ص105؛ عرام: أسماء جبال، ص399، 201، 203، 207، 217؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج5، ص237، 522؛ ابن الجاور: تاريخ، ج1، ص25، 32.

وحيث أن المصادر الأولية أكدت على نشاط حرفة الدباغة في المدن الحجازية خلال العهود الإسلامية الأولى، إلا أنه لا يزال لدينا بعض الغموض عن الطرق المتبعة، والخطوات التي تتخذ أثناء عملية الدباغة، ثم أنالا ندرى هل كان يعمل الدباغون في كل من مكة والطائف وغيرها على شكل نقابات وجماعات يتعاونون لمزاولة هذه الحرفة، أم أنهم فقط كانوا يعملون على شكل أفراد أو أسر مستقلة بعضهم عن الآخر، مع العلم أن الدينوري وابن سيده في فصليهما اللذين خصصاهما للدباغة زودانا بمعلومات قيمة عن بعض الخطوات التي تتبع أثناء الدباغة، وزيادة على ذلك فقد ذكرنا الأشجار وبعض الأدوات التي استخدمها الدباغون أثناء مزاولة أعمالهم⁽¹⁾.

ومع وجود هذا كله فالنقص لا يزال واضحاً وخصوصاً في الكيفية التي كانت تتم بها عملية الدباغة ثم مدى ثقلها الاقتصادي وعلاقتها بالأسواق والحرف الأخرى، ثم أيضاً التحديد والتعريف بالأماكن التي كانت تقام فيها المداغ، علماً بأن عملية الدباغة قد تسبب مخلفات قذرة وكذلك رائحة غير طيبة، فلهذا لا ندرى عن العاملين في هذه الحرفة وكذلك القائمين على الحفاظ على نظافة المدن، هل كانوا يحتاطون لمثل هذه الأمور أم لا.

وطالما أن حرفة الدباغة تمارس بشكل جيد في مناطق الحجاز لهذا بد من أن يكون هناك حرفة الخرازة التي هي في الأساس تابعة لمهنة الدباغة، فبعد عملية الدبغ تأتي صناعة هذه الجلود المدبوغة وتشكيلها على نمط أدوات مختلفة، وقد يكون هناك من فئة الدباغين من يجيد حرفتي الدباغة والخرازة معاً، أو أن الخرازين المتخصصين يقومون بالاتصال بالدباغين والتعاون معهم لكي يحولوا منتجاتهم إلى أدوات أكثر صلاحية للاستعمال، فتروى لنا بعض المصادر عن تواجد الخرازين وبكثرة في المدن الحجازية، وخصوصاً في مكة حتى أنهم صاروا من كثرتهم يسيطرون على أماكن أصبحت خاصة بهم بل وعرفت بأسواق أو أزقة الخرازين في أماكن متعددة من مكة⁽²⁾. في حين أن مصعب ابن الزبير يتحدث عن هؤلاء الحرفيين في المدينة بمثل الصورة التي تحدثت بها المصادر عن مكة⁽³⁾.

-
- (1) الدينوري: النبات، ج3، ص102-121؛ ابن سيده: المخصص، ج2، ص102-116.
(2) الأزرقى: أخبار، ج2، ص255-263؛ الفاكهي: أخبار مكة: ص323؛ الأصفهاني: كتاب الأغاني، ج3، القاهرة: 1383هـ / 1963م، ص326.
(3) مصعب الزبيدي: كتاب نسب قريش، تحقيق: ليفي بروفنسال، القاهرة: 1953م، ص178.

ولكن الشيء الغريب أن المصادر ركزت على تواجد الخرازين بكثرة في كل من المدينة ومكة في حين ان الطائف قد امتازت بشهرتها في الدباغة إلا أنه لا يذكر عنها شيء كثير في مهنة الخرازة، وهذا أمر يجعلنا نتساءل هل كان يتم ارسال كل الجلود المدبوغة في الطائف الى المدن الكبرى كالمدينة ومكة حيث يتم صناعتها ثم تصديرها؟ أم أن الطائف كانت قد اهتمت بحرفة الخرازة الا أن شهرتها في الدباغة كانت أكبر، لهذا ركز المؤرخون على حرفة الدباغة أكثر من غيرها؟ وهذان الاحتمالان ربما كانا واردين، فالطائف كانت تصدر انتاجها من الدباغة ليس الى المدن الحجازية فقط ولكن الى أنحاء عديدة من العالم آنذاك، ثم إنه لابد من أن يكون قد عملوا أهل الطائف على تصنيع الجلود وخرازتها على أشكال مختلفة⁽¹⁾.

النجارة :

عرفت المجتمعات مهنة النجارة وأدركت أهميتها منذ القدم، ومن يطلع على تاريخ شبه الجزيرة بشكل عام وتاريخ الحجاز بشكل خاص، يجد أن سكان هذه الإقليم قد عرفوا مهنة النجارة، وان هناك من كان يعالج الأدوات الخشبية عن طريق النجارة على المستويين الفردي والجماعي ولأهداف تجارية عامة، وكذلك لاستخدامات شخصية خاصة فعندئذ يتم انتاج أدوات خشبية متنوعة في الأشكال والأغراض⁽²⁾.

وتواجد مهنة النجارة في أي مكان، يتطلب بعض المقومات الأساسية التي تستند عليها، ومن أهم هذه المقومات، توافر الأيدي الفنية العاملة، ثم توافر المواد الأولية لصناعة الاخشاب التي تتمثل في الخشب نفسه، الذي يتوافر في الأشجار الصالحة لمزاولة هذه الحرفة.

ومن حسن الحظ فان هذه المقومات الأساسية تتوفر في منطقة الحجاز، فيروى لنا عدد من المصادر وجود النجارين في كل من مكة والمدينة، وان مزاولتهم لمهنة النجارة لم تكن قاصرة على الحاجة الخاصة للفرد، وانما كانوا يمارسونها كحرفة تجارية يسعون من وراء مزاولتها الى الكسب وسد الحاجة

(1) الجاحظ: التبصر، ص32؛ الهمداني، صفة، ص260؛ المقدسي: أحسن التقاسيم، ص289؛

الادريسي: جزيرة العرب، ص26؛ ابن الجاور: تاريخ، ج1، ص13، 97، 980

(2) الأزرقى: أخبار، ج1، ص157-158؛ ابن رسته: الاعلاق النفسية، ص215؛ جواد علي:

المفصل، ج7، ص542، 552.

في وقت واحد، ثم ان الأماكن التي كانوا يتخذونها للعمل لم تكن قاصرة على البيوت فقط وانما كان لبعضهم أجزاء خاصة بهم في الأسواق وبعض الأماكن الأخرى في كل من مكة والمدينة⁽¹⁾.

ومع أن المؤرخين الأوائل يخبروننا بتواجد من يزاول النجارة في المدن الحجازية، إلا أنهم لم يفصحوا عن مستوى أولئك النجارين في أعمالهم التي ينتجونها، ولا عن الطرق التي كانوا يتبعونها أثناء مزاولتهم حرفتهم، بل ولا كمية انتاجهم هل كان يكفي حاجة المجتمع الحجازي وهل كان يصدر منه شيء الى خارج الحجاز؟ كل هذه النقاط لم تكن توضح، إلا أن بعض الروايات تذكر أن علية القوم وأغنياء المجتمع الحجازي وكذلك الأمراء والخلفاء في عهد بني أمية كانوا لا يقتصرون على ما يتم انتاجه عن طريق النجارين المقيمين في الحجاز وانما كانوا يقومون ب جلب بعض النجارين المهرة من بلاد الشام والعراق وبلاد فارس، لكي ينفذوا لهم بعض الأشكال الخشبية المعقدة التركيب في بيوتهم وبساتينهم وغيرها من العقارات، بل وفي المساجد والمشاريع العمرانية التي تم تنفيذها خلال القرون الاسلامية المبكرة⁽²⁾.

وقد يكون سبب استيراد الأيدي الفنية لهذه المهنة ناتجا عن عدم وجود نجارين بين المجتمع الحجازي يستطيعون تنفيذ الأعمال الخشبية المعقدة التي قد يطلبها أصحاب الأعمال. ثم كون الروايات تذكر وجود نجارين مقيمين بين المجتمع الحجازي وقد كان أغلبهم من طبقات الموالى والعيبد، وآخرين تم جلبهم من خارج شبه الجزيرة، إلا أن المصادر أغفلت الحديث عما حدث من اتصال بين الفريقين، وهل كان هناك نوع من الاحتكاك وتبادل الخبرات، علما بأنه اذا كان الأفراد القادمين استطاعوا عمل أشكال جيدة ومعقدة التركيب، فليس ببعيد أن يكون استفاد منهم بعض النجارين المقيمين في المدن الحجازية، إلا أن هذا الاحتمال وان كان قويا فليس عندنا من البراهين والدلائل ما يجعلنا نجزم بحدوثه.

(1) الأزرقي: أخبار، ج2، ص243؛ الحربي: المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، ص129؛ ابن عبدربه: العقد الفريد، ج6، ص233.
(2) الأزرقي: أخبار، ج2، ص60، 77، 79، 103؛ الفاسي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق: لجنة من كبار العلماء والأدباء، ج2، بيروت: بدون تاريخ، ص326، ابن فهد، اتحاف الوري أخبار أم القرى، تحقيق: فهيم شلتوت ج2، القاهرة: 1202هـ/1983م، ص192، 206؛ طاهر العميد: «التوسعات القديمة والحديثة في عمارة المسجد الحرام» مجلة كلية الآداب ببغداد: 1970-1971م، ج12، ص521.

أما المواد الخشبية التي تتمثل في الأشجار والتي تعتبر عنصراً أساسياً في مهنة النجارة فكانت هي أيضاً متوفرة في أرض الحجاز، فمما سبق من حديث عن الدباغة نجد أن الدينوري يخبرنا عن عدد من أصناف الأشجار المتواجدة في الحجاز والصالحه للاستخدام في حرفة الدباغة فهو هنا يذكر لنا أعداداً كثيرة من الأشجار الصالحة لحرفة النجارة مبيناً مميزات كل شجرة من حيث الصفات لإعطاء أدوات خشبية جيدة⁽¹⁾. إلى جانب مصادر أخرى توضح بشكل دقيق بعض الأماكن المليئة بالأشجار الصالحة لمهنة النجارة، والواقعة في المناطق المحيطة بكل من مكة والمدينة والطائف وغيرها من مناطق الحجز الأخرى⁽²⁾.

إلا أن أغلب هذه المصادر أجمعت على أن أحسن أنواع الأشجار في عمال النجارة تتمثل في شجر الغرب، التآلب، والعتم، والشوحط، والنشم، والاثل، والطلح وهذه الأنواع كلها توجد ولا تزال في منطقة الحجاز حيث يستطيع النجارون أن ينتجوا من هذه الأشجار أشكالاً خشبية متنوعة ومتعددة الأغراض⁽³⁾.

ولأهمية توفير الأخشاب للنجارين في الحجاز، فقد وجد من هو متخصص في جلب الأخشاب من الجبال والأودية المحيطة بالمدن الحجازية، حيث كان يتم احضارها إلى الأسواق وبيعها لأصحاب هذه الحرفة، حتى ليذكر أنه كان بمكة والمدينة أسواق خاصة لبيع الأخشاب المتنوعة⁽⁴⁾.

ولم يكن الاقتصار على الأخشاب المحلية وإنما كان هناك بعض الأخشاب المستوردة من الهند، وبلاد فارس، مثل خشب الساج، والأبنوس وغيرها، حيث كان يأتي بها الأغنياء وعلية القوم في المجتمع الحجازي، وكذلك الخلفاء والأمراء لاتسخدامها في مشاريع عمرانية متعددة في كل من مكة والمدينة والطائف⁽⁵⁾.

-
- (1) الدينوري: كتاب النبات، تحقيق: محمد حميد الله: ج2، القاهرة، 1983م.
(2) عرام: أسماء، ص 396، 203، 207، 209، 213، 217؛ القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت: 1975م، ص 86، 89؛ صالح أحمد العلي: «منازل الطريق بين المدينة ومكة: مجلة الدار، 1397/1977م، مج13، ج1، ص35.
(3) التعريفات لهذه الأنواع من الأشجار. في عرام: أسماء، ص 203، 207؛ ابن منظور: لسان العرب، ج1، بيروت: 1975م، ص 222، ج 7، ص 328، ج 11، ص 10؛ الزبيدي: تاج، ج 2، ص 55، ج 19، ص 201-203.
(4) ابن سعد: الطبقات، ج 5، ص 237؛ الأزرقى: أخبار، ج 2، ص 232؛ الأصفهاني: الأغاني، ج 16، ص 129، ج 19، ص 165.
(5) الدينوري: النبات، ج 2، ص 25؛ الأزرقى: أخبار مكة، ج 2، ص 223؛ الحربي: المناسك،

النسيج والخياطة والصبغة :

إن حرفة النسيج، والخياطة والصبغة متكاملة فيما بينها، فلا يمكن ممارسة الخياطة أو الصبغة دون أن تتوفر المنسوجات التي على ضوءها يتم للخياطين والصبغين ممارسة أعمالهم، وكل هذه الحرف وجدت عند العرب في شبه الجزيرة منذ العصور القديمة واستمرت تمارس في بلاد الحجاز وغيرها خلال العصور الإسلامية المختلفة⁽¹⁾.

النسيج:

تتحدث بعض المصادر عن وجود حرفة النسيج في منطقة الحجاز، فيذكر الأزرقي⁽²⁾، أن النساجين في مكة كانوا متواجدين بكثرة في البيوت والأسواق حتى أنه صار لهم أماكن ودكاكين تعرف باسم مهنتهم، كسوق أو زقاق النسيج، أو النساجين، ثم انه كان عليهم مشرف أو رئيس عام يتابع حركة عملهم ويطلق عليه أمير الحاكه أو النساجين⁽³⁾، ومع أن الأزرقي يحدثنا بتواجد هؤلاء الحرفيين في مكة خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين، إلا أنه لم يوضح لنا دور هذا الأمير الذي ذكر أنه مشرف على العاملين في هذه المهنة، من الذي عينه أميرا، ثم ما هي الأعمال التي كان يقوم بها تجاه من يشرف عليهم؟ ومع العلم أيضا أنه لم يذكر المستوى الذي وصل إليه النساجون في مكة، وهل كان إنتاجهم كافيا لسد حاجة المجتمع؟ فمن ناحية الأمير الذي ذكر لابد من أن يكون قد عينه أحد الملاك لمحلات النسيج في مكة، والدليل على ذلك أننا نجد بعض المصادر الأخرى تذكر أسماء بعض الأشخاص الذين كانت لديهم محلات للنسيج، وقد يعمل فيها عدد من العمال الذين غالبيتهم من العبيد والموالي، ويكون عليهم مشرف عام يقوم بمتابعة أعمالهم وتزويدهم بالمواد الأساسية في عمل المنسوجات⁽⁴⁾.

ص352-389؛ ابن رسته: 23، 29، 51، 132؛ الأصفهاني: الأغاني، ج16، ص129؛ المقدسي: أحسن التقاسيم، ص71-76.

(1) ابن خلدون: ولي الدين أبو زيد عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، (ت808هـ)، المقدمة، القاهرة: طبعة دار الشعب، (د.ت)، ج2؛ بيروت: (1970م)، وهي. مصورة من طبعة باريس: 1858م، ص668، 670؛ عبدالحى الكتاني: كتاب الترايب الادارية، بيروت: (بدون تاريخ)، ج2، ص58، 60، 91.

(2) الأزرقي: أخبار مكة، ج2، ص256-257.

(3) الأزرقي: أخبار مكة، ج2، ص261.

(4) ابن سعد: الطبقات، ج4، ص237؛ الأصفهاني الأغاني ج1، ص65، 78، ج5، ص112.

وفي أغلب الظن أن هذا الأمير الذي قصده الأزرقى كان من ملاك محلات النسيج أنفسهم، والسبب الذي يجعلنا نستبعد أن يكون هذا الأمير عين من قبل خلفاء أو أمراء بني أمية، هو أنه لم يكن في منطقة الحجاز محلات للنسيج تحت إشراف الخلافة وسلطاتها، وإنما كانت على العكس من بعض المدن في الشام ومصر وبلاد فارس، في أنه كان بالمدن الأخيرة محلات للنسيج والطرز مهمتها بالدرجة الأولى إنتاج منتوجات وشعارات تستخدم لأغراض رسمية للخلفاء وموظفيهم⁽¹⁾.

أما المستوى الذي وصل اليه النساجون في مكة أو غيرها من مدن الحجاز، وكذلك نسبة انتاجهم، فالمعتقد أن مستواهم كان عالياً كما وأن نسبة انتاجهم كانت قليلة وضئيلة، والسبب في ذلك أن المصادر الأولية بشكل عام لم تكن تذكر مستوى راقيا للنساجين بالمنطقة الحجازية، ولا تلك الكمية الكافية التي تسد حاجة المجتمع. وإنما كانت تتحدث عن المنسوجات التي يتم تصديرها من الدم المعنية، والعراقية والفارسية، وبلاد الشام ومصر وغيرها، وكيف كانت أسواق الحجاز تستقبل الأنواع العديدة من المنسوجات ويتم نفاذها على أيدي الحجازيين الذين كانوا تواقين لشراء تلك المنسوجات المستوردة⁽²⁾. وهذا التصدير والاقبال من قبل أهل الحجاز يدل على أن مستوى منتوجات النسيج في الحجاز لم تكن كافية ولا جيدة المستوى.

الخيطة:

تتوفر المنسوجات في المدن الحجازية، اما عن طريق الاستيراد من الخارج، واما من الانتاج المحلي، وقد وجدت أيضا حرفة الخياطة التي تعتمد بالدرجة الأولى على توافر الأقمشة والمنسوجات التي تستخدم في هذه الحرفة. وقد أشارت بعض المصادر الى وجود مهنيين في كل من مكة والمدينة يقومون بإحضار الأقمشة وبيعها الى الخياطين للاستمرار في ممارسة مهنتهم، علما بأن أولئك الحرفيين لم يكونوا من أهل الحجاز فقط وإنما كانوا يأتون الى أسواق الحجاز من أماكن عديدة داخل وخارج شبه الجزيرة، الى جانب أنه كان في مكة والمدينة من كان يقيم بشكل دائم، ويمارس بيع الأقمشة بأنواعها، حتى أصبح لهم أماكن معروفة كأسواق القماشين أو البزازين⁽³⁾.

(1) ابن سعد: الطبقات، ج 5، ص 161؛ الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج 7، القاهرة: 1960م؛ صالح العلي: «النسجة في القرنين الأول والثاني» مجلة العرب، 1381هـ/ 1961م، ج 2، ص 585-590.

(2) ابن سعد: الطبقات، ج 5، ص 161؛ الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج 7.

(3) الأزرقى: أخبار مكة، ج 2، ص 259-260؛ الفاكي: كتاب المنتقى في أخبار أم القرى تحقيق:

وطالما وجدت الأقمشة في المدن الحجازية فلم يكن هناك مشكلة للخياطين الذين كانوا يشتغلون في الأسواق، فيدفع اليهم القماش لتفصيله مقابل أجر معلومة، كما كانوا أحيانا أخرى يستأجرون للعمل وتفصيل الثياب في بيوت الأثرياء وعلية القوم من المجتمع الحجازي⁽¹⁾. الى جانب وجود خياطين بدائيين لم يكن لديهم الدراية بفن الخياطة وتفصيل الملابس، الا أنهم قد يسدون حاجتهم في خياطة ملابسهم الخاصة وعادة تكون هذه الفئة بين الأسر الفقيرة، في المدن وعند أهل البوادي والأرياف. أما العاملون في المدن والذين يمارسون حرفة الخياطة على مستوى واسع فليسوا الا من طبقة الموالي والعبيد حتى انه ليذكر ان غالبية الحرفيين في هذه المهنة من هذه الفئات⁽²⁾:

ومن المعروف أن طبقات الموالي والعبيد لم يكونوا من سكان الحجاز الأصليين وانما قدموا الى الحجاز خلال الفتوحات الاسلامية المبكرة من مناطق متعددة ومتباينة في ثقافتها وحضاراتها، مما لا شك فيه أنهم قد عملوا في الحرف والمهن أمثال الخياطة وغيرها وبالتالي أحدثوا أنواعا من التجديد والتطوير في الحرف التي أصبحوا يعملون فيها، مستفيدين من خلفياتهم ومعارفهم التي اكتسبوها من أوطانهم الأصلية⁽³⁾.

وطالما أننا لا ننكر وجود العاملين في مهنة الخياطة، الا أنه لا يزال لدينا النقص واضحا في معرفة المستوى الذي وصلوا اليه من حيث اخراج تصاميم ونماذج جيدة، ثم النسبة في الانتاج هل كانت كافية لخياطة ما يسد حاجة المجتمع الحجازي، ولعله لم يكن يكفي لأن المصادر تشير الى أن علية القوم من الحجازيين خلال القرون الاسلامية الأولى كانوا يعتمدون اعتمادا كبيرا على استيراد أنواع عديدة من الألبسة من البلاد الأكثر انتاجا من الحجاز، الى جانب أن خلفاء بني أمية وكذلك أمراءهم كانوا يذهبون الى الحجاز فيتصلون بالأمراء والسيوخ والأعيان فيهدونهم الألبسة المتنوعة الجاهزة⁽⁴⁾.

وستينفلد لبيزج: 1859م، ص12، 15.

(1) الأزرقي: أخبار مكة، ج2، ص92، 95، 97؛ الفاسي: شفاء الغرام، ج1، ص238.

(2) الأصبحي: أبي عبدالله الإمام مالك بن أنس، المدونة الكبرى، مصر: مطبعة السعادة، 1323هـ، المدونة الكبرى، ج16، ص3؛ ابن خلدون: المقدمة، ج2، ص309-310.

(3) ابن خلدون: المقدمة، ج2، ص309.

(4) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج7، ص551.

ومثل هذه الملابس سواء كانت عن طريق التجارة أو عن طريق الهدايا لابد أن يكون قد أثر في مستوى الانتاج في الحجاز لأنه بدون شك لن يستورد الى أسواق الحجاز ولن يهدى الا نوعية جيدة من الألبسة، والتي ربما لا يقدر الخياطون. في الحجاز عمل مثلها علماً بأن هناك مصادر عديدة تذكر عدداً من الألبسة التي كانت تلبس في الحجاز ولكن لم تذكر هل صنعت محلية أم تم استيرادها من خارج الحجاز⁽¹⁾.

الصباغة:

تسبق عملية الصباغة الخياطة وأحياناً أخرى قد تليها، وعملية التقديم أو التأخير تعود الى الأهمية فيما يراد نسجه وخياطته ثم صبغه أو العكس، الا أنه بتوافر كل من حرفتي النسيج والخياطة لابد من أن تكون قد وجدت حرفة الصباغة كذلك، ولو أننا نجد صالح العلي⁽²⁾، يشير في احدي مقالاته الى أنه بعد أن بذل جهداً جهيداً في مصادر عديدة محاولاً أن يجد إشارة تدل على وجود مكان للصباغين في المدن الحجازية لم يوفق في ذلك، بعد البحث والتقصي توصلت إلى النتيجة التي توصل إليها، فلم أجد أي مصدر يذكر أي مكان يعرف باسم سوق أو زقاق الصباغين، كما يلاحظ حول عدد من الحرف الأخرى⁽³⁾.

إلا أن عدم وجود مكان، معين يسمى بحرفة الصباغة لا يعني أنه لم يكن هناك من يمارس هذه الحرفة، وانما هو على العكس من ذلك فلا بد من أن تكون قد وجدت خلال القرون الاسلامية المبكرة، والدلائل على ذلك عديدة من أهمها:

إن عدداً من المصادر ذكرت العديد من الأشخاص الذين كانوا يرتدون ألبسة ذات ألوان متعددة كالأزرق، والأحمر والاصفر وغيرها، وهذه الألبسة لا يمكن أن تكون قد وردت كلها من خارج الحجاز، وانما لابد من أن يكون بعضها

(1) ابن سعد: الطبقات، ج5، ص217؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك: ج7، ص577-582؛ الأصفهاني: الأغاني، ج6، ص291.

(2) ألوان الملابس العربية في العهود الاسلامية الأولى: مجلة المجمع العلمي العراقي ج26، 1395هـ/1975م، ص106.

(3) الأزرقى: أخبار مكة، ج2، ص، الجزء الخاص بالفهرس.

قد صبغ في أراضي الحجاز⁽¹⁾، وتشير المصادر إلى وجود بعضاً من الأشجار والنباتات التي تستخدم في الصبغ لإعطاء ألوان متعددة مع ذكر أماكنها في منطقة الحجاز وغيرها من المناطق الأخرى في شبه الجزيرة العربية⁽²⁾. كما أن المعاجم العربية الأخرى كلسان العرب لابن منظور⁽³⁾ وتاج العروس للزبيدي⁽⁴⁾ وفقه اللغة للثعالبي⁽⁵⁾ قد أشارت إلى بعض الألبسة الملونة والأشجار المتعددة والمستخدمه في حرفة الصباغة والتي كانت معروفة عند الحجازيين.

وهناك مصادر أخرى تشير إلى بعض المواد المستخدمة في الأصباغ مثل مادة العصفر⁽⁶⁾، والزعفران، والنيل، والورس⁽⁷⁾ والأيداع⁽⁸⁾ والتي عرفها أهل الحجاز فاستخدما بعضهم بل وبيعت في أسواق مكة والمدينة، علماً أن بعضها كان متوافراً في النباتات والأشجار التي توجد في الحجاز في حين أن البعض الآخر كان يتم استيراده من داخل وخارج شبه الجزيرة على حد سواء⁽⁹⁾.

التعدين :

قد يظهر لنا أن المصادر لم تتحدث بشكل واسع عن حرفة التعدين والحدادة، وبشكل دقيق عن منطقة الحجاز، إلا أن كتاب الهمداني⁽¹⁰⁾ يعتبر من أفضل المصادر التي وصلتنا، فذكر لنا بعض المعادن المشهورة في شبه الجزيرة العربية، وكان مما أشار إليه في بلاد الحجاز، معدن بني سليم الذي كان يقع في بلاد قبيلة بني سليم وكانت هذه القبيلة هي التي

- (1) مالك: المدونة، ج10، ص169، ج11، 32؛ الفاكهي: كتاب أخبار مكة: ص119-12؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج27، ص577، 582؛ الأصفهاني: الأغاني، ج6، ص291.
- (2) الدينوري: كتاب النبات، ج3، ص165 - 182
- (3) ابن منظور: لسان العرب، ج3، ص206.
- (4) الزبيدي: تاج العروس، ج9، ص286.
- (5) الثعالبي: فقه اللغة، ص50 - 56.
- (6) العصفور نبات يوجد في بعض أجزاء شبه الجزيرة كاليمن وغيرها إلى جانب استيراده من أماكن متعددة في العالم الإسلامي، كمصر وبلاد فارس، وعندما يستخدم في الصباغة يعطى اللون الأصفر. الدينوري: النبات، ج2، ص139.
- (7) الورس شجرة تنبت في بلاد اليمن وتستخدم في الصبغ إذا تعطى اللون الأصفر إلى الحمرة، الهمداني، صفة، ص214 215؛ الأصفهاني: الأغاني، ج2، ص281.
- (8) الأيداع شجر كبير ذو أوراق تشبه أوراق العنب ويوجد بكثرة في بلاد الحجاز ويستخدم في الصباغة معطياً اللون الأحمر الدينوري: النبات، ج1، ص57-58.
- (9) ابن سعد: الطبقات، ج5، ص180-189؛ مالك: المدونة، ج10، ص169؛ الأصفهاني: الأغاني، ج2، ص281 الهمداني: صفة بلاد العرب، ص213.
- (10) الهمداني: صفة بلاد العرب، ص138.

تشرف عليه، ويذكر عنه أنه كان معادن ذهب على وجه التحديد وقد كان يستخدم قبل الاسلام وخلال العهود الاسلامية المبكرة، حتى أنه ليذكر عنه أنه كان له شأن عظيم خلال العصر الأموي، فتروى بعض المصادر بأن كان عليه في عام 128هـ أمير يدعى عبدالله بن كثير⁽¹⁾.

إلا أنه من الغريب أننا قد بحثنا عن هذا الشخص فلم نجد له ترجمة في أي مصدر كان، ولهذا فإننا لا نعرف كيف تمت توليته أميراً على ذلك المعدن هل كان من قبل الخلافة الأموية التي كانت تحكم العالم الاسلامي في ذلك الوقت، أم كان عن طريق قبيلة بني سليم نفسها التي كانت في حقيقة الأمر تتولى الحفاظ والسيطرة على ذلك المعدن، ومع أننا لا نعرف من ولاء على هذا المعدن، إلا أن أقوى الاحتمالات أنه ولي من قبل الخلافة الأموية وممثليها الاداريين في الحجاز، والسبب الذي جعلنا نرجح هذا الاحتمال هو ان المعادن كانت ملكاً لأصحابها وليس للسلطة الادارية أو الخلافة في تلك العهود إلا أن تحصل على نصيب الزكاة من المعادن، ولهذا فليس ببعيد أن عينت الخلافة الأموية هذا الأمير لكي يشرف على المعدن فيحافظ على سير العمل ثم بالتالي يضمن نسبة الزكاة التي سوف تذهب الى بيت مال المسلمين.

ومن المعادن المشهورة أيضاً في منطقة الحجاز معدن القبلية⁽²⁾ وهي أرض ومعادن أقطعها رسول الله ﷺ لبلال بن الحارث المزني، وكان هذا المعدن كثير الانتاج خلال القرنين الأولين من الاسلام، ثم ان ملكيته لم تخرج من ورثة بلال بن الحارث⁽³⁾، إلا أن الشيء الذي لا يزال غامضاً حول هذا المعدن هو مقادير الانتاج الذي كان يخرج منه، ثم هل كان عليه وال معين كما رأينا عبدالله بن كثير على معدن بني سليم في آخر عهد بني أمية؟

ومعادن أخرى قد ورد ذكرها في أماكن متعددة من الحجاز مثل معدن الأحسن على حدود الحجاز من جهة نجد، وكذلك معادن في ينبع، وجبل رضوى بين

(1) الحربي: المناسك، ص335؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج1، ص328؛ الأصفهاني: الأغاني، ج3، ص237-228.

(2) معدن القبلية يقع إلى الجنوب الغربي من المدينة وعلى بعد حوالي خمسة كيلو متراً، تحقيق: أبو عبيد: كتاب الأموال، تحقيق: محمد هراس، القاهرة: 1388هـ، ص387 ملاحظة رقم (2).

(3) أبو عبيد: كتاب الأموال، ص387، 270؛ البلاذري: أحمد بن يحيى (ت279هـ)، فتوح البلدان، راجعه وعلق عليه رضوان، بيروت: دار الكتب العلمية، 1203هـ/1983م، ص22، 27.

مكة والمدينة⁽¹⁾، إلا أن هذه المعادن لم يرد عنها الا اشارات في بعض المصادر المبكرة دون أن توضح من كان يمتلكها وما المعادن التي كانت تستخرج منها.

الحدادة:

تعتمد هذه الحرفة بالدرجة الأولى على الأيدي الفنية التي تصنع الحديد، وكذلك على المواد الأولية من الخامات الحديدية التي بتوافرها يستطيع صانع الحديد أن يمارس مهنته، فقد عرفت عند العرب من قبل الإسلام، الا أن الكتاني⁽²⁾ يروى لنا قصة تواجد صناعة الحديد في شبه الجزيرة، وأنها راجعة الى أن رسول الله ﷺ لما فتح خيبر سبى فممن سبى ثلاثين عبداً، كانوا صناعاً وحدادين، ثم جعلهم يعلمون المسلمين في المدينة حرفة صناعة الحديد؛ إلا أن القول بأن صناعة الحديد لم توجد الا في تلك الفترة التي غزا الرسول ﷺ فيها خيبر، فهذا أمر محل نظر لأن الحديد قد عرف عند عرب شبه الجزيرة في العهود السابقة لظهور الاسلام، بل قد استخدمت الأدوات الحديدية المستوردة والمصنعة محلياً في أغراض عدة ولأهداف متنوعة.

وقد ذكرت المصادر نشاط الحدادين في أسواق مكة والمدينة، وكيف كانوا يزاولون حرفتهم لصناعة أدوات حديدية متعددة الأشكال، ومختلفة في الاستخدام، بل وأشارت الى أن غالبية الأيدي العاملة في هذه الحرفة كانت من طبقتي الموالي والعبيد في حين أن العرب كانوا ينظرون الى هذه المهنة وغيرها من المهن نظرة ازدراء واحتقار⁽³⁾، علماً بأن هذه النظرة لا تتفق مع الشريعة الاسلامية التي تنادى بأن يتعلم المسلم حرفة أو مهنة يكسب من ورائها الرزق الحلال.

ومن يقف على الدراسات الأثرية التي أجرتها جامعة الملك سعود في مدينة الربيذة يجد أنه قد عثر على عدد من الآلات والأدوات الحديدية التي تعود الى القرون الثلاثة الاسلامية الأولى، ثم ان أغلبها كان قد صنع محلياً في منطقة الحجاز⁽⁴⁾.

(1) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص101، الأصفهاني: بلاد، ص159؛ ياقوت: معجم، ح2، ص232.

(2) عبدالحى الكتاني: التراتيب، ج7، ص75.

(3) الأزرقى: أخبار مكة، ج2، ص239-256؛ مالك: المدونة، ج12، ص42؛ الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج7، ص528، 530.

(4) الربيذة تقع في الجنوب الشرقي من المدينة، وهي تبعد عنها حوالي مائتي كيلو، وتعتبر من أنشط المحطات على طريق مكة المكرمة خلال القرون الاسلامية الأولى. حمد الجاسر:

ومع أن الحدادين كانوا متواجدين في أرض الحجاز إلا أنه لم يكن هناك معادن حديدية تسد حاجتهم، لذا كان هناك حركة تصدير للحديد من مناطق خارج وداخل شبه الجزيرة، أمثال اليمامة، واليمن، وبلاد فارس، والهند وغيرها⁽¹⁾.

الصياغة:

ومن الحرف التي عرفها أهل الحجاز، الصياغة، فيروى لنا الطبري، وجود اليهود في المدينة قبل ظهور الاسلام وكيف كانوا يمارسون هذه المهنة بنشاط⁽²⁾.

ومما لاشك فيه أن العمل في حرفة الصياغة قد تطور في العهود التالية لعصر الرسول ﷺ، إذ يذكر لنا السمهودي⁽³⁾ والعصامي⁽⁴⁾ نقلاً عن ابن زبالة الذي عاش في المدينة خلال القرن الثاني الهجري، أنه كان في إحدى ضواحي المدينة ما يقارب من ثلثمائة صائغ يمارسون مهنة الصياغة، وقد يكون هذا الرقم مبالغاً فيه، إلا أنه على أية حال يدل على سعة ونشاط مزاوله هذه الحرفة في المدينة، ولم تكن المدينة وحدها هي المشهورة بالصاغة الذين يمارسون مهنة الصياغة، ولكنهم وجدوا في أماكن متعددة من أسواق المدينة ومكة معاً، فكانوا يجلسون في حوانيتهم بالأسواق لممارسة عملهم، صناعة الحلى من الذهب والفضة، كالأساور، والخلاخيل والخواتم، والأقراط التي تستخدمها النساء وتزين بها ولم يكن جلب المواد الأساسية لحرفة الصياغة صعباً، وذلك لتوفر المعادن في الحجاز كمعدني بنى سليم والقبيلة فكانت تنتج بالدرجة الأولى الذهب ثم الفضة، ولذا فإن إنتاج تلك المعادن لا بد من أن يذهب منه بعض الشيء للصاغة في الأسواق وغيرها حتى يمارسوا مهنتهم، ثم إن هناك مصدراً آخر، إذ تذكر بعض المصادر أنه كان بين أهل الحجاز عدد من الأغنياء وعلية القوم يحصلون على المجوهرات والأدوات الذهبية والفضية إما عن طريق التجارة من خارج الحجاز، أو أن بعض خلفاء بني

«الريده تحديد موقعها»، مجلة العرب: 1395هـ / 1975م، ج2، ص1-3.

(1) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص254؛ الأزدي: تاريخ الموصل، تحقيق: علي حبيبه، القاهرة: 1387هـ، ص29؛ صالح العلي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة خلال القرن الأول الهجري، بغداد: 1953م، ص19.

(2) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج2، ص281.

(3) السمهودي: وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج2، القاهرة: 1952م، ص1230؛ الطبري:

سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، ج، القاهرة: 1380هـ، ص92.

(4) مالك: المدونة، ج11، ص32، ج12، ص42؛ ابن سعد: الطبقات، ج5، ص290.

أمية كانوا عندما يذهبون الى الحجاز في أيام الحج يقومون بتوزيع بعض الهدايا والكساوي على بعض أفراد المجتمع، والتي كان من ضمنها بعض المجوهرات وما شابهها⁽¹⁾، توافر هذه المجوهرات عن طريق التجارة أو الهدايا، لا بد أن يحافظ عليها فتصان ويصلح ما خرب منها، وهذا العمل لا يقوم به إلا الصاغة أصحاب الحرفة.

صناعة الفخار:

ومن الحرف والصناعات التي كانت موجودة عند الحجازيين صناعة الفخار، إذ تروى بعض الكتب التاريخية بأنه كان في بعض مدن الحجاز أماكن خاصة، يمارس فيها صناعة الفخار، ثم انه كان هناك مناطق معينة في كل من مكة والطائف يجلب منها المواد الأساسية، كالطين وغيره لصناعة الأواني الفخارية⁽²⁾.

البناء ونقش الأحجار:

وحرفة البناء ونقش الأحجار كانت متوافرة في المدن الحجازية، حتى انه كن هناك من يجيد فن النقش على الحجارة، فيذكر السمهودي⁽³⁾ أنه كان لبني حرام في المدينة غلام رومي ينقل الحجارة وينقشها، ومن يطالع التوسعات المعمارية التي حدثت في الحرم المكي، والحرم النبوي خلال القرون الإسلامية الأولى، يجد أنه كان هناك من يجيد حرفة البناء والنقش، علماً بأن من يقوم بهذه الحرف لم يكن من أهل الحجاز فقط، وإنما كان يستقدم بعض البنائين، والنقاشين، والمخططين والمهندسين المهرة الذين يقومون بتنفيذ بعض المشاريع التي يراد عملها، فيذكر أن الوليد ابن عبدالمك الأموي، استقدم عدداً من هؤلاء الحرفيين من مصر، والشام والعراق أثناء توسعته الحرم المكي والمدني⁽⁴⁾.

(1) الزبير بن الباطين: جمهرة نسب قريش وأخبارها، تحقيق: محمود محمد شاكر، بيروت: مكتبة خياط، ص113-112؛ ابن فهد: اتحاف الوري بأخبار أم القرى، ج2، ص177.

(2) الأزرقى: أخبار مكة، ج2، ص255؛ الأصفهاني: الأغاني، ج2، ص65.

(3) السمهودي: وفاء الوفاء، ج1، ص204.

(4) الأزرقى: أخبار مكة، ج2، ص79؛ الفاكهي: أخبار مكة، ص336؛ الحربي: المناسك، ص389-399؛ ابن فهد: اتحاف، ج2، ص214.

صناعة الخصف والحبال:

صناعة الخصف والحبال من المهن التي امتهنتها المجتمع الحجازي، فكانوا يستخدمون أوراق الأشجار، وسعف النخل في عمل بعض الأثاث المنزلي، كما أن صناعة الحبال والخيوط المتنوعة كانت معروفة ويمارسها بعض السكان، ومن يلقي نظرة على كتاب النبات للدينوري، يجد أنه أفرد باباً في صناعة الحبال، موضحاً نوعية الحبال التي كانت تصنع، ذاكراً الأشجار التي تستخدم لاستخراج المواد الأساسية لعمل أنواع متعددة من الحبال، مع التركيز على شجر الخزم الذي يوجد بكثرة في جبال وأودية الحجاز، والذي يعد من أفضل أنواع الأشجار في استخراج نوعية جيدة من الحبال⁽¹⁾.

المطلب الثاني: الحرف والمهن:

وجدت في مواسم الحج بعض المهن والحرف ذات العلاقة الوثيقة بفريضة الحج ومناسكه كالكرء، والحلاقة والحجامة، والجزارة، والحطابة، بالإضافة إلى مهن وحرف أخرى شاركت فيها المرأة.

الكرء:

كانت مهنة كراء الرواحل⁽²⁾، وهي الإبل السريعة والقوية، من المهن الرائجة في مواسم الحج، فقد كانت الراحلة هي الوسيلة المفضلة عند الحجاج لنقلهم إلى مكة لتأدية فريضة الحج⁽³⁾. وقد تميزت الرواحل بتحملها للجوع والعطش خلال قطعها للمسافات الطويلة والمتباعدة.

وكان من يتولى مهنة الكراء يعرف باسم المكاري، وهو الذي يؤجر دابته من الإبل وغيرها مقابل ثمن معين⁽⁴⁾. وتشير المصادر إلى رواج مهنة الكراء وإزدياد الطلب عليها في مواسم الحج، فقد كانت الإبل تكرر للحج إلى مكة وتدفع زكاتها بالمدينة⁽⁵⁾. وأيضاً تكرر لحجاج الشام عند مغادرتهم

(1) الدينوري: كتاب النبات، ج3، ص231.

(2) الرواحل: جمع راحلة وهي كل بعير نجيب، سواء كان ذكراً أو أنثى. ابن منظور: لسان العرب، ج11، ص277.

(3) عن حج المسلمين على الرواحل، ابن حجر: فتح الباري، ج3، ص380-381؛ ابن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق، ج7، ص372؛ ابن تيمية: شرح العمدة، ج1، ص128.

(4) ابن منظور: لسان العرب، ج15، ص218؛ جواد علي: المفصل، ج7، ص510.

(5) أبو عبيد: القاسم بن سلام، كتاب الأموال، ط3، ص323؛ السيف: الحياة الاقتصادية،

لمكة بعد إنقضاء موسم الحج⁽¹⁾. وقد ترتب على إنتعاش مهنة الكراء في مواسم الحج، زيادة الطلب على شراء الإبل وإزدهار هذه التجارة في أسواق الحجاز. فقد كان تجار الإبل يتجهون لتلك الأسواق كسوق المدينة لبيع إبلهم والتكسب منها⁽²⁾.

ويلاحظ أن وسيلة المواصلات هذه، وهي الإبل، قد حصل تطور في كيفية استعمالها وركوبها، فإذا كان المسلمون في بداية الإسلام يحجون أفرادا على الرواحل والزوامل، وهي الإبل وعامة الدواب⁽³⁾، فقد تطور الأمر بعد ذلك إلى إتخاذ المحامل وهما شقان على الإبل يحمل فيهما الشخصين⁽⁴⁾. وكانت المحامل تؤجر إلى مكة، ويعتبر الحجاج بن يوسف أول من حج بالمحامل إلى مكة⁽⁵⁾.

كما كانت المحامل تؤجر في الشام للحج، فعندما حج إياس بن زيد⁽⁶⁾، وغيلان الدمشقي⁽⁷⁾. من الشام، استأجر لهما المكارى محملا لحجهم⁽⁸⁾.

ومما لاشك فيه أن تعاليم الإسلام المتعلقة بالحج كان لها دور في رواج مهنة الكراء، إذ سهلت على المكارين تأدية مهنتهم في مواسم الحج حيث أجاز الإسلام حج من يكرى الرواحل إذا أدى جميع مناسك الحج⁽⁹⁾.

ص178.

(1) الأصفهاني: الأغاني، ج22، ص328.

(2) الأصفهاني: الأغاني، ج9، ص204؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 61-80هـ، ص213.

(3) الزوامل: هي الإبل التي يعمل عليها الطعام والمتاع، وقيل هي الدواب عامة التي

يعمل عليها من الإبل وغيرها، ابن منظور: لسان العرب، ج11، ص310.

(4) ابن منظور: المصدر السابق، ج11، ص178.

(5) الفاكهي: أخبار مكة، ج1، ص402. ج3، ص234؛ الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري:

الأوائل، بيروت: دار الكتب العلمية، 1987م، ط1، ص216-217؛ عبدالله بن مسلم بن قتيبة:

المعارف، ت، ثروت عكاشة، القاهرة: دار المعارف، (د.ت)، ط2، ص553.

(6) إياس بن زيد: أحد التابعين، توفي سنة 122هـ. ترجمته عند: ابن عساكر: تهذيب

تاريخ دمشق، ج3، ص177-188.

(7) غيلان الدمشقي: زعيم فرقة القدرية بالشام، وقد صلب في دمشق في خلافة هشام بن

عبدالمك. عبدالقادر بن طاهر البغدادي: الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم،

ط3، بيروت: دار الآفاق الجديدة، (1978م)، ص193-192. الذهبي: تاريخ الإسلام، 101-

120هـ، ص221. وعن آراء غيلان ومعتقداته، حسين عطوان: الفرق الإسلامية في بلاد الشام في

العصر الأموي د.م: دار الجيل، 1986م، ط1، ص32-20.

(8) ابن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق، ج3، ص180.

(9) أبو داود: السنن، ج2، ص350-351؛ الطبري: جامع البيان، ج2، ص282، 285؛

الطبري: القرى، ص79. فقه السنة، ج1، ص641.

ولا تفيدنا المصادر المتاحة عن أجرة الراحلة المكربة إلى مكة خلال مواسم الحج، ولكن يبدو أن السعر كان يحدده بعد أو قصر المسافة من مكة وإليها. ويلاحظ هنا أن بعض المسلمين كان لا يحبذ المساومة لإنقاص الأجرة في الكراء إلى مكة لأنهم كانوا يعتبرون ما يدفعونه كأجرة مما يتقرب به إلى الله، ومن هؤلاء جابر بن زيد الذي كان لا يساوم في الكراء إلى مكة⁽¹⁾.

بالإضافة إلى مهنة المكاري الذي يؤجر الإبل، فقد وجد في هذه المواسم من يكري نفسه لخدمة الحجاج. وقد أجاز الإسلام حج من يكري نفسه إذا أدى جميع مناسك الحج⁽²⁾. ولا شك أن وجود هذه المهنة كان راجعاً لعجز بعض الحجاج مالياً عن تأدية فريضة الحج. ويلاحظ هنا أن الإسلام قد رفع عن المسلمين التأثم والتحرج من عدم القدرة على الحج مالياً، وذلك بأن قيد فريضة الحج بالاستطاعة. وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾⁽³⁾؛ فالاستطاعة شرط من شروط هذه الفريضة، وقد فسرت الاستطاعة بالقدرة على الزاد والراحلة⁽⁴⁾. وهي تتحقق بالقدرة البدنية والمالية التي تعين المسلم على تأدية هذا الركن الإسلامي، فمن كان عاجزاً بدنياً أعفاه الإسلام من أداء هذه الفريضة. ومن لم يملك المال فإنه يكره له أن يحج بالسؤال واستجداء الناس، بل حيب له الإسلام أن يتكسب حتى يحصل على الزاد والراحلة، وذلك بأن يعمل بأي صنعة ومهنة وهو في طريقه إلى الحج، أو يكري نفسه للحجاج، بأن يقوم بإعداد طعامهم وحمل متاعهم عند نزولهم ورحيلهم، مقابل ما يقدم له من غذاء⁽⁵⁾.

الجزارة:

كانت مهنة الجزارة من المهن المزدهرة وذلك لعلاقتها بكثرة ما ينحر من الإبل والبقر والغنم في أيام الحج بمكة ومنى. وقد كان الجزارون يقومون بنحر هدي الحجاج بمنى ويأخذون عليه أجراً، ومما يدل على ذلك أنه عندما حج عبدالله بن عمر بن الخطاب أعطى أحد الجزارين الذي قام بنحر هديه

(1) ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج3، ص 237؛ الطبري: القرى، ص33.

(2) أبو داود: السنن، ج2، ص : الفاكهي: أخبار مكة، ج1، ص379؛ ابن تيمية: شرح العمدة، ج2، ص251.

(3) سورة آل عمران: 97.

(4) الطبري: جامع البيان، ج2، ص15-17؛ الفاكهي: أخبار مكة، ج1، ص379.

(5) ابن تيمية: شرح العمدة، ج1، ص122-150.

دراهم أجرة له⁽¹⁾. ولم تقتصر مهنة الجزارين على نحر الهدى والأضاحي، بل شملت أيضا ذبح الإبل والأغنام التي تقدم طعاما للحجاج خلال موسم الحج، فقد كان معاوية بن أبي سفيان دار حج بمكة فيها قدور من نحاس كانت الإبل والأغنام تذبح وتطبخ فيها ثم تقدم طعاما للحجاج⁽²⁾. ومما يدل على انتعاش مهنة الجزارة بمكة وجود مكان خاص بالجزارين يقيمون به يسمى زقاق الجزارين⁽³⁾.

الحلاقة والحجامة:

كانت الحلاقة والحجامة من المهن السائدة في مواسم الحج. أما عن مهنة الحلاقة فتشير المصادر إلى إنتعاش هذه المهنة في منى بعد التحلل من الإحرام⁽⁴⁾، وذلك لأن حلق الشعر من مناسك الحج، يقول تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ۗ﴾ الآية⁽⁵⁾. ولهذا فقد كان الحلاقون يوجدون بكثرة في منى أيام التشريق، حيث يقومون بحلق رؤوس الحجاج⁽⁶⁾. وكان المتعارف عليه عند الحلاقين أن لا يساوم في سعر الحلاقة وذلك لأن حلاقة الشعر نسك من مناسك الحج يتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى⁽⁷⁾.

وقد ارتبطت مهنة الحلاقة بمهنة الحجامة حيث يبدو أن الذي يقوم بالمهنتين شخص واحد⁽⁸⁾. والحجامة هي مص دم الرأس بألة كانت تسمى المحجم يجمع فيها الدم⁽⁹⁾. وكانت هذه المهنة سائدة في منى بعد التحلل من الإحرام

(1) الطبري: القرى، ص 570.

(2) الفاكهي: أخبار مكة، ج 3، ص 287، الأزرقى: أخبار مكة، ج 2، ص 237؛ الطبري: القرى، ص 493.

(3) الفاكهي: أخبار مكة، ج 3، ص 274؛ الأزرقى: أخبار مكة، ج 2، ص 238؛ الطبري: القرى، ص 258.

(4) ابن سعد: الطبقات، ج 2، ص 152-155؛ السيف: الحياة الاقتصادية، ص 168.

(5) سورة البقرة: 196.

(6) حلق عبدالله بن عمر رأسه على المروة. ابن سعد: الطبقات، ج 2، ص 152 - 155. وحلق معاوية بن أبي سفيان رأسه بمنى، ابن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق، ج 7، ص 209. كما حلق الوليد بن عبد الملك رأسه بعد أن رمى الجمرة. الأصبحي: الموطأ، ج 1، ص 329.

(7) الطبري: القرى، ص 454.

(8) ابن سعد: الطبقات، ج 2، ص 155؛ الطبري: القرى، ص 454-455.

(9) ابن منظور: لسان العرب، ج 12، ص 116-117؛ جواد علي: المفصل، ج 7، ص 83، 584.

وذلك لأن الدم يفسد الحج. وقد كانت الحجامة وسيلة من وسائل التداوي والعلاج في تلك الفترة التاريخية⁽¹⁾.

الحطابة:

كانت مهنة الحطابة من المهن الرائجة بمكة. ويبدو أن هذه المهنة كانت تنتعش في مواسم الحج وذلك لكثرة الطلب على حطب الوقود لطبخ وإعداد ما ينحر من الهدى والأضاحي، وأيضاً ما يذبح طعاماً للحجاج من إبل وغنم خلال مواسم الحج. وكان الحطابون يقومون بجلب الحطب من بعض نواحي الحجاز المشهورة بحطب الوقود⁽²⁾. ومما يؤكد إزدهار مهنة الحطابة وجود سوق لبيع الحطب بمكة⁽³⁾. ومما هو جدير بالملاحظة هنا أن تعاليم الإسلام المتعلقة بالحج كان لها دور في رواج مهنة الحطابة. فقد أجاز الإسلام لمن لهم منفعة وحاجة تتكرر، كالحطابين، دخول مكة بدون إحرام⁽⁴⁾. كما أباح الإسلام للحطابين أن يبيتوا بمكة ليالي منى⁽⁵⁾.

ويبدو أن ذلك لحاجة الحطابين إلى التنقل بين مكة ومنى لعرض ما لديهم من الحطب الذي يزداد الطلب على شرائه في أيام عيد الأضحى بمكة ومنى. ولم تكن إباحة دخول مكة بدون إحرام مقصورة على الحطابين فقط، بل شملت أيضاً أصحاب المهن والحرف الأخرى، كالحمالين والرعاة وغيرهم، وذلك لارتباط مصالحهم بمصالح الناس، ولأنه يصعب عليهم كلما أرادوا دخول مكة الإحرام⁽⁶⁾.

(1) ما زالت مهنة الحجامة موجودة حتى اليوم كوسيلة من وسائل التداوي.

(2) جواد علي: المفصل، ج7، ص 86 - 93.

(3) الفاكهي: أخبار مكة، ج3، ص152؛ الأزرقى: أخبار مكة، ج2، ص23.

(4) الفاكهي: أخبار مكة، ج1، ص213، ج3، ص172-175؛ ابن تيمية: شرح العمدة، ج1، ص338. الطبري: القرى، ص259.

(5) ابن حجر: فتح الباري، ج3، ص578.

(6) حول إباحة دخول مكة بغير إحرام. الفاكهي: أخبار مكة، ج1، ص413؛ ابن تيمية: شرح العمدة، ج1، ص352-353؛ الطبري: القرى، ص259.

العطور والطيب:

كانت العطور والطيب سلعا رائجة في مواسم الحج، ولا غرابة في ذلك فقد اشتهرت مكة بعطورها التي كانت تستورد من اليمن والهند عن طريق البحر الأحمر⁽¹⁾. كما كانت العطور تستورد أيضا من الطائف التي اشتهرت بأزهارها وورودها المتنوعة والتي يستخرج ويصنع منها العطور⁽²⁾.

وتذكر بعض المصادر تطور وازدهار تجارة الطيب والعطور في العصر الأموي، فقد اشترى عمر بن أبي ربيعة - عندما كان حاجاً - طيباً وحللاً بألف دينار⁽³⁾. كما كانت العطور المستوردة من الطائف تباع على الحجاج في مواسم الحج⁽⁴⁾.

كما أن بعض الحجاج كانوا يجلبون معهم الطيب للتجارة، كما كان البعض الآخر يشترونه كهدايا عند مغادرتهم لمكة والمدينة وذلك بعد قضائهم لفريضة الحج⁽⁵⁾.

ومما يدل على انتعاش تجارة العطور ما تذكره بعض المصادر من وجود سوق للعطارين بمكة⁽⁶⁾.

(1) جواد علي: المفصل، ج7، ص293، ص128.

(2) عبدالجبار منسي العبيدي: الطائف ودور قبيلة ثقيف العربية، ط1، الرياض: دار الرفاعي للنشر، 1982م، ص51-52.

(3) الأصفهاني: الأغاني، ج1، ص166؛ المبرد: الكامل في اللغة والأدب، ج9، ص63؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج1، ص375.

(4) العبيدي: الطائف، ص51-52.

(5) ابن تيمية: شرح العمدة، ج2، ص88-90. وهنا يذكر ابن تيمية أن الإسلام اشترط لمن يحمل الطيب للتجارة وهو محرم أن يستره ولا يشمه. فإن شمه فعليه كفارة. الطبري: القري، مقدمة المحقق مصطفى السقا، ص8. وقد نهى سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب، الوليد بن عبدالملك عن استعمال الطيب قبل طواف الإفاضة. الأصبحي، الموطأ، ج1، ص329. وعن حكم الطيب خلال الإحرام. برهان الدين إبراهيم بن فرحون، إرشاد السالك إلى أفعال المسالك، ج2، ص202-205.

(6) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص102؛ ابن عدي: العقد الفريد، ج7، ص302.

كما أن تجار العطور كانوا يوجدون بأعداد كبيرة في المدينة، ففي موسم حج عام (63هـ) والذي صادف وقعة الحرة⁽¹⁾، كان يقيم بالمدينة أربعمئة تاجر من أهل دارين⁽²⁾. بالبحرين يمتنون العطارة⁽³⁾.

وتدل كثرة العطارين بالمدينة على رواج تجارة العطور وأزدياد الطلب عليها، وخصوصا في أشهر الحج. والملاحظ هنا أن بعض الخلفاء كانوا يصرفون الأموال على شراء الطيب والعطور، فقد كان الخليفة معاوية بن أبي سفيان أول من أوجد وظيفة تطيب الكعبة سنويا في مواسم الحج وذلك عند كل صلاة⁽⁴⁾، كما كان الخليفة هشام بن عبدالمك مولعا بالعطور والإنفاق عليها⁽⁵⁾.

(1) الحرة: أرض ذات حجارة سوداء، وفي المدينة حرتان، إحداهما حرة واقم والتي كانت فيها وقعة الحرة المشهورة. بطوطة: معجم البلدان، ج2، ص ص245-249؛ وقد كانت وقعة الحرة في شهر ذي الحجة سنة 63هـ وذلك عندما قام أهالي المدينة بطرد عامل الخليفة الأموي يزيد بن معاوية، والخروج عن بيعة يزيد، مما ترتب عليه مهاجمة جيش الشام للمدينة وإباحتها وقتل كثير من أهلها، ومن ثم إخضاعها للخلافة الأموية. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج5، ص ص482-495.

(2) دارين: محطة للسفن وميناء بالبحرين وكان يجلب إليها المسك من الهند، بطوطة: معجم البلدان، ج2 ص432.

(3) البلاذري: أنساب الأشراف، تحقيق: ماكس سكلوسنجر، القدس: 1938م، ج2، قسم 2، ص23؛ الأصفهاني: الأغاني، ج22، ص38.

(4) الأزرقي: أخبار مكة، ج1، ص254. الطبري: القرى، ص522. ويذكر الفاكهي أن عبدالله بن الزبير هو أول من طيب الكعبة بالطيب، الفاكهي: أخبار مكة، ج3، ص221.

(5) ابن عبدربه: العقد الفريد، ج5، ص192.

الفصل الثالث

أثر تنظيمات الحج على الأوضاع الاجتماعية في الحجاز خلال العصر الأموي

المبحث الأول
العادات والتقاليد

المبحث الثاني
اللغات واللهجات

المبحث الثالث
اللباس والزينة

المبحث الرابع
الأطعمة والأشربة

المبحث الخامس
أثر التنظيمات على المناسبات العامة

المبحث الأول

العادات والتقاليد

المطلب الأول: أثرها على العادات والتقاليد داخل المدن:

العادات والتقاليد:

يتكون مجتمع مدن الحجاز من:

القبائل العربية:

كانت القبائل العربية هي الركيزة الأولى للمجتمع لأنها تمثل الغالبية العظمى من السكان، وكانت كل قبيلة تضم عدداً من العشائر، التي تشتمل كل منها على عدد من الأسر، وكانت الروابط بين أفراد الأسرة الواحدة أقوى من الروابط التي تربطها بالعشيرة، أن الروابط بين أبناء العشيرة الواحدة أقوى من الروابط بين عشائر القبيلة⁽¹⁾.

وقد ساعد استقرار القبائل في المدن بالحجاز إلى الحد من غلواء العصبية القبلية وإن لم تقض عليها تماماً، فاندماج القبائل في المجتمع والمساهمة في الحياة الاقتصادية، واندماج أفراد القبائل مع آخرين ليسوا من عشائرتهم، إلى جانب ما دعا إليه الدين الإسلامي الحنيف من مساواة وأخوة بين جميع المسلمين فأدى إلى إضعاف العصبية القبلية⁽²⁾.

وجاءت الفتوحات الإسلامية فتغيرت التركيبة القبلية في الحجاز نظراً لنزوح كثير من القبائل للمشاركة في هذه الفتوحات الإسلامية، واستقرار بعضها في الأمصار التي تم فتحها⁽³⁾، كذلك اختلطت مواطن القبائل، وأصبحت الفوارق بين منازل كل قبيلة وأخرى ضعيفة.

(1) ابن خلدون: عبدالرحمن بن محمد الحضرمي، مقدمة ابن خلدون، بيروت: دار الفكر، 1981م، ج1، ط1، ص103.

(2) الأندلسي: أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، جمهرة أنساب العرب، بيروت: دار الكتب العلمية، 1203هـ/1983م، ط1، ص5.

(3) القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي، شرح وتعليق محمد حسن شمس الدين، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، بيروت: دار الكتب العلمية، 1987م، ط1، ص369.

ومن أهم قبائل الحجاز قريش وهذيل وجهينة:

فقبيلة قريش من القبائل التي انتهى إليها الشرف في الجاهلية، ثم بمبعث النبي القرشي ﷺ زادت عزاً وشرفاً، فقد كان للقبيلة مكانة سامية في نفوس العرب عامة، لذلك كان للقرشيين الأفضلية في تقلد المناصب العليا في الدولة الأموية، إلي جانب أنها القبيلة التي خرج منها الرسول ﷺ نجد أن بني أمية ينتمون إليها، فهم أبناء عمومته ﷺ⁽¹⁾.

أما قبيلة هذيل فقد تفرقت في الأمصار الإسلامية خلال الفتوحات، ولكن يبدو ذلك لم يؤثر على معظم أفراد القبيلة الذين ظلوا يعيشون في مساكنهم القديمة منذ العصر الجاهلي⁽²⁾.

أما قبيلة جهينة فهي من أعظم القبائل وأكثرها ثباتاً في مواطنها القديمة، ولكن بعد الفتوحات الإسلامية هاجر بعضهم إلى مصر واستقروا هنالك⁽³⁾.

ومن القبائل التي سكنت الطائف قبيلة ثقيف بن قيس بن منبه بن بكر بن هوازن ومن هذه القبيلة خرج أهم ولاة الأمويين كالحجاج بن يوسف الثقفي، ومحمد بن القاسم الثقفي⁽⁴⁾، وأيضاً قبيلة بني عذرة فقد سكنت وادي القرى، وإليها ينسب الحب العذري ومنهم عروة بن حزام وجميل بثينة اللذان عاشا في العصر الأموي⁽⁵⁾.

الموالي:

تعريف الموالى في اللغة:

للفظ الموالى عدة أوجه ومعاني في اللغة، فمنها التي تعني القرب والدنو في المكان والنسب، ويقال تباعدنا بعد ولي، ومنه وليه وكل مما يليك أي ما يقاربك ودار ليه: أي قريبه⁽⁶⁾.

(1) عبدالله عبدالجبار، مرجع سابق، ص121.

(2) عبدالحكم: أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن فتوح، مصر والمغرب، القاهرة: لجنة البيان العربي، 1961م، ص169.

(3) القلقشندي: مصدر سابق، الجزء الأول، ص368.

(4) ابن حزم الأندلسي، مصدر سابق، ص267.

(5) القلقشندي: صح الأعشى، ج1، ص267.

(6) الزبيدي: محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جوهرة القاموس،

تعريف الموالي في القرآن والعام:

ورد في القرآن الكريم والعام العطرة عدة معاني للمولى، منها النصرة والمحبة والقرب والرب والمالك، والسيد والصديق والقريب والوصي والوكيل والناصح والمشارك ومن يقوم بخدمة العاجز، والتهديد والوعيد، والتمكين والتهيئة لأمر ما والأعراض والإمارة، والمتابعة، والعتقاء، والأحق بالشئ والولي في الدين والشريك وابن العم والعصابات والحليف والصحرا⁽¹⁾.

وترجع كثرة الموالي في الحجاز في أواخر عهد الخلفاء الراشدين وفي العصر الأموي إلى كثرة الرقيق الذي تدفق على الحجاز أثناء الفتوحات الإسلامية، وإلى الثراء العريض الذي تمتع به أهل الحجاز واحتياجهم لاستخدام الرقيق في أعمالهم الخاصة، لذلك توافد تجار الرقيق إلى الحجاز لبيع رقيقهم مما أدى إلى كثرته⁽²⁾، ولقد شارك الموالي في الحياة السياسية في الحجاز، ففي عام 63هـ اشترك الموالي في معركة الحرة مع أهل المدينة ضد الأمويين بقيادة يزيد بن هرمز، وقد قتل عدد كبير منهم. كما اشترك موالي عبدالله بن الزبير معه في الحرب ضد الأمويين أما موالي الأمويين فقد حاربوا معهم ضد عبدالله بن الزبير⁽³⁾، وشارك موالي أهل المدينة في معركة قدير ضد الخوارج بقيادة أبي حمزة الشاري فقتل عدد كبير منهم⁽⁴⁾.

شارك الموالي أيضا في الحياة الاقتصادية، حيث كان المسئول عن مزارع معاوية بن أبي سفيان في المدينة من الموالي وهو ابن مينا⁽⁵⁾، وكان أبو إسماعيل بن يسار مولى⁽⁶⁾ بني تميم بن مرة من قريش يصنع طعام العرس فيشتره من أراد أن يتزوج.

حققه عبدالستار أحمد، الجزء العاشر، الكويت: مطبعة الكويت، 1965م، ص3.

(1) مجمع اللغة العربية: معجم الفاظ القرآن الكريم، القاهرة: الهيئة المصرية، 1970م، ط1، ص885.

(2) الأصبحي: المدونة الكبرى، ج1، ص271.

(3) البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر، أنساب الأشراف، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1217هـ/ 1996م، ص33.

(4) المصدر نفسه، ص26.

(5) اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب، اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، بيروت: دار صادر للطباعة والنشر، 1960م، ج2، ص250.

(6) الإصفيهاني: كتاب الأغاني، ج4، ص208.

شارك الموالي في الحياة الاجتماعية، ويظهر ذلك في الحياة الفنية في الحجاز حيث اشتهر منهم عدد كبير من المغنين الذين اقتبسوا موسيقى الفرس والروم وغناءهم، ونقلوه إلى اللغة العربية بعد أن أجروا عليه بعض التعديل، كما اشتهر أصحاب النوادر والفكاهة كأشعب مولى عبدالله بن الزبير⁽¹⁾.

كان للموالي أثر كبير في تغيير حياة أهل الحجاز الاجتماعية بعد الفتوحات الإسلامية، حيث امتزجت الدماء العربية بالدماء الأعجمية عن طريق الزيجات التي تمت بين العرب وغيرهم من الأمم المفتوحة، ولقد ترتب على هذه الزيجات نشوء جيل من التابعين خليط بين العرب والموالي⁽²⁾.

الرقيق:

من عناصر المجتمع في الحجاز والذي كان له أثره في الناحية الاقتصادية والاجتماعية هو عنصر الرقيق. ونجد أنه بعد الفتوحات الإسلامية تدفقت أعداد كبيرة منهم على الحجاز، وكان بعض الولاة عندما يعودون إلى الحجاز بانتهاء مدة عملهم يجلبون معهم أعدادا وفيرة من الرقيق. فعندما عزل سعيد بن عثمان بن عفان عن ولاية خراسان قدم المدينة بمال وسلاح وثلاثين عبدا من الصغد⁽³⁾.

كما اعتاد بعض الخلفاء الأمويين تقسيم الأموال والرقيق عندما يزورون الحجاز خاصة في موسم الحج، كما فعل الخليفة الوليد بن عبدالمك عندما حج عام 91هـ فقد قسم في المدينة رقيقا كثيرا بين الناس⁽⁴⁾.

ومن العوامل التي أدت إلى كثرة الرقيق في الحجاز تجارة الرقيق، فقد راجت هذه التجارة في العصر الأموي، وساعد على ازدهارها تطور المجتمع وارتفاع مستوى المعيشة، ووفرة الأموال لدى السكان وحاجتهم إلى الرقيق للخدمة في البيوت أو في النواحي الاقتصادية المختلفة، لذلك توجه التجار بالرقيق نحو الحجاز لبيعه فيه، كما كان بعض الناس يستأجرون نخاسين لبيع رقيقهم في

(1) الزبير بن الباطين: جمهرة نسب قریش وأخبارها، ص28.

(2) ابن خلدون: المقدمة، ص152.

(3) الأصفهاني: الأغاني، ج1، ص135.

(4) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج6، ص266.

البلدان مقابل أجرة معينة⁽¹⁾، كان للشاعر عمر بن أبي ربيعة مجموعة من الرقيق يزاولون مختلف الأعمال وكان يزاول الحياكة منهم سبعون عبداً⁽²⁾.

ولاشك أن هؤلاء الأرقاء جلبوا معهم فنون بلادهم من مختلف المهارات، لهذا نجد أن بلاد الحجاز في تلك الفترة قد برزت فيها الفنون الفارسية والرومية والحبشية وغيرها. وفي مجال الحياة الاقتصادية فقد شارك الرقيق في جوانبها المختلفة، فاشتغل بعضهم بالزراعة واستصلاح الأراضي التي كان يملكها أسيادهم، فقد استخدم سعيد بن عثمان بن عفان رقيقاً للعمل في مزارعه في المدينة المنورة⁽³⁾، وعمل الرقيق في رعي الإبل لأسيادهم⁽⁴⁾.

أيضاً شارك الرقيق في التجارة التي نشطت في العصر الأموي أكثر مما كانت عليه في عهد الخلفاء الراشدين، فكان السيد يعطي عبده المال ويفتح له المحل التجاري للبيع فيه، كما كان العبد يساعد سادته في التجارة⁽⁵⁾، ولم تقتصر أعمال الرقيق على مزاولة التجارة مع أسيادهم، بل كان بإمكانهم الحصول على إذن من أسيادهم لمزاولة التجارة بمفردهم⁽⁶⁾.

وعلى الرغم من الخدمات الاجتماعية والاقتصادية التي يقدمها الرقيق للمجتمع إلا أن بعض الناس كانوا ينظرون إلى الرقيق نظرة إزدراء واحتقار، ففي بعض الأحيان نجد أن الرقيق يحملون في أعناقهم أختاماً تشير إلى رقمهم⁽⁷⁾.

الحلفاء:

شارك القرشيين في سكنى مكة عند ظهور الإسلام أقوام كثيرون من قبائل شتى استقروا في مكة وحالفوا أهلها فسموا بالحلفاء⁽⁸⁾ وأصل الحلف هو العهد

(1) الإمام مالك: المدونة الكبرى، ج1، ص271.

(2) الأصفهاني: الأغاني، ج1، ص78.

(3) البلاذري: أنساب العرب، ج6، ص119.

(4) الزبير بن الباطين: جهمرة أنساب العرب، ص80.

(5) الأصفهاني: الأغاني، ج1، ص21.

(6) الزبيدي: أبو عبدالله المصعب بن عبدالله بن المصعب، نسب قريش وأخبارها، بيروت:

دار الكتب العلمية، 1983م، ط1، ص391.

(7) الإمام مالك: مصدر سابق، الجزء الثاني عشر، ص127.

(8) الباطين: الهام أحمد: الحياة الاجتماعية في مكة منذ ظهور الإسلام حتى نهاية العصر

الأموي، الرياض: مطابع الخالد، (1219هـ)، ص20-21.

الذي يكون بين القوم⁽¹⁾، والأحلاف مختلفة في غاياتها، وقد عقدت قريش أنواعاً يهمنها منها الأحلاف، التي يعقدها الوافدون إلى مكة من قبائل العرب المختلفة، وذلك عندما يرغبون في الاستقرار في مكة ومشاركة أهلها حياتها⁽²⁾. ويذكر ابن حبيب: «قالوا: إنك لا نستطيع أن نقيم به (بيت الله الحرام) إلا أن تحالف أهله»⁽³⁾.

الموالي :

وهم من العناصر غير العربية، ويمكن تقسيمهم إلى قسمين:

القسم الأول: وهم الموالي المسلمون الأحرار، الذين قدموا إلى مكة المكرمة لأسباب دينية؛ كالمجاورة في الحرم الشريف، وطلب العلم، أو اقتصادية للعمل بالتجارة والزراعة، والحرف، أو لأغراض أخرى مختلفة⁽⁴⁾.

وأرادوا أن يكون لهم مكان في هذا المجتمع القبلي، الذي يعتمد على النسب⁽⁵⁾ فدخلوا في تحالفات مع القبائل العربية، وأصبحوا موالي لهم لقاء منافع

(1) ابن الأثير: أبو السعادات المبارك بن محمد (ت 606هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر الزاوي، ومحمود الطناحي، بيروت، المكتبة العلمية، (د.ت)، 1/222؛ النووي: أبو زكريا محي الدين بن شرف، (ت 676هـ)، تهذيب الأسماء واللغات، بيروت: دار الكتب العلمية، القاهرة: إدارة الطباعة المنيرية، (د.ت)، 3/191؛ ابن منظور: محمد بن مكرم، (ت 711هـ)، لسان العرب المحيط، تحقيق: يوسف خياط، بيروت: دار لسان العرب، (د.ت)، 696/1-697.

(2) الباطنين: الحياة، ص 21.

(3) ابن حبيب: النمق في أخبار قريش، ط 1، ص 237.

(4) عبدالله المعامر، (ت 611هـ)، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبي اري، وعبدالحفيظ شلبي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط 2، (د.ت)؛ ابن هشام: السيرة، 3/229-250؛ ابن حبيب: مصدر سابق، ص 90-91؛ الأزرقى: محمد بن عبدالله، (ت 250هـ)، أخبار مكة وما جاء بها من الآثار، تحقيق: رشدي ملحس، بيروت: دار الثقافة، 1399هـ ط 3، 127/1-128؛ البلاذري: أحمد بن يحيى (ت 279هـ)، أنساب الأشراف تحقيق: محمد حميد الله، القاهرة: دار المعارف، 1/81.

(5) تفصيلاً، سعيد: محمد، النسب والقرابة في المجتمع العربي قبل الإسلام - دراسة في

الجدور التاريخية للإيلاف، بيروت: دار الساقى، 2006م، ط 1.

متبادلة⁽¹⁾ منها إسهامهم في دفع مع الديات⁽²⁾، والقتال إلى جانب أسيادهم⁽³⁾ دفاعاً عن القبيلة، وذلك مقابل حماية القبيلة لهم ومساعدتهم عند الحاجة⁽⁴⁾.

القسم الثاني: وهم موالي العتاقة، وهؤلاء كانوا أصلاً من الرقيق فأعتقهم أسيادهم لأسباب دينية أو اقتصادية⁽⁵⁾، وظلوا يدينون لقبيلة سيدهم بالولاء بعد العتق، ويحملون اسم القبيلة هم وأولادهم من بعدهم، وقد اشتغل هؤلاء بعد إعتاقهم بمختلف الأعمال الاقتصادية⁽⁶⁾.

لقد كان للموالي أثر كبير في تغيير حياة أهل مكة المكرمة الاجتماعية في العصر الأموي، حيث امتزجت الدماء العربية بالدماء الأعجمية عن طريق الزيجات التي تمت بين العرب وغيرهم من الأمم المفتوحة⁽⁷⁾.

ولقد ترتب على هذه الزيجات نشوء جيل من التابعين، خليط من العرب والموالي، وكانت صلتهم وثيقة بالحضارة الأجنبية، لأن الموالي كانوا في الأصل رقيقاً يقومون على خدمة أسيادهم العرب، ولذلك نقلوا كثيراً من ألوان الحضارة التي كان يجهلها العرب⁽⁸⁾، كالأطعمة، والأشربة والأبنية، والفرش، وكثيراً من عاداتهم وتقاليدهم في الأفراح⁽⁹⁾، ويتضح أثر الموالي في الحياة الاجتماعية من دورهم الذي قاموا به في الحياة الفنية في مكة المكرمة⁽¹⁰⁾.

(1) ابن خلدون: المقدمة، ص 119؛ الدوري، عبدالعزيز، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، بيروت: ص 20؛ السيف: الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ص 222؛ الخالدي، خالد عزام أحمد، تنظيمات الحج وتأثيراته في الجزيرة العربية خلال العصر العباسي (132-156هـ)، الرياض: الجمعية التاريخية السعودية، سلسلة من الأعمال العلمية المحكمة في التاريخ والحضارة، الإصدار الرابع، 1227هـ، ص 225.

(2) مالك: الغمام مالك بن أنس، المدونة، القاهرة: مطبعة السعادة، 1323هـ، 397/16؛ ابن خلدون: المقدمة، ص 119.

(3) ابن سعد: محمد (ت 220هـ) الطبقات الكبرى، بيروت: دار صادر، (د.ت)، 282/5.

(4) السيف: الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ص 222.

(5) ابن الأثير: أبو السعادات المبارك بن محمد، (ت 606هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، 5/227 - 228؛ ابن منظور: محمد بن مكرم، (ت 711هـ)، لسان العرب المحيط، تحقيق: يوسف خياط، بيروت: دار لسان العرب، (د.ت)، 3/985.

(6) السيف: الحياة الاقتصادية والاجتماعية، 221.

(7) الأصبهاني: حلية الأولياء، القاهرة: 3/367.

(8) ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ص 152، السيف: الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ص 227.

(9) ابن خلدون: المقدمة، ص 152؛ السيف: الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ص 227.

(10) السيف: الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ص 227.

هناك من ناقش ما ذكر عن احتقار العرب للموالي ومعاملتهم بأنها ليست كريمة⁽¹⁾ حيث وردت بعض الروايات التي صورت العرب يسيئون معاملة الموالي في عصر بني أمية إساءة بالغة⁽²⁾، إلا أن الأموي عدد من الصحابة والتابعين الذين كانوا ملتزمين بتعاليم الإسلام، وكانوا ينظرون إلى المسلمين جميعاً على أنهم أخوة وأمة واحدة من دون الناس، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى⁽³⁾. لقد كان بعض العرب لا ينظرون بعين الرضا والتقدير على تزويج بناتهم من الموالي، على الرغم من أنهم كانوا يتزوجون منهن⁽⁴⁾. بيد أن بعض العرب كانوا لا يبالون بتزويج بناتهم من الموالي⁽⁵⁾.

ومهما يكن من أمر، فقد لعب الموالي دوراً كبيراً في الحياة الاجتماعية في مكة المكرمة، بما نقلوه من عادات وأشاعوه من أخلاق، كما شاركوا في الحياة الاقتصادية والعلمية واستفادوا من ساداتهم وشاركوهم أعمالهم في مختلف المجالات⁽⁶⁾.

ومما لاشك فيه أن الموالي في العصر الأموي لعبوا دوراً مهماً في مجتمع مكة المكرمة، فأثروا فيه بما نقلوه إليه من عادات وأشاعوا من أخلاق.

الرفيق:

لقد وجد الرفيق منذ العصر الجاهلي، ولكن كثرت هذه الطبقة في المجتمع المكي بسبب تدفق الأسرى المستشرقين، الذين منهم من أخذ إلى مكة المكرمة

(1) السيف: الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ص229.

(2) ابن عبدربه: أبو عمر أحمد بن محمد، (ت 328هـ)، العقد الفريد، 212/3-213، وقد زعم المستشرق الروسي بيليف أن الموالي كانت لهم مساجد خاصة منفصلة عن مساجد العرب، إلا أنه لم يؤيد زعمه بشاهد أو نص، ويذكر السيف بأنه لم يعثر في المصادر على نص يوافق هذا الزعم، مما يدل على أن مرده التعصب الشديد، السيف: الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ص229.

(3) السيف: الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ص227.

(4) ابن قتيبة: أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري: (ت 276هـ) عيون الأخبار، الهيئة المصرية العامة، القاهرة: 1973م، 8/10؛ ابن سعد: الطبقات، 5/159، ويروي ابن سعد رواية تبين أن الموالي أيضاً كانوا لا يرغبون في تزويج العرب، فيذكر أن رجلاً من العرب خطب ابنة عطاء بن يسار فقال له عطاء: ما ننكر نسبك ولا موضعك ولكننا نزوج مثلنا وتزوج أنت في عشيرتك. الطبقات، 5/129.

(5) السيف: الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ص250.

(6) السيف: المصدر نفسه، ص251.

أثناء الفتوحات الإسلامية في العصرين الراشدي والأموي⁽¹⁾ ورواج تجارة الرقيق في العصر الأموي بسبب كثرة الأموال بأيدي الناس، وارتفاع مستوى المعيشة، والحاجة لاستخدامهم في الأعمال الزراعية والتجارية والصناعية والعمران⁽²⁾ حيث كثر الرقيق في مكة المكرمة لدرجة أن غير واحد من أشرف قريش كان يملك أكثر من ألف عبد⁽³⁾، يعملون في خدمته، أو في الأعمال الزراعية والرعي والصناعة والتجارة⁽⁴⁾.

أما عن دور الرقيق في الحياة الاجتماعية، حيث أدى الطلب المستمر على الرقيق لحاجة الأثرياء لهم للخدمة في البيوت⁽⁵⁾، ولا ريب أن هؤلاء الرقيق الذين كان منهم أصلاً الروم أو الفرس، وكانوا يعرفون ألوانا من الأطعمة والأشربة والألبسة لا يألفها سكان مكة المكرمة⁽⁶⁾.

يروى ابن خلدون أن العرب لما فتحوا بلاد الفرس والروم، استخدموا بناتهم وأبنائهم في مهنتهم وحاجات منازلهم، واختاروا منهم المهرة في ذلك، فتفننوا مع اتساع العيش، حيث يقول: « واستجاءوا المطاعم والمشارب والملابس والمباني والأسلحة والفرش وسائر الماعون. وكذلك أحوالهم في أيام المباهاة والولائم وليالي الأعراس⁽⁷⁾».

أما المكانة الاجتماعية للرقيق فقد حددتها العوامل السابقة، فمن الطبيعي أن يتمتع التجار وأصحاب المهن المربحة بوضع أفضل من أولئك الذين يعملون في الخدمة المنزلية والمهن الوضعية من ناحية أخرى فإن أهل مكة أحسنوا

(1) البلاذري: فتوح البلدان، ص127؛ ابن الزبير: القاضي الرشيد بن الزبير، (تحقيق: ق 5هـ)، كتاب الذخائر والتحف، تحقيق: محمد حميد الله، مراجعة: صلاح الدين المنجد، الكويت: 1959م، ص225.

(2) ابن خلدون: المقدمة، ص172، الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، ص90.

(3) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج6، ص122؛ المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 2/333.

(4) الأصفهاني: أبو الفرج علي بن الحسين، (ت356هـ)، كتاب الأغاني، القاهرة: مصورة من طبعة دار الكتب، 1/78، 8/176.

(5) الفاكهي: أبو عبدالله محمد بن إسحق (ت272هـ)، تاريخ مكة، منتخبات منه طبعت مع شفاء الغرام للفاسي والجامع اللطيف في فضائل مكة وبناء البيت الشريف لابن ظهيرة تحت عنوان: «المنتقى في أخبار أم القرى»، الطبعة الأوروبية: (د.ت)، ص19.

(6) السيف: الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ص259.

(7) ابن خلدون: المقدمة، ص152.

معاملة أرقائهم وعاملوهم كأبنائهم ونسبهم إليهم⁽¹⁾ وأشار إحدى الدراسات الحديثة إلى أن الرقيق العربي أرفع منزلة من غيرهم من أنواع الرقيق، وأرجعت ذلك إلى مكانتهم في قبائلهم الأصلية⁽²⁾.

وفي المقابل كان بعض الأرقاء من المستنفعين والأرذال، وقد وصفت عيشتهم بأنها مزرية وفي جوع مستمر ومعاملة أسيادهم لهم تتسم بالاحتقار والمهانة، بل كانوا يجعلونهم كأبي سلعة لديهم يهبونها لمن شاءوا ويتوارثونها⁽³⁾.

ومن ثم فقد كان بإمكان الرقيق أن يصبحوا أحرارا، وذلك بموجب اتفاق بينهم وبين أسيادهم على أن يدفعوا لهم مبلغا من المال، يحصل به العبد على حريته، فيكونوا مكاتبين، غير أنه كان للأسياذ الحق⁽⁴⁾ في تقرير ما يشاءون من الأموال⁽⁵⁾.

ثانياً: مظاهر الحياة الاجتماعية:

1- الأسرة المكية:

الخطبة:

كانت العادة أن يخطب الشخص لنفسه، أو أن يرسل من يقوم بهذا العمل نيابة عنه. فيروي ابن سعد أن عروة بن الزبير خطب من عبدالله بن عمر رضي الله عنه ابنته سودة فزوجه إياها⁽⁶⁾. كما عرف المجتمع - ما يعرف الآن بالخطبات

(1) الباطين: الحياة الاجتماعية، ص70.

(2) العلي، صالح أحمد، محاضرات في تاريخ العرب قبل الإسلام، الموصل: دار الكتب، ص136.

(3) البلاذري: أنساب، 2/119، 6/71؛ الهيثمي: نور الدين علي بن أبي بكر، (ت807هـ)، كشف الأستار عن زوائر البزار، تحقيق: حبيب الأعظمي، بيروت: مؤسسة الرسالة، (1399هـ)؛ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، بيروت: منشورات مؤسسة المعارف، (1206هـ)، 6/91؛ الباطين: الحياة الاجتماعية، ص70.

(4) يقول ابن الأثير: الكتابة أن يكتب الرجل عبده على مال يؤديه إليه منجماً، فإذا أواه صار حراً، وسميت كتابة لمصدر كتب، كأنه يكتب على نفسه لمولاه ثمنه، ويكتب مولاه له عليه العتق. النهاية في غريب الحديث، مصر: المطبعة العثمانية، 1311هـ، 2/7؛ وابن هبيرة، الوزير أبو المظفر، (ت560هـ/1962م)، الإفصاح عن معاني الصحاح، حلب: 1366هـ / 1927م، ط2، 2/297.

(5) السيف: الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ص261.

(6) ابن سعد: الطبقات، 2/123-122.

- فيروى البلاذري أن مصعب بن الزبير طلب من حبي المدينية أن تبحث له عن زوجة فدلته على عائشة بنت طلحة⁽¹⁾.

الصداق: لقد اختلفت المهور في العصور الأموي، حسب المكانة الاجتماعية، والغني والفقير للزوجين، وقد ذكرت بعض المصادر بعض مهوور الأغنياء⁽²⁾، وقد أمهر مصعب بن الزبير زوجته سكيئة بنت الحسين مليون درهم⁽³⁾، كما أمهر عائشة بنت طلحة نصف مليون درهم، وأهدى لها مثل ذلك⁽⁴⁾ وأمهر الفرزدق النوار في مكة المكرمة عشرة آلاف درهم⁽⁵⁾، وتزوج سعيد بن العاص من أم كلثوم بنت علي على مئة ألف درهم⁽⁶⁾، وتزوج طلحة بن عمر من فاطمة بنت القاسم بن محمد فأصدقها ثلاثمائة ألف درهم⁽⁷⁾.

هذا، وأحياناً يدفع المهر عيناً، فيروى أبو عبيدة أن الفرزدق الشاعر تزوج حدراء بنت زييق بن بسطام على مئة من الإبل⁽⁸⁾ أما الطبقات الفقيرة، فيبدو أنها كانت تدفع مهراً أقل بكثير من مهوور الأغنياء، فقد يتزوج الرجل بشق درهم⁽⁹⁾ وتذكر المصادر أن سعيد بن المسيب زوج ابنته، وكانت من أحسن النساء على صداق قدره درهمان من كثير بن أبي وداعة⁽¹⁰⁾.

- (1) البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر، (ت 279هـ)، أنساب الأشراف، مطبعة الجامعة، القدس، 5/282؛ السيف: الحياة الاجتماعية، ص303.
- (2) تفصيلياً، السيف: الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ص303-302.
- (3) الأصفهاني: الأغاني، الأغاني، 16/150.
- (4) لأصفهاني، الأغاني، 11/181؛ ابن قتيبة: عيون الأخبار، ص258؛ المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة، القاهرة: 1388هـ/1969م، ص233.
- (5) الأصفهاني: الأغني، 9/330.
- (6) ابن عساكر: علي بن الحسين بن هبة الله الشافعي (ت571هـ)، تهذيب تاريخ ابن عساكر؛ تهذيب: عبدالقادر بن أحمد أحمد المعروف.
- (7) ابن الباطين: جمهرة نسب قريش، 1/61.
- (8) أبو عبيدة، معمر بن المثنى (ت219هـ)، نقائض جريير والفرزدق؛ ليدن: مطبعة بريل، (1905م)، 2/806.
- (9) ابن قتيبة: عيون الأخبار، 2/221.
- (10) ابن شاعر الكتبي: أبو عبدالله محمد بن شاعر بن أحمد، (ت762هـ)، مخطوطة بمعهد المخطوطات، جامعة الدول العربية، برقم 551، 5/225؛ ابن الجوزي: المنتظم، ص222؛ الأصفهاني: حلية الأولياء، 2/167؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، 2/376؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 100. وفي رواية أخرى أنه زوجها من ابن أخيه على صداق قدره درهمان. ابن سعد: الطبقات، 5/102.

عقد النكاح :

عقد الزواج في الإسلام كان أساساً لإتمام الزواج، ومن صيغ العقود التي حفظها ابن سعد عقد عبدالله بن عمر رضي الله عنه، لابنته سودة على عروة بن الزبير، حيث قال بعد أن أحضرها أخوها: «هذا عندكم عروة وهو ممن قد عرفتما، وقد ذكر أختكما سودة فأنا أزوجه على ما أخذ الله به على الرجال للنساء، إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، وعلى ما يستحل به الرجال فزوج للنساء، كذلك يا عروة؟ قال نعم قال: فقد زوجتكها على بركة الله»⁽¹⁾.

وكانت خطبة عبدالله بن الزبير التي يزوج بها: «الحمد لله الذي استحمد بفضلته، ورضى الحمد شكراً من خلقه، أحمدته وأستعينه، وأؤمن به، وأتوكل عليه، وأشهد ألا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم، ثم إن الله -عز وجل- أحل حلالاً رضيته، وحرم حرماً سخطه، فأمر بما أحل ووسع فيه، ونهى عما حرم وعذب فيه»⁽²⁾، فقال عز وجل ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾⁽³⁾.

تجهيز العروس:

تتولى الأم في الغالب إعداد جهاز العروس وهو ما تحتاج إليه في وجهتها⁽⁴⁾، ويتكون في الغالب من اللباس والطيب والحلى وأدوات الزينة الأخرى⁽⁵⁾، وكان الأب والأم، أو من يعولها يعددن ملابس خاصة للزواج، وأخرى خاصة بالبيت، ولباس لها عند الراحة⁽⁶⁾، وقد يتولى الأب أو من يعولها تجهيز العروس من ماله الخاص، لاسيما الميسورين من أهل مكة، مثلما فعل المغيرة بن عبدالرحمن المخزومي عندما زوج بناته الأربع وأخواته الأربع، أيضاً، وجههن من ماله الخاص⁽⁷⁾.

(1) الطبقات، الكبرى، 2/126.

(2) الفاكهي: أخبار مكة، 3/135-136.

(3) سورة النور: 32.

(4) ابن سيدة: المخصص، 2/26.

(5) الباطين: الحياة الاجتماعية، ص225.

(6) الباطين: الحياة الاجتماعية، ص226.

(7) الزبيري: نسب، ص308-309؛ ابن الباطين: جمهرة، 2/ ورقة 263.

ومن عادة الميسورين من أهل مكة في هذه المناسبة أن يحضروا الماشطة، فتقوم بتجميل شعر العروس، وخضابها، وانتقاء وترتيب ثيابها، وتعطيرها، ووضع الحلي والمجوهرات عليها، وهو ما يسمى بجلوة العروس عند زفافها إلى زوجها⁽¹⁾.

هذا، وفي العصر الأموي كانت أم منظور تجلو النساء⁽²⁾. وقد أوضح الأصبهاني جلوة أم منظور لإحدى النساء، فقال: «ألبستها قلادة ومخنقة، ووضفت شعرها، وجعلت في فرقتها شيئاً من الخلق»⁽³⁾. وعادة ما يقوم أهل البنت خاصة الأب والأم بتوجيه النصح والإرشاد لها قبل زواجها⁽⁴⁾.

الاحتفال: (الزفاف):

كانت العادة المتبعة أن يولم الشخص المتزوج ويدعو الناس لهذه الوليمة. كما كان الغناء يصاحب حفلات الزواج أحياناً، فيروي ابن عبدربه - نقلًا عن الأصمعي - أن طويس المغني يتغنى في عرس رجل من الأنصار⁽⁵⁾ وعندما تولى الخليفة عمر بن عبدالعزيز نهى عن الضرب ببعض الآلات الموسيقية، ولم يؤذن إلا بالدفات، على أن يقتصر ذلك على حفلات الزواج⁽⁶⁾.

تعدد الزوجات:

قد توسع أهل مكة في التعدد في الإسلام، لاسيما العصر الأموي، وأن كتاباً مثل نسب قريش للزبير، والطبقات الكبرى لابن سعد، وتراجم النساء لابن عساكر تزودنا بمعلومات إجتماعية -مهما تكن عدم دقتها- فهي ذات نفع في موضوع تعدد الزوجات، أو تزوج الأرامل والمطلقات مرة أو مرات أخرى، ونسبة تعدد الزوجات التي حصلنا عليها من خلال دراسة عينة من رجال قريش في العصر الأموي كانت (1:28) (7).

(1) يرد في معنى الجلوة أيضاً ما يقدمه الزوج لعروسه ليلة الزفاف أو وقت جلوتها. ابن سيدة: المخصص، 2/19؛ ابن منظور: لسان العرب، 1/292. وقد يسمى الاحتفال بالعرس جلبة. الأصفهان: أبو الفرج علي بن الحسين (ت230)، حلية الأولياء، القاهرة: (1932م)، 12/162؛ الباطنين: الحياة الاجتماعية، ص226.

(2) الأصبهاني: علي بن الحسين، الأغاني، مصور عن طبعة دار الكتب المصرية، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د.ت)، 7/82.

(3) الأصبهاني: الأغاني، 7/82؛ 12/162.

(4) الباطنين: الحياة الاجتماعية، ص227.

(5) ابن عبدربه: العقد الفريد، 6/29.

(6) ابن عبدالحكم: سيرة عمر بن عبدالعزيز، ص125.

(7) الباطنين: الحياة الاجتماعية، ص232، 233.

التسرى:

لقد قامت الإماء والجواري بالخدمة في بيوت أسيادهن، إلا أن بعضهن قد أصبحن محظيات عند أسيادهن، وتمتعن بنفوذ كبير عندهم. وإذا جاءت الأمة بولد من سيدها، أصبحت أم ولد ولا يجوز بيعها⁽¹⁾، كما أن أولاد الإماء كانوا يصبحون أحراراً، إلا أن مركزهم الاجتماعي كان أقل من مركز أولاد الحرائر، ومع هذا شاع إتخاذ السراري ورغب الناس فيهن، وخاصة عندما اشتهر عدد من أبنائهن في العلم والفقه والورع⁽²⁾. ومن ثم فقد أقبلوا على الإماء، ويروى ابن سعد أن المنكدر بن عبدالله اشترى جارية وتزوجها، وأنجبت منه الأولاد⁽³⁾.

وكانت أم الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة جارية من الحبشة⁽⁴⁾، كما كانت أم عبدالله بن قيس بن عبدالله بن الزبير جارية من الحبشة⁽⁵⁾ أيضاً. ولا ريب أن هذه الزيجات التي تمت بين العرب وغيرهم من الأجناس الأخرى قد أثرت في امتزاج الدماء من ناحية، وأثرت على العادات والأخلاق التي كانت موجودة من ناحية أخرى⁽⁶⁾.

الإنجاب وتربية الأولاد:

من الطبيعي أن يكون من بين أهم غايات الزواج الأساسية إنجاب الذرية، فإن طبيعة الحياة في شبه الجزيرة العربية تجعل كثرة أفراد الأسرة لها فوائد معنوية ومادية⁽⁷⁾، وعندما تنجب المرأة تزداد مكانتها عند زوجها وأهله خاصة عندما تنجب ذكوراً⁽⁸⁾، فيقال امرأة مذكر ومذكر إذا ولدت ذكوراً، وامرأة مؤنث ومئنث إذا ولدت الإناث⁽⁹⁾، ولم تكن العرب تعادل منجبة من

(1) ابن الباطين: جمهرة، 1/35، 55؛ الأصبهاني: حلية الأولياء، 3/367؛ الأصفهاني: الأغاني، 1/30.

(2) ابن قتيبة: أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري: ت هـ، عيون الأخبار، 10/8.

(3) ابن سعد: الطبقات، 5/18.

(4) الأصفهاني: الأغاني، 1/66.

(5) ابن حبيب: المجد، ص303.

(6) عبدالله محمد السيف: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي، الرياض: (1203هـ/1983م)، ص260.

(7) الباطين: الحياة الاجتماعية، ص232.

(8) ابن حبيب: أبو جعفر محمد البغدادي، (ت225هـ)، المحبر، تحقيق: إيلزة ليختن شتير، بيروت: دار الآفاق الجديدة، (د.ت) ص255-263.

(9) ابن دريد: جمهرة، 3/1268؛ ابن سيدة: المخصص، 1/19.

النساء من لها أقل من ثلاثة بنين⁽¹⁾. وكانوا يسمون المرأة التي لا تنجب عقيماً وعاقراً، ويسمون الرجل الذي لا ينجب عقيماً⁽²⁾، وعند حمل المرأة كانوا يقولون لها امرأة جامع، أي في بطنها ولد⁽³⁾، وإذا أتمت فترة الحمل قيل لها: امرأة متم⁽⁴⁾ وفي المقابل هناك إشارات عن إسقاط الولد قبل تمامه⁽⁵⁾ وقد لا تكمل المرأة فترة حملها، فتلد لسته أشهر أو سبعة⁽⁶⁾، وعند قرب الولادة يقال للمرأة: محج و ماخض⁽⁷⁾، ويقال للمرأة عند ولادتها والطلق وجع الولادة⁽⁸⁾. أما عن التربية، فقد أكد الإسلام على أن الأصل أن ترضع الأم طفلها، غير أنه أباح اتخاذ المراضع، كما أن هناك حواضن⁽⁹⁾.

على أن التطور هو تعليم الصبي منذ سن مبكرة مبادئ القراءة والكتابة ويتبع ذلك تعليمه القرآن ثم تعاليم الإسلام⁽¹⁰⁾، وكان بعض أهل مكة المكرمة يعبر عن فرحته عندما ينهى الصبي تعليمه بالمكتب، ويختتم القرآن الكريم بأن يطوفوا بهم حول الكعبة⁽¹¹⁾. ومنهم من لا يكتفي بذلك خاصة ذوي اليسار فينحر جزوراً، ويصنع للناس طعاماً إذا تفوق ابنه على أقرانه⁽¹²⁾، وكان تكريم المتفوق يأتي أحياناً من المعلم نفسه فيحمل المتفوق على دابة، ويطوف به في شوارع البلد ولا بد أن بقية زملائه كانوا يحفون به. ويظهر أن هذه العادة كانت منتشرة في بلدان أخرى غير مكة المكرمة مما دفع الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز أن يكتب للبلدان بإبطال هذه العادة⁽¹³⁾.

- (1) ابن حبيب: المحبر، ص255.
- (2) الباطين: الحياة الاجتماعية، ص232.
- (3) ابن دريد: جمهرة، 3/1268.
- (4) البخاري: صحيح البخاري: 6/216؛ ابن الباطين: جمهرة، 1/28، 353، ابن دريد: جمهرة، 3/1269؛ ابن سيدة: المخصص، 1/20، ابن الأثير: النهاية، 1/197.
- (5) الباطين: الحياة الاجتماعية، ص235.
- (6) ابن دريد: الجمهرة، 1/19؛ ابن سيدة: المخصص، 1/331.
- (7) ابن دريد: الجمهرة، 1/608؛ ابن سيدة: المخصص، 1/19.
- (8) ابن دريد: جمهرة، 2/922؛ ابن سيدة: المخصص، 1/19.
- (9) الباطين: الحياة الاجتماعية، ص223.
- (10) الباطين: الحياة الاجتماعية، ص227.
- (11) الفاكهي: أخبار مكة، 1/302.
- (12) ابن أبي الدنيا: أبو بكر عبدالله بن محمد، (ت281هـ)، العيال، تحقيق: نجم خلف، الدمام: دار ابن القيم، (1210هـ / 1999م)، ط1، ج1، ص289.
- (13) الباطين: الحياة الاجتماعية، ص235.

الطلاق:

إنه من الدارج، إذا حدث أن طلق الرجل زوجته كان عليه أن يمتعها عملاً بالآية الكريمة: (وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين)⁽¹⁾، هذا، ولقد متع عبدالله بن عمر رضي الله عنه، زوجته حين طلقها خادماً. ومتع عروة بن الزبير زوجته حين طلقها جارية سوداء⁽²⁾.

ويروي ابن كثير أن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، متع زوجته بعشرة آلاف درهم، وزق من عسل⁽³⁾ أما الأصبخ بن عبدالعزيز بن مروان فقد متع سكيئة بنت الحسين رضي الله عنه، بعشرين ألف دينار⁽⁴⁾.

الوفاة وعاداتها:

أما عن التقاليد التي كانت متبعة في الوفيات، فقد كان الميت يغسل ويوضع في جسمه الحنوط⁽⁵⁾، ثم يكفن بالثياب ويصلي عليه، ثم يواري في قبره، فيروي ابن سعد أن واقد بن عبدالله بن عمر توفي بالسقيا، فكفنه أبوه في خمسة أثواب فيها قميص وعمامة⁽⁶⁾، وكفن محمد بن علي بن الحسين في قميص وإزار وبرد يمانى كانت العادة أن يوضع الحنوط على جسم الميت، إلا أن البعض كان يوصي قبل موته بعدم وضعه⁽⁷⁾ على كفنه، أو جسمه، فيروي ابن سعد أن عروة بن الزبير أوصى ابنه هشام بالأل يذروا عليه الحنوط⁽⁸⁾.

(1) سورة البقرة: 221، وقد اختلف في تحدي المتعة، فقال ابن عباس أعلاها خادم وأدناها

كسوة مالك: المدونة، 5/332، وقال مالك ليس لها حد لا في قليل ولا في كثير.

(2) مالك: المدونة، 5/332-335. إلا أن بعض الفقهاء جعلها ثلاثة دنانير على من يتسلم العطاء؛ مالك: المدونة، (5/332).

(3) ابن كثير، البداية والنهاية، 8/38.

(4) الأصفهاني: الأغاني، 16/151.

(5) ابن سعد: الطبقات، ج5، ص135؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج8، ص322.

(6) ابن سعد: الطبقات، ج5، ص155.

(7) ابن سعد: الطبقات، 5/238.

(8) ابن سعد: الطبقات، ج5، ص135.

الجنّازة:

لقد كان يصاحب تشييع الجنّازة بعض الرُّجّاز وحملة المّجامر⁽¹⁾ إلا أن سعيد بن المسيّب أوصى أهله بألا يضرب على قبره فسّطاطا ولا يمشي في جنّازته راجز أو حامل مّجمر⁽²⁾، حيث أن الأسواق رفعت عندما توفيت ابنة الحسين بن علي⁽³⁾.

النياحة:

ومع أن الإسلام حرم النياحة، وشقّ الجيوب، وضرب الخدود، إلا أنها كانت من العادات الموجودة في العصر الأموي⁽⁴⁾ فيروي بن عبدالحكم أن الخليفة عمر بن عبدالعزيز كتب إلى بعض عماله يقول: « ذكر لي أن نساء من أهل السفه والجفاء يخرجن إلى الأسواق عند موت الميت، ناشرات رؤوسهن ينحن نياحة أهل الجاهلية، ولعمري ما رخص للنساء في وضع خمرهن من أمرن أن يضربن بخمرهن» على جيوبهن، فإنه عن هذه النياحة نهيا شديدا، وتقدم إلى صاحب شرطكم فلا يقرن نوحا في دار ولا طريق⁽⁵⁾.

الحزن:

ومن عادات الحزن التي كانت موجودة في تلك الفترة، وهي نياحة المرأة على زوجها وهي قائمة، فيروي الأصفهاني أن عائشة بنت طلحة ناحت على زوجها عمر بن عبيد الله بن معمر وهي قائمة⁽⁶⁾، كانت المرأة في ذلك العصر إذا ناحت على زوجها وهي قائمة قائمة، عرف أنها تريد أن تتزوج بعده⁽⁷⁾.

الدفن:

كانت القبور مجرد حفر يوضع فيها جسد الميت، ثم يوارى بالتراب، ولا يبني عليه شيء، إلا أن يرش بالماء بعد دفنه⁽⁸⁾.

(1) السيف الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ص306.

(2) ابن سعد: الطبقات، ج1، ص-102 105.

(3) الأصفهاني: الأغاني، ج1، ص126.

(4) الأصفهاني: الأغاني، ج22، ص162؛ البلاذري: أنساب الأشراف، ج5، ص110، ابن الباطين: جمهرة قريش، ج1، ص296.

(5) ابن عبدالحكيم: سيرة عمر بن عبدالعزيز، ص106؛ ابن سعد: الطبقات، ج5، ص290.

(6) الأصفهاني: الأغاني، 2/381.

(7) الأصفهاني: الأغاني، ج2، ص381.

(8) السيف: الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ص307-308.

ومواسم الحج من المناسبات الدينية ذات الشأن الكبير والحشد الضخم، نظراً لقدوم الآلاف من الحجاج إلى مكة المكرمة سنوياً، لتأدية فريضة الحج، ويرافق هذا التجمع البشري فعاليات عديدة في كافة المجالات الحياتية، ومن الأمثلة على أثر الحج وكيفية انتقال العادات والتقاليد بين المصار الإسلامية:

أن الفتح الإسلامي وفريضة الحج ترتب عليها علاقات اجتماعية عدة بين أهل الحجاز وأهالي البلاد المفتوحة، تمثلت في استقرار كثير من القبائل المشاركة في تلك الفتوح، وهجرة بعض الصحابة والتابعين واستقرارهم بتلك المناطق، ومن أبرزها:

العلاقات بين أهالي الحجاز وبلاد مصر:

حيث استقر كثير من القبائل الحجازية التي شاركت في فتح مصر بها، وقد أقام هؤلاء العرب في الفسطاط والجزيرة⁽¹⁾ والإسكندرية وبعض جهات الصعيد⁽²⁾؛ وتشير المصادر إلى أن الذين قدموا مع عمرو بن العاص كان عددهم لا يزيد عن أربعة آلاف، ثم أتبعه الزبير بن العوام بمدد قدر في بعض الروايات باثني عشر ألفاً⁽³⁾.

وقد نظمت لهؤلاء الفاتحين خطط⁽⁴⁾ في مدينة الفسطاط عام (21هـ/642م) في الفضاء الواقع شمالي حصن بابليون بين النيل وجبل المقطم، وعرفت كل خطة باسم الجماعة التي نزلت فيها، ثم اتسعوا في البلد فاختلفوا على النيل⁽⁵⁾.

(1) الجزيرة: بلدة في غربي فسطاط مصر على النيل، كبيرة وواسعة، اختط بها المسلمون بعد فتح مصر. ياقوت: معجم، ج2، ص200، وسماها العرب بالجزيرة لأنها في المكان الذي اجتازوا فيه نهر النيل بين الفسطاط وجانب الوادي الغربي الممتد من الجزيرة إلى الجبل. المقرئزي: الخطط، ج1، ص202-205؛ باز، مصر والنوبة، هامش 2، ص62.

(2) المقرئزي: البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق: عبدالمجيد عابدين، ط2، القاهرة: عالم الكتب، (1996م)، ص95.

(3) ابن عبدالحكم: فتوح، ص77، 83؛ البلاذري: فتوح، ص212؛ اليعقوبي: تاريخ، ج2، ص128.

(4) الخطط: جمع الخطة وهي الأرض التي تنزل من غير أن ينزلها نازل من قبل، واختلفها: أي علم عليها علامة بالخط ليعلم أنه اختارها لبيئتها داراً، ومنها خطط المسلمين في مصر، وكذلك خطط الكوفة والبصرة. ابن منظور:

لسان العرب، ج7، ص288-289.

(5) المقرئزي: البيان، ص95.

وبني عمرو بن العاص بالفسطاط، التي اختطها المسلمون الفاتحون، مسجد جامعها، ودار إمارتها، وجعل الأسواق محيطة بالمسجد الجامع في الجانب الشرقي من النيل، وجعل لكل قبيلة محرساً⁽¹⁾، ومن أهم الخطط التي أقيمت في الفسطاط وتنسب إلى قبائل الحجاز الذين سكنوها؛ خطة أهل الرابية، وهم جماعة من قریش والأنصار وخزاعة وأسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة وثقيف ودوس وعبس⁽²⁾ وقد اختطوا حول المسجد الجامع مع عمرو بن العاص⁽³⁾.

وقد سماوا أهل الرابية، ونسبت الخطة إليهم لأنهم جماعة لم تكن ذات أعداد كبيرة، ولم يكن بطن منهم من العدد ما ينفرد بدعوة من الديوان، فكرة كل بطن منهم أن يدعى باسم قبيلة غير قبيلته، فجعل لهم عمرو بن العاص راية ولم ينسبها إلى أحد، وقال لهم إن موقفكم تحتها، فكانت لهم كالنسب الجامع وكان ديوانهم عليها⁽⁴⁾.

وتوزعت خطط القبائل الحجازية حول الفسطاط، وعلى سبيل المثال لا الحصر، اختطت قبيلة ثقيف - التي شاركت في أعمال الفتح - وكان نزولها بالفضاء المجاور لحصن بابليون، حول المسجد أو جامع عمرو بن العاص من الجهة الشرقية، وكان منهم حبيب بن أوس الثقفي الذي شهد الفتح⁽⁵⁾.

(1) المقرئزي: البيان، ص 95.

(2) ابن عبدالحكم: فتوح، ص 122؛ المقرئزي: الخطط، ج 1، ص 297؛ وحول هذه القبائل وأصولها. هشام بن محمد بن السائب الكلبي، جمهرة النسب، تحقيق: ناجي حسن، ط 1، بيروت: عالم الكتب، (1993م)، ص 287-293، 222، 250-251، 266، 372؛ أبو عبيد الله القاسم بن سلام، كتاب النسب، تحقيق: مريم محمد خير الدرع، ط 1، بيروت: دار الفكر، (1210هـ/1989م)، ص، 229-251.

(3) ابن عبدالحكم: فتوح، ص 122.

(4) المقرئزي: الخطط، ج 1، ص 297.

(5) ابن عبدالحكم: فتوح، 135؛ وانظر ترجمة حبيب بن أوس الثقفي عند:

ابن حجر: أبن تهذيب، ج 1، ص 230.

كما اختلط بنو جمع⁽¹⁾ من قريش وكانت دارهم غير صالحة للسكني لاجتماع الماء فيها، وكان منهم وهب بن عمير الجمحي وهو ممن شهد الفتح⁽²⁾، ثم انتقلوا إلى جوار عمرو بن العاص.

ونزل الإسكندرية بعض القبائل العربية الشمالية، فبعد استعادتها من الروم عام (25هـ/464م)، أرسل عمرو بن العاص من يحرسها، وكان ضمن القبائل خزاعة⁽³⁾، وقد نزلوا شرقي الإسكندرية⁽⁴⁾. وكان الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يبعث كل عام غازية من أهل المدينة لترابط بالإسكندرية⁽⁵⁾.

وكانت حامية الإسكندرية حتى عام 43هـ/663م، تبلغ اثني عشر ألفاً، فكتب قائدها إلى معاوية بن أبي سفيان يشكو قلة العدد، فزاد عددها حتى بلغ سبعة وعشرين ألفاً، وكان من ضمنهم أربعة أو خمسة آلاف من أهالي المدينة⁽⁶⁾.

والواقع أن هجرة القبائل والجماعات العربية من الحجاز كانت قليلة في بداية الفتح الإسلامي وما تلاه، فلا تشير المصادر إلى هجرات كبيرة تمت من قبل القبائل الحجازية، ولكن ذلك تغير في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (105-125هـ/724-743م) الذي عمل على تشجيع هجرة القبائل القيسية⁽⁷⁾ إلى مصر لأهداف سياسية؛ إذ كان يرمى إلى إضعاف شأن القبائل اليمنية من

(1) فنو جمع: هم من ولد جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب. أبا عبيد القاسم ابن سلام، النسب، ص212-213.

(2) ابن عبد الحكم: فتوح، ص132؛ وانظر ترجمة وهب بن عمير عند: ابن سلام، النسب، ص212؛ ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، بيروت: دار الفكر العربي، (د.ت)، ج3، ص623.

(3) خزاعة: هم بنو عمر بن ربيعة بن حارثة بن عمر بن عامر، وهي قبيلة الأزد القحطاني، وكانت مواطنهم مكة ومر الظهران وما بينهما. ابن سلام، النسب، ص287؛ أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، بيروت: دار الكتب العلمية، (د.ت)، ص228.

(4) السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، الإسكندرية: 1982م، ص91-92؛ أبو سديرة: القبائل، ص65.

(5) ابن عبد الحكم: فتوح، ص219.

(6) المصدر السابق، ص220؛ المقرئ: البيان، ص95-96؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص80.

(7) القيسية: قبيلة تنسب إلى قيس عيلان بن مضر، لها عدة بطون، وتتفرع منها عدة قبائل. أحمد ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ط1، ص268-269، 280-283. وكانت منازل القبائل القيسية بالحجاز ونجد. السيف: الحياة، ص225، 232.

خلال إعلاء مركز القيسية، وذلك بعد أن غلب العنصر اليميني على تلك الجماعات القليلة من العدنانية منذ الفتح العربي حتى أوائل القرن الثاني من الهجرة⁽¹⁾.

والملاحظ أن هجرة القبائل القيسية تمت في عام (109هـ/727م)، كانت أكبر الهجرات العربية وأكثرها عدداً؛ وهو مما يدل على أن الأمر لم يكن من قبيل المصادفة، بل كان يهدف إلى الحد من سيطرة العنصر اليميني الذي ما زال يمثل الغالبية من عرب مصر حينذاك.

يروى الكندي أن عبيد الله بن الحبحاب⁽²⁾، لما ولاه هشام مصر قال: «ما أرى لقيس فيها حظاً إلا لناس من جديلة، وهم فهم وعدوان⁽³⁾»، فكتب إلى هشام قائلاً: «إن أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - قد شرف هذا الحي من قيس، ونعشهم ورفع من ذكركم، وإنني قدمت مصر فلم أر لهم فيها حظاً إلا أبياتا من فهم، وفيها كور ليس فيها أحد، وليس يضر بأهلها نزولهم معهم، ولا يكسر ذلك خراجاً، وهي بلبيس، فإن رأى أمير المؤمنين أن ينزلها هذا الحي من قيس فليفعل. فكتب إليه هشام: أنت وذلك»⁽⁴⁾.

ويلاحظ هنا أنه تم القيام بعمل تغيير مخطط في المجتمع المصري يهدف إلى إيجاد نوع من التوازن القبلي بين القبيلتين القيسية واليمينية، وذلك بزيادة عدد القبيلة القيسية.

وإضافة إلى هدف التوازن القبلي، يبدو أن الهدف من الهجرة القيسية كان لأسباب اقتصادية؛ إذ أريد لهؤلاء المهاجرين أن يعملوا بالزراعة لزيادة الخراج الذي قل في خلافة هشام بن عبد الملك⁽⁵⁾.

(1) أبو سديرة: القبائل، ص 76-77.

(2) ويرد اسمه عبيدة بن الحبحاب وهو مولى بني سلول، ووالي الخليفة هشام بن عبد الملك على مصر، كما ولاه أفريقية سنة (116هـ/732م). ابن خياط: تاريخ ابن خياط، ص 327-329.

(3) فهم وعدوان: ولد عمرو بن قيس بن عيلان، فالحارث هو عدوان قتل أخيه فهم، وأمهما جديلة بنت مر بن أد؛ وعدوان يقولون إن أهمهم هي جديلة بنت مدركة بن إلياس بن مضر. الكلبي، النسب، ص 271-272؛ ابن سلام، النسب، ص 257.

(4) محمد بن يوسف الكندي: ولاة مصر، تحقيق: حسين نصار، بيروت: دار صادر، (د.ت)، ص 98-99؛ المقرئزي: البيان، ص 66-67.

(5) المقرئزي: الخطط، ج 1، ص 98-99؛ باز، مصر والنوبة، ص 66.

وهكذا ترتب على رغبة الخليفة الأموي وواليه على مصر في تحقيق التوازن القبلي والنتاج الاقتصادي أن قام الوالي عبيد الله بن الحبحاب، فبعث إلى البادية فقدم عليه مائة أسرة من بني نصر من هوازن⁽¹⁾، ومائة أسرة من بني عامر⁽²⁾، ومائة أسرة من أفناء هوازن⁽³⁾، ومائة أسرة من بني سليم⁽⁴⁾، فأنزلهم بلبيس، وأمرهم بالزرع، ونظر إلى الصدقة من العشور، فصرفها إليهم، فاشتراها إبلا، فكانوا يحملون الطعام إلى القلزم⁽⁵⁾، وكان الرجل يصيب في الشهر حوالي عشرة دنانير، ثم أمرهم باشتراء الخيول، فجعل الرجل يشتري المهر فلا يمكث إلا شهراً حتى يركب، ولا ينفقون كثيراً في أعلاف إبلام ولا خيلهم لجودة مرعاهم⁽⁶⁾.

ومن هنا كان لتنوع الموارد الطبيعية في مصر، من أرض خصبة وإنتاج زراعي وافر، دور في توجيه أنشطة القبائل الاقتصادية ووسائل معيشتها وحياتها عموماً وتحديدتها؛ إذ يلاحظ حدوث تحول كبير في عادات القبائل العربية وتقاليدها،

(1) بنو نصر: نسبة إلى نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن. ابن سلام، النسب، ص-258 259 265. وهم بطن من هوازن من العدنانية؛ القلقشندي: نهاية الأرب، ص382. وهوازن نسبة إلى هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان، فهم بطن من قيس عيلان من العدنانية، ابن سلام، النسب، ص258؛ القلقشندي: نهاية الأرب، ص391. وكانت منازل بني نصر من هوازن، بالقرب من الطائف. الأصفهاني: بلاد العرب، ص30-31.

(2) بنو عامر: نسبة إلى عامر بن صعصعة من هوازن من قيس عيلان. ابن سلام، النسب، ص258-259؛ القلقشندي: نهاية الأرب، ص301. وقد سكنت فروعها الحجاز وكذلك في نجد. السيف: الحياة، ص-232 235.

(3) أفناء هوازن: الأفناء من الرجال أي لم يعلم ممن هو. ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، ج3، ص277. ولعل المقصود هنا أنهم أخلاط من الناس لا يدري من أية قبيلة هم، وهم منتمون بالولاء إلى هوازن.

(4) بنو سليم: نسبة إلى سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة من قيس بن عيلان، وهم قبيلة عظيمة، وتتوزع منازلهم في الحجاز ونجد. ابن سلام، النسب، ص222، 253؛ القلقشندي: نهاية الأرب، ص271؛ المقرئزي: البيان، ص68.

(5) القلزم: بلدة في مصر على ساحل بحر اليمن (البحر الأحمر)، وإليها ينسب هذا البحر. بطوطة: معجم، ج2، ص378-387. والقلزم ميناء قديم مهم على الطرف الشمالي للبحر الأحمر، وترجع أهميته إلى ما قبل الفتح الإسلامي لمصر. عطية القوصي، تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، القاهرة: دار النهضة، (د.ت)، ص20.

(6) الكندي: ولاية مصر، ص90؛ المقرئزي: البيان، ص67؛ السيف: الحياة، ص221، 227.

فتركت حياتها الأولى التي كانت تعتمد على العطاء المقرر لهم من الديوان⁽¹⁾، وبدأت تسعى لكسب عيشها الزراعة ومشاركة المصريين أعمالهم⁽²⁾.

والواقع أن تحسن أحوال هؤلاء المهاجرين بعد استقرارهم بمصر، شجع غيرهم من قومهم إلى الهجرة إليها، فقد قدم إليهم من البادية خمسمائة أسرة، وعملوا مثلهم في مجال عملهم، وبعد عام قدم حوالي خمسمائة أسرة أخرى من البادية، وبلغوا عند وفاة هشام بن عبدالمك عام (125هـ/743م) في بلبيس ألف وخمسمائة أسرة من قيس، وعند سقوط الدولة الأموية كان عددهم ثلاثة آلاف أسرة، ثم توالدوا، وقدم عليهم من البادية أعداد أخرى⁽³⁾.

وهكذا كان لاستقرار القبائل الحجازية بعد الفتح بمصر ومزاولتها أنشطة مختلفة، وكذلك الهجرات السكانية المتتالية من بادية الحجاز إلى مصر دور في نقل عادات المجتمع الحجازي وتقاليده إلى مصر، والتكيف والتوافق الاجتماعي مع البيئة الجديدة التي تتوافر فيها كل عوامل احتياجات الأفراد.

ومن الصحابة الذين نزلوا مصر عمرو بن العاص، وهو قائد الفتح، وإلى مصر في عهد الخليفين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما، ثم ولاة الخليفة معاوية بن أبي سفيان على مصر، وقد نزلها وابتنى بها داراً إلى أن مات عام (43هـ/663م)، ودفن بالمقطم مقبرة أهل مصر⁽⁴⁾، وابنه عبدالله بن عمرو بن العاص (65هـ/684م)⁽⁵⁾، وقد خرج مع أبيه إلى مصر بعد موقعة صفين عام (37هـ/657م)، وتولى مصر في عهد معاوية، وابتنى بها داراً، ومات عام (65هـ/684م)، ودفن في داره⁽⁶⁾.

ومنهم الزبير بن العوام، وهو ممن شارك في الفتح، ويروى البلاذري أنه اختط بمصر وابتنى داراً معروفة، وقد نزلها ابنه عبدالله بن الزبير حين غزا إفريقية مع عبدالله بن سعد بن أبي سرح (ت36هـ/656م)⁽⁷⁾، وأشار إلى سلم

(1) الكندي: ولاية مصر، ص 193؛ المقرئزي: الخطط، ج1، ص92.

(2) المقرئزي: الخطط، ج1، ص823.

(3) الكندي: ولاية مصر، ص99؛ الولاة وكتاب القضاة، ص76-77.

(4) ابن سعد: الطبقات، ج7، ص293-292؛ ابن الأثير: أسد الغابة، ج3، ص723.

(5) ترجمته عند: ابن سعد: الطبقات، ج2، ص261-268؛ ج7، ص292-296؛ ابن الأثير: أسد الغابة، ج3، ص225-227.

(6) ابن سعد: الطبقات، ج7، ص295.

(7) ترجمته عند: ابن سعد: الطبقات، ج7، ص296-297؛ ابن الأثير: أسد الغابة، ج3،

الزبير الذي صعد به حصن بابليون فقال: «وسلم الزبير باق في مصر»⁽¹⁾. وقد أشار عبدالله بن الزبير إلى دور والده التي تركها بعد وفاته ومنها دار بمصر⁽²⁾، وإضافة إلى مصر (الفسطاط) اختط الزبير بن العوام في الإسكندرية، ويروى البلاذري أن الزبير بن العوام اختط بمصر والإسكندرية خطتين⁽³⁾.

ومن الصحابة الذين اختطوا بمصر عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه (74هـ/ 693م)، وقد شهد فتح مصر، واختط بها دارا اسمها دار البركة⁽⁴⁾. وخارجة بن حذافة بن غانم القرشي العدوي (40هـ/ 660م)، وقد شهد فتح مصر، وأصبح قاضيا لعمر بن العاص، وقتل بها⁽⁵⁾.

وقد اختط غربي المسجد الجامع بالفسطاط⁽⁶⁾. ومحمد بن جزء بن عبد يغوث، وقد انتقل الى مصر ونزلها⁽⁷⁾، وعبدالله بن الحارث بن جزء الزبيدي (87هـ/ 706م)، وقد صحب النبي صلى الله عليه وسلم ونزل بمصر⁽⁸⁾، واختط با دارا بجوار المسجد الجامع⁽⁹⁾ وهعبقة بن عامر بن عبس الجهني (58هـ/ 678م)، وقد شارك في فتح مصر، ثم انتقل إليها فنزلها وابتنى بها دارا، وولاه معاوية بن أبي سفيان، وتوفي ودفن بالمقطم (مقبرة أهل مصر)⁽¹⁰⁾.

ص-155 157.

(1) البلاذري: فتوح، ص-212 215.

(2) محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري: باب بركة الغازي في ماله حيا وميتا، مع النبي صلى الله عليه وسلم وولاة الأمة، تحقيق: عبدالعزيز بن عبدالله بن باز، بيروت: دار الفكر، 1212هـ/ 1992م؛ أبو بكر بن أبي الدنيا: إصلاح المال، تحقيق: مصطفى مفلح القضاة، المنصورة: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، 1210هـ/ 1990م، ط1، ص290.

(3) البلاذري: فتوح، ص216؛ أبو سديرة، القبائل، ص52.

(4) ابن عبدالحكم: فتوح، ص116-117؛ الذهبي: تاريخ، (61-80هـ)، ص255؛ ترجمة عبدالله بن عمر بن الخطاب عند: ابن سعد: الطبقات، ج2، ص122-188؛ ابن الأثير: أسد الغابة، ج1، ص221-236. ولعلها سميت البركة من البرك وهي مجمع الماء أو لأن بها بركة للماء. ابن منظور: لسان العرب، ج10، ص339.

(5) ابن سعد: الطبقات، ج7، ص296، ترجمة خارجة بن حذافة عند: ابن سلام، النسب، ص216-217؛ ابن سعد: الطبقات، ج2، ص188-189؛ ابن الأثير: أسد الغابة، ج1، ص560-561.

(6) ابن عبدالحكم: فتوح، ص129.

(7) ابن سعد: الطبقات، ج7، ص297.

(8) المصدر السابق، ج7، ص297؛ وانظر ترجمته عند: ابن الأثير: أسد الغابة، ج3، ص99. 100.

(9) ابن عبدالحكم: فتوح، ص128.

(10) ابن سعد: الطبقات، ج7، ص298، ترجمته عند: ابن الأثير: أسد الغابة، ج3، ص550-551.

كما نزل معاوية بن حديج (52هـ / 672م) مصر، واختط بها داراً؛ وقد شهد فتح مصر وأقام بها وله عقب بها⁽¹⁾. وأبو بصرة الغفاري، وقد مات بمصر ودفن بالمقطم (مقبرة أهل مصر)⁽²⁾.

وعبدالله بن سعد بن ابي سرح وكان والياً على مصر في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد اختط داراً بمصر يقال لها دار الحنية⁽³⁾، وداراً يقال لها دار الموز، وبنى قصرًا بها في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه⁽⁴⁾.

ونزل بمصر - أيضاً - من الصحابة مسلمة بن مخلد بن الصامت الأنصاري (62هـ / 682م)، واختط بما دار الرمل⁽⁵⁾، وتولى ولاية مصر عام (48هـ / 686م) في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان⁽⁶⁾، وعبدالرحمن بن عديس البلوي (36هـ / 656م)، وكان فيمن رحل من المصريين إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ لقتاله، وكان رأساً فيهم⁽⁷⁾، وقد اختط داراً بالفسطاط سميت بالدار البيضاء⁽⁸⁾، إضافة إلى بسر بن أبي أرطأة (86هـ / 705م)، وقد شهد فتح مصر، وله بها دار وحمام⁽⁹⁾.

كما نزل مصر أبو سعاد صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكذلك أبو الشموس البلوي، وقد صحب النبي - صلى الله عليه وسلم⁽¹⁰⁾، وأبو بردة، وخرشة بن الحارث، وجنادة الأزدي، ومعاذ بن أنس الجهني، وزياد بن الحارث الصدائي⁽¹¹⁾.

-
- (1) ابن سعد: الطبقات، ج7، ص503؛ الذهبي: تاريخ (20-61هـ)، ص305؛ ابن حجر: تهذيب، ج5، ص276.
 - (2) ابن سعد: الطبقات، ج7، ص500.
 - (3) لعلها سميت دار الحنية نسبة إلى الإبل التي تحن، وحنة البعير: رغاؤه. ابن منظور: لسان العرب، ج13، ص131.
 - (4) ابن عبدالحكم: فتوح، ص137؛ ابن سعد: الطبقات، ج7، ص296-297.
 - (5) ابن سعد: الطبقات، ج7، ص502؛ ابن عبدالحكم: فتوح، ص3. وسميت دار الرمل نسبة إلى رملة بنت معاوية بن أبي سفيان. إبراهيم بن محمد العلائي ابن دقماق، الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها، بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ت)، ص5.
 - (6) الكندي: ولاية مصر، ص1، ص61-63.
 - (7) ابن سعد: الطبقات، ج7، ص509؛ ترجمته عند: ابن الأثير: أسد الغابة، ج3، ص270.
 - (8) ابن عبدالحكم: فتوح، ص133.
 - (9) الذهبي: تاريخ (61-80هـ)، ص368؛ وانظر ترجمة بسر بن أبي أرطأة عند: ابن حجر: تهذيب، ج1، ص272-275.
 - (10) ابن سعد: الطبقات، ج7، ص508-509.
 - (11) ابن سعد: المصدر السابق، ج7، ص502-503.

ومن موالي رسول الله - ﷺ - الذين نزلوا بمصر سنذر، وكان مولى لروح بن زنباع الجذامي⁽¹⁾، وقد أوصى به الرسول - ﷺ - وفي خلافة عمر بن الخطاب - أوصى به عمرو بن العاص فقطع له أرضا بمصر، معاشا له، وكانت أرضا واسعة ودارا عاش عليها سنذر، فلما مات قبضت في مال بيت المسلمين⁽²⁾.

ونزل بمصر بعد أصحاب رسول الله - ﷺ - عدد من التابعين؛ ومنهم عبدالرحمن بن عسيلة الصنابحي، وقد روى عن أبي بكر وعمر وبلال رضي الله عنهم⁽³⁾، وأبو تميم الجيشاني (78هـ / 697م)، وكان ثقة روى عن عمر وعلي⁽⁴⁾، وعبدالله زهير الغافقي (81هـ / 700م)، وكان من شيعة علي رضي الله عنه ومحبيه، وفد عليه من مصر وشهد معه صفين⁽⁵⁾، وأخو وهب الجيشاني، وعبدالرحمن بن شماسه⁽⁶⁾، وعقبة بن نافع بن عبدقيس القرشي الفهري (63هـ / 682م)، شهد فتح مصر، واختط بها⁽⁷⁾.

وقد هاجر بعض الحجازيين إلى مصر، واستقروا بها؛ ومنهم عبدالله بن مالك بن حذافة، وتوفي بها⁽⁸⁾.

كما قدم بعضهم يتلمس الرزق والاستقرار، ومنهم سليمان بن عمرو بن عبدة أبو الهيثم المصري، وهو مدني قدم مصر وأقام بما يتلمس الرزق والمعاش⁽⁹⁾، وانتقل بعض الحجازيين من المدينة إلى الإسكندرية، وتوفوا بها؛ ومنهم عبدالرحمن بن هرمز الأعرج (117هـ / 753م)⁽¹⁰⁾.

(1) انظر ترجمته في الطبقات، لابن سعد: ج7، ص505-507، وعند الذهبي: تاريخ، (61-80هـ)، ص: 523.

(2) ابن سعد: الطبقات، ج7، ص505-506.

(3) المصدر السابق، ج7، ص509-510؛ وانظر ترجمته عند: ابن الأثير: أسد الغابة، ج3، ص371.

(4) ابن سعد: الطبقات، ج7، ص510.

(5) المصدر السابق، ج7، ص510؛ الذهبي: تاريخ (61-80هـ)، ص228.

(6) ابن سعد: الطبقات، ج7، ص509-511.

(7) الذهبي: تاريخ، (61-80هـ)، ص188-189؛ ترجمته عند: ابن الأثير: أسد الغابة، ج3، ص556-557.

(8) ابن حجر: تهذيب، ج3، ص225.

(9) يعقوب بن سفيان البسوي: المعرفة والتاريخ، تحقيق: أكرم ضياء العمري، ط8، المدينة المنورة: مكتبة الدار، (1210هـ)، ج2، ص236.

(10) ابن حجر: تهذيب، ج3، ص232.

كما انتقل إلى مصر بعض الأمويين؛ ومنهم عتبة بن أبي سفيان (44هـ/665م) كان واليا للمدينة، ثم ولاة معاوية مصر عام (43هـ/664م)، ثم خرج إلى الإسكندرية مرابطا، فابتنى دارا في حصنها القديم، وتوفي بها عام 44هـ/665م⁽¹⁾، وعبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان (96هـ/715م)، وقد انتقل من المدينة وتوفي بمصر⁽²⁾، والبثونوي⁽³⁾ ابن عبدالغفار بن يحيى بن ربيعة بن أمية⁽⁴⁾ وكان بمصر هو وأبوه عبدالغفار، وكان من أكثر قريش مالا، وتوفي بمصر⁽⁵⁾.

كما إن استقرار الفاتحين بمصر أدى إلى حدوث حالات زواج وزيارات متبادلة بين الحجازيين والمصريين. أما عن الزواج بمصريات فقد كان منذ بداية الفتح من سبایا بعض القرى التي قاومت المسلمين، ومن تلك القرى قرية سلطيس⁽⁶⁾، ويشير ابن عبدالحكم إلى بناء السلطيسيات ومنهم عمران بن عبدالرحمن بن جعفر بن ربيعة، وعياض بن عقبة، وأبو عبيدة بن عقبة، وعون بن خارجة القرشي ثم العدوي، وعبدالرحمن بن معاوية بن حديج⁽⁷⁾.

والملاحظ أن زواج العرب الفاتحين بالمصريات - من غير السبایا- بدأ في مصر عندما نزل العرب الريف والقرى المصرية وعملوا في الزراعة⁽⁸⁾، ومن جهة أخرى اختلطت أنساب القبط الذين اعتنقوا الإسلام بأنساب العرب الفاتحين بعد زواجهم من عربيات⁽⁹⁾.

ويؤكد ذلك المقرئزي؛ يقول: «بعد نزول العرب بأريافها، واستيطانهم وأهاليهم فيها، واتخاذهم الزرع معاشا وكسبا، وانقياد جمهور القبط إلى إظهار الإسلام واختلاط أنسابهم المسلمين لنكاحهم المسلمات»⁽¹⁰⁾.

(1) الذهبي: تاريخ (61-80هـ)، ص 79-80؛ بن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط1، ج1، ص 122-122.

(2) ابن سعد: الطبقات، ط2، ص 92-93.

(3) نسبة إلى البثون وهي قرية من نواحي مصر في كورة الغربية. بطوطة: معجم، ج1، ص 338. وتسمى اليوم البثون وهي من أعمال المنوفية. ابن حزم: أنساب، هامش 3، ص 160.

(4) انظر ترجمته عند: المصعب بن عبدالله بن مصعب الزبيدي: نسب قريش، تحقيق: ليفي بروفنسال، القاهرة: دار المعارف، (د.ت)، ط3، ص 387-388؛ ابن حزم: أنساب، ص 160.

(5) الزبيدي: نسب قريش، ص 387-388؛ ابن حزم: أنساب، ص 160.

(6) سلطيس: قرية من قرى مصر القديمة وكان أهلها أعانوا الروم على عمر بن العاص لما فتح مصر وقاتلوه فسبأهم. بطوطة: معجم، ج3، ص 236، ابن عبدالحكم: فتوح، ص 111.

(7) ابن عبدالحكم: فتوح، ص 108؛ بطوطة: معجم، ج3، ص 236.

(8) ابن عبدالحكم: فتوح، ص 107-108.

(9) المقرئزي: الخطط، ج1، ص 89.

(10) المقرئزي: الخطط، ج1، ص 82.

والجدير بالذكر أن استقرار كثير من الصحابة والتابعين بمصر لم يقطعهم عن التواصل مع الحجاز، موطنهم الأصلي، بل تشير المصادر إلى زيارات قام بها كثير من المصريين للحجاز لعدة أسباب؛ كالحج والعمرة والزيارة ومقابلة الخلفاء والزواج وغيرها من الأسباب، ومن جهة أخرى كان كثير من أهالي الحجاز وعلمائه يفتدون إلى مصر للإقامة والزيارة أو الزواج.

أما الذين استقروا بمصر وتواصلوا بالزيارة مع الحجاز؛ فمنهم عمرو بن العاص - فاتح مصر - وقد ذهب إلى المدينة لزيارة الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرتين⁽¹⁾، كما عاد إلى المدينة بعد أن عزل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه وأقام بها، وأقام بها، ثم عاد إلى مصر بعد أن ولاه إياها معاوية بن أبي سفيان عام 38هـ/658م⁽²⁾. ووفد على الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المدينة معاوية بن حديج مبشره بالفتح، وتوفى بالإسكندرية⁽³⁾، وكان عبدالله بن عمرو بن العاص يحج ويعتمر ثم يعود إلى مصر التي توفى بها⁽⁴⁾.

كما انتقل بعض الحجازيين إلى الحجاز بعد إقامتهم بمصر وتوفوا بالحجاز، فقد انتقل مسلمة بن مخلد الأنصاري إلى المدينة ومات بها عام (62هـ/682) ⁽⁵⁾. وكذلك عبدالله بن عمر بن الخطاب الذي شهد فتح مصر ثم عاد إلى الحجاز وتوفى بمكة عام (74هـ/693م)⁽⁶⁾.

وانتقل بعض المصريين إلى الحجاز للزيارة والزواج؛ ويذكر أن سهيل بن عبدابن عوف الزهري⁽⁷⁾ تزوج الثريا بنت علي بن عبدالله بن الحارث بن أمية ونقلها إلى مصر⁽⁸⁾.

وتزوج بعض الأمويين المقيمين في مصر بنساء من الحجاز، ونقلوهن إلى مصر. فقد خطب عبدالعزيز بن مروان بن الحكم (ت86هـ/705م)⁽⁹⁾ -والي مصر- بنت عاصم

(1) الكندي: ولاة، ص33.

(2) ابن عبدالحكم: فتوح، ص133.

(3) المصدر السابق، ص133.

(4) المصدر السابق، ص132.

(5) ابن سعد: الطبقات، ج7، ص502؛ ابن حجر: تهذيب، ج5، ص221. ويروى أنه توفى

بمصر ابن عبدالحكم: فتوح، ص118.

(6) ابن عبدالحكم: فتوح، ص116-117؛ الذهبي: تاريخ (61-80هـ)، ص255، 267.

(7) انظر ترجمته عند: ابن حزم: أنساب، ص131.

(8) الأصبهاني: الأغاني، ج1، ص232-233؛ السيف: الحياة الاقتصادية، ص222؛ وانظر

ترجمة الثريا عند: الكلبي، النسب، ص203؛ ابن حزم: أنساب، ص75، 76.

(9) ترجمته عند: ابن حجر: تهذيب، ج3، ص272.

بن عمر بن الخطاب فزوجت له، وحملت إليه بمصر وتوفيت عنده⁽¹⁾، ثم تزوج بأختها حفصة بنت عاصم بن عمر بن الخطاب وحملت إليه بمصر أيضاً⁽²⁾. كما خطب الأصبغ بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم⁽³⁾ سكيئة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب فحملت إليه بمصر فوجدته قد مات⁽⁴⁾.

ومن جهة أخرى، انتقل بعض الحجازيين إلى مصر للاستقرار المؤقت أو الزيارة أو الزواج، ومن هؤلاء؛ عروة بن الزبير بن العوام فقد هاجر إلى مصر وتزوج امرأة من بني وعلة⁽⁵⁾، وأقام بمصر سبع سنين ثم عاد إلى الحجاز⁽⁶⁾. وقدم عكرمة (104هـ/722م) مولي عبدالله بن العباس- مصر وهو في طريقه إلى المغرب ثم عاد إلى المدينة وتوفي بها⁽⁷⁾. وزار مصر يوسف بن الحكم الثقفي والد الحجاج، حيث قدم من الطائف إلى الشام وذهب إلى مصر ثم عاد إلى المدينة⁽⁸⁾.

وخرج الشاعر الحجازي جميل بثينة (ت82هـ/701م)⁽⁹⁾ إلى مصر لاجئاً- بعد أن استعدى أهل بثينة الولاة ضده - فقدم مصر في ولاية عبدالعزيز بن مروان (65-86هـ/685-705م) فأكرمه وأمر له بمنزل ومات بها عام (82هـ/701م)⁽¹⁰⁾، وقدم الشاعر الحجازي كثير عزة (110هـ/728م) إلى مصر يريد لقاء محبوبته عزة، فوصل إليها وقد ماتت⁽¹¹⁾، وعاد وتوفي بالمدينة⁽¹²⁾.

(1) البلاذري: كتاب جمل من أنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار ورياض زركلي، بيروت: دار الفكر، 1217هـ/1986م، ط1، ج6، ص335. وأم عاصم والدها عاصم بن عمر بن الخطاب العدوي المدني توفي حوالي سنة 73هـ/692م، ترجمته عند: ابن حجر: تهذيب، ج3، ص38-39.

(2) البلاذري: أنساب، ج6، ص335.

(3) انظر ترجمته عند: البلاذري: أنساب، ج6، ص336.

(4) الزبيدي: نسب قريش، ص59.

(5) بنو وعلة: قبيلة عربية استقرت بمصر. ابن عبدالحكم: فتوح، ص168. ولعلمهم نسبة إلى وعلة بن عبدالله الحارث من بني جرم من فضاة. ابن سلام، النسب، ص360-370.

(6) البلاذري: فتوح، ص219؛ ابن حجر: تهذيب، ج2، ص119.

(7) ابن حجر: تهذيب، ج2، ص169-170.

(8) الذهبي: تاريخ (61-80هـ)، ص275؛ ابن حجر: تهذيب، ج6، ص258-259.

(9) ترجمته وأخباره عند: الأصبهاني: الأغاني، ج8، ص90-152؛ بن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق الكبير، ط3، ج3، ص208-398.

(10) الأصبهاني: الأغاني، ج8، ص123؛ ابن عساكر: تهذيب، ج3، ص203، 208.

(11) ابن قتيبة: عبدالله بن مسلم، عيون الأخبار، بيروت: دار الكتاب العربي، (د.ت.)، ج1، ص127.

(12) ابن حجر: تهذيب، ج2، ص170.

والعادات يقصد بها الممارسات اليومية لأفراد الأسرة التي تبدأ عادة في حاضرة الحجاز بالقيام لصلاة الفجر، ثم قد يتبع ذلك عودة للنوم مرة أخرى وهي ما يطلق عليها الصبحة أو نوم الضحى⁽¹⁾، وغالباً ما يعرف ذلك عند نساء الأسر الغنية التي لديها من يكفيها مؤونة الخدمة في المسكن، لذلك كثيراً ما يطلق الشعراء صفة: نؤوم الضحى، أو مكسال الضحى على المرأة المخدومة⁽²⁾.

أما الرجال فالغالب ممارستهم لهذه العادة قبل الإسلام، أما بعد الإسلام فكانوا يفضلون البقاء بعد الصلاة في المسجد حتى وقت الضحى، قال عبدالله بن مسعود: «ما نمت الضحى منذ أسلمت»⁽³⁾، كما كان عبدالله بن عمر يبقى في المسجد حتى وقت الضحى ثم ينطلق إلى السوق لقضاء حوائجه ثم يعود لمسكنه⁽⁴⁾.

ويبدأ العمل المنزلي لدى الأسر المتوسطة الحال والفقيرة باكراً حيث تنشغل ربة البيت⁽⁵⁾ بذلك مرتدية اللباس المناسب له وهو ما يطلق عليه اسم المبدل⁽⁶⁾ أو المعوز⁽⁷⁾، وقد تشده من الوسط بنطاق ليرتفع عن الأرض فتسهل عليها الحركة⁽⁸⁾، أو أن تقي ثيابها بلبس مئزر يخاط طرفاه ويلبس كالسراويل يسمى نقبة⁽⁹⁾، ثم تمارس الأعمال المنزلية المعتادة في ذلك الوقت مثل الطحن، والعجن، والخبز، والكنس، والغسل وغير ذلك، بالإضافة إلى معاونة زوجها. ولعل فيما قالته أسماء بنت أبي بكر ما يوضح طبيعة تلك الأعمال في عصر الرسول ﷺ، وصورة معاونتها لزوجها قالت: «تزوجني الزبير⁽¹⁰⁾ وماله في الأرض مال ولا مملوك ولا شيء غير فرسه، فكنت أعلفه، وأكفيه مؤنته،

(1) المدائني، ص84؛ ابن سعد: الطبقات، 3/155؛ ابن أبي خيثمة، ص253؛ الميداني: 1/180.

(2) الأنباري، ص65.

(3) ابن سعد: الطبقات، ج3، ص155.

(4) ابن سعد: المصدر السابق، ج2، ص147.

(5) ابن عساکر؛ تاريخ - السيرة - 1/143.

(6) ثعلب، 304/؛ ابن دريد: الاشتقاق، 2/450؛ ابن دريد: جمهرة، 1/305.

(7) ابن دريد: جمهرة، 2/818.

(8) ابن حجر: فتح، 6/129.

(9) ابن ظفر الصقلي، ص115.

(10) المراد به الزبير بن العوام.

وأسوسه، وأدق النوى لناضحه⁽¹⁾، وأعلفه، وأستقي الماء، وأخرز غربه⁽²⁾، وأعجن ولم أكن أحسن الخبز فكن جاراتي من الأنصار يخبزن لي وكنت أنقل النوى من أرض الزبير...⁽³⁾، يضاف إلى ذلك تهيئة المسكن مستخدمة في ذلك مكنسة⁽⁴⁾، ونظافة الملابس باستخدام بعض مواد التنظيف مثل الصابون⁽⁵⁾ ونبات الأشنان⁽⁶⁾، وقد تستعين في تنظيف الملابس بعضا صغيرة تضرب بها الثياب تسمى المحضجة⁽⁷⁾، ومن البديهي أن الأسر التي تسكن في بيوت، كانت تفضل غسل ملابسها خارجها لما يتطلبه ذلك من استهلاك كمية من المياه، ففي المدينة مثلاً كن يغسلن الملابس في مكان يسمى المغسلة أو الغسيلة يقع على أطراف المدينة⁽⁸⁾، وفي مكة تستفيد ربات البيوت من مستنقع ماء يقع في أصل جبل أبي قبيس⁽⁹⁾، وفي البادية كن يفردن لهذا الأمر بيتاً قديماً عندهن⁽¹⁰⁾، أو قد يعتمدن على بعض الأودية الجارية مثل وادي الدوم⁽¹¹⁾.

تنشغل ربة البيت بإعداد الطعام مرتين في اليوم، للغداء والعشاء، حيث من المرجح أنهما الوجبتان الرئيستان للأسرة، أما الصباح فيبدو أن أفراد الأسرة لا

(1) الناضح: البعير أو الثور أو الحمار الذي يستقى عليه الماء. ابن منظور: 3/655.

(2) الغرب: الدلو. ابن منظور: 2/970.

(3) البلاذري: انساب، 9/428؛ والنسائي، عشرة، ص167؛ ابن عساکر؛ تاريخ - تراجم، ص-15 16.

(4) ابن دريد: الاشتقاق، 1/167؛ ابن دريد، جمهرة، 1/562؛ ابن الأثير: أسد، 5/445.

(5) ابن شبة: تاريخ المدينة المنورة، 4/1243. وعرفه ابن منظور بقوله: «الصابون: الذي تغسل به الثياب، معروف» 2/407.

(6) ابن سعد: (القسم المتمم) ص177. وعرفه ابن منظور بقوله: «الأشنان والإشنان من الحمض: معروف الذي يغسل به الأيدي». 1/66، وإن ورد ما يدل على استخدامه في غسل الملابس.

(7) ابن دريد، جمهرة، 1/439.

(8) الأصفهاني: الأغاني، 1/52؛ بطوطة: البلدان، 5/161.

(9) ابن دريد: جمهرة، 1/492. وجبل أبي قبيس يشرف على مكة من الجهة الشرقية لها. بطوطة: البلدان، 1/80.

(10) الأصفهاني: الأغاني، 18/15.

(11) الجاحظ: المحاسن، ص317؛ البكري، 2/563؛ ابن عساکر؛ تاريخ - تراجم، ص67. ووادي الدوم: يقع في ديار بني ضمرة. البكري، 2/563. حدد ياقوت موقعه بقوله: «هو واد معترض من شمالي خيبر إلى قبليها، أوله من الشمال غمرة ومن القبلة القصيبة، وهذا الوادي يفصل بين خيبر والعوارض». البلدان، 5/343. ولا يزال معروفا حتى اليوم فيه نخل ومياه وقرية يمر الطريق إلى تيماء بقربها. حمد خسرو: في شمال غرب الجزيرة، الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، 1201هـ / 1981م، ط2، ص570.

يتناولون فيه الشيء الكثير، فقد يقتصر على شرب الصبوح وهو اللبن وقد يسبقه أكل بعض التميرات امثالاً لقول رسول الله ﷺ: «من تصبح سبع تمرات عجوة⁽¹⁾.. وهي ما يطلق عليها الصبحة⁽²⁾، ويرى ابن دريد⁽³⁾ أن الصبوح هو الأكل والشرب في أول النهار أو صباحاً، بينما يرى ابن منظور⁽⁴⁾ أن الأصل في الصبوح هو الشرب، وإن أطلق على الأكل فيقصد به الغداء.

وجاء في نسب قريش⁽⁵⁾: «حضرت عبدالله بن عروة بن الزبير يدخل الناس في مريد تمره طرفي النهار: غدوة فيتغدون، وعشية فيتعشون فما زال كذلك حتى أحيا الناس». وهذا مما يدل على استمرار هذا الوضع حتى القرن الثاني الهجري كما جاء في الأمثال: «خير الغداء بواكره وخير العشاء بواصره»⁽⁶⁾ ومن ذلك يتضح أن الغداء والعشاء هما الوجبتان الرئيستان، أما ومن ذلك الصبوح فما هو إلا شراب من اللبن قد يسبق بتناول بعض التمر فيسمى صبحة. غالباً ما تفضل الأسر الحضرية في الحجاز تناول أطعمة مطبوخة في الغداء أو العشاء، إلا أن ذلك لم يكن متوافراً كثيراً في عهد الرسول ﷺ، فعن جابر بن عبدالله أنه قال عندما سئل عن الوضوء مما مست النار: «قد كنا زمان النبي ﷺ لا نجد مثل ذلك من الطعام إلا قليلاً»⁽⁷⁾.

وإن وجدت فلا شك أن أنواعها تتفاوت حسب المستوى الاقتصادي للأسرة، حيث يعتمد طعام الأسرة الفقيرة في أغلبه على خبز من دقيق غير منخول وعلى التمر⁽⁸⁾.

قال اليعقوبي⁽⁹⁾: «وأكثر أموال أهلها النخل ومنه معاشهم وأقواتهم». أما

(1) البخاري: صحيح، 7/31.

(2) ابن دريد، جمهرة، 1/279.

(3) ابن دريد: الاشتقاق، 1/66؛ ابن دريد، جمهرة، 1/279.

(4) ابن منظور: لسان العرب، 2/403.

(5) الزبيدي: تاج العروس، ص246.

(6) الميداني: 1/244.

(7) البخاري: صحيح، 6/214. والطبري: تهذيب (الجزء المفقود) ص120.

(8) ابن سعد: 1/391، -393 394، 401، 408، 415/8؛ ابن أبي شيبه، مسند، 1/98؛ البخاري: صحيح، 3/13، 115، 45/5؛ ابن شبة، 2/409؛ ابن قتيبة: عيون، 3/201؛ ابن أبي الدنيا، العيال، 2/555؛ الطبراني: الكبير، 6/146، 23/329، 24/229؛ ابن حجر: فتح، 5/141.

(9) اليعقوبي: أحمد بن إسحاق، البلدان، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1408هـ/ 1988م، ط1، ص77.

الأسر الغنية فتمكن من تناول خبز من دقيق منخول بالإضافة إلى اللحم والسمن⁽¹⁾، ومن الأواني المستخدمة في طبخ تلك الأطعمة البرم⁽²⁾ والقذور⁽³⁾ والمراجل⁽⁴⁾، وذلك بوضعها على الأثافي⁽⁵⁾، أو يستخدمون التنور للخبز والشواء⁽⁶⁾، وقد عرف ذلك في عصر الرسول ﷺ، وهذا يدل على استخدام الأسر له في العصر الأموي، ولا شك أنه استمر بعد ذلك. أما في الأكل فكانت ربة البيت تغرف الطعام المطبوخ في الجفان⁽⁷⁾ أو الصحاف⁽⁸⁾ أو

(1) ابن سعد: 1/393، 403 - 404، 3/280، 614، 4/165. البخاري: صحيح، 3/101؛ ابن شبة، 2/295 - 296، 3/802، 831-832؛ البلاذري: أنساب (الشيخان) ص184، 186. أبو علي القالي، ذيل، ص199؛ ابن الأثير: أسد، 5/226؛ ابن حجر: الإصابة، 4/102؛ ابن حجر: فتح، 9/531.

(2) البخاري: صحيح، 6/140؛ مسلم: 2/1144، 2/1139-1140؛ السيوطي: عبدالرحمن بن أبي بكر، مسانيد أمهات المؤمنين K، تحقيق: محمد غوث الندوي، بومباي: الدار السلفية، 1403هـ/1983م، ط1، ص85. والبرم: جمع برمة، وهي قدور من حجارة تقتلع من جبال في اليمن والحجاز. الجاحظ: البيان، 1/17؛ ابن دريد، جمهرة، 1/329؛ ابن منظور: لسان العرب، 1/203؛ مختار سيدي الغوث، ص330.

(3) أمية بن أبي الصلت، ص38. ابن سعد: 1/187، 392؛ سحنون: 4/416. والقذور: جمع قدر، ولم تقدم معاجم اللغة وصفا لها وذكرت على أنها من الأسماء المعروفة. ابن دريد: جمهرة، 2/635؛ الفيروزآبادي: القاموس، 591؛ الزبيدي: تاج العروس، 13/375. وترى إحدى الدراسات الحديثة -وأنتفخ معها في ذلك- أن القدر قد لا يكون شيئا مخصوصا بعينه بل ربما كان كل ما يطبخ فيه. محمد الجميل: الآتية، ص102. ولعل ما يؤيد هذا الرأي هو تعريف معاجم اللغة للبرمة والمرجل بأنها قدر ثم تحدد المادة المصنوعة منها إما من حجارة، أو نحاس، أو غير ذلك.

(4) ابن ماجه: 1/9؛ مسلم: 1/196. والمراجل: جمع مرجل، وهو القدر أو الإناء الذي يغلي فيه الماء. ويصنع من الحديد، والنحاس، والصفرة، والخزف. ابن منظور: 3/462؛ الفيروزآبادي: القاموس، ص1298.

(5) البخاري: صحيح، 5/26 والأثافي: جمع أنفية، وهي الحجارة التي تنصب وتجعل القذور عليها، ابن منظور: 1/21.

(6) الطبراني: الكبير، 52/142، سحنون، 4/516.

(7) أمية بن أبي الصلت: ص25؛ ابن قيس الرقيات: ص18؛ ابن سعد: 1/396، 203؛ سحنون: 4/416؛ الزبير بن الباطين: أزواج، ص35؛ البلاذري: أنساب، 1/463؛ أبو علي القالي، ذيل، 3/612؛ ابن ظفر الصقلي، ص79. والجفان: جمع حفنة وهي أعظم ما يكون من القصاع تشبع أكثر من عشرة أشخاص. ابن منظور: 1/474، 2/412. الفيروزآبادي: القاموس، ص1531.

(8) ابن سعد: 1/393؛ سحنون: 4/416؛ ابن الأثير الجزري: جامع، 7/388؛ ابن فضل الله العمري: 21-22. والصحاف جمع صحفة، وهي كالقصة عريضة تشبع حوالي خمسة أشخاص، ابن منظور: 2/412.

القصاص⁽¹⁾، أما الثمار وما في حكمها من الأطعمة غير المطبوخة فتقدم في أنية تسمى الأطباق⁽²⁾، وأخرى تسمى الأقماع⁽³⁾.

غالباً ما يكون أكلهم على الأرض مستخدمين في ذلك السفر⁽⁴⁾، وقد يأكل بعضهم -وخاصة الأسر الغنية- على مائدة يطلق عليها خوان⁽⁵⁾، ومن الواضح أنها كانت معروفة في عصر الرسول ﷺ⁽⁶⁾ إلا أنه على ما يبدو لم يكن يستخدمها تواضعاً منه، فعن أنس بن مالك أنه قال: «ما رأيت رسول الله ﷺ أكل على الخوان حتى مات»⁽⁷⁾.

ويبدو من المرجح أن التبكير في وقت الغداء كان مفضلاً ولعله يأتي بعد صلاة الظهر مباشرة فقد جاء في صحيح البخاري⁽⁸⁾ عن سهل بن سعد⁽⁹⁾: «ما كنا نقيّل ولا نتغدّى إلا بعد الجمعة». ما يطبق في يوم الجمعة يطبق في سائر الأيام خاصة وأنه لم يرد ما يدل على وجود وجبة إفطار رسمية كالغداء والعشاء، مما يجعل التبكير فيه أمراً محتملاً. ولعل ما قيل في الأمثال يعطي دلالة على ذلك. قالوا: «خير الغداء بواكره وخير العشاء بواصره»⁽¹⁰⁾، وبعد الغداء

(1) ابن سعد: 8/122؛ الدورقي، 2/111؛ البخاري: صحيح، 3/13؛ والقصاص: جمع تلي الجفنة في الحجم تشبع عشرة أشخاص. ابن الأثير الجزري: جامع، 7/389؛ ابن منظور: قطعة، وهي. 3/103، 2/412.

(2) ابن ماجه: 2/235. والأطباق: جمع طبق، وهو الذي يؤكل عليه أو فيه. ابن منظور: 2/568.

(3) ابن سعد: 1/392؛ ابن منظور: 3/172. والأقماع: جمع قناع، وهو الطبق المصنوع من عسب النخل، ابن منظور: 3/172.

(4) البخاري: صحيح، 6/199. والسفر: جمع سفرة، وهي التي يؤكل عليها، سميت بذلك لأنها تبسط عند الأكل. ابن منظور: 2/155.

(5) البخاري: صحيح، 6/199. والخوان: المائدة التي يوضع عليها الطعام عند الأكل. ابن الأثير الجزري: النهاية، 2/89؛ ابن منظور: 1/924.

(6) ابن سعد: 1/396؛ الطبري: تهذيب (مسند عمر)، 1/155؛ ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، 1/199؛ ابن العربي: ، 209-1/211.

(7) ابن ماجه: ابن ماجه، 2/238؛ وأبو الشيخ الأصبهاني: حلية الأولياء، ص-199 67. (8) البخاري: صحيح، 1/225.

(9) سهل بن سعد بن مالك الخرجي الأنصاري. رأى النبي ﷺ وسمع منه، وروى عنه أبو هريرة، وسعيد بن المسيب وغيرهم، توفي في المدينة سنة 91هـ / 709م. ابن الأثير: أسد، 2/472.

(10) الميداني: 1/244.

يفضل أفراد الأسرة الخلود إلى النوم وهو ما يسمى بالقائلة⁽¹⁾ أو القيلولة⁽²⁾. وقد جاء في الحديث: «استعينوا بقائلة النهار على قيام الليل...»⁽³⁾، أما العشاء فغالبا ما يكون بعد صلاة المغرب، فقد جاء في الطبقات⁽⁴⁾: فلما غابت الشمس وصلى رسول الله ﷺ المغرب بالناس... قال رسول الله ﷺ: ادنوا فتعشوا». وعن عبدالله بن عباس أنه قال: «... فجاء رسول الله ﷺ بعدما أغسق⁽⁵⁾ فوضع العشاء...»⁽⁶⁾.

عادة ما تجتمع الأسرة كلها عند تناول الطعام، ولم أجد ما يدل على فصل رجال الأسرة عن نساءها بل كل الشواهد تشير إلى اجتماعهم حول سفرة واحدة، ومن ذلك ما ورد في الطبقات⁽⁷⁾: «نزل حجاب نساء رسول الله ﷺ في عمر، أكل مع النبي ﷺ طعاما فأصابته يده بعض أيدي نساء النبي ﷺ فأمر بالحجاب». كما كان ابن عمر يجمع أهل بيته على طعامه كل ليلة⁽⁸⁾. وقيل لعلي بن الحسين: «أنت أبر الناس ولا نراك تؤاكل أمك، قال: أخاف أن تسبق يدي إلى ما قد سبقت عينها إليه فأكون عققتها»⁽⁹⁾.

بالإضافة إلى ما سبق، تعتمد الأسر الفقيرة على الزوجة في غزل الثياب ونسجها لتأمين الكساء لأفرادها⁽¹⁰⁾.

أما إذا كان المسكن يشتمل على نساء أخريات مثل أم الزوج أو أخته أو زوجة أخرى فمن البديهي أن الأعمال المنزلية تقسم بينهن، فعن علي بن أبي طالب أنه قال لأمه فاطمة بنت أسد⁽¹¹⁾ بعد أن تزوج فاطمة بنت رسول الله ﷺ:

(1) ابن سعد: الطبقات، 8/456؛ ابن شبة: ، 2/482؛ الأصفهاني: الأغاني، 91/157.

(2) ابن منظور: لسان العرب، 3/202.

(3) الطبراني: الكبير، 11/245.

(4) ابن سعد: 2/202؛ وابن شبة: 1/39؛ السيوطي: مسند علي، ص78.

(5) أغسق: من غسق الليل وهو أول ظلمته. ابن منظور: 2/0987.

(6) الطبري: تهذيب (مسند عمر)، 1/158.

(7) ابن سعد: 8/175؛ والطبراني: الكبير، 21/245.

(8) ابن سعد: 2/165؛ ورواية أخرى: الطبري: تهذيب (مسند عمر)، 1/155.

(9) ابن قتيبة: عيون، 3/97.

(10) ابن أبي شيبة: مسند، 1/97؛ ابن حبيب: أدب، ص-281 282؛ أبو الشيخ الأصبهاني: ص123.

(11) فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبدمناف القرشية. هاجرت إلى المدينة وتوفيت في حياة الرسول ﷺ، ابن الأثير: أسد، 7/21.

«اكفي فاطمة بنت رسول الله ﷺ سقاية الماء والذهاب في الحاجة، وتكفيك خدمة الداخل الطحن والعجن»⁽¹⁾، وعدم تقسيم العمل يؤدي إلى التهاون في فعله، فقد أمر الزبير بن العوام زوجته أسماء بنت أبي بكر وامرأة له أخرى أن تكنسا ما تحت فراشه ثم خرج، وبعد عودته وجد العمل لم يتم⁽²⁾.

لا تقتصر الأعمال المنزلية في الأسرة على المرأة فقط، بل لرب الأسرة دور في بيته، ولا شك أنه يرتدي لذلك لباساً خاصاً يختلف عن لباس الزينة قد يطلق عليه اسم مبدلة⁽³⁾.

ومن ذلك قول عمر بن الخطاب ﷺ لأحد أبنائه بعد أن رآه لبس حلة جديدة وألقى الثياب التي عليه: «يا بني خذ ثيابك هذه لتكون لمهنة أهلك وتكون هذه لزينتك»⁽⁴⁾، أما طبيعة هذا العمل فقد أوضحتها عائشة أم المؤمنين عندما سئلت عن عمل الرسول ﷺ فقالت: «كان يخيظ ثوبه ويخصف نعله ويعمل ما تعمل الرجال في بيوتهم»⁽⁵⁾، ويضاف إلى مهمات رب الأسرة شراء احتياجات الأسرة اليومية⁽⁶⁾، أو الموسمية، وإن كان مقتدرا كلف بعمله هذا أحد الأشخاص⁽⁷⁾.

المطلب الثاني: أثرها على العادات والتقاليد خارج المدن:

ظلت الروابط القبلية في بوادي الحجاز أقوى مما هي عليه في حواضر المدن، فكان لرئيس القبيلة السلطة العليا على أفراد قبيلته، وكان لكل قبيلة ديوان خاص لدى الدولة، فيه أسماء أفرادها ومواليهم. وأول من فرض الديوان على أساس القبائل كان هو الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ، واستمر ذلك في العصر الأموي⁽⁸⁾.

وفي البادية يعتمد عمل الرجل على رعي إبله أو أغنامه والإشراف عليها وحلبها،

(1) الطبراني: الكبير، 24/353؛ وابن حجر: الإصابة، 4/380.

(2) ابن حبيب: أدب، ص 250-251.

(3) الثعالبي: فقه، ص 226.

(4) البلاذري: أنساب (الشيخان) ص 286.

(5) ابن سعد: 1/366؛ والبخاري: صحيح، 1/164؛ ابن شبة: تاريخ المدينة المنورة، 2/637؛

البلاذري: أنساب، 1/508؛ أبو الشيخ الأصبهاني: ص 21، 62؛ الطبري: السمط، ص 12.

(6) البلاذري: أنساب، 5/8.

(7) ابن سعد: الطبقات، 5/432.

(8) أبي محمد علي الأندلسي: مصدر سابق، ص 5.

فقد كان من العار عندهم أن تحلب النساء⁽¹⁾، ومن الواضح أن ممارسته لتلك الأعمال تتم إن كان غير قادر على استئجار من ينوب عنه، أما الأغنياء فليدبرهم من يكفيهم ذلك، لذلك يقضون وقتهم جلوساً بغير عمل⁽²⁾.

ومن الأعمال التي يمارسها الرجل الاهتمام بالدواب، فقد كان رسول الله ﷺ يطلي أباعر له بالقطران ويسمها بنفسه⁽³⁾، كما كان عمر بن الخطاب يحمل قربة الماء على ظهره لأهله⁽⁴⁾، وعبيدالله بن العباس⁽⁵⁾ كان يعتني بغنم له في مسكنه⁽⁶⁾، وقد يمارس بعضهم ذلك في بيته وخاصة أصحاب الصناعات⁽⁷⁾، ولا شك أن هذا الوضع استمر طيلة مدة الدراسة بدلالة استمراره حتى الوقت الحاضر.

ومن عادات أهل الحجاز إكرام الضيوف، وتستقبل الأسرة في حاضرة الحجاز وباديتها ضيفها، إما في مسكنها، فإن كانت داراً فمن المرجح أنها تستقبله في أحد بيوتها⁽⁸⁾ ويطلق عليه الثوى⁽⁹⁾، وإن كان بيتاً فيبدو أنها تفرد له ناحية منه⁽¹⁰⁾، أو في مكان خارج المسكن: كبيت بارز أو دار خاصة يطلق عليها دار ضيافة، فقد كان لأحد رجال قريش في العصر الأموي دار ضيافة⁽¹¹⁾ ولا شك أن ذلك يرتبط بالوضع الاقتصادي للأسرة.

وفي البادية تحرص الأسر الكريمة على بناء بيتها على الروابي، وقد ترفع عليه رايات⁽¹²⁾ ليستدل عليه المسافرون فيقصدونهم لإضافتهم، كما يستدل

(1) الميداني: 2/414.

(2) جواد علي: 2/606.

(3) ابن سعد: الطبقات، 5/75، 8/433؛ ابن شبة: تاريخ المدينة النورة، 2/710.

(4) اليعقوبي: أحمد بن إسحاق، مشاكلة الناس لزمانهم، تحقيق: وليم ملورد، بيروت: دار الكتاب الجديد، 1980م، ط2، ص11.

(5) عبيدالله بن العباس بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف. كان سخياً جواداً، استعمله علي ابن أبي طالب على اليمن، مات في المدينة سنة 87هـ/705م. الزبيدي: ص27؛ خير الدين الزركلي: الأعلام، 4/194.

(6) ابن حبيب: المحبر، ص146.

(7) البخاري: صحيح، 6/206؛ مسلم: صحيح مسلم، 4/1807.

(8) الأصفهاني: الأغاني، 2/53.

(9) ابن منظور: لسان العرب، 1/387.

(10) ابن سعد: الطبقات، 232-233.

(11) الأصفهاني: الأغاني، 9/241.

(12) الفرزدق: همام بن غالب بن صعصعة، شاعر موصوف، توفي سنة (110هـ/728م).

ترجمته: الأصفهاني: الأغاني 1/16؛ النويري: نهاية الأرب، 1/113.

على البيوت الكريمة بإيقاد النيران⁽¹⁾، وكان غالب طعام الأسر في البادية السمن والأقط واللحم، ومنه لحم الضب⁽²⁾.

وبعد وصول الضيف واستقباله يهياً له مكان الجلوس فإن كان في الحاضرة أكرم بإجلاسه على وسادة⁽³⁾ تسمى المنبذة⁽⁴⁾، وإن كان في البادية بسط له ومهد⁽⁵⁾، يتضح كرم الضيافة فيما يقدم للضيف من طعام وشراب وهو ما يعرف بالقرى⁽⁶⁾ الذي يتفاوت مستواه.

ويبدأ إكرام الضيف بمجرد وصوله وذلك بتقديم وجبة خفيفة تسبق الوجبه الرئيسية يطلق عليها اللهنة أو السلفة يتعلل بها الضيف قبل الطعام⁽⁷⁾، وقد يقدم له التمر أو الزبد⁽⁸⁾، أو الرطب واللبن⁽⁹⁾، كما تحرص بعض الأسر على الاحتفاظ ببعض الأطعمة الخاصة ولعلها أطعمة نادرة لتقديمها للضيف يطلق عليها اسم اللوية⁽¹⁰⁾، أو القفية⁽¹¹⁾، ثم تقدم له وجبة الضيافة، وأبلغ دليل على إكرام الضيف نحر ناقة⁽¹²⁾، أو ذبح شاة له⁽¹³⁾، وقد يحتفظ بعضهم بإبل خاصة للأضياف، فقد كان لأهل البادية حظيرة فيها مئة من الإبل خصصت للأضياف فقط، إذا نحر ناقة وضع بدلاً عنها أخرى⁽¹⁴⁾، ومن حرصهم على سرعة إضافة الضيف أن اللحم كان يقدم قبل إنضاجه

(1) النويري: نهاية الأرب، 1/ 113.

(2) ابن سعد: الطبقات الكبرى، 395-396 1-395؛ الميداني: 2/ 56، 106؛ الأبهري: ص 209.

(3) ابن سعد: الطبقات الكبرى، 232-233، 72/ 3، 432؛ ابن شبة، 2/ 539، 682، 755؛

الأصفهاني: الأغاني، 53-54 2-54، 26/ 9؛ أبو الشيخ الأصبهاني: ص 247؛ الميداني: 2/ 225.

(4) الثعالبي: فقه، ص 229.

(5) الجاحظ: المحاسن، ص 330. الوشاء، 1/ 118.

(6) حسان بن ثابت: ص 183. الفضل الضبي: المفضليات، ص 172. الأصفهاني: الأغاني،

22/ 22، 22/ 281.

(7) ابن دريد: جمهرة، 2/ 989، 5/ 847. الأصفهاني: الأغاني، 21/ 340. المرتضى: 1/ 356.

الأبهري: ص 426.

(8) الطبراني: الكبير، 19/ 215؛ الأصفهاني: الأغاني، 21/ 340.

(9) الهجري: 3/ 1422.

(10) ابن دريد: جمهرة، 2/ 0990.

(11) ابن منظور: لسان العرب، 3/ 143.

(12) الجاحظ: المحاسن، ص 206؛ الأصفهاني: الأغاني، 17/ 386، 24/ 56.

(13) الطبراني: الكبير، 19/ 255، 21/ 219؛ الأصفهاني: الأغاني، 4/ 363.

(14) الأصفهاني: الأغاني، 24/ 56.

جيداً⁽¹⁾، كما يقدم للضيف بالإضافة إلى الأطعمة الصبوح والغبوق من اللبن⁽²⁾.

ويضاف إلى ذلك بعض الأشربة الأخرى مثل شراب السويق⁽³⁾، وغالباً ما يقدم قري الضيفان من طعام وشراب في قصاع أو جفان أو عسس يطلق عليها المقاري⁽⁴⁾، ومن مظاهر الاحتفاء بالضيف أيضاً تقديم الطيب أو البخور له⁽⁵⁾.

وعند توديع الضيف يعطى من المؤن ما يكفيه يوماً وليلة وتسمى الجيزة⁽⁶⁾، كما تعتمد معظم الأسر الكريمة إلى تقديم هدية له يطلق عليها حباء، وقد تكون عيناً أو نقداً، ومنه حباء عمر بن الخطاب لعمر بن معد يكرب⁽⁷⁾، فقد كان أكثر من أربعة آلاف درهم⁽⁸⁾، كما حبا عمرو بن معد يكرب عيينة بن حصن⁽⁹⁾ ناقه له أرحبية⁽¹⁰⁾ بالإضافة إلى أربعة آلاف دينار⁽¹¹⁾.

ويبدو أن الحباء من ضرورات الضيافة قال الأصفهاني⁽¹²⁾: «فلما أراد عيينة الانصراف قال عمرو: لئن انصرف أبو مالك بغير حباء إنه لو صمة علي». ولعل تقديم الحباء للضيف بالإضافة إلى دلالاته التكريمية الهدف منه أيضاً مساعدة الضيف على إكمال سفره وشراء الهدايا لأهله وأصدقائه⁽¹³⁾.

هذه هي أهم الملامح التي قد تصور لنا طبيعة بعض العادات لأفراد الأسرة التي لا شك أنها تختلف باختلاف المستوى المعيشي.

- (1) المبرد: الكامل، 2/111.
- (2) المفضل الضبي، المفضليات، ص-127 128؛ الميداني: 2/21.
- (3) الأصفهاني: الأغاني، 17/27.
- (4) ابن منظور: لسان العرب، 3/080.
- (5) البخاري: صحيح، 3/133؛ الأصفهاني: الأغاني، 22/198.
- (6) ابن الأثير: البداية، ج1، 312.
- (7) عمرو بن معد يكرب بن عبدالله بن عمرو بن عاصم بن عمرو بن زبيد الأصغر بن ربيعة بن سلمة... الزبيدي. ابن حزم: ص 411.
- (8) الأصفهاني: الأغاني، 15/211.
- (9) عيينة بن حصن بن حذيفة الفزاري. أسلم قبل الفتح وشهد حنيناً والطائف، كان ممن ارتد في عهد أبي بكر الصديق ثم عاد إلى الإسلام، سماه الرسول ﷺ الأحمق المطاع، عاش حتى خلافة عثمان بن عفان. ابن حجر: الإصابة، 54/3-55.
- (10) نسبة إلى مخلاف أرحب باليمن. بطوطة: البلدان، 1/144.
- (11) الأصفهاني: الأغاني، 15/211؛ إشارة أخرى: ابن حبيب: أسماء، 2/140.
- (12) الأصفهاني: الأغاني، ج15، ص 211.
- (13) الأصفهاني: الأغاني، ج16، ص 238، ج19، ص43.

المبحث الثاني

اللغات واللهجات

المطلب الأول: اللغات:

كانت مواسم الحج لقاءات وندوات وحلقات واجتهادات وتبادل آراء في كافة المجالات سواء سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية وثقافية.

ونظراً لاختلاط العرب المتواصل في مواسم الحج بالشعوب الأخرى والاختلاط في الحياة المعيشية بين العرب وغيرهم من اللذين دخلوا في الدين الإسلامي. بدأت الحاجة إلى تعلم اللغة العربية في تلك الفترة.

ففهم القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف لا يقومان إلا بمعرفة ألفاظها التي جاءت بها، وهي اللغة العربية الفصيحة.

قال الوليد بن مسلم: سمعت الأوزاعي يقول: أعربوا الحديث فإن القوم كانوا عرباً. وقد قيل للأوزاعي: يا أبا عمرو، الرجل يسمع الحديث عن النبي ﷺ فيه لحن يقيمه على عربيته؟ قال: نعم، إن رسول ﷺ لا يتكلم إلا بعربي وقال: لا بأس بإصلاح اللحن والخطأ في الحديث⁽¹⁾.

وكانت سلامة اللغة وفهمها تعلي من منزلة صاحبها في العلم، وهذا ما دفع الخليفة عبد الملك بن مروان على تشجيع الإمام الزهري ومكافأته. فقال الزهري: دخلت على عبد الملك فقال لي: قرأت القرآن؟ قلت: نعم، قال: بإعرابه وما ينبغي فيه من وجوهه وعلله؟ قلت: نعم، فأمر لي بجائزه⁽²⁾.

اهتم خلفاء بني أمية بالنحو، وكانوا يكرهون اللحن في القول ويعدونّه عيباً يقدر في منزلة صاحبه، كيف لا وهي دولة عربية خالصة متعصبة للعرب، وكانوا لأبنائهم المؤدبين لتعليمهم النحو، فقد أمر معاوية بن أبي سفيان دغفل بن حنظله بذلك فقال له: «أذهب إلى يزيد فعلمه العربية»⁽³⁾.

(1) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج7، ص115.

(2) ابن عساکر: تاريخ دمشق، ج55، ص302.

(3) المصدر نفسه، 17، ص292.

كذلك أهتم عبدالمك بتعليم أبنائه اللغة العربية، فقد قال لمؤدب أبنائه وهو إسماعيل بن أبي المهاجر، بعد أن رفض أخذ الأجر: (إني لا أعطيك أو أثيبك على تعليمهم القرآن، إنما أعطيك وأثيبك على تعليمهم النحو)⁽¹⁾.

المطلب الثاني: اللهجات:

يذكر كثير من الباحثين في تاريخ اللغة العربية إلى أنها تنقسم قسمين: لهجات بائدة، وأهمها ثلاث: التمودية والصفوية واللحانية، وأما الباقية فمن أشهرها قريش وطيء وهذيل وثقيف وغيرها. وأفصح اللهجات على الإطلاق لهجة قريش وأما اللهجات الأخرى فقد كانت مليئة بالكلمات الثقيلة على السمع، والإبدالات الغريبة التي قد تخلط الكلمة بكلمة مختلفة عنها، فمما عابوه من اللهجات:

1. عنعنة تميم: فهم يجعلون الهمزة المبدوء بها عينا فيقولون في أُن: عُن.
2. كشكشة ربيعة: فهم يجعلون بدل كاف المخاطبة شيئا فيقولون بدل: عليك بالصبر يا هند: عليش بالصبر.
3. كسكسة هوازن: فهم يجعلون بدل كاف المخاطبة شيئا فيقولون بدل: عليك بالصبر يا هند: عليس بالصبر.
4. تضجع قيس فهم يميلون الأحرف إلى الكسر.
5. عجرة ضبة: فهم معروفون بالتقعر والجفاء في الكلام.
6. ثلثة بهراء: وهي أنواع منها كسر ما عدى الياء من حروف المضارعة، فيقولون في تَأذن وتَأثم: تَيْثم وتَيْذن.
7. فحفحة هذيل: يجعلون الحاء عينا، فيقولون في أحل الله البيع: أعل الله البيع.
8. عججة طيء، فهم يجعلون الياء المشددة جيما، فيقولون في تميمي: تميمج.
9. لخالخائية الشحر وعمان، فهم يقولون في ما شاء الله: مشا الله.

(1) المصدر نفسه: ج18، ص237.

10. غمغمة قضاة: وهي مثل الهمهمة وهو كلام لا يفهم من غيرهم.
11. وتم حمير: فهم يجعلون السين تاء فيقولون في: الناس، النات.
12. الإنطاء وهو معروف عند بعض العرب بحيث يجعلون مكان العين الساكنة نونا إذا جاورت الطاء فيقولون ينطي بدل: يعطي.
13. الطمطمائية، وهي إبدال لام التعريف ميمًا فيقولون: طاب أمهواء بدل: طاب الهواء.
14. المعاقبة: وهي تعاقب الواو والياء، فيقولون: أوبة وأيبة وعزوت وعزيت وتحوز وتحيز(1).

وذكر النحاة في المطولات من كتبهم عدة مسائل اختلف فيها الرأي بينهم وقد نسبوا هذا الخلاف الإعرابي إلى قبائل معينة على أنها لهجاتهم وما تستطيعه ألسنتهم ويمكن أن نلخص بعض تلك المسائل فيما يلي:

1- ينصب الحجازيون خبر ليس مطلقا، ولكن بني تميم يرفعونه إذا اقترن « بالا » حملا لها على « ما ».

ثم يروى النحاة لهذا قصصاً ليس مصدرها في الحقيقة إلا الصراع العلمي بين طائفتين منهم:، فقد زعموا أن الأصمعي قال: « كنا عند أبي عمرو بن العلاء يوماً، فجاء عيسى بن عمر الثقفي فقال: يا أبا عمرو ما شيء بلغني عنك تجيزه؟ قال ماهو؟ قال بالمني أنك تجيز ليس الطيب إلا بالمسك! فقال أبو عمرو: هيهات، نمت وأدلع الناس، ليس في الأرض حجازي إلا وهو ينصب، ولا تميمي إلا وهو يرفع! ثم قال اليزيدي ولخلف الأحمر: اذهبوا إلى أبي المهدي ولقناه الرفع فإنه لا يرفع، ولأبي المنتجع بن نبهان التميمي ولقناه النصب فإنه لا ينصب.

فذهبوا إلى أبي المهدي فوجداه يصلي، فلما قضى صلاته التفت إليهما وقال: ما خطبكما؟ قالوا جئنا نسألك عن شيء من كلام العرب، فقال هاتيا، قالوا: كيف تقول ليس الطيب إلا المسك؟! فقال أتاأمراني بالكذب على كبر سني؟! فأين الزعفران وأين الجلوى؟! فقال خلف: ليس الشراب إلا العسل، فقال: فما يصنع سودان هجر؟ مالهم شراب غير هذا التمر. قال اليزيدي: فلما رأيت

(1) المزهر: ج 1، ص 221؛ الثعالبي: فقه اللغة: ص 107.

ذلك منه قلت له: ليس ملاك الأمر إلا طاعة الله والعمل بها. فقال هذا كلام لا دخل فيه، ليس ملاك الأمر إلا طاعة الله، فقال اليزيدي: ليس ملاك الأمر إلا طاعة الله والعمل بها. فأعادها أبو المهدي بالنصب وقال لها: ليس هذا لي ولا لحن قومي، ثم أتيا أبا المنتجع فقال له خلف: كيف تقول ليس الطيب! المسك؟! فقالها ورفع، فجهدا به أن ينصب فأبى إلا الرفع، ثم رجعا إلى أبي عمرو بن العلاء وأخبراه الخبر وعيسى عنده لم يبرح، فأخرج عيسى خاتمه من يده وقال له: ولك الخاتم بهذا، والله فقت الناس!

2. قسم النحاة « ما » النافية إلى حجازية وتميمية، وقرروا أن خبر « ما » يكون منصوباً عند الحجازيين، ومرفوعاً عند بني تميم. وقد اشترط النحاة شروطاً لنصب خبر « ما » عند الحجازيين، مما هو معروف في المطولات من كتب النحو.

3. ينصب الخبر بعد « إن » النافية في لهجة أهل العالية، ويروى سمع من بعضهم [إن أحد خيراً من أحد إلا بالعافية].

4. بنو أسد يصرفون ما لا ينصرف، ويقع منهم ذلك فيها علة منه الوصفية وزيادة الألف والنون، فيقولون [لست بسكران].

5. لهجة تميم تنصب تمييز « كم » الخبرية مفرداً، ولهجة غيرهم توجب جره وتجييز أفراده وجمعه. فبنو تميم يقولون: كم درهما أنفقت! وغيرهم يقولون: كم درهم أنفقت! وكم عبيد ملكت! ولهذا كان قول الفرزدق [كم عمة لك يا جرير وخالة] موضع نقاش وجدل بين النحاة يمكن الرجوع إليه في المطولات من كتبهم.

6. « لعل » تعمل الجر في اسمها عند عقيل، قال شاعرهم :

7. لعل الله فضلكم علينا...

8. وتعمل «متى» عمل « من » الجارة عند هذيل ؛ قال شاعرهم :

شربن بماء البحر ثم ترفعت * متى لـج خضر لهن نئيج

نصب الاسم والخير « بليت » لغة تميم أو رؤية الذي هو من تميم⁽¹⁾.

(1) خزانة الأدب، ج 2 ص 291 0

المبحث الثالث

اللباس والزينة

المطلب الأول: لباس الرجال:

غلبت البساطة وقلّة التنوع على الالبسة في عصر الرسالة وعهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وقد طرأ التغيير على الالبسة تبعاً للتغيير الذي طرأ على المجتمع عامة وكان للاقتباس الاجنبي اثره الواضح مع ما هيئته الاموال اللازمة لذلك. وروى ان الخليفة عمر حين ذهب الى الجابية -بعد فتح الشام- خرج اليه القواد لاستقباله على الخيول وعليهم الديباج والحريير، فنزل وأخذ الحجارة ورماهم بها وقال لهم عان ما لفتكم عن راياكم⁽¹⁾.

ويبدو ان الذي رآه الخليفة كان مستحدثاً وغريباً لذا رفضه وأخذ يتشدد في سياسته بمنع المسلمين من الخروج الى الامصار الاخرى. وأخذت الاحوال بالتغير التدريجي حين ولي الخلافة عثمان الذي عرف بسماحته ولينه. فعرف المجتمع انواعاً جديدة من الالبسة منها الملونة والموردة والقز والحريير والديباج والكتان الخ

ويبدو ان الخليفة عثمان كان ممن يهتم بلباسه، روى البلاذري⁽²⁾ انه رأى مرة عليه ثوبان معصفران ووراءه غدירתان ومرة عليه خميصة سوداء، واخرى عليه بردا ثمنه مائة دينار، كما لبس القمصان القوهية وغيرها⁽³⁾.

ويلاحظ ان الرجال اخذوا يلبسون مطارف الخز، فقبل عن الحكم بن العاص انه دخل المدينة وعليه فزر خلف ثم دخل على عثمان واخذ يلبس الخز والطيلسان⁽⁴⁾ ورؤى القاسم بن محمد على رحله قطيفة خز وعليه جبة خز خضراء ورداء ممصر⁽⁵⁾ وكان محمد بن الحنفية يكثر من ارتداء مطارف الخز الملونة فعن ابي ادريس قال - قال لي محمد بن الحنفية مامنك ان تلبس

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج2، ص158، حوادث سنة 15هـ وقعة اخبادين.

(2) البلاذري: أنساب الاشراف، ج5، ص3.

(3) المصدر السابق، ج5، ص3-8.

(4) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، النجف: 1962م، ط، ج2، ص152.

(5) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج5، ص122.

الخرز فانه لا بأس به اقلت انه يجعل فيه الحرير⁽¹⁾ ويبدو ان بعض الزهاد كان يتحرج من لبس الخرز لما روى عن الرسول ﷺ بتحريم لبس الحرير للرجال.

وقد لبس الرجال ثياب الكتان، وأول من لبسه زياد بن أبي سفيان⁽²⁾، وروي أن الشعبي كان يلبس الازار الكتان الموردي⁽³⁾، ويبدو أن أغلب الكتان كان من طبقة الأغنياء فميمون يقول (لا يلبس الكتان الا غني أو غري (غلو)⁽⁴⁾، كما ساد لبس الطيالسة بين الناس، ذكر عن عروة بن الزبير أنه كان يلبس الطيلسان المزرييا لديباج وكذلك سعيد بن المسيب⁽⁵⁾ وكان كريب بن أبي مسلم مولى عبدالله ابن عباس وأصحابه يلبسون طيالسة طوالا أزرارها بالديباج⁽⁶⁾.

ومن مظاهر الترف أيضاً ما يروون عن مروان بن عثمان بن عفان أنه كان يلبس -أحياناً- سبعة قمص كأنها درج بعضها أقصر من بعض ورداء عدني بثمن ألفي درهم⁽⁷⁾ وماروي عن ألبسة الشاعر عمر بن أبي ربيعة الكثير منها ماجاء في كتاب الأغاني: (انه حج عاماً من الأعوام على نجيب له مخضوب بالحناء مشهر الرجل بقراب ومعه جماعة من حشمه وغلمانه وعليه حلية موشية بجانبه وعلى ابن سريح ثوبان هرويان مرتفعان فلم يمر وا بأحد الا أعجب من حسن هيئتهم)⁽⁸⁾.

ويبدو أن أغلب الشباب من ذوي الثروات كانوا يجارونه في هذا المضمار. وقد كان عروة بن الزبير يصلي في قميص و ملحفة مشتملا بها على القميص⁽⁹⁾.

وعرف سعيد بن المسيب بحبه للتنوع في الألبسة حيث كان يقول: اصلح قلبك والبس ماشئت⁽¹⁰⁾ وقال عنه اسحق بن يحيى: «رأيت سعيد بن ابي المسيب

(1) المصدر السابق، والصفحة والمطارف اردية من خز لها اعلام.

(2) البيهقي: المحاسن والمساوي، ج2، ص50.

(3) الاصبهاني: حلية الاولياء، ج2، ص322.

(4) نفس المصدر، ج2، ص86.

(5) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج5، ص99.

(6) المصدر السابق، ج5، ص216.

(7) الأصفهاني: الأغاني، ج17، ص89.

(8) الأصفهاني: الأغاني، ج1، ص101.

(9) ابن سعد: الطبقات، ج5، ص132؛ ليدن: الملحفة ما يلبس فوق سائر الألبسة، ط.

(10) الاصبهاني: حلية الاولياء، ج2، ص173.

وعليه ابريسمان ممشقان وقميص شقائق تخرج يداه من كمه»⁽¹⁾ وقد لبس الرجال الثياب القسي المستوردة من الشام ومصر⁽²⁾ كما لبسوا ثياب العصب⁽³⁾ وذكر عن عروة بن الزبير انه كان يلبس في الحدقباء سندي مبطن بحري⁽⁴⁾ واخذ بعض الاغنياء - يتغالون في شراء الالبسة الغالية الثمن. فيروى أن كسوة بكر بن عبدالله المازني قومت باربعة الاف⁽⁵⁾ - وكان الشاعر المعروف بالعرجي - احد احفاد عثمان بن عفان - يلبس الحلة بخمسائة دينار⁽⁶⁾ كما ان ابن عباس كان يشتري الرداء بألف⁽⁷⁾ ومثله محمد بن عمر و الذي كان يشتري المطرف بسبعمائة ويلبسه⁽⁸⁾ كما روى عن عمر ابن عبدالعزيز عندما كان واليا على المدينة كان يلبس الثوب بار بعمائة درهم ويقول ما اخشنه واغظله⁽⁹⁾ وكان سعيد بن المسيب يلبس الحلة بألف درهم ويدخل المسجد (فقيل له في ذلك فقال اني اجالس ربي)⁽¹⁰⁾ كما عرف عبدالله بن جعفر بجودة لباسه. فكان يلبس الجبة الخز المنسوجة بالذهب وثمانها ثلثمائة دينار⁽¹¹⁾ وقد حدد عبدالله بن عمر - في هذه الفترة - المستوى الوسط للالبسة وثمانها عندما سأله رجل عما يلبس من الثياب - فقال: «مالا يزيدريك فيه السفهاء ولا يعتبك به العلماء. مابين الخمسة الى العشرين درهم»⁽¹²⁾ ولعل ابن عمر يتكلم بلغة الرجل المتدين البعيد عن حياة الترف التي عمت المجتمع في عصره.

ويتضح لنا من رواية ربيعة بن أبي عبدالرحمن: «رأيت مشيخة في المدينة في زي الفتيان لهم الغدائر وعليهم المورد والمعصر وفي ايديهم المخاصر وبها اثر

- (1) ابن سعد: الطبقات، ج5، ص103.
- (2) البخاري: الصحيح، ج7، ص25، وهي ثياب مضلعه فيها الحرير أمثال الاترنج.
- (3) الاصفهاني: أغاني، ج9، ص11. - في شعر كثير- والعصب برود يمينه يعصب غزلها ثم يصبغ فيأتي موشيا لبقاء ما عصب منه أبي ض لم يأخذ الصبغ.
- (4) ابن سعد: الطبقات، ج5، ص32.
- (5) الاصبهاني: حلية الاولياء، ج2، ص227، لا يذكر نوعية النقود درهم او دينار.
- (6) الاصفهاني: أغاني، ج1، ص395.
- (7) ابن قتيبة: عيون الاخبار، ص298.
- (8) ابن سعد: الطبقات، ج5، ص50.
- (9) الاصفهاني: الأغاني - ج17، ص89؛ وابن سعد: الطبقات، ج5، ص226.
- (10) الاشيهي: المستطرف ج2، ص26.
- (11) الاصفهاني: الأغاني، ج12، ص219؛ ترجمة: عبدالله بن معاوية، دار الكتب المصورة، ط1.
- (12) الاصبهاني: حلية الاولياء، ج1، ص302.

الحنا ودين احدهم ابعدهم عن الثريا اذا اريد دينه»⁽¹⁾ وما ذكره طاوس بن كيسان من انه «رأى فتية من قريش يرفلون في مشيتهم فقال إنكم لتلبسون لبوسا ماكانت ابأؤكم تلبسها وتمشون مشية ماتحسن الرقاص يمشونها»⁽²⁾ بأن الترف -في مجال الالبسة- قد عم الجميع شبابا وشيوخا لذا نرى تبعا لذلك ظهور موجة الاعتراض من علماء الدين.

وقد كانت البسة الصوف مرفوضة ومكروهة من المجتمع ذكر الأصبهاني⁽³⁾ عن أبي العالية قوله: «زارني عبدالكريم أبو أمية وعليه ثياب صوف - فقلت - هذا زي الرهبان - ان المسلمين اذا تزاوروا تجملوا»، والخليفة الاموي معاوية عندما دخل عليه النخار العذري مرتديا العباءة احتقره فرد عليه النخار بقوله - «يا أمير المؤمنين ليس العباءة تكلمك انما يكلمك من فيها»⁽⁴⁾ حيث كان لبس العباءة مكروها ايضاً حينئذ.

أما لباس الرأس فالعرب منذ القديم كانت تستخدم العمام، واستمر لبسها في هذا العصر مع شيء من التطور. حيث لبس الناس العمام المصنوعة من الخنز⁽⁵⁾ وجعلها بعضهم سوداء ويحليها ببرنسي ارجواني⁽⁶⁾، وكان محمد بن الحنفية يقيم بعمامة حرقابية ويرخيها شداً أو أقل⁽⁷⁾.

ولبس البعض مع العمامة، القلنسوة ويسدل من الخلف شبراً منها⁽⁸⁾ وقد تنوعت الوانها فمنها البيضاء والخضراء، ومنها ما صنع من الخنز، وروى عن نافع بن جبير انه كان يلبس قلنسوة اسماطا(مسمطة) وعمامة بيضاء⁽⁹⁾ ولعل الكثير من الرجال كانوا يرتدونها ويستلقت الانتباه في هذا العصر اهتمام الرجال ببعض مظاهر الزينة كالخضاب مثلا حيث نرى أغلبية الرجال كانوا يصبغون رؤوسهم ولحاهم بالحناء والكتم، وذكر ابن سعد⁽¹⁰⁾ عدداً كبيراً

(1) ابن قتيبة: عيون الاخبار، مج1، ص299.

(2) الاصبهاني: حلية الاولياء، ج2، ص10، ج1، ص379؛ ابن سعد: الطبقات، ج2، ص395.

(3) الأصبهاني: حلية الاولياء، ج2، ص217، (أبو العالية، أحد التابعين).

(4) ابن قتيبة: عيون الاخبار، مجلد1، ص297؛ المبرد: الكامل، ج1، ص275.

(5) ابن سعد: الطبقات، ج5، ص121، ط ليدن.

(6) ابن سعد الطبقات، ج5، ص102، كان سعيد بن المسيب يلبس في الفطرو الأضحى ذلك.

(7) نفس المصدر، ج5، ص82.

(8) ابن سعد الطبقات، ج5، ص126.

(9) نفسه، ج5، ص22-26، 152، عن نافع بن جبير.

(10) الطبقات الكبرى، ج5، ص82، 123، 160، 161، 116

منهم مثل علي بن الحسين الذي كان يخضب بالحناء والكتم وكذلك قاسم بن محمد ومحمد بن الحنفية، وكان أبو سلمة عبدالرحمن بن عوف يخضب بالوسمة والسواد، ومنهم من يصفى لحيته بالدهن. وقد اهتموا بتصنيف شعرهم فيروى عن سعيد بن المسيب ان كان له لحية ليست بالكثيرة قد فرقها⁽¹⁾ واخذ الشباب في هذا العصر يصفف شعره وفق مواضع خاصة حتى ذكر ان عمر بن عبدالعزيز كان اذا صلى الجمعة بعث الحراس وأمرهم أن يقوموا على باب المسجد ولا يمر عليهم رجل مصفف شعره لايفرقه الا جزوه⁽²⁾.

العمامة:

لباس للرأس عند الرجال لدى جميع الطبقات وقد تتغير من حيث الشكل والنوعية، فالخليفة عمه وللفقهاء عمه، وكذلك للقضاة، والكتاب، والقبالين والأعراب، وغيرهم من طبقات المجتمع. فالعمامة هي لباس موروث عربي الأصل اتخذت قبل الاسلام، ووصفها العرب في كلامهم إذ شبهوها كالتيجان على رؤوس الرجال⁽³⁾، وأظهروا فوائدها، فقال عمر بن الخطاب عنها والعمائم تيجان العرب⁽⁴⁾، وقيل لأعرابي مالك لا تضع العمامة على رأسك، قال إن شيئاً فيه السمع والبصر لجدير أن يوقى من الحر والقر⁽⁵⁾ ويذكر أبو الاسود الدؤلي فوائده العمامة فيقول إنهاء جنة في الحرب، ومكنة من الحر، ومدفأة من القر، ووقار في الندى، ووقاية من الحوادث، وزيادة في القامة، وهي تعد عادة من عادات العرب⁽⁶⁾.

وقد عرف أيضاً للعمامة ألوان عديدة فمنها الأبيض، والأسود، والأصفر، والأحمر، وعدد آخر من الألوان المختلفة، لكن الشائع عند المسلمين كان الابيض واعتبر هذا اللون من السنن المتبعة، فيذكر أن الرسول ﷺ قال في الحديث الشريف وخلق الله الجنة بيضاء تلبسونها في حياتكم وتكفنون فيها موتاكم⁽⁷⁾، ويذكر عن الرسول ﷺ أنه كان يرتدي عمامة بيضاء أو سوداء ويرسل أحد

(1) نفس المصدر، ج5، ص103.

(2) نفس المصدر، ج5، ص282.

(3) الجاحظ: البيان والتبيين، القاهرة: 1938م، ج2، ص88.

(4) الجاحظ: البيان، ج3، ص92، ج2، ص88، ج3، ص93، ص100.

(5) نفس المصدر السابق.

(6) نفس المصدر السابق.

(7) ابن الجوزي: تلبس إبليس، القاهرة: 1928م، ص186، 198.

نهايتها الى ظهره، ويروى انه دخل مكة المكرمة يوم الفتح وعليه عمامة سوداء⁽¹⁾. وللبس العمامة أصول منها أن الرجل عليه ألا ينزع العمامة امام الناس، لأن ذلك يجعله غير محترم، ويعتبر ساقط المروءة وتارك الآداب ويعاقب فيما لو نزعها في دار الخلافة، وقد تنزع في مناسبات منها كتعزية الخليفة مثلاً، وتنزع ايضا عند التعبد لله⁽²⁾.

القلنسوة:

جمعها قلانس، وهي لباس مستدير مبطن من الداخل يوضع على الرأس، ويصنع من القماش أو الجلد، وتختلف القلانس بشكلها، وهي تتنوع بحسب المناسبة التي تتخذ لها، وكانت القلنسوة لا تلبس لوحدها بل يلبس فوقها العمام، وكان الاهتمام بالقلنسوة كالاهتمام بالعمامة، وإن كانت الأخيرة أكثر شيوعاً⁽³⁾، وتشير المصادر الى استعمال القلانس ذات الألوان والأحكام المختلفة من عهد الرسول الكريم ﷺ وكذلك أثناء عهد الخلفاء الراشدين، وعصر بني أمية⁽⁴⁾.

وقد لبس الفقهاء والقضاة القلانس العظام المستديرة التي تحميهم من الحر، وكانت أيضا تلبس القلانس مع العمامة لتزيد من هيبتهم ووقارهم في عيون الناس⁽⁵⁾، كما كان يلبس الناس القلانس في الصيف، كما يلبسونها في الشتاء، وخصوصاً إذا دخلوا على الخلفاء، وعلى الأمراء، وعلى السادة والعظماء⁽⁶⁾.

القباء:

لباس خارجي للرجال، وربما لبسه النساء في بعض الأحيان، وهو فارسي الأصل، وقد يطوى تحت الابط بصورة منحرفة⁽⁷⁾، ويذكر انه رأى الرسول ﷺ وعليه قباء به شق من الخلف⁽⁸⁾، والقباء لباس طويل قد يصل إلى الأرض

- (1) نفس المصدر السابق.
- (2) الهمداني: المقامات، شرح محمد عبده. بيروت: (بدون تاريخ) ص 119.
- (3) نفس المصدر السابق.
- (4) الأصفهاني: الأغاني، بالقاهرة: وزارة الثقافة والارشاد، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ج2، ص342.
- (5) الجاحظ: البيان والتبيين، ج3، ص117.
- (6) الجاحظ: المصدر السابق، ج3، ص103.
- (7) ابن الجوزي: أخبار الحمقى، ص177.
- (8) ابن سيدة: أبو الحسن علي بن إسماعيل، (ت258هـ)، كتاب المخصص، بيروت: (د.ت)، منشورات المكتب التجاري، بيروت: تاريخ النشر، (بدون)، ج1، ص86.

ومفتوح عند الرقبة، وأكمامه بقيت ضيقه منذ عهد الرسول ﷺ حتى عهد الخليفة المعتصم الذي استحدث الأكمام الواسعة، ومنه ماله شق من الخلف، ومنه ما تكون أكمامه مشقوقة⁽¹⁾.

الطيلسان؛

لباس فارسي معرب، وهو عبارة عن كساء مدور أخضر لحمته أو سداه من صوف، ليست له أكمام أو جيوب خال من التفصيل والخياطة، ويوضع فوق الكتف أو الرأس ويتدلى على الجنبين اذ يغطي نصف الوجه⁽²⁾، وقد يلف الطرفان الاماميان حول الرقبة ويتدليان على الاكتاف، أما الطرفان الخلفيان على الظهر، ويعتبر من الألبسة الجميلة المنظر والثمينة، ويذكر أنه كان معروفاً لدى العرب في الجاهلية، حيث كان فرسانهم يلبسونه في المناسبات مثل مواسم الحج، وعند انعقاد الأسواق كسوق عكاظ وذى المجاز.

القميص :

لقد ورد ذكر القميص في القرآن الكريم، مما يدل على شيوعه وكثره استعماله وقدمه، حيث ورد في سورة يوسف قال الله تعالى: ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ ﴾⁽³⁾.
ويصنع القميص من القطن الابيض فقد ذكر أن الرسول ﷺ كان يرتديه⁽⁴⁾، وقد يصنع من الكرايبس، أي القطن الغليظ، فيروى عن علي بن ابي طالب ﷺ أنه شوهد وعليه قميص من كرايبس الى نصف ساقيه⁽⁵⁾. ويبدو أن أشكال القميص متنوعه فقد تكون ردفه قصيره حيث ذكر أن الرسول ﷺ كان يلبس قميصاً، ردفاه إلى معصميه⁽⁶⁾. وقيل أن علياً ﷺ كان يلبس القميص قصيراً فإذا مد كفه بلغ نصف الساعد، وإذا أرخاه بلغ الظفر⁽⁷⁾ وقد يكون القميص لا يصل الى نصف الساق، فيروى أن سعيد بن المسيب كان يلبس قميصاً الى نصف ساقه وكميه طالعه وأطراف أصابعه⁽⁸⁾.

(1) ابن سيدة: المخصص، ج1، ص86؛ ابن الجوزي: أخبار الحمقى، ص89.

(2) الجاحظ: البيان والتبيين، ج3، ص287.

(3) سورة يوسف: 18.

(4) دوزى: المعجم، ص302.

(5) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج3، ص19.

(6) دوزى: المعجم، ص19.

(7) ابن سعد: الطبقات، ج3، ص17.

(8) المصدر نفسه، ج5، ص103.

واستمر استخدام القميص في العهود التالية لعصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين وخصوصاً في العهد الأموي، حيث أصبح من لباس الخلفاء والوزراء والولاء، والكتاب، والقضاء، والفقهاء، والشعراء⁽¹⁾، وقد تعددت نوعية وألوان الأقمصة، فعرف منها النوعيات الجيدة التي كانت تصنع من الحرير والخز وما شابههما، والتي كانت تستخدم عند عليّة القوم والأغنياء من الناس، وعرفت أيضاً النوعية الرخيصة والتي استعملها فقراء المجتمع، كما عرف منها الألوان البيضاء، والصفراء، والسوداء، والزرقاء، والدكناء.

وكان في خلفاء بني أمية من يلبس القميص مراراً أو تغسل له مرات متعددة مثل هشام بن عبد الملك، وأبي جعفر المنصور، أما المهدي والرشيد، والمأمون، والمعتمد والواثق فإنهم كانوا لا يلبسون القميص إلا لبسة واحدة، إلا في حالة أن يكون نادراً، ومنهم أيضاً من كان يلبس الجبة لعدة أشهر، وربما تجاوزت العام، وضرورة لبس الجباب والارديّة مثل الأقمصة والسراويل، لأن القميص والسراويل هي الشعار⁽²⁾، وسائر الثياب الدثار⁽³⁾.

السروال:

هو لباس داخلي للرجال والنساء على حد سواء، وأصله فارسي، قال الجاحظ: إن السروال لباس العجم⁽⁴⁾، ولكن يبدو أن السروال قد عرف عند العرب من العهد الجاهلي، بل واستخدم في عهد الرسول و خلال العهود الأولى للإسلام، فيذكر أن الرسول ﷺ حرم على من يحج أن يلبس السراويل، ويجب أن يحل محلها الأزار، ولكن عندما لا يستطيع الحاج إيجاد أزار فقد يجوز له ارتداء السروال⁽⁵⁾، وتحريم الرسول له أثناء الحج يدل على وجوده في أسواق الحجاز، وعلى انتشار استعماله لدى أهل الحجاز وغيرهم ممن يأتي إلى الحج، ويذكر بن سعيد، أن سعيد بن المسيب كان يلبس السروال، وابن جريج كان يلبس السراويل عندما لا يكون عنده ألبسة داخلية أخرى كالإزار وما شابهه⁽⁶⁾.

(1) الجاحظ: البيان والتبيين، ج3، ص16.

(2) الشعار: ما يلبس تحت الثياب وهو ما يلي شعر الجسد.

(3) الجاحظ: التاج في أخلاق الملوك، ص154.

(4) الجاحظ: البيان والتبيين، ج2، ص97.

(5) دوزي: المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة أكرم فاضل، بغداد: 1971م، ص198-199.

(6) ابن سعد: الطبقات، ج6، ص103؛ ابن منظور: لسان العرب، ج20، ص241.

وفي عهد بني أمية كثرت الألبسة، ومن بينها السراويل، فصار يلبسها الرجال والنساء على السواء، وأصبحت شائعة بين الناس، وتعددت أنواعها وألوانها حتى أصبح أغلب السكان يستخدمونها، وخصوصاً في المدن الكبرى من الدولة الإسلامية، كبغداد، ودمشق، والقاهرة، ومدن الحجاز، وبلاد المغرب وغيرها.

الرداء:

لقد تكرر ذكر الرداء في المصادر العربية، مما يدل على كثرة استعماله، وأن اسمه يدل على أنه من الألبسة الخارجية للجسد، وتذكر المصادر أن الرسول ﷺ كان يدعو الله في غزوة بدر فما زال كذلك حتى سقط رداؤه فأخذه أبو بكر رضي الله عنه فألقاه على منكبه والتزمه من ورائه⁽¹⁾، ومن هذه الرواية نستدل على أن الرداء قطعته كبيرة، وأنه لم يكن مخيطاً وإلا لما سقط عن منكب الرسول ﷺ.

وقد أشارت بعض المصادر الى استخدام الأردية في العهود التالية لعهد الرسول ﷺ، فلبسها بعض العلماء، والفقهاء والأدباء، والشعراء، وأيضا عامة الناس، وكان منها ذات اللون الأبيض، والأصفر، والأسود، فيذكر أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان يلبس بعض الأردية الملونة، والتي كانت تصبغ بالعصفر والزعفران⁽²⁾.

الخميصة:

هي كساء أسود مربع له علمان⁽³⁾، وكان يلبسها الرجال كما تلبسها النساء، وبقيت مستعملة من جميع أفراد المجتمع خلال العهود الإسلامية الأولى، وهي مطرزة الأعلام أو الحواشي بالألوان المختلفة، وقد تكون ذات علم واحد، أو حاشية واحدة⁽⁴⁾.

البردة:

من الألبسة الخارجية للجسد، وقد اختلف اللغويون في تعريفهم لها، ومزج كثير منهم بين شكلها وقماشها وألوانها، وقد جمع ابن منظور كثيراً من

(1) صفى الرحمن المباركفوري: الرحيق المختوم، بحث في السيرة النبوية، بيروت: 1408هـ/1988م، ص 208-209.

(2) ابن سعد: الطبقات، ج3، ص 18، ص 142، 154.

(3) ابن سيدة: المخصص، مج3، ج 8، ص 79.

(4) دوزى: المعجم، ص 142.

آرائهم فقال: إن البردة ثوب فيه خطوط، فيقال ثوب أبرد أي فيه خطوط ربما تكون سوداء أو بيضاء، والبردة كساء يلتحف به، ويقال أيضاً هي الشملة المخططة⁽¹⁾، قال الليث: ((وأما البرد فكساء مربع أسود فيه صفرة تلبسه الاعراب))⁽²⁾.

ويتضح من حديث ابن منظور أن فريقاً من اللغويين اعتبر البردة كساء، في حين أن فريقاً آخر اعتبرها شملة، والمعلوم أنها قريبة الشبه منهما، وأن الفرق بينهما قليلة، وأبرز هذه الفرق أن البردة مزخرفة ولها حاشية منسوجة، وقد تكون الحاشية دقيقة أو غليظة⁽³⁾.

والبردة من لباس الرسول ﷺ وقد خلعها على الشاعر كعب بن زهير، عندما قدم إليه تائباً مسلماً وانشده لا ميته المشهورة التي يمدحه فيها⁽⁴⁾.

وقد استخدمت البرد خلال العهود الإسلامية الأولى، وكان منها الجيدة الصنع والغالية الثمن ولا يلبسها إلا عليه القوم، من الخلفاء والوزراء، والأغنياء، وغيرهم، ومنها أيضاً رخيصة السعر، ورديئة النوع، ويلبسها عامة المجتمع، كالفقراء وغيرهم. وقد اشتهرت عدة مناطق في الجزيرة العربية بإنتاج البرد كصنعاء وصعدة، ونجران⁽⁵⁾.

(1) الحديث عنها في الصفحة القادمة.

(2) ابن منظور: لسان لعرب، ج1، ص53؛ صالح أحمد العلي: الأنسجة في القرنين الأول والثاني، بيروت: 1961م، مجلة الأبحاث، السنة (21) الأجزاء 2، 3، 4، ص560 وما بعدها.

(3) دوزي: المعجم ص56.

(4) ومطلع تلك اللامية:

والعفو عند رسول الله مأمول
والعفو عند رسول الله مأمول
القرآن فيها مواعظ وتفصيل

بانث سعاد فقلبي اليوم متبول
نيئت أن رسول الله أوعدني
مهلا هداك الذي اعطاك نافلة

وعندما وصل زهير إلى قوله:

ان الرسول لنور يستضاء به
مهند من سيوف الله مسلول
قام الرسول وخلق بردنه والقاه على الشاعر، فأطلق نقاد الادب على هذه القصيدة اسم (البرده). القصيدة: أبو سعيد الكرى: شرح ديوان كعب بن زهير، القاهرة: 1369هـ/1950م، ص6-23.

(5) دوزي: المعجم، ص56.

الشملة :

ثوب يشتمل به واشتمل بالثوب اذا اداره على جسده كله حتى لا تخرج منه يده، والشملة الصماء التي لبس تحتها قميص أو سراويل، وكرهت الصلاة بها، وقد نهى الرسول ﷺ عن اشتمال الصماء⁽¹⁾، واشتمال الصماء هو أن يشتمل بالثوب حتى يجلل به جسده، ولا يرفع منه جانباً، فيكون فيه فرجة تخرج منها يده⁽²⁾.

والشملة كانت تستخدم في عهد الرسول ﷺ، ثم لبسها الخلفاء الراشدون، وكذلك بعض أفراد المجتمع خلال عصر بني أمية وبني العباس، وعرف منها ذات الألوان المخططة بالأسود والأبيض، وكذلك الحمراء، والدكناء والسوداء والبيضاء⁽³⁾.

واشتهر عن أهل الحجاز لبس أنواع مختلفة من الثياب كما يشير إلى ذلك الفاكهي⁽⁴⁾: «... أن أهل مكة كانوا يلبسون الثياب الموردة فيما مضى من الزمان...» وأنهم كانوا يقومون بصباغتها وتغيير ألوانها «... وإنما كان الرجل يأخذ ثوبه إزاره ورداءه فيصبغها ببعض الأصباغ ثم يروح فيها ويغدو...»، «... ويلبسون الثياب الملونة مثل الحمر والموردة...»⁽⁵⁾، «... ويلبسون الثياب المشقة والمثلثة...»⁽⁶⁾ إلى جانب رواج ثياب أخرى مستوردة من الشام ومصر وغيرهما⁽⁷⁾.

(1) فنسنتك: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث، ج3، ص181.

(2) ابن سيده: المخصص، مج3، ج1، ص97.

(3) المصدر نفسه، مج3، ج1، ص97، 79؛ دوزي: المعجم، ص19.

(4) الفاكهي: مكة في قديم الدهر، 1/296 : 3/296.

(5) الفاكهي: مكة في قديم الدهر، 3/296.

(6) الفاكهي: مكة في قديم الدهر، 1/299.

(7) الفاكهي: مكة في قديم الدهر، 3/121.

المطلب الثاني: لباس النساء :

أما لباس النساء فكن يلبسن :

الخممار والعصابة والنقاب:

وهذه الألبسة خاصة بغطاء الرأس عند النساء، وقد عرفت عند نساء المسلمين خلال القرون الإسلامية المبكرة، والخمار هو الحجاب أو القناع يستخدم لتغطية مقدمة العنق، ويستر الذقن والفم، ويكون معلقاً بقمة الرأس⁽¹⁾، ويذكر أن لبس الخمار كان مقصوداً على الحرائر ثم أخذت الاماء يلبسنه، وفي أواخر العصر الأموي منعت الاماء من لبسه، وقال بعض خلفاء بني أمية ولا تلبس أمه خمراً ولا يتشبهن بالحرائر⁽²⁾.

أما العصابة: فهي طرحه من الحرير، وربما من قماش آخر، مربعة الشكل، وأحياناً ذات ألوان وأشكال مختلفة، لها حاشية حمراء أو صفراء وهي تطوى بصورة منحرفة ثم يلف بها الرأس وتتدلى من الخلف عقدة وحيدة⁽³⁾.

أما النقاب، فهو خمار للوجه تستعمله النساء، وهو عبارة عن قطعة قماش بطول ذراع أو أكثر، يوضع شطر منه فوق الرأس ويتدلى سائره من الامام حتى الوسط، وهو يغطي الوجه كله⁽⁴⁾.

ثانياً: لباس الجسم:

إن كتب التراث الإسلامي مليئة بأسماء عديدة للملابس الداخلية والخارجية التي كانت تستخدم خلال العصور الإسلامية الأولى، ومن أهمها وأكثرها استعمالاً، الازار، والعباءة، والقباء والطيلسان والجبة، والقميص، والسروال، والرداء، والدراعة، والخميصة، والبرنكان، والبرنس، والبرد، والشملة، والمرط والمستقة وغيرها.

الازار:

لباس شائع بين طبقات المجتمع منذ عهد الرسول ﷺ. وهو عبارة عن قطعة قماش كبيرة تلف على الجسم، ويختلف طول الازار، فكان للنبي ﷺ ازار من

(1) دوزى: المعجم المفصل، ص38.

(2) ابن سعد: الطبقات الكبرى، بيروت: 1957م ج 1، ص281.

(3) دوزى: المعجم المفصل، ص247، ص305.

(4) نفس المصدر السابق.

نسيج عمان طوله أربعة أذرع وشبر في ذراعين وشبر⁽¹⁾، وروى عن علي عليه السلام انه كان يأتزر فوق السره ويلبس القميص مع الازار، وروى عنه أيضاً انه كان يمشى في السوق وعليه ازار إلى نصف ساقه⁽²⁾.

وبقى استخدام الازار خلال صدر الاسلام، ولكن في العصر الاموي أدخل عليه شيء من التطور بضرب من الخياطة، وقد ورد في اخبار حبابه جارية يزيد بن عبد الملك انهم رأوها مؤتزره بإزار خلوقى⁽³⁾ قد جعلت له ذنبين⁽⁴⁾.

وقد تعددت أيضاً ألوان الازر، فعرف منها الأزرق، والأبيض والأحمر، والأصفر وجميعها كانت تنسج من الصوف أو القصب أو الخز، وأحياناً من القماش الرخيص الذي يسمى بـ (القوطه)⁽⁵⁾.

العباءة:

وهي خاصة بالبدو، وتكون قصيرة مفتوحة من الجهة الامامية لا أكمام لها، ولكن تستحدث فيها تقويرات لإمرار الذراعين، وتكون في الغالب منسوجة من نسيج غليظ مثل الصوف المبروم، وتكون مخططة على سطور بيضاء وسوداء⁽⁶⁾. وهي أيضاً من ألبسة الرجال، وليست من لباس الاغنياء، وكثرة استخدامها كان خلال عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وعصر الخلفاء الراشدين، ويذكر عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه انه كان يلبس العباءة لزهده في الدنيا وتخليه عن فخامتها⁽⁷⁾، ويروى عن سلمان الفارسي انه عندما كان يخطب في الناس، أو يحدثهم كان يفتersh نصف العباءة ويلبس النصف الآخر⁽⁸⁾.

وبقيت العباءة معروفة ومستخدمة خلال العهد الأموي، وحتى وقتنا الحالي، لكنها لم تكن شائعة الاستعمال مثلها مثل بعض الألبسة الأخرى.

(1) ابن سعد: الطبقات ج3، ص 17-18؛ ابن عبدبره: العقد الفريد، القاهرة: 1367 هـ / 1948 م، ج1، ص188.

(2) ابن عبدبره: العقد الفريد، القاهرة: 1367 هـ / 1948 م، ج1، ص188.

(3) خلوقى، الخلوقة طيب يتخذ من الزعفران وعليه الحمرة والصفرة.

(4) الأصفهاني: الأغاني، ج15، ص131.

(5) ابن منظور: لسان العرب، القاهرة: 1366 هـ / 1947 م، ج8، ص373.

(6) دوزى: المعجم، ص238.

(7) المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر، القاهرة: 1964 م، ج2، ص205.

(8) ابن سعد: الطبقات، ج4، ص62.

المطلب الثالث: الزينة :

لباس القدم:

يعتبر من مظاهر الزينة، ومن ألبسة المسلمين خلال العهود الاسلامية الأولى لباس القدم، ومن أهمها الخف، والنعال، والجورب، فالخف هو ما يلبس في القدم ويكون شكله طويلاً حيث يغطى الساق ويكون أيضاً عريضاً، ويذكر الجاحظ عن الخف (كانت العرب تلهج بذكر النعال والفرس تلهج بذكر الخفاف)⁽¹⁾.

والخفاف كانت مستعملة في عهد الرسول ﷺ، فيروى عنه ﷺ (أنه كان يلبسها، وأنه حرم على المسلمين لبسها أثناء الحج، وأجازها بعد قطع أسفل الكعبين من كل خف⁽²⁾)، وكان الخف مهماً بالنسبة لجميع الطبقات حتى الفقيرة.

أما ألوان الخفاف فقد تكون سوداء، ومنها الخف الذي لبسه الرسول ﷺ⁽³⁾، وقد تكون حمراء، أو صفراء، ويروى أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا ينهون نساءهم عن لبس الخفاف الأحمر والصفير ويقولون هو من زينة آل فرعون، ويقصدون بذلك أنها من مظاهر الترف⁽⁴⁾.

النعال:

النعال من ألبسة القدم، وقد عرف عند العرب منذ زمن بعيد، ووصفوه في شعرهم.

قال الشاعر :

يا ليت لي نعلين من جلد الضبع وشركا من استها لا ينقطع⁽⁵⁾

وكان لبس النعال يعتبر من مظاهر الزينة، فقد ورد عنه ((واستجيدوا النعال فإنها خلاخل الرجال))⁽⁶⁾، والنعال أنواع فمنها، المشعرة، والمدهونة المنحصرة، والكتانية، واليمانية، والفضية⁽⁷⁾.

(1) الجاحظ. البيان، ج3، ص96-97.

(2) دوزي: المعجم، ص137.

(3) ابن الجوزي: تلبيس ابليس، ص199.

(4) الجاحظ: المصدر السابق، ج3، ص106.

(5) الجاحظ: البيان والتبيين، ج2، ص106.

(6) البيان والتبيين، ج3، ص90-98.

(7) المصدر نفسه، ابن سيده: المخصص، مج3، ج2، ص113.

الجورب:

لباس فارسي اقبل العرب على تقاليده، وكانت تلبسها النساء والرجال على حد سواء، ويذكر أن المسلمين في صدر الاسلام كانوا يلفون أقدامهم وسيقانهم بخرقه كبيرة، وفوق هذه اللفافات يلبسون خفافهم الواسعة⁽¹⁾، أن المسلمين كانوا يرتدون الجوارب حين طوافهم حول الكعبة لحماية أقدامهم من الحرارة اللاهبة⁽²⁾.

أما فئة النساء فلم يكن بعيداً عن مجتمع الرجال حيث نساء الخلفاء والوزراء وعليه القوم كن يلبس أنواع الألبسة المختلفة، ذات الأصباغ المختلفة، وذات النوعيات والألوان الجيدة والغالية الثمن أما نساء الطبقة الوسطى فكن يأتين بعد فئة الطبقة الأولى فيلبسن الملابس الجيدة والمتوسطة في النوعية والأسعار، ولكن النساء لم يكن أسعد حظاً من فئة الفقراء من الرجال وإنما لباسهن كان المدرعة والأسمال والسرراويل البيضاء التي يذكر ابن منظور أنه شاع استخدامها الفقيرات من بين العامة⁽³⁾.

(1) دوزي: المعجم، ص109.

(2) دوزي: المعجم، ص109.

(3) ابن منظور: لسان العرب، ج1، ص334؛ ابن الجوزي: تلبيس إبليس، ص209.

المبحث الرابع

الأطعمة والأشربة

المطلب الأول: أنواع الأطعمة:

عادة إطعام الحجاج وسقايتهم صورة من صور التكافل الاجتماعي التي وجدت عند أهل مكة في الجاهلية، ضمن وظيفتي الرفادة والسقاية، حيث نظروا إلى الحجاج على أنهم ضيوف الله وزوار بيته فلا بد من إكرامهم بتقديم الطعام والشراب لهم، واستمرت هذه العادة في الإسلام، حيث ساهم في ذلك الرسول ﷺ والخلفاء من بعده وميسورو الحال من عامة المسلمين، وتمثلت إسهاماتهم بإنفاق الأموال وشراء الدور وتخصيصها لعمل طعام الموسم وتقديم الشراب، ونصب الموائد سواء داخل مكة أو على طريق الحج كما سنوضح فيما بعد.

وأصل الرفادة خرج كانت قريش تخرجه من أموالها فيصنع به طعام للحجاج يأكله من ليس له سعة، وكان ذلك منذ عهد قصي بن كلاب، وكان قصي ينحر الجزر الكثيرة على كل طريق من الطرق المؤدية لمكة وداخلها، ويطعم الناس⁽¹⁾.

ولقد أوردت المصادر مظاهر اهتمام الخلفاء الأمويين بإطعام الحاج، ومن ذلك أن معاوية بن أبي سفيان اشترى داراً بمكة سماها دار المراحل وجعل فيها قدوراً، حيث كانت الجزر والغنم تذبح وتطبخ وتقدم طعاماً للحجاج أيام الموسم⁽²⁾، وعندما حج الوليد بن عبد الملك عام (91هـ/709م) أطعم الحجاج بعرفة ونصب لهم الموائد⁽³⁾.

كان الخلفاء الأمويون يأمررون ولاتهم على مكة بإطعام الحجاج وينفقون الأموال لهذه الغاية، ومن ذلك أن سليمان بن عبد الملك عندما أراد تأدية فريضة الحج

(1) الأزرقى: أخبار مكة، ج1، ص110-112.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص237؛ الفاكهي: أخبار مكة، ج3، ص287؛ محب الدين الطبري: القرى، ص293.

(3) اليعقوبي: تاريخ، ج2، ص285.

عام (97هـ/715م)، أمر واليه على مكة خالد بن عبدالله القسري بأن ينحر جزراً ويقسمها، وأن يعد طعاماً ويدعو إليه القادمين للحج⁽¹⁾، وكان عمر بن عبدالعزيز ينفق الأموال على إطعام الحاج⁽²⁾، وكان الوليد بن يزيد بن عبد الملك عندما كان ولياً للعهد يطعم من صدر عن الحج بمنزل يقال له زيزاء ثلاثة أيام ويعلف دوابهم⁽³⁾.

وكان بعض الحجاج من ميسوري الحال يقيمون موائد طعامهم وهم في طريقهم إلى مكة، فذكرت المصادر أن الحجاج بن يوسف الثقفي نزل بين مكة والمدينة وهو في طريقه للحج، وكان قد دعا لطعام الغداء فكان يأمر حاجبه أن ينظر فيما حوله ويدعو إلى من يشاركه الطعام⁽⁴⁾.

وذكر أن روح بن زنباع الدمشقي وهو تابعي جليل، حج مرة فنزل على ماء بين مكة والمدينة فأمر فأقيمت له أطعمة مختلفة، فطلب أن يدعو الرعاة والأعراب إلى أكلها⁽⁵⁾، وكان المغيرة بن عبد الرحمن قد وقف ضيعة له على طعام يصنع بمنى أيام الحج⁽⁶⁾.

وكان أهل الحجاز إبان عهد الخلفاء الراشدين يعتمدون في غذائهم الرئيسي على القمح والزيت فقد فرض الفاروق لكل طفل جريبين من بر وقسطين من زيت وقسط من خل كل شهر⁽⁷⁾.

وعرف الناس إبان العهد الأموي الكثير من أنواع الطعام الشامي والفارسي وأصبح البعض يتخذ الكراسي حول الموائد ويستعمل المناشف والملاعق المصنوعة من الخشب⁽⁸⁾.

(1) الفاكهي: أخبار مكة، ج3، ص129-150؛ اليعقوبي: تاريخ، ج2، ص292، 293؛ المقريزي: الذهب المسبوك، ص62-63.

(2) الأصبهاني: حلية الأولياء، ج5، ص306.

(3) الطبري: تاريخ، ج7، ص217.

(4) ابن قتيبة: عيون الأخبار، ج1، ص369؛ الطرطوشي: سراج، ج1، ص122؛ ابن كثير: البداية، ج9، ص121.

(5) ابن كثير، البداية، ج9، ص67-68.

(6) الزبيدي: نسب، ص305.

(7) الطرطوشي (محمد بن محمد بن الوليد العمري): سراج الملوك، ص134؛ وقف دلاور مختار 1341هـ.

(8) ابن سعد: الطبقات، ج3، ص163.

وقد كانت أطعمة العرب في صدر الاسلام بسيطة وقليلة التنوع نظراً لقلّة الموارد المالية ولعدم معرفتهم بصنوف الأطعمة، ولكن التطور الذي طرأ على المجتمع نتيجة للفتوح والاختلاط جعل العرب يتطلعون الى أطعمة الأمم الأخرى ويقلدونها - جاء في المستطرف⁽¹⁾ إن العرب لم تعرف ألوان الطعام؛ انما طعامهم اللحم يطبخ بالماء والملح حتى كان زمن معاوية فاتخذ الألوان) ويؤكد ذلك مارواه الطبري: «بأن خالد بن الوليد عندما غزا قرى أليس على الفرات وقف على الطعام ونقله للمسلمين. .. وجعل من لم يعرف الأرياف والرقاق يقول - ما هذا الرقاق البيض فيرد عليهم الآخرون بأنه رقيق العيش»⁽²⁾ - كما رأى المسلمون في كسكر نوعاً من الأطعمة يدعى النرسيان فأكلوه منه وبعثوا بخمسة الى الخليفة عمر وكتبوا اليه: (إن الله اطعمنا مطاعم كانت الاكاسرة يحمونها وأحببنا ان ترونها لتذكروا انعام الله وافضاله)⁽³⁾.

ورأوا في اذربيجان أيضاً الخبيص⁽⁴⁾.

وأخذت أحوال المسلمين بالتحسن التدريجي منذ خلافة عثمان حيث كان نفسه يعجبه. ماطاب من الطعام، ويروى عن عمر بن أمية الضمري قوله:

(كنت أتعشى مع عثمان خزيرا من طبخ من اجود ما رأيت فيها من بطون الغنم وادمها اللبن والسمن فقال لي عثمان كيف ترى هذا الطعام - قلت - هذا أطيب ما أكلت قط- فقال رحم الله ابن الخطاب -أكلت معه هذه الخزيرة؟ - قلت نعم - فكادت اللقمة ثغرت بين يدي وليس فيها لحم وكان آدمها السمن ولا لبن فيها - قال عثمان - صدقت ان عمر رضي الله عنه اتعب من تبع أثره)⁽⁵⁾. ولكن عمر كان يقول وهو يقدم الخبز اليابس بغير ادم لضيوفه: (لو نشاء للملأنا هذه الرحاب من صلائف وسبائك وصناب ولكني رأيت الله تعالى نعى على قوم شهواتهم)⁽⁶⁾، فالخليفة عمر كان يميل الى الزهد في الحياة من شتى جوانبها وكان يطلب من رعيته أن تتبعه في هذا المضمار.

(1) الابشيهي، ج1، ص177.

(2) تاريخ الرسل والملوك ج2، ص10، حوادث سنة 12-13هـ.

(3) نفس المصدر السابق، ج2، ص65.

(4) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ج3، ص101، والخبيص من الحلواء المخلوطة. ابن منظور: لسان العرب، ج7، ص20.

(5) العقاد: عثمان بن عفان، ص66.

(6) ابن عبدربه: العقد الفريد، ج1، ص7، والصلائف ما عمل النار طبخا والسبائك ما يسبك من الدقيق فيؤخذ خالصة - حيث يريد به الحوارى- والصناب صبغ يتخذ من الخردل والزبيب واللحم، المبرد: الكامل، ج1، ص72.

لذا نرى أن الخبيص كثر في خلافة علي عليه السلام فنراه يصور ذلك الاقتباس عندما قدم منه الى ضيوفه بقوله: (ان الاسلام ليس ببكر ضال ولكن قريشاً رأت هذا فتناجرت عليه)⁽¹⁾، والخليفة علي عرف بزهده في الحياة أيضاً متبعاً نهج ابن الخطاب ولكنه لم يكن يمنع الناس من هذا الاقتباس فنراه يصف الفالوذج عندما قدم اليه بقوله: انك طيب الريح حسن اللون طيب الطعم لكن أكره أن أعود نفسي مالم تعتده⁽²⁾.

واتخذ الناس في العصر الاموي أنواعاً جديدة من الطعام منها السكباغ الذي نعتوه بأنه سيد المرق وشيخ الأطعمة وزين الموائد⁽³⁾؛ كما عرفوا النقانق المععام بالخردل وهي الغنم المحشو والمقلي، وكذلك السنبوسج وهو رقاق معجون بالسمن أو الشيرج ويحشى بقطع اللحم والجوز⁽⁴⁾. كما اختص البعض في صنع طعام اللواتم⁽⁵⁾، وأصبح البعض لا يستغن عن أكل الفواكه بعد الطعام حتى روي عن بعضهم: انهم اذا طلبوا فاكهة ولم يجدها في بلدهم، استحضرها من الشام⁽⁶⁾ وقد أكل الأغنياء منهم في آنية الذهب والفضة⁽⁷⁾.

وتفاوت الناس في أطعمتهم فحينما كان البعض يأكل الدجاج والحوت والفرخ ويتناول الحلوى مثل عبدالله بن عباس كان البعض يعتمد في طعامه على الخبز والزيت مثل سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب والذي عرف بالزهد⁽⁸⁾؛ ومما ساعد على تنوع الأطعمة أن منطقة الحجاز كانت مصدراً للكثير من أنواع الغذاء فقد كان يزرع فيها القمح والشعير والذرة وكل هذه تروى بمياه الأمطار كما كان يزرع البطيخ والبصل وهذه تروى من العيون مباشرة⁽⁹⁾؛ واشتهرت المنطقة بإنتاج الكثير من الفواكه مثل العنب والموز والليمون وغيرها⁽¹⁰⁾.

- (1) الاصبهاني: حلية الأولياء، ج1، ص81-82.
- (2) نفس المصدر السابق، ج1، ص81-100؛ الابشيهي: المستطرف ج1، ص210، وصف الحسن البصري، الفالوذج، بأنه لباب البربلعاب النحل بخالص السمن.
- (3) الابشيهي: المسترف، ج1، ص177؛ الاصبهاني، حلية الأولياء، ج3، ص100.
- (4) الاصفهاني: الأغاني، ج1، ص88.
- (5) نفسه، ج2، ص208.
- (6) ابن عبدربه: العقد الفريد، ج3، ص222.
- (7) ابن سعد، الطبقات، ج2، ص126؛ ابن عبدربه، العقد الفريد، ج1، ص111.
- (8) الذهبي: أعلام النبلاء، ج3، ص160؛ المبرد: الكامل في اللغة والأدب، ج2، ص170.
- (9) الأزرقى: أخبار مكة، ج1، ص116.
- (10) القلقشندي: شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبدالله: صبح الأعشا في

يشير الفاكهي إلى وجود فئة من الحرفيين في مكة، كانوا يمتنون مهنة إعداد الطعام والشراب وبيعه، وقد يرجع ذلك لانشغال التجار بتجارتهم وحركة البيع والشراء، فشحجوا من يقوم بخدمتهم وتجهيز الطعام لهم، وكانت لهم أسواق تشتهر بخدمة الطعام الذي كانوا يقدمونه، فوجد سوق السمك ويسمى سوق الحواتين⁽¹⁾ فكان الصيادون يقدمون مكة من جدة بحيتان تباع في هذا السوق⁽²⁾، كما وجد بائعو التمر ولهم سوق خاص بهم يسمى بـ «سوق التمارين»⁽³⁾.

وعرف سكان مكة المكرمة أنواعا كثيرة من الأطعمة في العصر الأموي بسبب الرخاء والازدهار الاقتصادي في تلك الفترة، ومن أنواع الأطعمة الشائعة في ذلك العصر:

التمر: يمثل طعاما مهما في مجتمع مكة لوفرتة ولقيمتة الغذائية ولأنه سهل النقل، يتحمل التخزين لمدة طويلة، ولا يحتاج إلى إعداد وتحضير، ويمكن تناوله في أي وقت بمفرده أو مع غيره من المواد الغذائية مثل الزبد واللبن والسمن والإقط والبطيخ والقثاء وغيرها⁽⁴⁾.

صناعة الانشاء، القاهرة: 1913م، ج2، ص248.

(1) الفاكهي: مكة في قديم الدهر، 3/279. لم يكن بمكة شيء من الحوت (السمك) الأخضر، أي الحوت (السمك) الطري الطازج من البحر، إنما كان يقبل بالزيت بجدة، قبل إرساله لمكة، ويضعونه في أقفاص من جريد النخل ليتخلله الهواء أثناء عملية نقله من جدة إلى مكة، عن طريق الحمارة الذين كانوا يعملون على نقل البضائع وغيرها من جدة إلى مكة، فيصل إليها من جدة في ليلة واحدة، أي كانوا يرسلونه قبيل المغرب من جدة فيصل إلى مكة في الصباح، فالحمار الجيد يقطع المسافة من جدة إلى مكة في ليلة واحدة، وما كانوا يرسلونه على الجمال لأنها تقطع المسافة بين المدينتين في ليلتين، وإذا وصل السمك المقلي إلى مكة قاموا بقلبه مرة أخرى في الحوانيت ثم يبيعونه خوفاً من تغيره وخرابه. محمد طاهر كردي، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، طبع بإشراف عبدالمك بن عبدالله بن دهيش، مكة المكرمة: مكتبة الأسد للنشر والتوزيع، 1235هـ/2002م، 2/126.

(2) الفاكهي: مكة في قديم الدهر، 2/371-372.

(3) الفاكهي: مكة في قديم الدهر، 2/371، 3/279.

(4) ابن إسحاق، محمد المطلبي (ت151هـ)، السير والمغازي، تحقيق: سهيل زكار، دمشق: دار الفكر، 1398هـ، ص279؛ ابن سعد: محمد بن سعد بن مزيح الزهري، (ت230هـ) الطبعة الخامسة من الصحابة، تحقيق: محمد السلمي، الطائف: مكتبة الصديق، (1212هـ)، 58/2؛ ابن حنبل: أحمد بن محمد، (ت221هـ)، الأثرية، تحقيق: عبدالله حجاج، القاهرة: المركز السلفي للكتاب، 1201هـ، ص22؛ ابن الباطن: جمهرة، 1/370؛ اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر، (ت282هـ)، اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، بيروت: دار صادر، (د.ت)،

الخبز: يمثل طعاما مهما -أيضاً- لهم، فكانوا يتناولونه في أي وقت ويأكلونه بمفرده أو يقدم مع بقية الأطعمة لاسيما اللحوم والمرق⁽¹⁾.

الثريد: وهو الخبز ويبل بالمرق ويوضع فوقه اللحم⁽²⁾.

الحريرة: وهي الدقيق يطبخ باللبن ويستخدم السمن في تحضيرها أو عند تقديمها. أو الدسم⁽³⁾.

الخبزيرة: وهي قطع اللحم الصغيرة تطهى بالماء الكثير والملح، ثم يضاف إليها الدقيق بعد نضجها⁽⁴⁾.

الخطيفة: هي عبارة عن دقيق يزر على اللبن ثم يطبخ ويلق بالملاعق⁽⁵⁾.

العصيدة: وهي دقيق يلت بالسمن، ثم يطبخ بالماء وتكون متوسطة القوام ويستخدم السمن عند تقديمها⁽⁶⁾، أما إذا عملت غليظة فهي اللفيفة لذلك فهي تسمى العصيدة المغلظة⁽⁷⁾.

الهريسة، والحيسة، والسמידة، والكشكية، والفريك والشواء، والجشيشة، والمضيرة وجميع أنواع هذه الأطعمة كانت شائعة في العراق وفارس والشام في العصر الأموي ويبدو أنها انتقلت إلى مكة المكرمة من هناك⁽⁸⁾.

هذا ويتكون طعام الفقراء والزهاد من التمر والخبز والزيت والجرأ⁽⁹⁾.

2/266؛ ابن فهد، النجم عمر (ت 885هـ)، إتحاف الوري بأخبار أم القرى، 2/91.

(1) ابن حبيب: المجد، ص139-120؛ الفاكهي: محمد بن إسحاق بن العباس المكي (من علماء القرن الثالث الهجري)، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق: عبدالمالك بن دهيش، مكة المكرمة: مكتبة النهضة الحديثة، 1207هـ، 3/92؛ الأصفهاني: الأغاني، 12/167. (2) ابن سيدة: أبو الحسن علي بن إسماعيل، (ت258هـ)، كتاب المخصص، بيروت: (د.ت)، منشورات المكتب التجاري، 13/5؛ الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر (ت255هـ/168م)، البخلاء، بيروت: دار القلم، 1977م، ص95.

(3) ابن عبدربه: أحمد بن محمد الأندلسي، (ت328هـ)، العقد الفريد، تحقيق: أحمد أمين وإبراهيم الأبياري، بيروت: دار الكتب العربي، 1202هـ، 6/292؛ ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم، (ت711هـ/1311م)، لسان العرب، بيروت: دار صادر، (د.ت)، 2/182.

(4) ابن سيدة: المخصص، 2/125 - 126.

(5) ابن الباطين: جمهرة، 1/302؛ ابن سيدة: المخصص، 2/126؛ ابن الأثير: النهاية، 1/365.

(6) ابن قتيبة: عيون الأخبار، 3/201؛ الطبراني: أبو القاسم سليمان بن أحمد، (ت360هـ)، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي السلفي، ط2، دهوك، 1202هـ، 19/215.

(7) ابن سيدة: المخصص، 2/126.

(8) الجاحظ: البخلاء، ص21، 93، 95.

(9) ابن الجوزي: أبو الفرغ عبدالرحمن، (ت597هـ)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم،

وجبات الطعام:

كان أهل مكة المكرمة يتناولون الطعام على وجبات، وكانت:

أولاً: التصبيحة، والتي تتناول في الصباح⁽¹⁾، وكان شراب الصباح يسمى الصبوح⁽²⁾ والطعام الذي يتعلل به قبل الغذاء يسمى السلفة⁽³⁾ أو العلقة أو العلاق، وهو الطعام يتبلغ به إلى وقت الغذاء⁽⁴⁾.

ثانياً: فهي وجبة الغداء: كانت بعد صلاة الظهر⁽⁵⁾.

ثالثاً: فهي وجبة العشاء، ويسمى شراب العشاء بـ(الغبوق)⁽⁶⁾ وقد يكون وقت تناولها قرب غروب الشمس. وقد تكون الوجبة دسمة، وذلك يعتمد على أحوال الأسرة.

ومن خلال ما ذكر عن الأثرية والأطعمة يتبين مدى التغير الذي حدث في هذا الجانب المهم من الحياة الاجتماعية، فزادت أنواع المأكّل والمشرب زيادة كبيرة نتيجة للتحسن الاقتصادي من ناحية، والتفاعل الحضاري الشامل بين كل فئات الأمة الإسلامية في هذا العصر، وقد حظيت مكة المكرمة بنصيب أوفر من غيرها بسبب مكانتها الدينية.

تصحيح: هاشم الندوي وآخرين، حيدر آباد: (1357هـ) دائرة المعارف العثمانية، 271/1-272.

(1) أبو داود، سنن، 3/359؛ ابن الأثير: النهاية، 3/6؛ ابن منظور: لسان العرب، 2/202.

(2) أبو محجن الثقفي، عمرو / (ت30هـ)، ديوان أبي محجن الثقافي، بيروت: (د.ت) ص29؛

ابن دريد: جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي بعلبكي، بيروت: دار العلم للملايين، 1/279؛

الأصفهاني: الأغاني، 5/185، 10/125، 7/85.

(3) ابن سيدة: المخصص، 2/12.

(4) البابطين: الحياة الاجتماعية، ص312.

(5) الطبراني: المعجم الكبير، 6/122، 160، 172، 202.

(6) أبو محجن: ديوان، ص29؛ أبو داود، سنن، 3/359؛ ابن الأثير: النهاية، 3/6؛ ابن

منظور: لسان العرب، 2/956.

المطلب الثاني: أنواع الأشربة : الأشربة:

يمثل اللبن واللبن الرائب شراباً أساسياً لأهل مكة بحكم وفرته بهما وقيمتيه الغذائية. ويمثل اللبن شراب الصبوح⁽¹⁾ ويخلط أحياناً مع الخراسانية أو مع سكر⁽²⁾ ويشربون اللبن الرائب في كل الأوقات، ويقدم مع التمر⁽³⁾ أو الخبز⁽⁴⁾ أو مع الأطعمة على المائدة⁽⁵⁾ ويقدم للضيوف⁽⁶⁾ وبعض المترفين درجوا على شرب لبن البخت (الإبل الخرسانية)⁽⁷⁾.

ومن أصناف اللبن، اللبن اللقوح ويمثل لبن الناقة القريبة العهد بالنتاج لشهرين أو ثلاثة أشهر⁽⁸⁾. ومثله اللباء، أول لبن الضرع بعد الولادة⁽⁹⁾، ويصنعون أيضاً لبن الرثينة من اللبن مضافاً إليه اللبن الحامض، ولديهم اعتقاد أنه يكسر الغضب⁽¹⁰⁾.

ومن أنواع الأشربة لديهم الحلواء، ويصنع من العسل والماء البارد⁽¹¹⁾.

والجلاب، ويصنع من العمل أو السكر، وماء الورد، ويضاف إليها أحياناً المسك والكافور⁽¹²⁾.

- (1) ابن عبدربه: العقد الفريد، 2/215.
- (2) الزبيدي: نسب قريش، ص197؛ ابن الباطين: جمهرة، 29-1/28؛ الفاكهي: أخبار مكة، 2/301.
- (3) ابن حنبل: الأشربة، ص22؛ ابن قتيبة: عيون الأخبار، 207/3-208؛ الأصفهاني: الأغاني، 2/138.
- (4) الأصفهاني: الأغاني، 1/153.
- (5) ابن سعد: الطبقات، 1/303، ابن الأثير: النهاية، 2/220.
- (6) الأصفهاني: الأغاني، 2/138.
- (7) الجمحي: أبو عبدالله محمد بن سلام البصري، (ت231هـ)، طبقات فحول الشعراء، شرح: محمود شاكر، القاهرة: مطبعة المدني، (د.ت)، 3/652.
- (8) ابن الباطين: جمهرة، 1/370؛ ابن الأثير: النهاية، 2/262؛ وعن اللقوح، ابن منظور: لسان العرب، 3/382.
- (9) ابن سعد: الطبقات، تحقيق: السلومي، 1/215؛ الفاكهي: أخبار، 3/111.
- (10) ابن قتيبة: عيون الأخبار، 207/3-208؛ ابن الأثير: النهاية، 2/195؛ وعن الرثينة، ابن منظور: لسان العرب ج1، ص112.
- (11) ابن ماجه: محمد بن يزيد، (ت275هـ)، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي: دار إحياء الكتب العربية، القاهرة: (د.ت)، 2/1102؛ أبو داود، سليمان بن الأشعث، (ت275هـ)، سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، بيروت: المكتبة العصرية، (د.ت)، 3/335؛ ابن قتيبة: عيون الأخبار، 3/205.
- (12) ابن عتيق: عبدالعزيز، ابن أبي عتيق - ناقد الحجاز أخباره ونقده، بيروت: دار

في حقيقة الأمر لا يقتصر هذا التأثير على أنواع المأكولات وصناعة الحلوى فحسب، بل إن الموالي والمجاورين جلبوا معهم عاداتهم في المأكل، حيث لكل شعب من الشعوب الإسلامية أكلاته المفضلة، والمميزة في طريقة طهيها وإعدادها، وقد شاعت بين المترفين في مكة المكرمة في هذا العهد في حفلاتهم تقديم ألوان من الطعام الشامي والفارسي في شكله وطعمه، وكان المدعوون في هذه الولائم، يجلسون على سماط يمد على الأرض وتقدم لهم ألوان الطعام لونا بعد الآخر، والبعض الآخر شاع بينهم اتخاذ الكراسي حول الموائد واستعمال الملاعق من الخشب والمناشف إلى جانب السكاكين، التي كانوا يستعملونها من عهود سابقة⁽¹⁾.

وهناك كثير من الأخبار تحدثت عن وجود أناس يشربون الخمر تدل على أن المجتمع كان ينفر من هذا العمل نفورا شديدا، وتدلل على حرص من صدر منهم هذا العمل على التستر خوفا من الافتضاح أمام الناس وخوفا من إقامة الحد الذي كان يقام على من وصل علمه إلى الوالي أو القاضي أو القائمين على الحدود حيث إنهم لم يتهاونوا في تنفيذ الحد على من وجد سكرانا⁽²⁾.

هناك من يذكر انتشار الشراب (الخمر) بمكة المكرمة في عهد يزيد بن معاوية⁽³⁾، غير أن هناك من يذهب إلى أن فيه مبالغات، هدفها الإساءة للأمويين، لكن الدراسات الجادة والتحقيقات العلمية لا توافقهم في مثل هذه الروايات لعدة أسباب، منها: ضعف هذه الروايات، ولخيرية الزمان وقُدسية المكان، ولوجود الصحابة والتابعين والعلماء الأخيار بلاد الحرمين الشريفين، التي كانت مراكز علمية تهوي إليها الأفئدة من كل حذب⁽⁴⁾.

الأحد، 1972م، ص 177؛ ابن قتيبة: عيون الأخبار، 3/280، ابن عبدربه: العقد الفريد، 6/23.
 (1) السباعي: أحمد، تاريخ مكة - دراسات في السياسة والعلم والاجتماع وال عمران، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، الرياض: 1219هـ، 1/120.
 (2) الصنعاني: عبدالرزاق همام، (ت 211هـ)، المصنف، تحقيق: حبيب الأعظمي، دار القلم، بيروت: 1390هـ، 229/9-230؛ ابن قتيبة: الأشربة، دمشق: 1366هـ، ص 21؛ البلاذري: أنساب، 6/220، 359؛ ابن عبدربه: العقد الفريد، 328/6-350؛ الأصفهاني: الأغاني، 2/128، 11/19، عتيق، ص 116.

(3) المسعودي: علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد ميحي الدين، بيروت: دار المعرفة، (دت)، ج 3، ص 77.

(4) إبراهيم الأقسام: الأمويون، موسوعة مكة المكرمة والمدينة المنورة: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، 1230هـ، ط 1، 3/502، وللمزيد تفصيلا، إبراهيم الأقسام، الدولة الأموية في كتابات المسعودي، جدة: دار المجتمع، 1222هـ، ص 61-62.

وسقاية الحاج، كانت موجودة في الجاهلية واستمرت حتى جاء الإسلام، فلقد أسند الرسول ﷺ سقاية الحاج إلى العباس بن عبدالمطلب يوم فتح مكة⁽¹⁾، واستمرت السقاية في ولد العباس من بعده⁽²⁾، وكانت هذه الوظيفة تتطلب تكاليفاً مالية، حيث أن هذه الوظيفة ارتبطت باستيراد الزبيب من الطائف قبل موسم الحج، ثم ينبذ أي يحلى به الماء ثم يقدم شراباً للحجاج⁽³⁾، ولم تقتصر سقاية الحاج على بني العباس، بل قام بها بنو أمية فذكر الأزرقى أن معاوية بن أبي سفيان تولى سقاية الحجيج بالمحصب⁽⁴⁾، ثم سقاهم في منى⁽⁵⁾، وكان هشام بن عبدالمك يسقي الحج في مواسم الحج أسوقه محمضة ومحلاة⁽⁶⁾، وكان لرملة بنت عبدالله بن عبدالمك بن مروان وزوجها عبدالواحد بن سليمان بن عبدالمك بن مروان داراً في مكة وكان يوجد في ركن منها شراب من أسوقه محلاة ومحمضة كانت تسقى للحجاج في مواسم الحج⁽⁷⁾.

ولم يقتصر الخلفاء على سقاية الحاج، بل عملوا على إيجاد مصادر للمياه في مكة والمدينة، فلقد أجرى أبو بكر الصديق رضي الله عنه في خلافته عين ماء في مكة⁽⁸⁾، كما أجرى معاوية بن أبي سفيان عشرة عيون⁽⁹⁾ وحفر الوليد بن عبدالمك له بئراً بمكة⁽¹⁰⁾، كما أمر بحفر الآبار بالمدينة وإيجاد ينابيع للماء⁽¹¹⁾، وأمر سليمان بن عبدالمك واليه على مكة خالد بن عبدالله القسري، أن يجري له عينا من الماء العذب، فبني خالد بركة وأجرها إلى المسجد الحرام⁽¹²⁾.

-
- (1) الأزرقى: أخبار مكة، ج1، ص112. ابن قتيبة: عيون الأخبار، ج1، ص5؛ ابن عبدريه، العقد الفريد، ج5، ص70.
(2) ابن عبدريه: العقد الفريد، ج5، ص70.
(3) الأزرقى: أخبار مكة، ج1، ص11-115؛ البلاذري: فتوح، ص62.
(4) المحصب: موضع بمكة. البكري، معجم، ج2، ص1192.
(5) الأزرقى: أخبار مكة، ج2، ص60.
(6) المصدر نفسه، ج2، ص229.
(7) المصدر نفسه، ج2، ص229.
(8) الأزرقى: أخبار مكة، ج2، ص222.
(9) المصدر نفسه، ج2، ص227-230.
(10) الأصفهاني: الأغاني، ج22، ص25-26.
(11) الطبري: تاريخ، ج6، ص237؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج2، ص533؛ المقرئ: الذهب المسبوك، ص60.
(12) اليعقوبي: تاريخ، ج2، ص293؛ الفاكهي: أخبار مكة، ج3، ص129-150؛ المقرئ: الذهب المسبوك، ص62-63.

والواقع أن اهتمام الخلفاء بتوفير المياه في مكة والمدينة يعود لشح المياه والحاجة إليه خاصة في مواسم الحج، فأشارت المصادر إلى أن عمر بن عبدالعزيز عام (88هـ/706م)، قابله في الطريق مجموعة من قريش، فأخبروه أن مكة قليلة الماء، وأنهم يخافون على الحاج من العطش لقلّة الأمطار⁽¹⁾، كما ذكر الفاكهي أن أهل مكة كانوا يعانون من قلة المياه⁽²⁾.

وظهر في تلك الفترة فئة تخصصت في بيع المشروبات التي من أهمها الحليب ومشتقاته، حيث يصف الفاكهي رواج هذه الحرفة إلى جانب بيع الأطعمة، ويشير الفاكهي⁽³⁾، إلى أن أهل مكة كانوا يشربون الحليب ويخلطونه بالعسل أحياناً أو بالسكر، وكانوا يسمونه شراب الصبوح⁽⁴⁾، ويضيف⁽⁵⁾: أنهم كانوا يسارعون بشرائه وهو في ضروع المواشي كما في قوله: «... كما يصنع أهل مكة، يشترون اللبن في الضروع الشهر والشهرين...»، وكانوا يشربون اللبن الرائب في كل الأوقات، ويقدمونه مع التمر، كما اشتهروا بصناعة لبن الرينة وهو خليط من اللبن الحامض إضافة إلى الحليب وهو عندهم من أطيب الألبان، وكانت العرب تعتقد أنه يكسر الغضب «... إن الرينة تفتأ الغضب...»⁽⁶⁾، كما كانوا يصنعون من اللبن الحامض الأقط⁽⁷⁾، كذلك استخرج أهل مكة من الحليب، واللبن الرائب مواد غذائية أخرى ومنها: الزبد والجبن والسمن⁽⁸⁾، حيث كان بعض القرشيين يأكلون الجبن كمشه لطعامهم، وعن ذلك يقول ابن عبدربه «... فإنه يشهي الطعام، ويهيج المعدة، وهو حمض العرب... فإنه يقدر الأسنان، ويشد البطن...»⁽⁹⁾، وقد عرفت مكة أسواقاً خاصة لبائعي الألبان تعرف بأسمائهم⁽¹⁰⁾.

-
- (1) الطبري: تاريخ، ج6، ص237-238؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج2، ص532؛ النويري: نهاية الأرب، ج21، ص315.
- (2) الفاكهي: أخبار مكة، ج3، ص152.
- (3) الفاكهي: مكة في قديم الدهر، 3/301.
- (4) أحمد بن محمد بن عبدربه الأندلسي، العقد الفريد، تحقيق: أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبسي اري، سلسلة الذخائر، القاهرة، 2002 م، 2/215.
- (5) الفاكهي: مكة في قديم الدهر، 3/96.
- (6) ابن قتيبة: عيون الأخبار، 3/208.
- (7) الأقط: لبن محمض يجمد حتى يستحجر ويطبخ أو يطبخ به. المعجم الوسيط، 1/22.
- (8) الفاكهي: مكة في قديم الدهر، 3/301.
- (9) ابن عبدربه: العقد الفريد، 6/308.
- (10) الفاكهي: مكة في قديم الدهر، 3/330.

مما تقدم نلاحظ أن إطعام الحجاج وسقايتهم تمثل استمراراً لعادة كانت موجودة في الجاهلية، وعندما جاء الإسلام حبيبها ودعا إليها، ويظهر ذلك جلياً من خلال إطعام الرسول ﷺ والخلفاء وميسوري الحال من عامة المسلمين للحجاج وتقديم الشراب لهم، وتمثل هذه العادة الطيبة صورة من صور التكافل الاجتماعي التي تساهم في التخفيف من المشقة التي يعانها الحجاج، هذا فضلاً عن أن الحجاج كان فقيراً في موارده الغذائية والمائية، فلا يمكن أن يسد حاجة آلاف الحجاج من الطعام والشراب.

ومن أنواع الأشرطة التي كانت تتناولها الأسرة في الحجاج، كانوا يشربون وقت الظهر لبناً يطلق عليه القليل⁽¹⁾، وآخر يسمى الغبوق يشربونه بعد تناول طعام العشاء ويبدو أنه آخر عهدهم بالشراب قبل النوم⁽²⁾، أما إذا كانت الأسرة فقيرة فقد تقتصر على شراب واحد فقط. فإما يكون صبوحة أو غبوقاً⁽³⁾، وخلال تناول الأسرة للغداء والعشاء يشربون أنواعاً أخرى من الأشرطة⁽⁴⁾.

أو ما يسمى الحلواء⁽⁵⁾، وسويق اللوز⁽⁶⁾، والفضيخ⁽⁷⁾، والمريس⁽⁸⁾، والسلت⁽⁹⁾ وقد تصفى وتبرد قبل شربها⁽¹⁰⁾.

(1) ابن دريد: جمهرة، 2/977.

(2) ابن قيس: الرقيات، ص80؛ البخاري: صحيح، 3/51؛ البلاذري: أنساب (الشيخان)، ص274؛ الأصفهاني: الأغاني، 18/44. الميداني: 1/207، 210، 2/386.

(3) الميداني: 1/210.

(4) ابن قتيبة: الأشرطة، ص59، 84.

(5) ابن قتيبة: عيون، 3/205؛ البلاذري: أنساب (الشيخان) ص318؛ أبو الشيخ الأصبهاني: ص211.

(6) ابن سعد: 1/395. وسويق اللوز: يبدو أنه مدقوق اللوز مضاف إليه الماء وقد سماه الرسول ﷺ شراب المترفين. ابن سعد: 1/395.

(7) ابن دريد: جمهرة، 1/607؛ الطبراني: الكبير، 12/404؛ الأصفهاني: الأغاني، 6/311؛ ابن منظور: 2/1104. والفضيخ: هو عصير العنب أو رطب يشدخ بحجر يسمى المفضخة ثم ينتبذ في أنية تسمى المفاضخ. وقد يضاف له التمر. وهو شراب قد نهى: عنه. ابن دريد: جمهرة، 1/607؛ الطبراني: الكبير، 12/404.

(8) ابن دريد: جمهرة، 2/721. والمريس هو: مرس التمر في اللبن أو الماء ثم شربه، ابن دريد: جمهرة، 2/721.

(9) ابن فضل الله العمري، 10/59. والسلت: نوع من أنواع الشعير لا قشر له يشبه الحنطة يزرع في الحجاج ويتبردون بسويقه في الصيف. ابن منظور: 2/178-179.

(10) الطبراني: الكبير، 6/248.

ومن الأواني المستخدمة في شرب تلك الأنواع من الأشربة الأقداح⁽¹⁾ والقاب⁽²⁾ والعساس⁽³⁾، كما ورد في القرن الثاني الهجري ما يدل على استخدامهم أثناء شربهم من تلك الأواني نوع من أنواع القصب يسمى اليراع⁽⁴⁾ يبدو أنه مجوف⁽⁵⁾ وهو مشابه لما هو معروف حالياً عند شرب المرطبات.

(1) ابن سعد: 1/484، 4/155؛ مسلم: 3/1593؛ ابن ماجه: 1/297، 2/15، 264؛ ابن قتيبة: الأشربة، ص 27. والأقداح: مفردها قدح وهي أنية تروي الرجلين تصنع من الخشب أو الزجاج. وقد تكون مفضضة أو مضببة بنحاس. ابن سعد: 1/484، 4/155؛ الطبراني: الكبير، 20/55؛ الثعالبي: فقهه، ص 241؛ ابن فضل الله العمري، 10/22؛ ابن منظور: 3/27؛ الفيروزآبادي: القاموس، ص 301.

(2) أمية بن أبي الصلت: ص 66؛ ابن سعد: 2/138، 8/260. والقعاب: جمع قعب وهي «القدح الضخم، الغليظ، الجافي، وقيل: قدح من خشب مقعر. والراجح أنه أصغر من القدح فهو يروي رجلاً واحداً. الثعالبي: فقهه، ص 241؛ ابن منظور: 3/125.

(3) ابن سعد: 2/182؛ ابن ظفر الصقلي، ص 70؛ والعساس: جمع عس، وهو القدح الضخم. الأبهري، ص 209؛ ابن منظور: 2/776.

(4) الزبير بن الباطين: جمهرة، 2/292.

(5) ابن منظور: 3/1008-1009.

المبحث الخامس أثر التنظيمات على المناسبات العامة

المطلب الأول: الأفراح والمناسبات:

الأفراح والمناسبات:

تعددت المناسبات السارة التي كانت الأسرة في الحجاز تحتفل بها وإن اختلف أسلوب الاحتفال بها باختلاف المناسبة:

الاحتفال بالأعياد:

كان المجتمع الأموي يحتفل بالأعياد الإسلامية الرسمية، وهما عيد الفطر والأضحى، وكذلك أول رجب، ونصف شعبان، وبداية العام الهجرية في الأول من محرم، فكان الناس يلبسون أحسن ما عندهم ويتزينون، كما كان أهل الذمة يحتفلون بأعيادهم في حرية وتسامح.

يبدأ الاحتفال بالعيد بذهاب أفراد الأسرة رجالاً ونساءً وصبياناً لأداء صلاة العيد⁽¹⁾، ثم يبدأ أهل في التزاور لتقديم التهاني ويقدم أفراد الأسرة لضيوفهم بعض الأطعمة مثل الفاكهة وغيرها يطلق عليها اسم تحفة⁽²⁾.

وتحرص بعض الأسر على إظهار الفرح والمشاركة فيه، فقد دخل أبو بكر الصديق على ابنته عائشة في يوم عيد وعندها جاريتان تغنيان، فعندما غضب لذلك قال له رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر إن لكل قوم عيداً واليوم عيدنا»⁽³⁾.

ولا شك أن ما حدث في بيت رسول الله ﷺ يتكرر في غيره من بيوت المسلمين في أيام العيدين. كما كان الرسول ﷺ يسمح لعائشة أم المؤمنين بالنظر إلى الحبشة أيام العيد وهم يلعبون بالحراب في المسجد⁽⁴⁾.

(1) مسلم: صحيح مسلم، 602/2-606.

(2) الأصفهاني: الأغاني، 136/24؛ ابن منظور: 1/313.

(3) الطبراني: الكبير، 180/23؛ والطبراني: الكبير، 265/23؛ ابن حجر: الإصابة، 2/272-375.

(4) مسلم: صحيح مسلم، 2/609.

الاحتفال بيوم الجمعة:

يعد يوم الجمعة مناسبة دينية يحتفل بها أفراد الأسرة وخاصة الذكور منهم، فكانوا يحرصون على الاغتسال في ذلك اليوم⁽¹⁾، ويفضلون غسل رؤوسهم بالسدر⁽²⁾، ويدهنون رؤوسهم⁽³⁾، ويلبسون له لباس زينة⁽⁴⁾، ويستجمرون قبل الذهاب للمسجد بذكارة الطيب: العنبر والمسك والغالية⁽⁵⁾، أو بالعود الهندي مع الكافور كما كان يفعل الرسول ﷺ⁽⁶⁾، وقد يبعث بعضهم موابيه إلى المسجد ليحجزوا لهم مكانا في مقدمة الصفوف⁽⁷⁾. وبعد العودة من المسجد تحرص بعض الأسر الغنية على دعوة الأقارب والجيران إلى تناول الطعام قال الفاسي⁽⁸⁾: كان سعيد بن العاص يدعو إخوانه وجيرانه في كل جمعة فيصنع لهم الطعام ويخلع عليهم الثياب الفاخرة ويأمر لهم بالجوائز الواسعة ويبعث إلى عيالاتهم بالبر الكثير». مما يدل على أن الدعوة كانت قاصرة على الرجال دون النساء.

الاحتفال بعودة المسافر:

يضطر رب الأسرة في بعض الأحيان إلى ترك أسرته والسفر إلى خارج البلاد، إما لأداء الحج، أو الجهاد، أو لقضاء دين⁽⁹⁾، أو في طلب ميراث⁽¹⁰⁾، أو في تجارة، أو في غيرها من مستلزمات الحياة.

يبدأ الاحتفال بعودة المسافر قبل وصوله إلى المسكن حيث يحرص الأهل على إرسال صبيان الأسرة ليكونوا في استقباله وقد وضح ذلك في مكة

(1) البخاري: صحيح، 1/213.

(2) ابن النجار، محمد بن محمود، الدرر الثمينة في تاريخ المدينة، ملحق بالجزء الثاني من كتاب شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام لمحمد بن أحمد الفاسي، مكة المكرمة: مكتبة النهضة الحديثة، 1373هـ / 1956م، (د. ط)، ص323.

(3) ابن أبي شيبة، مسند، 1/304.

(4) ابن سعد: الطبقات 1/250، 450؛ البخاري: صحيح، 1/214؛ أبو الشيخ الأصبهاني: ص104.

(5) ابن سعد: الطبقات، 5/51، 52؛ البخاري: صحيح، 1/213؛ ابن دريد، جمهرة، 2/694.

(6) ابن قتيبة: عيون، 1/303.

(7) ابن سعد: الطبقات، 5/309.

(8) ابن عبد ربه: العقد الفريد، 4/574.

(9) الأصفهاني: الأغاني، 4/380؛ الفاسي: العقد الثمين، 222 / 223 7.

(10) ابن سعد: (القسم المتمم) ص336.

والمدينة. فعن ابن عباس أنه قال: «لما قدم الرسول ﷺ مكة استقبلته أغيلمة من بني عبدالمطلب»⁽¹⁾، وعن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: «قدمنا من حج أو عمرة فتلقينا بذي الحليفة»⁽²⁾ وكان غلمان الأنصار يتلقون أهلهم»⁽³⁾.

الاحتفال ببناء الدار أو البيت:

مما لا شك فيه أن بناء دار أو بيت للأسرة يعد مناسبة سعيدة تستحق الاحتفال بها، فيصنع لذلك طعام يسمى الوكيرة، وتسمى الدعوة التوكير⁽⁴⁾، دعوة وأيضاً تغفل المصادر التي اطلعت عليها جوانب كثيرة في هذا الموضوع وهي بذلك شبيهة بطعام النقيعة. فمتى تقام هذه الدعوة؟ هل في أول يوم للسكن أم بعد أسبوع مثلاً؟ أو بعد مدة غير محددة، وهل هي للغداء أم للعشاء؟ وهل يدعى لها الرجال والنساء؟ أم هي دعوة للرجال فقط؟ وما نوع الأطعمة والأشربة التي تقدم فيها؟ وما الأنية المستخدمة في تقديمها؟ كما لم تشر المصادر إلى وجود هذا النوع من الاحتفال في بادية الحجاز وهو أمر طبيعي لارتباطه بال عمران في الحاضرة.

ومن مظاهر المناسبات في مجتمع الحجاز إبان العصر الأموي:

مناسبات الزواج:

وقد كانت مراسم الزواج في المجتمع الأموي متقيدة بما شرعه الله ورسوله، إذ كانت تبدأ بالخطبة، وكانت هناك نسوة تخصصن في التوفيق بين الرجال والنساء وهن ما نسميهن في وقتنا الحاضر (الخطبات)، وكن يجلسن غالباً في المساجد⁽⁵⁾، ونجد أن هذه المهمة لم تقتصر على النساء فقط، إذ كان بعض الرجال ينيون عنهم رجالاً ليخطبوا لهم، فيتحدث الوسيط مباشرة مع الفتاة فتقبل أو ترفض. فقد ذكروا أن الشاعر عبدالله بن همام السلولي بعث شاباً

(1) البخاري: صحيح، 2/204؛ وأيضاً إشارة أخرى: السيوطي: مسند فاطمة، ص 65.

(2) ذو الحليفة: قرية تبعد عن المدينة مسافة ستة أو سبعة أميال، وتعد ميقات أهل المدينة. بطوطة: البلدان، 2/295. وهي اليوم بلدة عامرة تبعد عن المدينة حوالي تسعة أكيال جنوباً على طريق مكة وتعرف عند العامة بأبي ار علي. عاتق البلادي، المعالم، ص 104؛ حجر، فتح، 9/241.

(3) ابن سعد: 3/434؛ والبخاري: صحيح، 2/39؛ الطبراني: الكبير، 1/204.

(4) الفضل الضبي: الأمثال، ص 121؛ البلاذري: أنساب، 1/515، 5/28؛ ابن دريد: جمهرة، 2/800، 3/1271؛ ابن حجر: فتح، 9/241.

(5) ابن عبدربه: مصدر سابق، ص 58.

إلى امرأة ليخطبها له، فما كان من المرأة إلا أن عرضت نفسها على الشاب الوسيط قائلة: وما يمنعك أنت؟ فاندعش الشاب، وسألها إن كانت ترغب فيه حقاً أم لا؟ فتعلن موافقتها على الزواج فيتزوجان⁽¹⁾.

وبعد الخطوبة تبدأ مرحلة دفع الصداق، من مال و عدم مغالاة المهور⁽²⁾، وكانوا لا يطلبون من الزوج شروطاً قاسية مادام الزوج على دين وخلق⁽³⁾.

وهناك من دفع المهور الغالية، مثل مصعب لسكينة، إذ دفع لها خمسمائة ألف درهم وأهدى لها مثلها، ودفع عمر بن عبيدالله لعائشة بنت طلحة مليون درهم نصفهم صداقها والنصف الآخر هدية لها⁽⁴⁾.

أما الشروط التي كان يطلب في توفرها في الزوجة، نراه في عبارة لخالد بن صفوان أحد وجوه الناس في العصر الأموي، فقد قال: «أطلب لي زوجة أدبها الغنى وذلها الفقر، لا ضرة صغيرة ولا عجوزاً كبيرة، قد عاشت في نعمة، لها عقل وافر، وخلق طاهر، وجمال ظاهر كريمة المعتمد، لم يدخلها صلف»⁽⁵⁾.

بعد أن تنتهي مرحلة الخطوبة يأتي عقد القران، فيكتب الصداق، وعادة ما كانت تعقد الأئكة بالمساجد طلباً للبركة، فيجتمعون ومعهم المباخر المفضضة التي يحرقون فيها البخور، وبعد كتابة العقد ينصرفون في حفل كبير⁽⁶⁾.

وبعد ذلك تأتي المرحلة الثالثة التي تتمثل في نقل جهاز العروس الذي كان يتناسب مع مكانة الزوج المالية والاجتماعية، ففي أفراح الخلفاء والسلاطين والأمراء تحمل الجهاز أحياناً قوافل من الدواب والجمال ومئات الحمالين، أما إذا كان أصحاب الفرح من العامة، فإنه يحتفل بنقل الجهاز في حفل يشترك فيه الأقارب والأصدقاء.

وفي ليلة الزفاف تقام وليمة كبيرة للأهل والأصدقاء تعرف بوليمة العرس،

(1) الأصفهاني: مصدر سابق، ج4، ص270.

(2) ابن قتيبة: عبدالله بن مسلم الديتوري أبو محمد، عيون الأخبار، دار الكتب المصرية، 1343هـ/1925م، مجلد4، ص70.

(3) المصدر نفسه، ص10.

(4) علي حسني الخربوطلي: مرجع سابق، ص336.

(5) ابن قتيبة: مصدر سابق، ص5.

(6) بشير رمضان التليسي، جمال هاشم الذويب، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، دار أوياء للطباعة والنشر والتوزيع، 2002م، ط1، ص217.

وهما في الواقع وليمتان، إحداهما للنساء وتقام في بيت العروس، وأخرى للرجال وتقام في بيت العريس، وفي المساء يخرج العريس قاصدا بيت العروس في حفل بهيج يتم خلاله ضرب الدفوف وسط زغاريد النساء وأضواء الشموع⁽¹⁾.

ولم يكن تعدد الزوجات عيبا كبيرا في ذلك الحين، كما لم يكن زواج المرأة بعدة أزواج على التوالي غريبا، فمن النساء من تزوجن أربعة وخمسة أزواج على التوالي⁽²⁾.

وكان الزواج أحيانا يتم لأغراض سياسية، ويرمي إلى ربط القبائل العربية بعضها ببعض، فحرص الحجاج على الزواج من اليمن ومصر، وزوج الحجاج ابنه محمدا من ميمونة بنت محمد بن الأشعث بن قيس الكندي، رغبة في شرفها، ومع ما كانت عليه من جمال وفضل، ليكونوا له يدا على من ناوأه⁽³⁾.

وكانت مواسم الحج مناسبة لتوثيق العلاقات الاجتماعية بعقد المصاهرات، حيث ظهر عدد من حالات الخطوبة والزواج، التي عكست لنا أن المواسم كانت فرصة للاجتماع بذوي النساء أو التعارف الذي يؤدي إلى هذا النوع من العلاقات.

كما أشارت المصادر إلى أن عروة بن الزبير بن العوام حج فالتقى بعبدة الله بن عمر بن الخطاب في الطواف، فخطب عروة منه ابنته، فلم يجبه ابن عمر بشيء، فلما عاد عبدة الله بن عمر إلى المدينة والتقى بعروة قال له: «... يا ابن أخي إنك خطبت إلي ابنتي في الطواف، ونحن نتخايل الله -عز وجل- بين أعيننا، فهل لك فيها اليوم رغبة؟ قال: نعم ما كنت أرغب فيها مني اليوم...⁽⁴⁾، وذكرت المصادر أن خالد بن يزيد بن معاوية حج فخطب رملة بنت الزبير بن العوام⁽⁵⁾، كما ذكر أيضاً أن ابنة لمحمد بن الأشعث حجت مع أمها فرأها الشاعر عمر بن أبي ربيعة فأعجبته فخطبها، وأرسل إلى أمها بخمسمائة دينار، لكن أمها لم توافق على زواجهما⁽⁶⁾.

(1) بشير رمضان التليسي: مرجع سابق، ص 218.

(2) علي حسن الخربوطلي: مرجع سابق، ص 332.

(3) المرجع نفسه، ص 335.

(4) المصدر نفسه ج 1، ص 202. الأصبهاني: حلية الأولياء، ج 1، ص 309؛ محب الدين الطبري: القرى لقاصد أم القرى، القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، 1367هـ/1948م، القرى، ص 270.

(5) البلاذري: أنساب، ج 5، ص 386؛ الأصفهاني: الأغاني، ج 17، ص 260.

(6) الأصفهاني: الأغاني، ج 1، ص 96-97.

وذكرت المصادر عدداً من حالات الزواج التي تمت خلال مواسم الحج، فذكر ابن الجوزي أن الوليد بن عبد الملك حج فبلغه جمال أم البنين وأدبها فتزوجها ونقلها إلى الشام⁽¹⁾، وتزوج يزيد بن معاوية أم مسكين، بنت عمر بن عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذلك في حجة حجها⁽²⁾، وأشار الأصفهاني إلى أن يزيد بن عبد الملك حج فتزوج بنت عون بن محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقدم لها صداقاً مالياً كثيراً⁽³⁾، وذكرت المصادر أن عمر بن أبي ربيعة نظر إلى رجل يكلم امرأة في الطواف فأنكر منه ذلك، فقال له الرجل: «.. أنها ابنة عمي وخطبتها فأبى عمي إلا بصداق أربعمئة دينار...» فتوجه عمر بن أبي ربيعة مع الرجل إلى عمه فاستشفع به لدى عمه فطلب عمه أربعمئة دينار، فتعهد عمر بهذا المبلغ، فتم زواجهما⁽⁴⁾.

الواقع، إن مواسم الحج كانت فترة يجتمع فيها الرجال والنساء فيتعارفون، وقد يسمع الرجال عن نساء قدمن للحج ذوات أدب وأخلاق وجمال ونسب، فشكلت هذه المناسبة الدينية مواسم زواج وعقد مصاهرات وكان لهذا دوره في توثيق العلاقات الاجتماعية بين الناس.

دور المرأة في المجتمع الأموي:

أعطيت المرأة حقوقاً كثيرة في الشريعة الإسلامية، فكانت موجودة في اللقاءات التي عقدها الرسول مع المسلمين الأوائل، إذ بايع النبي الرجال والنساء على السمع والطاعة والقيام بحدود الله، بل إن السبعين الأوائل الذين دخلوا الإسلام كان منهم سبع وثلاثون امرأة، من الحرائر، وسبع من الإماء، حتى أنه في بيعة العقبة الثانية التي حضرها ثلاثة وسبعون رجلاً، حرصت النساء على حضورها⁽⁵⁾.

كانت النساء حتى عهد الخلفاء الراشدين يختلطن بالجمهور، ويسمعن خطب الخلفاء، ويحضرن المحاضرات التي كان يلقيها علي بن أبي طالب وعبدالله

(1) ابن الجوزي: المنتظم، ج6، ص306.

(2) البلاذري: أنساب، ج5، ص303.

(3) الأصفهاني: الأغاني، ج2، ص252.

(4) المصدر نفسه، ج1، ص128؛ ابن عبدربه: العقد الفريد، ج5، ص327؛ القالي: الأمالي، ج2، ص9.

(5) ابن سعد: مصدر سابق، الجزء الثامن، ص11.

بن العباس وغيرهما⁽¹⁾، كانت للمرأة في العصر الأموي مكانتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية، وكثير منهن اشتركن في الحروب، وكان منهن اللواتي صحبن الرجال إلى ساحات القتال يساعدن في الدفاع والهجوم، ويثبتن فيهم روح الحمية بما يلقيه من خطب وأشعار حماسية⁽²⁾، ولذلك خصص لهن مكان في المدن الحصينة والمعسكرات⁽³⁾.

وكثيرات هن اللواتي حملن السيف لمحاربة عدوهم، مهما كانت انتماءاتهن، مثال ذلك غزالة الخارجية، زوجة شبيب بن زيد الخارج على عبد الملك بن مروان، والتي تعد من أشجع القواد، وكانت تقاتل في الحروب بنفسها، وقيل أن الحجاج هرب في بعض الوقائع مع شبيب من غزالة، فعيره بعض الناس بذلك، وقد بلغ من شجاعتها وقوتها أنها نذرت ان تدخل مسجد الكوفة فتصلي فيه ركعتين بسورة البقرة وسورة آل عمران وبالفعل نفذت نذرها⁽⁴⁾.

وأيضاً ظهرت شهامة المرأة العربية وقوتها المعنوية في الحزم ورفض الذل، وهذا ما قامت به أسماء بنت أبي بكر التي حرضت ابنها عبدالله بن الزبير عندما تم حصاره في الكعبة من قبل الحجاج الثقفي على استقبال الموت بشرف، لما يئس من الانتصار، وأمرته أن لا يسلم نفسه لبني أمية فيعيش ذليلاً، فسمع نصيحتها وخرج مقاتلاً حتى قتل⁽⁵⁾.

تميزت النساء بأنهن جمعن المجد من أطرافه كافة، فالمرأة منهن كانت أديبة وفقية وعالمة وصاحبة رأي، ومن تكلم النساء عمرة بنت عبدالرحمن الأنصارية، الفقيهة المحدثة العالمة، توفيت 98هـ/716م، وكانت قد أخذت من عائشة بنت أبي بكر الصديق الحديث، فأكثرتها منها، حتى أن عمر بن عبدالعزيز قال: «ما بقي أحد أعلم بحديث عائشة من عمرة»⁽⁶⁾.

ومن أشهر نساء العصر الأموي أم البنين، زوجة الخليفة الوليد بن عبد الملك، وقد اشتهرت بالفصاحة والبلاغة وقوة الحجة وبعد النظر، وكانت لها مكانة ملحوظة في قصر الخليفة الوليد، والذي كان يستشيرها في مهام وأمور الدولة.

(1) حسن إبراهيم حسن: مرجع سابق، ج1، ص222.

(2) اسمة العظم: المجتمع في العصر الأموي، بيروت: دار العلم للملايين، 1996م، ط1، ص142.

(3) حسن إبراهيم حسن: مرجع سابق، ص222.

(4) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ص252.

(5) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج4، ص128.

(6) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج2، ص378.

وكانت السيدة سكيئة بنت الحسين بن علي سيدة نساء عصرها، ومن أظرفهن وأحسنهن أخلاقاً، اجتمع إليها يوماً جرير والفرزدق وكثير وجميل ونصيب فنقدت شعر كل منهم، ثم أجازت كلاً بألف دينار. وكانت عائشة بنت طلحة بن عبيد الله من النساء اللاتي نبغن في الأدب، وأيام العرب، والنجوم، روي أنها وفدت على هشام بن عبدالمك ذات يوم فقال لها: ما أوفدك؟ قالت: حبست السماء المطر ومنع السلطان الحق، قال: إنني سأعرفه حقك، ثم بعث إلى مشايخ بني أمية فقال: إن عائشة عندي فأسمروا عندي الليلة، فما تذكروا شيئاً من أخبار العرب وأشعارهم وأيامهم إلا أفاضت معهم فيه، وما طلع نجم ولا أغار إلا سمته، فقال لها هشام: أما الأول فلا أنكره، وأما النجوم فمن أين لك؟ قالت: أخذتها عن خالتي عائشة، فأمر لها بمائة ألف درهم وردها إلى المدينة⁽¹⁾.

وإذا كانت سكيئة وعائشة أدبيتين محبتين للأدب، تستقبلان الأدباء في مجالسهما، فإن ليلي بنت عبدالله الأخييلية كانت شاعرة من شاعرات العرب المتقدمات في الإسلام، تفد على الخلفاء والأمراء، وهي مرحب بها بطلاقة لسانها وثبات جنانها، وحسن محاورتها وحضور بديحتها، وفدت على كل من معاوية، وعبدالمك، والحجاج الثقفي الذي قالت له:

أحجاج لا يفلس سلاحك إنما المنايا بكف الله حيث نراها
إذا هبط الحجاج أرضاً مريضة تتبع أقصى دائها فشفاهها⁽²⁾

وهكذا نالت المرأة في هذا العصر كل التقدير والاحترام اللذان استحقتهما بجدارة، وأضاف هذا الأمر قوة للدولة الأموية.

المطلب الثاني: الأتراح:

الأتراح هي الاحزان: الهموم: وقيل: خلاف السرور. وقد فرّق بعضهم بين الهمّ والحنن. وقال بعض علماء اللغة: الحزن: هو الغمّ الحاصل لوقوع مكروه أو فوات محبوب في الماضي ويضاده الفرح. وقد سمي رسول الله العام الذي ماتت فيه «خديجة» ﷺ وعمه «أبو طالب» «عام الحزن»، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين، لما أصابه فيه من همّ وغمّ⁽³⁾.

(1) حسن إبراهيم حسن: مرجع سابق، ج1، ص225.

(2) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص27.

(3) الزبيدي: تاج العروس: ج9، ص72.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذىٌ مِّنْ مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَّرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾⁽¹⁾، وقال تعالى: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾⁽²⁾، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَارِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَذَّحًا فَمَلَأْ بِهِ﴾⁽³⁾، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾⁽⁴⁾.

وقد شهدت مواسم الحج بعض مظاهر الاتراح التي ظهرت في الحياة الاجتماعية في الحجاز، وتمثل ذلك في الترف واللهو ومجالس الغناء.

الترف:

وتمثلت حياة البذخ والإسراف في المواسم باقتناء الكسوة الفاخرة والملابس المصنوعة من أحسن أنواع الأنسجة وأغلاها، وبكميات كبيرة، فأشارت المصادر إلى أن هشام بن عبد الملك حج وحملت ثياب طهره على ستمائة جمل⁽⁵⁾، فيبدو أن ألبسة الزهد والتقشف التي كانت موجودة في العصر الراشدي أخذت في الانحسار مع تدفق الأموال، فصار الأغنياء يتطلعون إلى حياة جديدة نمطها الترف والبذخ، فذكر ابن سعد أن طاووس بن كيسان⁽⁶⁾ قال لفتية من قريش كانوا يطوفون حول الكعبة: «إنكم تلبسون لبوساً ما كان آباؤكم يلبسونها وتمشون ميشة ما يحسن الزفافون أن يمشوها»⁽⁷⁾، ولقد أقيمت بعض العلاقات

(1) سورة البلد: 2.

(2) سورة الانشاق: 6.

(3) سورة البقرة: 155.

(4) سورة العنكبوت: 1، 2.

(5) ابن عبدربه: العقد الفريد، ج 2، ص 212؛ النويري: نهاية الأرب، ج 21، ص 260؛ ابن فهد: إتحاف الوري، ج 2، ص 132.

(6) طاووس بن كيسان اليماني، كنيته: أبو عبدالرحمن، سمع من: زيد بن ثابت، وعائشة، وأبي هريرة، وزيد بن أرقم، وابن عباس. ولازم ابن عباس مدة، وهو معدود في كبار أصحابه. وروى عن: جابر بن عبدالله، وسراقة بن مالك: وصفوان بن أمية، وابن عمر، وعبدالله بن عمرو، التاريخ الكبير للبخاري، ج 2، ص 365؛ الطبري سير، ج 5، ص 39.

(7) ابن سعد: الطبقات، ج 6، ص 70.

الودية بين الناس على تبادل الهدايا مما يعكس تطور المستوى المعيشي للناس، فيروى أن عبدالله بن صفوان بن أمية أهدى معاوية بن أبي سفيان عندما حج ألفا شاه⁽¹⁾.

ظهر اقتناء الألبسة الفاخرة المصنوعة من أجود أنواع الأنسجة فلقد عبر طاووس عن هذا التطور والتغيير لفتية من قريش، وبالح بعض الخلفاء في اقتناء اللباس الفاخر وبكميات كبيرة، حيث أن هشام بن عبدالمك حملت ألبسته وكسوته على ستمائة جمل. كما ظهر الترف في حياة النساء، فهذه عائشة بنت طلحة اتخذت لها ماشطة خاصة تعتني بهندامها وزينتها، وكانت رجالها تحمل بألوان الزينة واللباس، حتى أنها أصبحت مثلاً استعجبت منه زوج أمير المؤمنين. أما مجالس الغناء واللهو في المواسم، فشارك فيها الرجال والنساء، فكان المغنون يجتمعون إلى سكيئة بنت الحسين في المواسم، وكان بعض الخلفاء يجرون بين المغنين ويطربون لبعضهم وينفقون عليهم، مما يعكس لنا نمط حياة الترف سابقا والمترفين آنذاك.

نستدل من مظاهر الترف ومجالس الغناء التي وجدت في المواسم، على تطور المستوى المعيشي للناس في ذلك العصر.

محاربة السلوكيات الشاذة:

تشير المصادر إلى أن الخلفاء عملوا على إقرار الأمن والحفاظ على الأخلاق العامة وتحقيق العدل خلال مواسم الحج، فالأجواء في هذه المناسبة لم تكن دينية بحتة، حيث وجدت بعض التصرفات السيئة التي ترافق أي تجمع بشري، كالتشبيب بالنساء والسرقعة والاعتداء على الآخرين، ويبدو أن الخلفاء وولاة مكة عملوا على ضبط هذا التصرفات من خلال التفريق بين الرجال والنساء وإبعاد دعاة الفتنة عن مكة خلال المواسم، وقطع يد السارق، والاقتصاص للمظلوم ممن أعتدى عليه، فأوردت المصادر أن عمر بن الخطاب كان ينهى أن يطوف الرجال مع النساء، فرأى مرة رجلاً يطوف مع النساء فضربه بالدرية⁽²⁾.

وهناك روايات تذكر أن أول من فرق بين الرجال والنساء في الطواف خالد بن عبدالله القسري والي مكة لعبدالمك بن مروان، حيث فرق بين الرجال والنساء

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، ج8، ص380.

(2) الفاكهي: أخبار مكة، ج1، ص252-253؛ محب الدين الطبري: القرى، ص320.

في الطواف وأجلس عند كل ركن حرساً معهم السياط يفرقون بين النساء والرجال⁽¹⁾، ذلك أنه بلغ خالد وسبب بن عبدالله القسري قول الشاعر:

يا حبذا الموسم من موفد وحبذا الكعبة من مشهد
وحبذا اللاتي يزاحمننا عند استلام الحجر الأسود

فقال خالد: أما أنهن لا يزاحمنك بعد هذا فأمر بالتفريق بين النساء والرجال في الطواف⁽²⁾.

وذكر الأصفهاني أن سليمان بن عبدالمك حج وهو خليفة، فأرسل إلى عمر بن أبي ربيعة، فقال له: ألسنت القائل:

وكم من قتيل ما يباء به دم ومن مالي عينيه من شيء غيره
يسحبين أذيال المروط بأسوق أوانس يسلبن الحليم فؤاده
ومن غلق رهناً إذا لفه منى إذا راح نحو الجمرة البيض كالدمي
خدال وأعجاز مآكمها روا فيا طول ما شوق ويا طول مجتلى

فأجابه ابن أبي ربيعة بأنه قائل الأبيات، فأقسم سليمان أن لا يحضر الحج هذا العام مع الناس وأخرجه إلى الطائف⁽³⁾.

وكان عبدالمك بن مروان قد ولي الحارث بن خالد على مكة فحج بالناس، وكانت قد حجت عائشة بنت طلحة⁽⁴⁾ عامئذ وكان الحارث يهاوها، فأرسلت إليه أن يؤخر الصلاة حتى تفرغ من طوافها، ففعل ذلك، ثم أقيمت الصلاة فصلي بالناس فأنكر أهل الموسم ذلك وأعظموا فعله، فلما بلغ ذلك عبدالمك بن مروان عزله⁽⁵⁾.

(1) الأزرقي: أخبار مكة، ج2، ص20؛ الفاكهي: أخبار مكة، ج1، ص251؛ المسعودي: مروج،

ج3، ص182؛ ابن فهد، اتحاف الوري، ج2، ص120.122

(2) الأزرقي: أخبار مكة، ج2، ص20-21؛ المسعودي، مروج، ج3، ص182.

(3) الأصفهاني: الأغاني، ج9، ص67.

(4) عائشة بنت طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو، أمها أم كلثوم بنت

أبي بكر الصديق. ترجمتها: الأصفهاني: الأغاني، ج11، ص165-185.

(5) الأصفهاني: الأغاني، ج3، ص312-315، ج11، ص180-181؛ ابن فهد: اتحاف الوري،

ج2، ص106.

كما تم خلال مواسم الحج الفصل في المنازعات التي إما أن تكون قد وقعت سابقاً فاستغل أصحاب الشكوى قدوم الخلفاء للفصل فيها، أو المنازعات التي تقع خلال الموسم، فذكر الفاكهي أنه في خلافة معاوية بن أبي سفيان اتهمت بنو أسد عبدالعزى مصعب بن عبدالرحمن بن عوف الزهري ومعاذ بن معمر التيمي بقتل إسماعيل بن هبار⁽¹⁾، وعندما حج معاوية اختصموا إليه⁽²⁾ فاستحلف معاوية كل واحد منهم خمسين يميناً عن نفسه، ثم حكم عليهم بجلد كل واحد منهم مائة سوط، وأمر بسجنهم عام⁽³⁾.

(1) الفاكهي: أخبار مكة، ج3، ص362.

(2) الفاكهي: أخبار مكة، ج1، ص272.

(3) الزبيدي: نسب، ص220؛ الفاكهي: أخبار مكة، ج1، ص272.

الفصل الرابع

أثر تنظيمات الحج على الحياة العلمية والنواحي العمرانية في الحجاز خلال العصر الأموي

المبحث الأول

الحياة العلمية

المطلب الأول: دور العلم

المطلب الثاني: التدريس

المطلب الثالث: التأليف

المبحث الثاني

النواحي العمرانية

المطلب الأول: العمارة الدينية

المطلب الثاني: العمارة المدنية

المطلب الثالث: العمارة العسكرية

المبحث الأول

الحياة العلمية

المطلب الأول: دور العلم:

استمرت حركة التعليم بطيئة في الحجاز حتى بزوغ شمس الإسلام فحينها لم يكن هناك من قريش سوى سبعة عشر رجلاً ملمين بالقراءة والكتابة منهم عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وأبو سفيان بن حرب وعبدالله بن سعد بن أبي السرح⁽¹⁾.

أما النساء فأشهرهن أربعة منهن الشفاء بنت عبدالله العدوية وهي التي قامت بتعليم أم المؤمنين السيدة حفصة بنت عمر الكتابة والقراءة بتكليف خاص من النبي ﷺ⁽²⁾.

وكان الذين اسلموا من بعض هؤلاء هم الذين اعتمد عليهم الرسول ﷺ في كتابة القرآن الكريم وكانت المواد التي يكتب عليها هي الحجارة والعظام والنخيل والجلود والقماش والقرطيس⁽³⁾.

وديننا الإسلامي قد دعا إلى التعلم والعلم فكان أول ما نزل من القرآن الكريم يختص بهذا الجانب قوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾⁽⁴⁾.

واهتم النبي ﷺ بهذا الجانب اهتماماً كبيراً وقد كان التعليم في بادي الأمر يجري في المنزل وكان ذلك قبل بناء المساجد فقد اتخذ النبي ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم مركزاً يلتقي فيه بأصحابه والمسلمين عامة ليعلمهم الدين ويقرئهم آيات القرآن الكريم⁽⁵⁾.

- (1) البلاذري فتوح البلدان ج7، ص664؛ ابن عبدبريه: العقد الفريد، ج2، ص158؛ أحمد شلبي تاريخ التربية في الإسلام ص35، دار الكشاف للنشر، (1954م)، ط1.
- (2) محمد عطية الإبراشي: تاريخ التربية الإسلامية، ص71.
- (3) القلقشندي: صبح الأعشى، ج2، ص515.
- (4) سورة العلق: 1-5، وهي أول ما نزل على نبيينا محمد ﷺ من الوحي.
- (5) عبدالعزيز الدوري: التربية الإسلامية، ص77.

انتقل التعليم بعد ذلك إلى المسجد وكان حراً أي مجاناً، ففي جانب من المسجد النبوي كان يسكن أهل الصفة وهم فقراء المسلمين فكان عبادة بن الصامت يعلمهم القراءة والكتابة فكان منهم الرواة وأشهرهم أبو هريرة والذي أرجع ضخامة علمه بالعام إلى انقطاعه للعلم دون الآخرين الذين كانوا يشتغلون بالتجارة وغيرها⁽¹⁾.

وأصبح يطلق على من تعلم القرآن الكريم أو حفظ بعضاً من آياته أسم القراء لأن العرب كانوا أميين فاخص منهم قارئ الكتاب بهذا الاسم، ثم تبدل اسم القراء فيما بعد إلى الفقهاء والعلماء⁽²⁾.

فكانت كل دار في المدينة بهذه الطريقة تعد فرعاً لمدرسة كبرى هي المسجد النبوي، وكان أسرى بدر من القرشيين الملمين بالقراءة والكتابة قد أستفيد منهم في تعليم أبناء المسلمين⁽³⁾.

وقد عرف المسلمون الكتاتيب من غيرهم من أهل الكتاب فقد كان لليهود بيت في المدينة كانوا يدرسون فيه كتابهم وهو المعروف ببيت المدراس⁽⁴⁾.

وكان الطلاب يقبلون في الكتاتيب في سن صغيرة ويتدرجون في حفظ القرآن الكريم كل حسب قدراته فقد ذكر لنا عروة بن الزبير بن العوام إنهم قد تلقوا العلم وعلموه منذ الصغر، وكان يحث ابناؤه عليه حتى يصبحوا في مستقبلهم علماء مثله يسألهم الناس العلم⁽⁵⁾.

وكان التعليم في العصر الأموي امتداداً لما كانت عليه الحالة في صدر الإسلام، واستجابة للمستجدات التي ظهرت في ذلك العصر، على الصعيد السياسي والإداري، والاجتماعي، ظهرت الحاجة إلى وجود مراكز جديدة لطلب العلم، ونظم حديثة للتعليم، فبدأ ما يمكن أن نسميه الإشراف الرسمي من قبل الدولة على التعليم، ومن أهم أنواع مراكز العلم والتعلم في العصر الأموي، ما يلي:

(1) ابن سعد: الطبقات، ج2، ص330؛ الأصبهاني: حلية الأولياء، ج1، ص342.

(2) ابن خلدون: المقدمة، ص313.

(3) ابن هشام: السيرة، ج1، ص95.

(4) ابن هشام: السيرة، ج1، ص239.

(5) ابن سعد: الطبقات، ج2، ص153؛ ابن كثير: السيرة، ج2، ص329.

أولاً: الكتاب (الكتاتيب):

وهناك رواية تفيد بأن يزيد بن عبدالمك (101-105هـ/719-723م) قد غضب على أحد الأشخاص، (فأمر به أن يختلف به إلى الكتاب مع الصبيان في المدينة ليتعلم القرآن، لأنه من الجاهلين)⁽¹⁾.

وقد وجد الكتاب في الطائف، فقد كان الحجاج بن يوسف الثقفي في أول أمره "مكتبا" (أي معلما للصبيان في الكتاب) هنالك⁽²⁾.

أما طريقة التدريس في الكتاب فتتم عن طريق التلقين، أي يقول المعلم ثم يردد الطلاب وراءه ما يقوله بصوت عال، ثم تطور الأمر إلى الكتابة على ألواح صغيرة يحضرها الطلبة معهم.

ومما يزيد في التأكيد على أهمية الكتابة واستخدامها كوسيلة من وسائل التعلم تلك الرواية التي تفيد أن الوليد بن عبدالمك تفقد أحد الكتاب فوجد المعلم يعلم الصبيان الكتابة والقرآن⁽³⁾، ولعل هذه الرواية تفيد أيضا في معرفة مدى اهتمام الخلفاء الأمويين بأمور التعليم في عصرهم، وتفقدهم لشؤونهم.

ثانياً: المساجد:

تأتي أهمية المساجد في أنها كانت معهدا علميا ومكانا حربيا، وقاعة اجتماعية ومنطلقا فكريا، وسياسيا وجهاديا، فلم يكن المسجد مكانا للعبادة فحسب، بل كمحكمة للتقاضي ومكانا للدراسة.

أما حلقات التعليم المتعلقة بالحديث والفقهاء، فكان الأسلوب المتبع فيها هو السماع، أي أن يسمع المتعلم الأحاديث النبوية من المحدث فيحفظها، كما يبدو من سؤال أبي حصين لسعيد بن جبير: أكل ما أسمعك تحدث به سألت عنه ابن عباس؟ فقال: لا، كنت اجلس ولا أتكلم حتى أقوم، فيتحدثون فأحفظ⁽⁴⁾.

وبمرور الوقت ازدادت المساجد انتشارا في الأمصار، وبدأ الفقهاء والعلماء يتنقلون من بلد إلى آخر، ولذلك أصبحت الرحلة في طلب العلم وسماع الشيوخ ضرورة ملحة وقد أولى بعض خلفاء بني أمية هذا الجانب اهتماما خاصا، إذ

(1) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص76.

(2) الجاحظ: البيان والتبين، مصدر سابق، ج1، ص252.

(3) المصدر نفسه، ج2، ص203.

(4) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج6، ص257.

أن الوليد بن عبد الملك كان يعطي إعانات للقراء المتفرغين لطلب العلم في بيت المقدس⁽¹⁾.

وأن عمر بن عبدالعزيز كتب إلى والي حمص: (أنظر إلى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفتنة، وحبسوها في المسجد، عن طلب الدنيا، فأعط كل رجل منهم مائة دينار من بيت مال المسلمين يستعينون بها على ما هم عليه، وأن خير الخير أعجله)⁽²⁾.

أنواع الحلقات في المساجد:

مجالس الإفتاء:

كان بعض علماء المسلمين في ذلك العصر لا يحبذون أن يبادروا إذا لم يسألهم أحد، وكانوا يكتفون بالإجابة على أسئلة من يسألهم من الناس، فأصبحت هنالك مجالس للإفتاء، وأشهر هذه الحلقات حلقة مكحول في مسجد دمشق، وقد أوصى بحلقته للعلاء بن الحارث⁽³⁾.

مجالس الحديث:

اهتم علماء ذلك العصر بالحديث النبوي الشريف اهتماما كبيرا، وتمثل ذلك بجمعه ومعرفة رواته، وصحة أسانيد، وشرحه وإمعانا منهم بأهمية كونه المصدر الثاني من مصادر التشريع فلقد جمع الحديث النبوي الشريف في عهد الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز بمعرفة عدد من علماء ذلك العصر، وعلى رأسهم الزهري الذي كانت له حلقة للحديث في مسجد دمشق، فلم يكن أحد أعلم بالعام منه⁽⁴⁾.

مجالس اللغة:

وهي تشتمل على مجالس للنحو والشعر وكذلك الأدب⁽⁵⁾.

وفيهما يقوم القاص بوعظ الناس وتذكيرهم بالآخرة عن طريق القصص، وقد شهدت مساجد الشام في العصر الأموي إقبالا كبيرا على هذه المجالس⁽⁶⁾.

(1) ابن عساکر: تهذيب تاريخ دمشق، ج63، ص176.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية، ج9، ص207.

(3) ابن عساکر: تهذيب تاريخ دمشق، الجزء الخمسون، ص122.

(4) محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: سير أعلام النبلاء، المحقق حسان عبد المنان: ج5،

بيت الأفكار الدولية، ص336.

(5) المصدر نفسه، ج32، ص292.

(6) المصدر نفسه، ص311.

المطلب الثاني: التدريس:

مدرسة مكة، يعود تأسيسها إلى عهد النبي ﷺ حينما اختار لمكة بعد الفتح معاذ بن جبل ليدرس فيها أهل مكة⁽¹⁾.

كان رائد مدرسة مكة إبان العصر الأموي عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب وظل بها حتى العقد السابع من عمره، وفيما يتعلق بسيرته الذاتية وتفوقه العلمي نعطي هنا أخبار موجزة في هذا الجانب، فقد كان ميلاده قبل الهجرة النبوية بثلاث سنوات، وهو ابن عم النبي عليه الصلاة والسلام، وكان ملازماً له ﷺ منذ الصغر فكان يعد له ماء وضوئه ويصلي خلفه، وكان رفيقه في السفر وقد دعا له الرسول ﷺ دعا له الله أن يفقهه في الدين⁽²⁾، وأن يعلمه الله الحكمة والتأويل⁽³⁾. كما دعا له بالبركة وأن ينشر الله منه العلم⁽⁴⁾. فأتاه الله الحكمة التي فاق بها أكابر العلماء ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾⁽⁵⁾.

وكان ابن عباس من مستشاري الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، فكان الفاروق عندما تواجهه معضلة يدعو شيوخ الصحابة ويدعو معهم ابن عباس وقد عاتبه البعض ذات مرة لتقديمه ابن عباس وجعله من هؤلاء الشيوخ وهو مازال فتى فرد عمر بهذه الكلمة البالغة الجامعة التي تدل على علم ابن عباس ومكانته فقال الفاروق: «إنه فتى الكهول، له لسان سؤال، وقلب عقول»⁽⁶⁾، وشهد له عبدالله بن مسعود بتفوقه ونبوغه العلمي بقوله: «لو بلغ أسناننا ما عشرة منا رجل»⁽⁷⁾، أي لو كان في السن مثلنا ما بلغ أحد منا عشر علمه.

وكان ابن عباس موسوعة علمية يقصده طلاب العلم بكل فروعه من تفسير وحديث وفقه بالإضافة إلى المفازي وعلوم اللغة والأشعار وأيام العرب⁽⁸⁾.

(1) ابن هشام: السيرة، ج1، ص168؛ ابن حجر: الإصابة، ج3، ص323؛ أبو الفداء: المختصر، ج1، ص163.

(2) الإمام مسلم: صحيح مسلم: ج7، ص108؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1، ص225.

(3) ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج1، ص757؛ الأصبهاني: حلية الأولياء، ج1، ص216.

(4) الذهبي: أعلام النبلاء، ج3، ص231؛ ابن حنبل: الإصابة، ج3، ص323.

(5) سورة البقرة: 269.

(6) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1، ص231؛ ابن حنبل: الإصابة، ج3، ص323.

(7) ابن قتيبة: عيون الأخبار، ج1، ص229.

(8) ابن حنبل: فضائل الصحابة، ج2، ص964.

وأكثر ما اشتهر به ابن عباس من علم هو تفسير القرآن الكريم ويعتبر المؤسس الحقيقي لهذا العلم لأنه هو الذي نهجه ووضع أصوله، وكان يرجع في تفسيره إلى أهل الكتاب في قصص الأنبياء، وكان يعتمد على الشعر القديم في تفسير بعض الألفاظ، وكانت حلقاته في التفسير جامعة إذ كان يفسر سورتي البقرة وآل عمران في الحلقة الواحدة⁽¹⁾.

وتمكن ابن عباس من تفسير القرآن الكريم كله فهذا تلميذه مجاهد بن جبر يوضح لنا بأنه قد عرض القرآن الكريم على ابن عباس ثلاث مرات يوقفه عند كل آية يسأله عن سبب نزولها وكيف كانت فيجيبه ابن عباس⁽²⁾.

وكان الفاروق عمر قد شهد لابن عباس بتفوقه في التفسير إذ كان يحول ويوجه كل من يأتيه ليسأله عن شيء في القرآن الكريم إلى ابن عباس⁽³⁾.

وكان عبدالله بن مسعود يقول إن ترجمان القرآن الكريم عبدالله بن عباس⁽⁴⁾.

واشتهر ابن عباس بجانب التفسير باشتهاره بالفتيا فقد كان يستفتي في كثير من الأمور وقد جمع فتاويه أبوبكر محمد بن موسى بن يعقوب ابن المأمون وهو أحد الفقهاء جمعها في عشرين كتاباً⁽⁵⁾. وكانت أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها ترى أن ابن عباس أعلم الناس بأمر الحج⁽⁶⁾. وكان ابن عباس بجانب ما يدرس في بيته فقد كانت له حلقات للعلم ثابتة في المسجد الحرام⁽⁷⁾.

كان المركز العلمي الثاني في الحجاز إبان هذا العصر تمثله المدينة المنورة وأشهر علمائها آنذاك هو عبدالله بن عمر بن الخطاب وقد كان معاصراً لعبدالله بن عباس.

ويرجع تاريخ مدرسة المدينة إلى بداية ظهور الإسلام وقبل الهجرة النبوية حينما أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير إلى المدينة ليفقه الذين أعلنوا إسلامهم من أهلها⁽⁸⁾.

- (1) ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج1، ص749.
- (2) الأصبهاني: حلية الأولياء، ج1، ص324؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج1، ص125.
- (3) ابن حنبل: فضائل الصحابة، ج2، ص233.
- (4) ابن حجر: الإصابة، ج3، ص325.
- (5) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج3، ص241؛ الذهبي: تذكرة الحفاظ، ص159؛ الأصبهاني: حلية الأولياء، ج1، ص316.
- (6) ابن حجر: الإصابة، ج3، ص324.
- (7) ابن سعد: الطبقات، ج2، ص125.
- (8) ابن هشام: السيرة، ج2 ص168؛ ابن كثير: السيرة، ج1، ص336؛ أبو الفداء: المختصر، ج1، ص21.

وزادت أهميتها بعد الهجرة لأن أشهر من أسلم من أهل مكة قد هاجر إلى المدينة مع الرسول ﷺ، ثم كانت المدينة مقصد من يريد الإسلام وبعد وفاته ﷺ أصبحت المدينة مقر الخلافة ومركز كبار الصحابة الذين لم يغادروها إلا لأمر هامة مثل الجهاد، ثم كان الأسرى يؤتى بهم إلى المدينة في عهد الفاروق فأسلم هؤلاء ونبغ منهم الكثيرون في مجال العلم⁽¹⁾.

أصبح عبدالله بن عمر بن الخطاب هو رائد التعليم في المدينة المنورة إبان بداية هذا العصر ثم واصل من بعده تلاميذه أمثال سليمان بن يسار وسعيد بن المسيب وغيرهم⁽²⁾.

أسلم ابن عمر في السابعة من عمره وهاجر مع والده إلى المدينة وقد ألح على الاشتراك في الجهاد يوم أحد ولكن استصغره الرسول ﷺ، لأن عمره كان آنذاك أربعة عشر عاماً، ولكنه أجيّز يوم الخندق، وقد أخذ العلم من النبي ﷺ ومن أبيه الفاروق عمر بن الخطاب ومن أبي بكر الصديق وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وبلال بن رباح وصهيب الرومي⁽³⁾.

علم القراءات:

لقد أورد العلماء تعاريف كثيرة لعلم القراءات سوف نذكر تعريفا واحداً وهو لابن الجزري، إذ عرف علم القراءات بأنه علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقل⁽⁴⁾.

لقد تمت كتابة مصحف عثمان جميعه دون نقط ولا شكل، وكانت بعض الكلمات تسمح بقراءات متعددة، وربما لم يجد العرب صعوبة في القراءة، ولكن المشكلة ظهرت عندما بدأ التباين في قراءات أبناء الشعوب المفتوحة كالفرس والهنود والبربر وغيرهم، فتنبه خلفاء بني أمية وولاتهم إلى هذا الأمر، وقام أبو الأسود الدؤلي (69هـ/688م) بتكليف من زياد بن أبي سفيان، يوضع

(1) الأصبهاني: الأغاني، ج7، ص179.

(2) الذهبي: أعلام النبلاء، ج3 ص13.

(3) ابن هشام: السيرة، ج3، ص18؛ الطبري: الرسل والملوك، ج2، ص477؛ ابن كثير: السيرة، ج1، ص513؛ ابن سعد: الطبقات، ج2 ص373.

(4) محمد بن محمد بن علي بن يوسف بن الجزري، منجد المقرنين ومرشد الطالبين، اعتنى به عبدالحليم قابة، الجزائر: دار البلاغ للنشر والتوزيع، 1424هـ/2003م، ط1، ص17.

أول علامات تدل على الحركات (الفتحة والضمة والكسرة) والتنوين⁽¹⁾، فكان هذا بداية للمدرسة النحوية في اللغة.

وأتم نصر بن عاصم الليثي (89 هـ/707م) عمل أستاذه من بعده وذلك بأمر من الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق حينذاك، فوضع النقط أفراداً أو أزواجاً والمخالفة بين أماكنها، مما سهل التفريق بين الحروف (الباء والتاء والياء، وما يماثلها)⁽²⁾.

هذا وقد أفرزت هذه الاختلافات في القراءات إلى البدء في تصنيف القراءة، فكان أن اتفق على مشاهير القراء السبعة وهم عبدالله بن عامر اليحصبي وعبدالله بن كثير الداري وعاصم بن بهدلة (أبى النجود)، وأبو عمرو زيان بن العلاء التميمي المازني البصري، وحمزة بن حبيب بن عمار التميمي الكوفي، ونافع بن عبدالرحمن الليثي، وعلي بن حمزة الأسدي الكساني، والذين عاشوا كلهم ومات بعضهم في العصر الأموي. وهكذا كانت أهم انجازات الأمويين في علم القراءات هي وضع العلامات على المصحف العثماني ثم تنقيط الحروف وظهور القراءات السبع.

علم التفسير :

هو علم يقوم أساساً على تفسير القرآن الكريم وشرح معانيه واستخراج أحكامه وحكمه وتقريبه إلى الناس.

وكان الرسول ﷺ أول مفسر له، فيروى عن عبدالله بن مسعود أنه قال: كان الرجل منا إذا تعلم من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن.

وكان هذا الأمر نابغاً من رغبة شخصية ولا علاقة للجهات الرسمية بذلك.

أما أول عملية جمع للحديث النبوي الشريف وتدوينه، شمولاً واستقصاء، فقد تمت في عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز (99-101 هـ / 717-719م) وبأمره وبإشراف مباشر منه (كجهة حكومية رسمية)، حيث أنه كتب إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الانصاري واليه على المدينة أن ((أنظر ما كان

(1) ابن خلكان، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص536.

(2) أبو بكر بن أبي داود البجستاني: كتاب المصاحف، ج1، محقق: محب الدين عبدالسجان وأعظ، دار البشائر الإسلامية، 1423 هـ/2002م، ط2، ص277-282.

من حديث رسول الله ﷺ أو عام ماضية فاكتبه، فإنني قد خفت دروس العلم
وزهاب أهله))، فقام الوالي بهذا العمل وشاركه فيه كل من القاسم بن محمد
بن أبي بكر ومحمد بن شهاب الزهري وذلك لسعة علمهما وإطلاعهما.

وبعث عمر بن عبدالعزيز إلى علماء الأمصار الإسلامية يقول: أنظروا إلى حديث
رسول الله ﷺ فأجمعوه.

علم الفقه (التشريع):

الفقة هو العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية، فالقرآن
الكريم هو المصدر الأول للتشريع، فلا شك أن الحديث هو المصدر الثاني،
بمعنى أنه عرضت للرسول حوادث ومسائل قضى فيها بالحديث لعدم وجود
نص صريح في القرآن فكان هذا تشريعا، على المسلمين الأخذ به.

ومن أبرز فقهاء أبو إدريس الخولاني الذي قال عنه الزهري كان من فقهاء
أهل الشام، وشهر بن حوشب الأشعري، ورجاء بن حيوة الذي قال عنه
مطر: ما رأيت شاميا أفقه من رجاء بن حيوة، وعبد الملك بن مروان وعمر
بن عبدالعزيز⁽¹⁾.

وكذلك الإمام الأوزاعي وهو يعد من فقهاء تابعي التابعين وأبرزهم، وكان
له حلقة في مسجد دمشق ثم بمسجد بيروت أجاب فيها عن سبعين ألف
مسألة⁽²⁾.

وقد شهد العصر الأموي كثيرا من الفقهاء الذين كان لهم أثر واضح في تطور
الفقة الإسلامي في ذلك العصر وانتعاشه وعلى رأسهم عمر بن عبدالعزيز،
فعندما تولى الخلافة أمر بنشر الفقه، فقد أرسل إلى ولاته أن يأمرؤا الفقهاء
بتعليم الناس، فكتب إلى بعض ولاته: "أما بعد فمر أهل الفقه والعلم من
عندك فلينشروا ما علمهم الله في مجالسهم ومساجدهم"⁽³⁾.

(1) الفيروزآبادي: جمال الدين أبو سحاق إبراهيم علي، طبقات الفقهاء، المكتبة العربية،
ص52.

(2) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج7، أ، ص111.

(3) القرطبي: جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، ط1، ص124.

فقد كان مكحول يقول: اختلفت إلى شريح ستة أشهر أسمع ما يقضي به...⁽¹⁾ فقد كان يكتفي بالسماع إلى أحكامه، ولقد شهدت مساجد الشام الكثير من القضاة أمثال أبي إدريس الخولاني الذي كان على القضاء زمن عبد الملك بن مروان⁽²⁾.

ذكرت المصادر أن مواسم الحج فرصة لاجتماع العلماء والفقهاء من شتى الأمصار الإسلامية، يتداولون فيما بينهم مختلف القضايا لما يعرض من حوادث وكل ما يرتبط بالحج ومناسكه، حيث كان فقهاء مكة والمدينة مقصدا للحجاج للإجابة على استفسارات الوافدين لهذه الغاية.

وأشارت المصادر إلى أن بعض خلفاء بني أمية كانوا يستعينون بالفقهاء في مواسم الحج للإجابة حول استفساراتهم المتعلقة بسنن الحج، فذكر اليعقوبي أن سليمان بن عبد الملك حج عام (97هـ/715م)، فأحضر جماعة من الفقهاء، منهم القاسم بن محمد بن أبي بكر، وسالم بن عبدالله، وعبدالله بن عمر، وخارجة بن زيد، وأبو بكر بن حزم، فسألهم عن أمر الحج⁽³⁾، وحج هشام بن عبد الملك عام (106هـ/724)، فكتب إلى أبي الزناد⁽⁴⁾، قبل أن يدخل المدينة أن يكتب له سنن الحج فكتبها له⁽⁵⁾.

ولقد أعطت الخلافة الأموية علماء الشام فرصة للمشاركة في الحياة العلمية برفقة الخلفاء والأمراء الأمويين إلى الحجاز في موسم الحج، فذكر ابن سعد أن هشام بن عبد الملك حج عام (106هـ/724)، وكان معه الزهري⁽⁶⁾

ويبدو أن مواسم الحج مناسبة تعقد فيها حلقات علمية، فذكر ابن سعد أن جماعة من أهل البصرة قدموا إلى مكة فسألوا عن رجل من أصحاب الرسول ﷺ ليحدثوا إليه، فاستدلوا على عبدالله بن عمرو بن العاص فتوجهوا إلى

(1) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج5، ص161.

(2) ابن عساکر: تهذيب تاريخ دمشق، ج26، ص165.

(3) اليعقوبي: تاريخ الرسل والملوك، ج2، ص298.

(4) أبي الزناد: عبدالله بن زكوان، فقيه أهل المدينة. ترجمته: ابن سعد: الطبقات، ج5، ص212-215؛ المقرئ: الذهب المسبوك، ص65-66؛ الذهبي: تاريخ الإسلام (121-120)،

(5) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج7، ص36؛ ابن الجوزي: المنتظم، ج7، ص112-113؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص130.

(6) الزهري: محمد بن مسلم بن عبدالله بن عبدالله بن شهاب القرشي، أحد الفقهاء وأئمة الدين. ترجمته: ابن سعد: الطبقات، ج5، ص323-357؛ البسوي: المعرفة والتاريخ، ج1، ص620-623؛ الأصبهاني: حلية الأولياء، ج3، ص360-381؛ الذهبي: تاريخ الإسلام (121-120)، ص227. 229

(7) عبدالله بن عمرو بن العاص: أسلم قبل أبي ه، واستأذن الرسول في كتابة ما سمعه

منزله فإذا قريب منه 300 راحلة، فقالوا: «على كل هؤلاء حج عبدالله بن عمرو؟ قالوا: نعم هو ومواليه وأحباؤه...»، ثم اجتمعوا بعبدالله بن عمرو وحدثهم بما لديه من علم⁽¹⁾.

وذكر ابن سعد أن أبا صخر الأيلي⁽²⁾ كان يوافي الموسم كل عام فيجتمع مع محمد بن المنكدر وصفوان بن سليم ويزيد بن خصيفة وسليمان بن سحيم وأبي حازم فيلقون عمر بن ذر⁽³⁾ فيقص عليهم ويذكرهم أمر الآخرة، فلا يزالون كذلك حتى ينقضي الموسم ثم لا يلتقون معه إلا في كل موسم⁽⁴⁾.

وكان الحجاج يسألون عن أعلم فقهاء مكة والمدينة للاجتماع بهم، ومن ذلك أن حجاجا سألوا عن أعلم أهل مكة، فقيل لهم عليكم بأبي بكر بن عبدالرحمن⁽⁵⁾، كما سأل حجاجا عن أعلم أهل المدينة فقيل لهم سعيد بن المسيب⁽⁶⁾.

وكان ذلك عندما مروا بالمدينة⁽⁷⁾، وذكر الأصبهاني أن جابر بن زيد أحد فقهاء البصرة كان قد حج فلقبه عبدالله بن عمر في الطواف فقال له: «يا جابر إنك من فقهاء أهل البصرة وإنك ستستفتي؛ فلا تفتين إلا بقرآن ناطق، أو عام ماضية، فإنك إن فعلت غير ذلك هلكت وأهلك⁽⁸⁾».

عنه في صحيفته التي سماها الصادقة، وروى الحديث، ترجمته: ابن سعد: الطبقات، ج2، ص197-203؛ الأصبهاني: حلية الأولياء، ج1، ص283-292؛ الذهبي: تاريخ الإسلام (61-80)، ص161.

(1) ابن سعد: الطبقات، ج2، ص202؛ الذهبي: تاريخ الإسلام (61-80)، ص166.
(2) أبو صخر الأيلي: يزيد بن أبي سمية، كان من العباد ومن رواة الحديث. ترجمته: ابن سعد: الطبقات، ج7، ص360.

(3) عمر بن ذر بن عبدالله الهمداني، كان قاصدا، وكان يروي الحديث، توفي سنة (135هـ/752م). ترجمته: ابن سعد: الطبقات، ج6، ص323؛ الأصبهاني: حلية الأولياء، ج5، ص108-119.

(4) ابن سعد: الطبقات، ج5، ص358، ج7، ص360.
(5) أبو بكر عبدالرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي، فقيه أهل مكة. ترجمته: ابن سعد: الطبقات، ج2، ص293؛ الأصبهاني: حلية الأولياء، ج2، ص187-188.

(6) سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي، فقيه أهل المدينة. ترجمته: ابن سعد: الطبقات، ج5، ص89-109؛ الأصبهاني: حلية الأولياء، ج2، ص161-177.
(7) ابن سعد: الطبقات، ج2، ص293، ج5، ص92.

(8) الأصبهاني: حلية الأولياء، ج3، ص86.

وكان للنساء دور في الإفتاء في مواسم الحج، فذكر ابن سعد أنه قد دخل على عائشة أم المؤمنين في حجة حبتها في نسوة من نساء الأنصار فجعلن يسألنها عن الظروف التي ينتبذ فيها فقالت: «يا نساء المؤمنين لتسألنني عن ظروف ما كان كثير منها على عهد رسول الله ﷺ، فاتقين الله وما أسكر إحدانك فلتجتنبه، وإن أسكرها ماء حبها فلتجتنبه فإن كل مسكر حرام»⁽¹⁾.

لقد حرص بعض الخلفاء على مقابلة الصلحاء والأتقياء في موسم الحج للاستفادة من علمهم، والاستضاءة بأرائهم، والانتفاع بمشورتهم في الحكم، فذكرت المصادر أن بعض خلفاء بني أمية عندما يقصدون الحج كانوا يلتقون بالفقهاء وعلماء الدين، فيسمعون منهم ويأخذون عنهم المواعظ والعبر، ومن ذلك أن معاوية بن أبي سفيان عندما حج اجتمع بعائشة أم المؤمنين فذكرت له الرسول ﷺ، وذكرت له سيرة أبي بكر وعمر، وحضته على الاقتداء بهم واتباع أثرهم⁽²⁾.

وكان سليمان بن عبد الملك حج عام 98هـ، فسمع الحكم والمواعظ من عمر بن عبدالعزيز ومن طاووس اليماني⁽³⁾ سأله عن أبغض الخلق إلى الله تعالى فأجابه طاووس: «إن أبغض الخلق إلى الله تعالى عبد أشركه الله في سلطانه، فعمل فيه بمعصيته»⁽⁴⁾، وكذلك سمع سليمان المواعظ من أبي حازم عبد الجبار بن عبدالعزيز وهو ممن أدرك أصحاب الرسول ﷺ، ومن علماء المدينة، فسمع منه سليمان وتحدث معه حديثاً طويلاً حول جزاء السلطان في دنياه وآخرته إن هو عدل أو ظلم، وقد طلب منه سليمان أن يوصيه، ومن وصايا حازم له: «... اتق الله ألا يراك حيث نهاك، ولا يفقدك من حيث أمرك...»⁽⁵⁾.

نخلص مما تقدم إلى أن ظهور علم الفقه في المواسم ارتبط بأداء فريضة الحج، فجاء الحجاج بأسئلة واستفسارات كثيرة حول الحج ومناسكه، فتوجهوا إلى علماء مكة والمدينة للإجابة عليها، كما ساعد على ظهور الحلقات والمجالس العلمية أن مواسم الحج امتلأت بجمهرة كبيرة من العلماء من مختلف أقاليم

(1) ابن سعد: الطبقات، ج8، ص352.

(2) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ج1، ص255؛ ابن كثير، البداية، ج8، ص120.

(3) طاووس اليماني: أحد الفقهاء ورواة الحديث من أهل اليمن. ترجمته: ابن سعد:

الطبقات، ج6، ص66-70؛ الأصبهاني: حلية الأولياء، ج2، ص23-23.

(4) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ج2، ص161-163.

(5) المصدر نفسه، ج2، ص162-172.

العالم الإسلامي، فيجتمعون ويتناقشون فيما بينهم، ويلقون اجتهاداتهم، وعمل الخلفاء على مقابلة العلماء والفقهاء من أهل الحجاز وأهل الأمصار الأخرى للاطلاع على آرائهم في الحكم وأخذ مشورتهم، فكانت مواسم الحج لقاءات وندوات وحلقات إفتاء واجتهادات وتبادل آراء في كافة المجالات سواء سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية.

المطلب الثالث: التأليف:

العلوم اللغوية:

هي علوم يحترز بها عن الخلل في كلام العرب لفظا وكتابة، وينقسم على ما صرح به علماء اللغة العربية إلى اثني عشر قسما منها أصول، وهي العمدة في ذلك الاحتراز، ومنها فروع⁽¹⁾، وكانت تشمل علم النحو وعلم الشعر والأدب وعلم الكتابة.

ففهم القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف لا يقومان إلا بمعرفة ألفاظها التي جاءت بها، وهي اللغة العربية الفصيحة، كان المعلمون يلحون على سلامة اللغة أثناء تدريسيها.

قال الوليد بن مسلم: سمعت الأوزاعي يقول: أعربوا الحديث فإن القوم كانوا عربا. وقد قيل للأوزاعي: يا أبا عمرو، الرجل يسمع الحديث عن النبي ﷺ فيه لحن يقيمه على عربيته؟ قال: نعم، إن رسول ﷺ لا يتكلم إلا بعربي وقال الوليد بن مسلم: سمعت الأوزاعي يقول: لا بأس بإصلاح اللحن والخطأ في الحديث⁽²⁾.

وكانت سلامة اللغة وفهمها تعلي من منزلة صاحبها في العلم، وهذا ما دفع الخليفة عبد الملك بن مروان على تشجيع الإمام الزهري ومكافأته. فقال الزهري: دخلت على عبد الملك فقال لي: قرأت القرآن؟ قلت: نعم، قال: بإعرابه وما ينبغي فيه من وجوهه وعلله؟ قلت: نعم، فأمر لي بجائزه⁽³⁾.

اهتم خلفاء بني أمية بالنحو، وكانوا يكرهون اللحن في القول ويعدونّه عيبا يقدر في منزلة صاحبه، كيف لا وهي دولة عربية خالصة متعصبة للعرب،

(1) شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي، حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، بيروت: دار صادر، ج1، ص12.

(2) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج7، ص115.

(3) ابن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق، ج55، ص302.

وكانوا لأبنائهم المؤدبين لتعليمهم النحو، فقد أمر معاوية بن أبي سفيان دغفل بن حنظله بذلك فقال له: "أذهب إلى يزيد فعلمه العربية"⁽¹⁾.

كذلك أهتم عبدالمك بن مروان بتعليم أبنائه اللغة العربية، فقد قال لمؤدب أبنائه وهو إسماعيل بن أبي المهاجر، بعد أن رفض أخذ الأجر: (إني لا أعطيك أو أثيبك على تعليمهم القرآن، إنما أعطيك وأثيبك على تعليمهم النحو)⁽²⁾.

الكتابة:

نمت الكتابة في العصر الأموي نموا واسعا، فقد عرف العرب قديما الكتابة بصورة بدائية، ثم تطورت ببطء شديد خلال العصور إلى أن أصبحت صحفا يجمع بعضها إلى بعض في موضوع من الموضوعات، ثم ألفوا بها كتبا كثيرة، كانت هنالك عدة أنواع للكتابة في العصر الأموي منها:

الكتابة التاريخية:

كتب المؤرخون في مغازي الرسول ﷺ وعلى رأسهم أبان بن عثمان، وأيضا عروة بن الزبير وهو أول من صنف في تلك المغازي والزهرري.

الكتابة السياسية:

ظهر هذا النوع في حبر العرب في صدر الإسلام، إذ ظهرت الكثير من المشكلات التي ألحت على ضرورة كتابتها.

جاء العصر الأموي وتعقدت الحياة وتطور المجتمع الإسلامي، واتسعت رقعة الدولة، فدعت الحاجة إلى إنشاء الدواوين وكان إنشائها قد بدأ في عهد عمر بن الخطاب الذي أنشأ ديوان العطاء، فلما جاء الأمويون أوجدوا دواوين أخرى كديوان الرسائل وديوان⁽³⁾ الجيش وديوان الخاتم.

ظهر في عصر بني أمية كتاب احترفوا صنعة الكتابة، وكان لكل خليفة ووالي كتابه، وكان ديوان الخراج يكتب أول الأمر بلغة الدولة التي كانت قائمة قبل الفتح، فكان يكتب بالعراق بالفارسية، وبالشام بالرومية، وكان يتولاه الموالي من الفرس والروم وغيرهم، وفي عهد عبدالمك غرب هذا الديوان⁽⁴⁾.

(1) المصدر نفسه، ج17، ص292.

(2) ابن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق، ج8، ص237.

(3) ابن خلدون: المقدمة، ص193.

(4) المصدر نفسه، ص192.

من الأدوات التي كانت تستخدم للكتابة في ذلك الزمن القلم، وكذلك المحبرة وهي أدوات ضرورية لعملية الكتابة، فقد روي عن الإمام الزهري قوله: من خرج من بيته بلا محبرة فقد نوى الصدقة من نيته⁽¹⁾ والمداد سمي بذلك لأنه يمد القلم أي يعينه على الكتابة⁽²⁾ وكانوا يكتبون على الألواح والرقاع والعسب، وقد أشار عبدربه بن سليمان باستخدام الألواح بالكتابة بقوله (كتبت لي أم الدرداء في لوحى فيما كانت تعلمني الكتابة)⁽³⁾ فيدل ذلك على أن الكتابة على الألواح كانت مشهورة في العصر الأموي.

من أشهر الكتاب في العصر الاموى:

عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري: عني بالحديث وسيرة الرسول ﷺ وجمع قائمة بغزوات الرسول ﷺ مرتبة على حسب السنين. موسى بن عقبة الأسدي: وهو الذي ألف كتابا في المغازي على غرار كتاب أستاذه الزهري.

محمد بن اسحاق بن يسار المطلبي: يعد كتابه سيرة النبي ﷺ أقدم مؤلف شامل ومنظم يصلنا في هذا الموضوع، وهو يتكون من ثلاثة أقسام: المبتدأ (يتناول فيه تاريخ الرسالات السابقة على الإسلام وتاريخ العرب في الجاهلية)، المبحث (يتحدث فيه عن حياة النبي ﷺ في مكة حتى الهجرة)، والمغازي (يتناول فيه حياة النبي ﷺ في المدينة ومغازيه وسراياه وبعوثه حتى وفاته)، وكتابه يعد مصدراً هاماً لا يمكن الإستغناء عنه⁽⁴⁾.

التاريخ والأنساب:

أولى الخلفاء الأمويون هذا الجانب اهتماما ملحوظا، فيروى أن معاوية كان يستقبل في مجلسه بدمشق كبار علماء الأمة ومثقفها، وكان كل واحد منهم مبدع في تخصص معين، وبخاصة في السير والمغازي والأنساب وأخبار العرب

(1) أبي سعيد عبدالكريم بن محمد السمعاني، أدب الإملاء والأستملاء، بيروت: لبنان، دار الكتب العلمية، 1201هـ، ط1، ص155.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، ط2، ص258.

(3) ابن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق، ص428.

(4) ابن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق، ص187.

وأشعارهم وسير الأمم الأخرى وملوكهم، فيستمع معاوية إليهم ويأمر الكتبة أن يدونوا أقوالهم فبهذا يكون قد حصل أول تدوين للتاريخ في الدولة الإسلامية.

وأيضاً أشتهر بمعرفة أيام العرب وأخبارهم، وقد وفد على معاوية بن سفيان، فسأله عن أخبار المتقدمين من الملوك والعرب والعجم وسبب تبليغ الألعام وأمر افتراق الناس في البلاد؟، فأجابته بما أمر من الكتب كتاب الملوك وأخبار الماضين⁽¹⁾.

وأيضاً اهتموا به لمعرفة نسب الرسول ﷺ ثم أقرب الناس إليه للعطاء، وممن اشتهروا بهذا العلم الإمام الزهري، فقد قال عنه الليث بن سعد: (إن حدث عن الأنساب قلت: لا يحسن إلا هذا)⁽²⁾.

اهتم خلفاء بني أمية بأنساب العرب وأخبارها، ويظهر ذلك في استقدامهم للكثير من العلماء ليسمعوا منهم وليعلموا لهم أبناءهم، أمثال دغفل بن حنظلة، حيث أنه وفد على معاوية بن أبي سفيان فسأله عن أنساب الناس، ثم أمره أن يعلم أبناءه⁽³⁾.

فلقد جعل خلفاء بني أمية تعليم هذا الفن منهجاً متبعاً في تأديب وتعليم أبنائهم، فقد أوصى هشام بن عبد الملك مؤدب ابنه بذلك حيث قال له: ليعلم نسبه في العرب حتى لا يخفى عليه منه قليل ولا كثير⁽⁴⁾.

الخطابة:

شهد فن الخطابة رواجاً وازدهاراً في العصر الجاهلي و صدر الإسلام، وذلك لأهمية الخطابة وقوة تأثيرها، ولتوافر حرية القول، ومن هنا فقد احتلت الخطابة موقعاً متقدماً بين فنون القول النثرية، فكانت ذات مكانة مهمة ومستوى فني رفيع في العصور المذكورة، في الأسواق الموسمية وفي مواسم الحج وفي المساجد وأماكن العبادة.

(1) أبي الفرج محمد بن أبي يعقوب (ابن النديم) الفهرست، تحقيق: رضا تجدد، حقوق الطبع للمحقق، ص102.

(2) ابن عساكر: ابن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق، الجزء الثامن، ص237.

(3) المصدر نفسه، ج17، ص292.

(4) السجستاني: أبي حاتم، المعمرين والوصايا، دار إحياء الكتب العربية، 1961م، ص138.

وجرت العادة أن يلقي أمير الحج بعض الخطب في جمهرة الحجيج في مكة وقد حددها المؤرخون بأربع خطب في أوقات متفرقة في موسم الحج. فأشارت المصادر إلى أن الرسول ﷺ خطب في حجته أربع خطب حيث خطب قبل التروية بيوم، وخطب بعرفة، وخطب بمنى الغد من يوم النحر، وخطب في الغد من يوم النفر⁽¹⁾.

وذكر الماوردي أن صاحب الولاية على إقامة الحج⁽²⁾ هو بمنزلة الإمام في إقامة الصلوات وهو الذي يتولى إلقاء الخطب الأربع في مواسم الحج، وفيها يذكر الناس ما يلزمهم من أركان الحج ومناسكه، وما يحرم عليهم من محظوراته⁽³⁾، حيث اشتملت الخطب على تعليم الناس مناسك حجهم، فذكر الفاكهي أن علي بن أبي طالب وعبدالله بن الزبير كانوا يخطبون قبل التروية بيوم فيعلمون الناس مناسك الحج⁽⁴⁾، فتمثلت الخطب التي يلقيها أمير الحج في المواسم بأنها خطب دينية تعليمية، تأتي على أربعة مراحل، في كل مرحلة يعلم فيها أمير الحج الناس ما بقي عليهم من المناسك عند كل موقف، ونستثني هنا خطبة الرسول ﷺ في حجة الوداع، حيث اختلفت في مضمونها عن باقي الخطب التي تلقى في مواسم الحج، فهي لم تكن خطبة تعليمية لمناسك الحج، وذلك لأن حجة الوداع كاملة تعد حجة تعليمية، فهي أول حجة علم فيها الرسول ﷺ الناس مناسك الحج الإسلامي، لكن مضمون الخطبة اشتمل على تعاليم إسلامية عامة ختم فيها الرسول ﷺ وسلم رسالته للأمة الإسلامية.

ونشير هنا أن الخطب في مواسم الحج لم تقتصر على الجانب الديني فقط، بل كان في المواسم خطب سياسية، حيث استغل الخلفاء مواسم الحج لإلقاء الخطب التي تحمل معاني التهديد والوعيد للمناهضين والخارجين على الدولة، ودعوة الناس إلى الهدوء والمسالمة وعدم الخوض في مسألة الخلافة.

(1) الواقدي، المغازي، ج3، ص1100-1115؛ ابن سعد: الطبقات، ج5، ص255؛ الفاكهي: أخبار مكة، ج3، ص132.

(2) انظر أسماء من تولى إمرة الحج ملحق الجداول، 10، 11، 12، 13.

(3) الماوردي، الأحكام، ص172-177.

(4) الفاكهي: أخبار مكة، ج3، ص131-133.

الشعر:

ويعد الشعر من الأنشطة الأدبية التي يمارسها العرب ويتفاخرون بها في جميع المواقف والأحوال العامة وفي مواسم الحج خاصة، ويعد أيضاً إحدى الوسائل التي يستشف من نصوصها صورة المجتمع وفعالياته وهمومه، ولقد أشرنا سابقاً أن الأسواق الموسمية التي تعقد في مواسم الحج تعكس صورة عن بعض النشاطات الثقافية في مكة، حيث تقام هذه الأسواق لأغراض التجارة والمفاخرة وحسم المنازعات وسماع الشعر، ومن أبرز النشاطات الثقافية التي برزت في المواسم: الشعر، ذكر الأصفهاني أن سوق عكاظ ملتقى الشعراء⁽¹⁾، وذكر اليعقوبي أن العرب كانت «تقيم الشعر مقام الحكمة وكثير العلم...»⁽²⁾.

الشعر في العصر الأموي ظهرت فيه أفكار جديدة كفكرة توارث الخلافة التي بدأها معاوية الأول واستمر عليها خلفاء بني أمية من بعده، فأحدثت هذه الفكرة ردود فعل سياسية متباينة، فكان لها مؤيدون ومعارضون، وأقبل الشعراء يكيلون المديح ويشيدون بإنجازات هذه الزعامة أو تلك. فمن تعاطف مع بني أمية ومدحهم ودافع عن أحقيتهم في الخلافة من الشعراء: الأخطل التغلبي، جرير بن عطية، والفرزدق (همام بن غالب التميمي) والنابغة الشيباني.

شعراء النقائض:

أشهر شعراء فن النقائض وهم فحول الشعر العربي في العصر الأموي الفرزدق وجرير والأخطل، حيث وقف كل من الأخطل والفرزدق ضد جرير، ونذكر - هنا نبذة مختصرة عن كل منهم.

جرير: هو جرير بن عطية بن حذيفة، ولقب حذيفة الخطفى لقوله: (وعنقبا في الرسيم خيطفا)، وهو من بني كليب بن يربوع، وولدت جرير أمه في سبعة أشهر⁽³⁾ وكان من فحول شعراء الإسلام، ومن أحسن الناس تشبيهاً، وأشد الناس هجاء⁽⁴⁾.

(1) الأصفهاني: الأغاني، ج 11، ص 6.

(2) اليعقوبي: تاريخ، ج 1، ص 262.

(3) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، مصدر سابق، ص 262.

(4) المصدر نفسه، ص 262.

ولقد حظي الشعراء باهتمام بعض الخلفاء، ومن ذلك أن معاوية بن أبي سفيان حج، ولما انقضت أيام الحج كتب أسماء وجوه قريش وأشرفهم وشعرائهم، فدعا بهم وأجازهم صلوات وجوائز كثيرة⁽¹⁾، وكان بعض الخلفاء يحج ويصطحب معه الشعراء، فذكرت المصادر أن سليمان بن عبد الملك حج واصطحب معه الشعراء⁽²⁾.

وكان الشعراء يتواجدون بكثرة في مواسم الحج، فلقد تحدث الأصفهاني في أماكن متفرقة من كتابه الأغاني بإسهاب عن الشعراء والشعر بأغراضه المختلفة، المدح، والهجاء، والرثاء، والغزل، وهذا ما سوف نورد فيما يأتي:

شعر المدح:

وجد هذا اللون من الشعر بشكل قليل في مواسم الحج، وكان من أشهر قصائد المدح التي قيلت في المواسم ما نظمها الفرزدق⁽³⁾ لعلي بن الحسين، ذكرت المصادر أن هشام بن عبد الملك قد حج، فرأى هشام عليا بن الحسين بن علي بن أبي طالب يطوف بالبيت والناس يفرجون له، فقال: من هذا الشاب، فقالوا، هذا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فذكر الفرزدق قصيدة شعر امتدح فيها علي بن الحسين ردا على سؤال هشام بن عبد الملك، نذكر منها:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته	والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا بن خير عباد الله كلهم	هذا التقى النقي الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله	بجده أنبياء الله قد ختموا
وليس قولك من هذا بضائره	العرب تعرف من أنكرت والعجم ⁽¹⁾

(1) الأصفهاني: الأغاني، ج 7، ص 123.

(2) الأصفهاني: الأغاني، ج 5، ص 273؛ الطبري: تاريخ، ج 6، ص 527؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 5، ص 38.

(3) الفرزدق، ج 21، ص 227-299.

(1) الأصفهاني: الأغاني، ج 21، ص 200-201، ج 15، ص 261؛ الفاكهي: أخبار مكة، ج 2، ص 178-179؛ ابن الجوزي: المنتظم، ج 6، ص 331-332؛ النويري: نهاية الأرب، ج 21، ص 327-330؛ ابن كثير، البداية، ج 9، ص 126-127؛ ابن فهد: اتحاف الوري، ج 2، ص 121-123.

وذكر الأصفهاني أن الوليد بن يزيد حج والتقى بأحد الشعراء وهو سعيد بن عبدالرحمن بن حسان⁽¹⁾، فقربه يزيد وأمر بإنزاله معه ولم يأنس بأحد أنسه به، فأنشده سعيد قائلاً:

بعد يا لقومي للهجر بعد التصافي وتنائى الجميع بعد ائتلاف
ما شجا القلب بعد طول اندمال غير هاب كالفرخ بين أثافي
ونعيب الغراب في عرصة الدا رونؤي تسفي عليه السواني⁽²⁾

شعراء الهجاء:

أوردت المصادر بعض أبيات من شعر الهجاء التي قيلت في ولاية مكة أثناء مواسم الحج، ومن ذلك ما قيل في عبدالواحد بن سليمان بن عبدالملك، والي مكة في موسم الحج لعام (129هـ/746م)، بعد فراره من مكة في الموسم عند قدوم أبي حمزة الخارجي على مكة في قواته، حيث هرب عبدالواحد إلى المدينة فهجاه أحد الشعراء يزري به ويحقر من شأنه:

زار الحجيج عصابة قد خالفوا دين الإله ففر عبدالواحد
ترك الإمارة والحلائل هارباً ومضى يخبط كالبعير الشارد
لو كان والده تخير أمه لصفته خلأقه بعرق الوالد⁽³⁾

وذكر الشاعر العرجي⁽⁴⁾ شعراً هجا فيه محمداً بن هشام، خال هشام بن عبدالملك، بعد أن ولاه هشام مكة وكتب إليه أن يحج بالناس، فهجاه العرجي بأشعار كثيرة منها:

(1) سعيد بن عبدالرحمن بن حسان بن ثابت، وهو من فحول شعراء الدولة الأموية. ترجمته: الأصفهاني: الأغاني، ج8، ص268-276.

(2) الأصفهاني: الأغاني، ج8، ص272.

(3) الأصفهاني: الأغاني، ج23، ص118-119؛ الزبيدي: نسب قريش، ص166؛ البلاذري: أنساب، ج9، ص289-290؛ الطبري: تاريخ، ج7، ص376؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص372؛ النويري: نهاية الأرب، ج21، ص532؛ ابن كثير، البداية، ج10، ص37؛ ابن فهد: اتحاف السورى، ج2، ص161.

(4) الشاعر العرجي: عبدالله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية، من شعراء قريش، ومن اشتهر بالغزل منها. ترجمته: الأصفهاني: الأغاني، ج1، ص362-392.

كأن العام ليس بعام حج تغيرت المواسم والشكول
إلى جيداء قد بعثوا رسولا ليخبرها فلا صحب الرسول⁽¹⁾

شعر الرثاء:

عبر بعض الحجاج عن مشاعر حزنهم في المواسم برثاء أحبة لهم اختطفهم الموت، فأورد الأصفهاني أن الشاعر كثير رثا صديقه خندق الأسدِي إثر مقتله في موسم الحج نتيجة لإظهار ميله لعلي بن أبي طالب وآل بيت الرسول ﷺ، حيث وثب عليه الناس فضربوه ورموه حتى قتلوه، فقال كثير يرثيه في قصيدة مطلعها:

أصادرة حجاج كعب ومالك على كل عجلي ظامر البطن مخنق
بمرثية فيها ثناء محبر لأزهر من أولاد مرة معرق
كأن أخاه في النوائب ملجأً إلى علم من ركن قدس المنطق⁽²⁾

شعر الغزل:

أشارت المصادر إلى انتشار شعراء الغزل في مكة أثناء المواسم، والواقع أن هذا اللون من الشعر كان الأكثر الأغراض الشعرية رواجاً في المواسم، حيث أصبح الحج مكاناً لاصطياد العواطف وللرفاهية وإلقاء الشعر، ويبدو أن سبب ذلك ناتج عن الاختلاط بالنساء أثناء المواسم، لذلك كان الخلفاء يتوعدون الشعراء إذا خرجت نساءهم للحج كي لا يذكروهن في شعرهم. ذكر الفاكهي أن فاطمة بنت عبدالمك بن مروان حجت، فكتب الحجاج بن يوسف الثقفي إلى الشاعر عمر بن أبي ربيعة يتوعده إن ذكر فاطمة في شعره، وكانت تحب أن يقول فيها شيئاً، فلم يفعل خوفاً من الحجاج⁽³⁾

وحجت أم البنين بنت عبدالعزيز بن مروان، وكانت استأذنت الوليد بن عبدالمك زوجها في الحج فأذن لها، وهو يؤمئذ خليفة، فقدمت مكة ومعها من الجواري ما لم ير مثله حسناً، وكتب الوليد يتوعد الشعراء جميعاً إن

(1) الأصفهاني: الأغاني، ج1، ص381-382؛ البلاذري: أنساب، ج6، ص220.

(2) الأصفهاني: الأغاني، ج12، ص170-171.

(3) الأصفهاني: الأغاني، ج2، ص317، ج1، ص188.

ذكرها أحد منهم أو ذكر أحد ممن تبعها⁽¹⁾، ويشير الأصفهاني إلى أن الشاعر عمر بن أبي ربيعة من أبرز شعراء الغزل الذين ظهرُوا في مواسم الحج. ومما قاله عمر بن أبي ربيعة في النساء شعراً في أم محمد بنت مروان بن الحكم، عندما حج وكانت قد حادثته، فقال فيها:

أيها الرائح المجد ابتكاراً قد قضى من تهامة الأوطار
من يكن قلبه صحيحاً سليماً ففؤادي بالخيف أمسى معاراً
ليت ذا الدهر كان حتماً علينا يومين كل حجة واعتماراً⁽²⁾
وقال عمر بن أبي ربيعة يذكر نساء رآهن:

أفسد الحج علينا نسوة من عبد شمس كن للموسم زيناً
وقالوا: نسوة من حي بكر تهادين رويداً ثم لا يقضين ديناً⁽³⁾

ويورد الأصفهاني شعراً ذكره مجنون ليلى⁽⁴⁾ في موسم الحج وذلك بعد أن اجتمع قومه إلى أبيه، وذكروا له أن يحج به إلى مكة ويدعو الله عز وجل أن يعافيه مما فيه، بعد ما أصابه من الجنون، فذكر في ليلى شعراً:

عرضت على قلبي العزاء فقال لي من الآن فإياس لا أعزك من صبر
إذا بان من تهوى وأصبح نائياً فلا شيء أجدى من حلوك في القبر
وداع دعا إذ نحن بالخيف من مني فهيج أطراب الفؤاد وما يدري
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما أطار بليلى طائراً كان في صدري
ودعا باسم ليلى ضلل الله سعيه وليلى بأرض عنه نازحة قفر⁽⁵⁾

(1) المصدر نفسه، ج6، ص206.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص166. الكامل في التاريخ، ج2، ص772-775.

(3) الفاكهي: أخبار مكة، ج1، ص315. ذكر عمر بن أبي ربيعة شعراً كثيراً في النساء أثناء المواسم، حول ذلك الأصفهاني: الأغاني، ج1، ص159-160، ص190-191، ص197-198، ص229-230؛ ابن الجوزي: المنتظم، ج6، ص313-316.

(4) مجنون ليلى: قيس بن الملوح بن مزاحم من بني عامر، من شعراء الغزل، وكان يهوى امرأة من قومه يقال لها ليلى. ترجمته: الأصفهاني: الأغاني، ج2، ص5-79.

(5) الأصفهاني: الأغاني، ج2، ص20-21؛ ابن الجوزي: المنتظم، ج6، ص70.

ومن شعراء الغزل أيضاً الذين نظموا الشعر في المواسم الشاعر أبو دهب⁽¹⁾ الذي نظم شعرا في عاتكة بنت معاوية بن أبي سفيان عندما حجت، فقال:

إنني دعاني الحين فاقتادني حتى رأيت الظبي بالباب
يا حسنه إذ سبني مديراً مستتراً عني بجلباب
سبحان وقفها حسرة صبت على القلب بأوصاب
يزود عنها إن تطلبتها أب لها ليس بوهاب
أحلها قصراً منيع الذرى يحمى بأبواب وحجاب⁽²⁾

(1) أبو دهب: وهب بن زمعة بن أسيد بن أحيحة، شاعرا، مدح الخلفاء في شعره منهم معاوية وعبدالله بن الزبير، ترجمته: الأصفهاني: الأغاني، ج7، ص112-122.

(2) الأصفهاني: الأغاني، ج7، ص119-120.

المبحث الثاني

النواحي العمرانية

المطلب الأول: العمارة المدنية:

اهتم المسلمون بتطوير مساكنهم منذ عهد الخلفاء الراشدين ولما كثرت الفتوحات بدأوا التوسع في العمران فقد استأذن البعض من عمر بن الخطاب في البناء ما بين مكة والمدينة فأذن لهم من أجل أن يجد ابن السبيل الماء والظل⁽¹⁾.

وكانت الفتوحات مجالاً للمسلمين للتعرف أكثر على حضارات الآخرين فشاهدوا عمارة تلك المناطق فبدأوا منذ عهد عثمان بن عفان يستخدمون الورد والساج في بناء منازلهم⁽²⁾.

وتطور الناس في مبانيهم حتى أصبح البعض يبني القصور مسكناً له أمثال سعد بن أبي وقاص وعمرو بن العاص فقد بني كلاهما قصرًا بالعقيق بالقرب من المدينة⁽³⁾.

وتطور فن البناء فأصبحت بعض الدور تعرف بألوانها وأشهرها دار معاوية بن أبي سفيان التي بناها له عمال من الفرس وهي الدار المعروفة بالرقط وذلك لكثرة ألوانها⁽⁴⁾.

البناء:

من خلال البحث في مجال البناء والعمران نرى أن التعبير طراً أولاً في مواد البناء، فالبيوت عامة كانت مادة البناء فيها الطين واللبن وسقفها من

-
- (1) الطبري: الرسل والملوك، ج2، ص69؛ ابن سعد: الطبقات، ج3، ص206.
 - (2) الأزرقي: أخبار مكة، ج1؛ السباعي: أخبار مكة، ج1، ص121؛ الورد والساج: أنواع من الخشب كان يؤتي بهما من اليمن، القزويني أخبار البلاد، ص40.
 - (3) اليعقوبي: تاريخ، ج3، ص237؛ الذهبي: تذكرة الحفاظ، ص23؛ الذهبي: أعلام النبلاء، ج1، ص122؛ الأصبهاني: معرفة الصحابة، ج1، ص402.
 - (4) الأزرقي: أخبار مكة، ج2، ص191.

الجريد⁽¹⁾ وهو ما كان متوفراً في البلاد قبل الفتح، ويبدو ان التغيير بدأ منذ عهد الخليفة عمر الذي كان يقول: (على كل خائن امينان الماء والطين ومر ببناء يبني بأجر وجص فقال لمن هذا؟ قالوا لفلان عامل له فقال: تأبى الدراهم الا ان تخرج اعناقها وشاطره ماله)⁽²⁾ وهذا يناقض قول سيد أمير علي في ان البيوت في مكة كانت تشيد اما من الحجارة او الأجر و في المدينة كانت معظم البيوت من الأجر⁽³⁾.

ويبدو من ضالة المعلومات حول العمران انه كان بشكل فردي وعلى مستوى ضيق. وبدأ التطور العمراني يظهر بوضوح في عهد الخليفة عثمان حيث اخذت الطبقة الغنية تشيد القصور والدور بالأجر والجص وتتفنن في زخرفتها وترقيطها بالحجارة الملونة واتخاذ الخشب الساج في أبوابها الخ.

روى المسعودي⁽⁴⁾ أن سعد بن ابي وقاص بنى داره بالعقيق فرفع سمكها ووسع فضاءها وجعل اعلاها شرفات، وبنى المقداد ايضاً داراً بالجرف وجعل اعلاها شرفات كما جعلها مجصصة الداخل والخارج، وبنى معاوية بن أبي سفيان لنفسه بمكة دوراً يقال لها الرقط لاختلاف ألوانها، وجلب لها البنائين من فارس العراق، فبنوها بالجص الأبيض والأجر الأحمر حتى أصبحت رقطاً⁽⁵⁾.

وقد بالغوا بالعناية في بناء القصور حتى انها كادت تفوق في هيئتها قصور دمشق عاصمة الخلافة فيروى ان الخليفة معاوية بن أبي سفيان حين حج أحد الاعوام وقف أمام دار عبدالله بن الحارث يتعجب من حسن بنائها فخرج عليه عبدالله قائلاً (لا أشبع الله أما بطنك تكفيك الخلافة حتى تطلب هذه الدار)⁽⁶⁾.

(1) ابن سعد الطبقات الكبرى، ج8، ص120؛ ابن الاثير: الكامل ج3، ص57، حوادث السنة 23هـ.

(2) ابن قتيبة: عيون الاخبار، مجلداً ج3، ص312.

(3) مختصر تاريخ العرب، ص72.

(4) مروج الذهب، ج2، ص333، والجرف - موضع على ثلاث أميال من المدينة نحو الشام، ياقوت: معجم: ج2، ص128.

(5) نفس المصدر، ص229: الأصفهاني: الأغاني، ج3، ص281.

(6) الاصفهاني: الأغاني، ج1، ص219.

وقد ذكر السمهودي⁽¹⁾ عدداً كبيراً من بينها قصر عروة الذي قال عنه صاحبه (والله لابنيه بناءً لا يبلغونه الا بشق الانفس فبناه وقال فيه:

بنيناه فاحسنا بناه فحمد الله في خير العقيق
تراهم ينظرون اليه شذرا يلوح لهم على وضح الطريق

وهذا دليل واضح على وجود تنافس شديد بين الناس - وخاصة الاغنياء منهم في مجال البناء والعمران.

ومن بين هذه القصور: قصر ابي هشام المغيرة بالعقيق والذي كلفه مالا كثيرا ويعرف بقصر بنت المرارزقي ثم قصر أبي بكر بن عبدالله بن مصعب الزبيري الذي عرف بالمستقى والذي قال فيه الشاعر:

يا قصر لو كان خالداً احداً بالجود والمجد كان مولاكا

وقد بني سعيد بن العاص بن سعيد قصرأ في العرصة وغرس فيه النخل والثمار وقد سميت عرصة الماء وفيها قال الشاعر ابو قطيفة شعره المشهور:

والقصر دو النخل فالحماء بينهما اشهى الى النفس من ايوان جيرون⁽²⁾

كما روى عن سكيبة بنت الحسين - انها باعت اموالها بازوراء واستبدلت بها قصرأ في العقيق يسمى البريدي، وروى انها خرجت اليه عندما سال العقيق وجلست على الجرف مع جواريتها وقالت: (والله لهذه الساعة في هذا القصر خير من الزوراء⁽³⁾).

ويبدو ان التطور العمراني شمل اكثر احياء المدينة حيث ان ابا علي الهجري⁽⁴⁾ يستعرض لنا هذه القصور بقوله: (أن سيل الوادي يقضي الى الشجرة التي بها محرم رسول الله ﷺ) ثم يلي ذلك مزارع ابو هريرة ؓ ثم تتابع القصور يمنية ويسرة بها منازل الاشراف فبها يبتدؤون منها منازل عن يمين الجائي

(1) وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج2، ص192-198.

(2) وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج2، ص201؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص101، العرصة في العقيق قرب المدينة.

(3) الأصفهاني: الأغاني، ج2، ص172، اخبار الحسين بن علي.

(4) السمهودي: وفاء الوفاء ج2، ص201، وجماء تضارع -هضاب في المدينة- ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص159.

من مكة (ومنها) قصر لإسحاق بن ابي ايوب المخزومي و قصر لإبراهيم بن هشام و قصر لآل طلحة بن عمر بن عبيدالله ومنازل أسفل منها عن يمين الطريق لآل سفیان بن عاصم. .. ووجهة ذلك في قبالة جماء تضارع منازل لعبدالعزیز بن عبدالله بن عمر و بن عثمان ثم يليها قصر طاهر بن يحيى ومنازل ولده (ووجهها) في صير حرة الوبرة مزارع عروة بن الزبير و بئر وأسفل منها بئر المغيرة بن العاص وأسفل منها ضفائر قصر مراجل والزينبي قصر سكيئة بنت الحسين وقصور لغير واحد ثم قصور ابنة المرازقي الزهرية ثم منازل جعفر بن ابراهيم الجعفري ثم يفضي الى بئر دمة وقصور كثيرة يمنة ويسرة. . الخ) و نلاحظ ان البناء كان في تزايد مستمر ولم يقتصر على طبقة معينة وإنما كان هناك حركة عمرانية تسير طبقات المجتمع.

المسكن:

يطلق على هذا المكان عدد من المسميات منها: المسكن، والبيت، والربيع، والدار وأكثرها شيوعاً في مكة المكرمة في العصر الأموي مسمى: الدار⁽¹⁾.

أما مواد البناء التي كان يستخدمها المكيون عند ظهور الإسلام فكانت المدر والحجارة، ويستخدمون للسقوف خشب الروم، أو الأثل، وجريد النخل، وشجر الإذخر⁽²⁾، وهناك إشارات إلى استخدام الجص والنورة والأجر في العصر الأموي⁽³⁾.

يعتقد أن تطوير بناء منازل المجتمع المكي سواء من حيث تطوير تصميمها أو إدخال بعض المواد في بنائها أو تجميلها كان شاملاً تقريباً، لسببين: أولهما، توفر الأموال لدى بعض المكيين، وتأثرهم بما كان سائداً الأمصار الإسلامية في ذلك الوقت. ثانياً: الاعتقاد أن بعض الوافدين إلى مكة المكرمة من أهل البلاد المفتوحة كانت لديهم خبرات معمارية جيدة فقاموا بسد حاجة أهل مكة المكرمة في هذا الشأن⁽⁴⁾.

(1) الباطين: الحياة الاجتماعية، ص272.

(2) ابن هشام: السيرة، 1/125؛ ابن سعد: الطبقات، 1/58؛ الفاكهي: أخبار مكة، 2/226؛ الطبري: تاريخ، 2/56.

(3) الفاكهي: أخبار مكة، 1/339، 3/226، الأصبهاني: الأغاني، 3/83.

(4) الباطين: الحياة الاجتماعية، ص277.

لم تصف المصادر تصميم الدور المكية وتوزيعها الداخلي، إلا أنه يمكن الاستنتاج منها أنها تتكون من فناء يكون في واجهة الدار، ويتكون داخل الدار من غرفات لاستقبال الضيوف، والجلوس للأسرة، والنوم، لتخزين الطعام واللباس وغيرها، والمطبخ⁽¹⁾. وبعض الدور تشتمل على غرف علوية تسمى الواحدة منها عليّة والجمع علالي، ويستخدم في الصعود إليها المراقي أو الدرج⁽²⁾. وسطح الدار ذو منافع كثيرة، فكان أهل الدار يجلسون فيه في ليالي الحر وينامون فيه لأنه أبرد موضع فيه⁽³⁾ وكان بعض أهل مكة يقدمون فيه طعام الولائم لأنه مكشوف ويتسع لاستيعاب عدد كبير من الناس⁽⁴⁾.

كما شيد سعيد ابن العاص قصرًا منيفاً في العرصة على بعد ثلاثة أميال من المدينة حوله الحدائق الغناء⁽⁵⁾، ولم تقتصر القصور المحاطة بالبساتين على سعيد بن العاص، بل ابنتى أغلب أهل المدينة قصوراً، كقصر عروة بن الزبير⁽⁶⁾، وقصر عاصم بن عمرو بن عثمان⁽⁷⁾، وقصر عنبسة بن سعيد بن العاص⁽⁸⁾، وقصر عنبسة بن عثمان بن عفان⁽⁹⁾ وكان للحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب بيت قوم بثمانية آلاف دينار⁽¹⁰⁾.

أما في مكة المكرمة فاتخذت الدور والقصور المبنية بالأجر والجص، فيروي الأزرقى أن سعداً القصير غلام معاوية بن أبي سفيان بنى داره بمكة بالحجارة المنقوشة، فيها التماثيل مصورة في الحجارة⁽¹¹⁾.

(1) الطبري: تاريخ، 2/523؛ الباطين: الحياة الاجتماعية، ص278.

(2) الأزرقى: أخبار مكة، 1/282؛ الفاكهي: أخبار مكة، 1/320؛ الأصبهاني: الأغاني، 7/135، 15/10.

(3) ابن الباطين: جمهرة، 1/278؛ الفاكهي: أخبار مكة، 2/323؛ الباطين.

(4) الأصبهاني: الأغاني، 2/123، 7/135؛ الباطين، الحياة الاجتماعية، ص279.

(5) الزبيدي: نسب قريش، ص176؛ المسعودي: وفاء الوفاء، ج3، ص1055، ولا تزال آثار

قصر سعيد بن العاص في عقيق المدينة إلى اليوم، أحمد السباعي: تاريخ مكة، ج1، ص109.

(6) السمهودي، وفاء الوفاء، ج3، ص-1022 1025.

(7) نفس المصدر، ص1028-1029.

(8) نفس المصدر، ص1501.

(9) نفس المصدر، ص1050.

(10) ابن رسته: الأعلام النفيسة، ص68؛ السمهودي: وفاء الوفاء، ج2، ص512. وقد عدد

السمهودي القصور التي شيدها أهل المدينة في المناطق المجاورة للمدينة، وقد أنفقوا عليها

مبالغ باهظة؛ السمهودي: وفاء الوفاء، ج3، ص1023-1052.

(11) الأزرقى: أخبار مكة، ص250.

وفي عهد عبدالله بن الزبير نشطت حركة البناء والتعمير، فأخذ يشيد القصور، كما اتخذ دوراً عديدة غير التي ورثها من أبيه فكان له بقعيقعان ثلاثة قصور يقال لها دور الزبير « ولم يكن الزبير ملكها، ولكن عبدالله ابتاعها من آل عفيف بن نبيه السهميين»⁽¹⁾.

وتوسعت حركة البناء والعمران في هذا العهد حتى وصلت أجياد وجبل قعيقعان فيروي الأزرقى أن عبدالله بن عباس قال لابن صفوان صاحب ابن الزبير: لقد قضى عمر بأن أسفل الوادي وأعلاه مناخ للحجاج، أما أجياد وقعيقعان فهما مكان للمريحين والذاهبين، واتخذتها وصاحبك دوراً وقصوراً⁽²⁾.

وشيد ابان بن عثمان داراً في مكة كان ينزلها إذا قدم للحج أو العمرة⁽³⁾. كما بنى عمر بن عبدالعزيز للوليد بن عبدالمك داراً في مكة من ماله الخاص، لكن الوليد بن عبدالمك مات قبل أن تنتهي فتصدق بها عمر بن عبدالعزيز على الحجاج والمعمرين⁽⁴⁾ كما بنى هشام بن عبدالمك داراً في المدينة جلب لها الأبواب من البلقاء⁽⁵⁾.

المطلب الثاني: العمارة الدينية :

وكان ابن الزبير قد أسدل الستور بين الناس وبين العمال الذين يهدمون الكعبة ويعيدون بناءها، وأمر ابنه عباد، وجبير بن شيبه بن عثمان أن يجعلوا الركن (أي الحجر الأسود) في ثوب، وقال لهما: إذا دخلت في صلاة الظهر فاحمله، واجعله في موضعه، فأنا أطيل في الصلاة، فإذا فرغتما من وضع الركن في موضعه، فكبرا حتى أخفف صلاتي⁽⁶⁾، ففعلا ثم كبرا، فخفف ابن الزبير في صلاته، وتسامع الناس أن الركن قد وضع في مكانه، فلم يعجبهم ما وقع، وراحوا يتناقلون ما صنعه رسول الله في مثل هذا الأمر، وكيف أنه ألقى ثوبه على الأرض، وجعل الركن في وسطه، ثم أمر كل بطن (قبيلة)

(1) الأزرقى: أخبار مكة، ص 464.

(2) نفس المصدر، ص 392. وأجياد موضع من بطحاء مكة، من منازل قريش البطاح، البكري: معجم ما استعجم، ج 1، ص 115، وقعيقعان جبل بمكة نفس المصدر، ص 1086.

(3) الأزرقى: أخبار مكة، ص 258.

(4) الأزرقى: أخبار مكة، ص 452-253؛ الندوي: المجتمع المكي، ص 168.

(5) السمهودي، وفاء الوفاء، ج 2، ص 752.

(6) الفاسي: العقد الثمين ج 1 ص 49.

أن تأخذ بطرف منه، حتى إذا دنا موضعه أخذته النبي علم ووضع بيديه الشريفتين في مكانة⁽¹⁾.

لكن عبدالله بن الزبير طيب خاطر القوم، وأعلمهم أنه وضع الحجر الأسود دونهم حتى يحسم الأمر، ويقضي على الفتن والخلافات، التي لو تركها لحدث مثلما حدث أيام قريش، وبهذا الأمر هدأت الأحوال، وطابت النفوس واطمأنت⁽²⁾.

وكان الحجر الأسود قد تصدع من الحريق الذي حدث، وانفرد ثلاث فرق، وانشطت⁽³⁾ منه شظية⁽⁴⁾، كانت عند بعض آل شيبعة بعد ذلك بدهر طويل⁽⁵⁾، وقد حرص ابن الزبير على تجميع أجزاء الحجر الأسود، فشده بالفضة، إلا تلك الشظية التي وضعها في أعلى الركن⁽⁶⁾.

وطول الركن ذراعان قد أخذ عرض جدار الكعبة، وموخر الركن داخلية في الجدار، مضرس على ثلاثة رؤوس⁽⁷⁾.

ذلك وكانت الكعبة يوم هدمها ابن الزبير ثمانية عشر ذراعاً في السماء، فلما بلغ ابن الزبير بالبناء ثمانية عشر ذراعاً، قصرت بحال الزيادة التي زاد من الحجر فيها، واستسمح ذلك⁽⁸⁾، إذ صارت عريضة لا طول لها، فقال ابن الزبير: قد كانت قبل قريش تسعة أذرع، حتى زادت قريش فيها تسعة أذرع طولاً في السماء، فأنا أزيد فيها تسعة أذرع أخرى، فيناها سبعة وعشرين ذراعاً في السماء، وهي سبعة وعشرون مدماكاً، وعرض جدارها ذراعان، وجعل فيها ثلاث دعائم⁽⁹⁾، وكانت قريش في الجاهلية جعلت فيها ست دعائم، وأرسل ابن

(1) الأزرقي: أخبار مكة ج1، ص208.

(2) فوزية مطر: عمارة الحرم المكي الشريف، جدة: دار تهامة (1402هـ)، ص109.

(3) انشطت: تفرقت وتطابت وانكسرت ابن منظور: لسان العرب ج4، ص2268.

(4) شظية: بفتح الشين وكسر الظاء وتشديد الياء -: الفلقة من كل شيء.

(5) ابن ظهيرة القرشي: الجامع اللطيف، ص91.

(6) المأمون: إبراهيم: تهنئة أهل الإسلام (مخطوط) ص160.

(7) الأزرقي: أخبار مكة، ج1، ص208.

(8) استسمح: استقبح. ابن منظور: لسان العرب، ج3، ص2087.

(9) الدعائم جمع دعامة، وهي عماد البيت الذي يقوم عليه. ابن منظور: لسان العرب، ج2، ص1384.

الزبير إلى صنعاء، فأتى من رخام بها يقال له البلق⁽¹⁾، فجعله في الروزان⁽²⁾ في القباطي⁽³⁾، وقال: من كانت لي عليه طاعة فليخرج فليعتمر من التنعيم⁽⁴⁾، فمن قدر أن ينحر بدنة فليفعل، ومن لم يقدر على بدنة فليذبح شاة، ومن لم يقدر فليصدق بقدر طولها، وخرج ماشياً، وخرج الناس معه مشاة حتى اعتمروا من التنعيم شكراً لله سبحانه⁽⁵⁾.

ولم ير يوماً كان أكثر عتقا، ولا أكثر بدنة منحورة، ولا شاة مذبوحة، ولا صدقة. من، ونحر ابن الزبير مائة بدنة، فلما طاف بالكعبة استلم الأركان الأربعة جميعاً، وقال: إنما كان ترك استلام هذين الركنين الشامي والغربي، لأن البيت لم يكن تاماً، فلم يزل البيت على بناء ابن الزبير، إذا طاف به الطائف استلم الأركان جميعاً، ويدخل البيت من هذا الباب، ويخرج من الباب الغربي، وأبوابه لاصقة بالأرض، حتى قتل ابن الزبير رحمه الله⁽⁶⁾.

عمارة الحجاج بن يوسف الثقفي للكعبة المشرفة:

بعد أن تولى عبد الملك بن مروان الخلافة (65-86هـ) بعث الحجاج بن يوسف الثقفي في ألفي فارس إلى مكة المكرمة لقتل ابن الزبير أو إرغامه على البيعة⁽⁷⁾، فسار الحجاج حتى نزل بالطائف، فأقام فيها شهراً، ثم زحف إلى مكة في موسم الحج، ونصب المجانيق على جبل أبي قبيس، فتحصن ابن الزبير

- (1) البلق أو الأبلق في العمارة الإسلامية يعني تناوب اللونين: الأبيض والأسود. د. فوزية مطر: عمارة الحرم المكي الشريف، ص 109.
- (2) الروزان: جمع روزنة، وهي الكوة أو الخرق في أعلى السقف، فيقال للكوة الزعفران وغيره من أنواع الطيب، وتغلب عليه الحمرة والصفرة، وهو من طيب النساء، يقال: خلقت المرأة جسمها، أي طلته الخلق. ابن منظور: لسان العرب ج 2، ص 1247.
- (3) القباطي: جمع قبطية - بضم القاف - وهو ثوب أبي ض رقيق من الكتان، يصنع في مصر، وهو منسوب إلى القبط - بكسر القاف -، والضم في قبطية من تعبير النسب، فهو على غير قياس. ابن منظور: لسان العرب ج 5، ص 3514.
- (4) التنعيم: موضع على ثلاثة أميال أو أربعة من مكة المكرمة، وسمي: بذلك لأن جبلاً عن يمينه يقال له نعم، وآخر عن شماله يقال له ناعم، وبالتنعيم مساجد وسقايها، على طريق المدينة منه يحرم المكيون بالعمرة. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج 2، ص 49.
- (5) الأزرقى: أخبار مكة، ج 1، ص 210.
- (6) الأزرقى: أخبار مكة، ج 1، ص 211؛ وابن كثير: البداية والنهاية، ج 8، ص 348؛ والجزيري: درر الفوائد المنظمة، ص 198.
- (7) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج 4، ص 349.

داخل الحرم الشريف، وأخذت أحجار المنجنيق تتساقط على المسجد الحرام⁽¹⁾، فاضطر ابن الزبير إلى الخروج للقتال مع جماعة من أتباعه، فقاتل قتالا شديداً حتى قتل عامة من كانوا معه، وانتهى الأمر بقتله في السابع والعشرين من جمادى الآخرة عام ثلاث وسبعين للهجرة⁽²⁾.

ولما استقر الأمر في مكة للحجاج بن يوسف، وأخذ البيعة من أهلها لعبد الملك بن مروان، كتب إلى الخليفة في دمشق يخبره أن ابن الزبير قد هدم الكعبة، وزاد فيها على بناء قريش، وطلب منه أن يأذن له في إزالة ما فعل، فوافق الخليفة، وحدد له ما ينبغي أن يفعله، وهو أن يسد بابها الغربي الذي كان قد فتحه عبدالله بن الزبير، ويهدم ما زاد فيها من الحجر، وأن يكبسها به⁽³⁾، فهدم الحجاج منها ستة أذرع وشبراً مما يلي الحجر، وبنها على أساس قريش، وكبسها بما هدم منها، وسد الباب الذي في ظهرها - وهو الباب الغربي المحاذي للشرقي-، وترك سائر ما لم يحرك منه شيئاً، فكل شيء بناه ابن الزبير إلا الجدار الذي في الحجر، فإنه بناه الحجاج، وسد الباب الذي في ظهرها، وما تحت عتبة الباب الشرقي، وقدره أربعة أذرع وشبر⁽⁴⁾.

(1) يُروى أن الكعبة المشرفة عندما رميت بالمنجنيق رعدت السماء وبرقت، وعلا صوت البرق على الحجارة، فخاف أهل الشام وأمسكوا عن الرمي، وكان الوقت شتاءً، وظلت السماء ترعد وتبرق، ونزلت صاعقة على جيش الحجاج ابن يوسف، فقتلت منهم نحو اثني عشر رجلاً، فانكسر أهل الشام، وشعروا بالخوف، واعتبروا هذه الصاعقة غضباً من الله عليهم، لانتهاكهم حرمة البيت، فتوقفوا عن الرمي، فقال لهم الحجاج: يا أهل الشام، لا تنتكروا هذا، فإنني ابن تهامه، وهذه صواعقها، وهذا الفتح قد حضر فأشرفوا، ثم أخذ يرمي بنفسه، ولحسن الحظ نزلت صاعقة على جند ابن الزبير وقتلت منهم الكثير، فتشجع الحجاج وقال لجنده: ألا ترون أنهم يصابون وأنتم على الطاعة. واستمر جيش الحجاج في الرمي، وكان الحجر يقع بين يدي عبدالله بن الزبير فلا ينصرف عن مكانه. المأموني: تهنئة أهل الإسلام، (مخطوط) رقم 163، وعلي حسن الخربوطلي: تاريخ الكعبة، لبنان: طبعة بيروت، (1976م)، ص165.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج4، ص356، ويذكر أن جروحاً أصابت ابن الزبير في القتال مات على أثرها بعد أيام، كما يذكر الطبري أن القتال قد استمر بين الفريقين ستة أشهر وسبع عشرة ليلة. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج6، ص187.

(3) الكبس: طمّ الحفرة بالتراب، يقال كبست النهر والبئر كيساً، أي طمتمتها بالتراب، وقد كيس الحفرة يكبسها كيساً، ولعل المعنى المقصود هنا: بينها به أو يبيلها. ابن منظور: لسان العرب ج5، ص3811.

(4) الأزرقى: أخبار مكة ج1، ص210 وما بعدها، وابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ ج8، ص248.

وبعد أن أتم الحجاج إعادة الكعبة إلى مثل ما كانت قريش قد بنتها عليه، زار الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة المخزومي⁽¹⁾ وهو من ثقات الرواة - الخليفة عبدالله بن دمشق، فسأله الخليفة إن كان أبو خبيب - عبدالله بن الزبير - قد سمع عن عائشة ها ما روته في شأن البيت عن النبي، فصدق الحارث عبدالله بن الزبير، وروى الحديث للخليفة، فنكت رأسه، وراح ينكت الأرض بعود في يده ويقول: (وددت والله أني كنت تركت ابن الزبير وما تحمل من ذلك)⁽²⁾.

وأراد الخليفة عبدالله أن يرد الكعبة المشرفة على الوضع الذي كانت عليه في زمن عبدالله بن الزبير، فأحضر العلماء والفقهاء وأصحاب الرأي والمشورة، وشاورهم في هذا الأمر، فرفضوا جميعاً أن يغير الخليفة من بناء الكعبة المشرفة مرة أخرى، وأصرروا على أن تبقى على ما هي عليه، فغضب عليهم الخليفة وطالبهم بإيجاد مخرج من هذه الورطة، فقال له أحد العلماء: (يا أمير المؤمنين، كعبة الله ليست ملعباً للملوك والأمراء، وليست رهن رغباتهم، هذا يهدمها، وذاك يبنيها، وهذا يغير منها، وذاك يعيد التغيير من جديد)⁽³⁾.

وقد استجاب الخليفة أخيراً لنصيحة العلماء، وأبقى الكعبة على بناء الحجاج الثقفي ولم يحدث فيها أي تغيير⁽⁴⁾، وظلت كذلك حتى نهاية العصر الأموي.

كسوة الكعبة المشرفة :

قبل أن نتحدث عن كسوة الكعبة في العصر الأموي، يجدر بنا أن نشير إلى أمر هام، وهو أن المسلمين لم تتح لهم فرصة القيام بهذا العمل الجليل إلا بعد فتح مكة في العام الثامن للهجرة، حيث كانت السيادة عليها قبل الفتح

(1) الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي، من التابعين من أهل مكة. وهو أخو عمر بن أبي ربيعة الشاعر، كان خطيباً من وجوه قريش ورجالهم، ولي البصرة في أيام ابن الزبير سنة واحدة، وكان أهلها يلقبونه بـ (القباع)، وهو الواسع الرأس القصير، وكان اسم أبيه في الجاهلية (بحراً)، فسماه رسول الله عبدالله، وكان جده أبو ربيعة يلقب بـ (ذي الرحمين)، توفي الحارث نحو سنة 80هـ. الزركلي: الاعلام، ج2، ص156.

(2) الأزرقى: أخبار مكة ج1، ص211، وابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ، ج8، ص248.

(3) أمينة الصاوي: الكعبة المشرفة، جدة، طبع دار عكاظ، ص-206 207.

(4) د. فوزية مطر: عمارة الحرم المكي الشريف، ص 118.

للمشركين، ولم يذكر أحد من المؤرخين القدامى والمحدثين أن المسلمين قد كسوها قبل فتح مكة⁽¹⁾.

ولما تم فتح مكة أبقي عليه الصلاة والسلام على كسوة الكعبة ولم يستبدلها، حتى احترقت على يد امرأة كانت تريد تبخيرها، فكساها النبي صلى الله عليه وسلم الثياب اليمانية⁽²⁾.

وبعد النبي كساها أبو بكر الصديق الله ثياباً لم تحدد المصادر نوعها⁽³⁾، ثم كساها عمر بن الخطاب له القباطي من بيت المال، وكان يكتب إلى مصر لتحاك له الكسوة فيها، وكذلك فعل عثمان رضي الله عنه⁽⁴⁾، غير أنه لم يقتصر في كسوته للكعبة على القباطي، بل كساها أيضا البرود اليمانية في إحدى السنوات، حيث

(1) يذكر الرواة أن أول من كسا الكعبة هو أسعد أبو كرب أحد تباوعة اليمن، والسبب في هذا هو أن هذا الملك رأى في منامه من يأمره أن يكسو الكعبة، فكساها الخصف - وهو نسيج من الخوص والليف - فتكررت هذه الرؤيا، فكساها المعافر - نسبة إلى قبيلة معافر اليمانية -، فتكررت للمرة الثالثة، فكساها الملاء - جمع ملاء، وهي ثوب لين رقيق، نسيج واحد، وقطعة واحدة وتسمى (الربطة) -، والوصائل - وهو ثوب أحمر مخطط يمانى. الأزرقى: أخبار مكة، ج1، ص249؛ ومحب الدين الطبري: القرى لقاصدي أم القرى، ص472؛ والفاسي: شفاء الغرام ج1، ص119-120؛ وابن ظهيرة القرشي: الجامع اللطيف، ص105؛ والقلقشندي: صبح الأعشى، ج4، ص277؛ وإبراهيم رفعت: مرآة الحرمين ج1، ص281؛ وأحمد عبدالغفور العطار: الكعبة والكسوة ص123؛ ود. فوزية مطر: عمارة الحرم المكي الشريف، ص77، وبعد أبي كرب هذا كساها قصي بن كلاب، وهو الجد الرابع للنبي صلى الله عليه وسلم.

(2) مؤلف مجهول اللمة اللطيفة في كسوة الكعبة الشريفة، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 36816، تاريخ ورقة 16-19؛ وحسين باسلامة: تاريخ الكعبة المعظمة، ص251؛ د. أمينة الصاوي: الكعبة المشرفة، ص239؛ د. فوزية مطر: عمارة الحرم المكي الشريف، ص77.

(3) الماموني تهنئة أهل الإسلام (مخطوط) ورقة 40، د. فوزية مطر: عمارة الحرم المكي الشريف، ص77.

حسين عبدالله باسلامة: تاريخ الكعبة المعظمة، ص251.

(4) حسين عبدالله باسلامة: تاريخ الكعبة المعظمة، ص251.

أمر عامله على اليمن (يعلي بن منية⁽¹⁾) بصنعها⁽²⁾، فكان عثمان أول من وضع على الكعبة كسوتين، إحداهما فوق الأخرى في الإسلام⁽³⁾.

أما علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - فلم يذكر أحد من المؤرخين أنه كسا الكعبة، وقد برر بعض المؤرخين ذلك بانشغاله بالحروب، والفتن الداخلية التي ابتليت بها الدولة الإسلامية عقب مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه⁽⁴⁾.

وكساها عبدالله بن عمر ما كان يحلي به بدنه من قماش القباطي المصري والحبرات⁽⁵⁾، والأنماط⁽⁶⁾، ويقال إن ابن عمر كان يكسي بدنه إذا أراد أن يحرم القباطي والحبرة، فإذا كان يوم عرفة ألبسها إياها، وإذا كان يوم النحر نزعها⁽⁷⁾، ثم أرسل بها إلى شيبه بن عثمان، فناطها على الكعبة أن تكسى⁽⁸⁾.

وفي عصر بني أمية اهتم خلفاؤها بكسوة الكعبة الشريفة اهتماما بالغا.

(1) يعلي بن أبي عبيدة بن همام التميمي الحنظلي، ويقال له أيضاً: يعلي بن أمية، أما منية فهي أمه، صحابي من الولاء، ومن الأغنياء الأسيخاء، وأول من أرخ الكتب، كان من سكان مكة وحليفاً لقريش، وأسلم بعد فتح مكة، وشهد الطائف وحنينا وتبوك مع النبي، واستعمله أبو بكر على حلوان بالعراق في حروب الردة، ثم استعمله عمر على نجران، واستعمله عثمان على اليمن، فأقام بصنعاء، وهو أول من ظاهر الكعبة بكسوتين أيام ولايته على اليمن، صنع ذلك بأمر عثمان الله، ولما قتل عثمان لنضم يعلي إلى الزبير وعائشة، ويقال: حمل عائشة على الجمل الذي كان تحته في موقعة الجمل، ثم صار من أتباع الخليفة علي بن أبي طالب بعد ذلك، وقتل وهو معه في معركة صفين عام (37هـ)، روى عن النبي ثمانية وعشرين حديثاً، اتفق البخاري ومسلم على ثلاثة منها. الزركلي: الأعلام ج8 ص 204، بيروت: لبنان، دار العلم للملايين، 1986م، ط7.

(2) د. السيد الدقن: كسوة الكعبة المعظمة عبر التاريخ، مطبعة الجبلاوي، القاهرة: 1406هـ، ط1، ص 27.

(3) يوسف أحمد: المحمل والحج ج1، ص235؛ وإبراهيم حلمي: كسوة الكعبة المشرفة وفنون الحجاج، سلسلة كتاب اليوم، العدد 320، وإبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ص281. (4) الأزرقسي: أخبار مكة، ج1، ص252-253؛ والفاسي: شفاء العزائم ج1، ص120-121؛ وقطب الدين الحنفي: الأعلام (المعروف بتاريخ القطبي)، ص69، مكة المشرقة: المكتبة العلمية، (بدون تاريخ).

(5) الحبرات - بكسر الباء -: جمع حبرة، وهي ثوب من قطن أو كتان مخطوط، كان يصنع باليمن. ابن منظور: لسان العرب ج6، ص749.

(6) الأنماط: واحدها نمط، وهو ضرب من البسط له حمل رقيق، والنسب إليه أغاطي وغطي. ابن منظور: لسان العرب، ج6، ص4549.

(7) إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ج1، ص282.

(8) حسين عبدالله باسلامة: تاريخ الكعبة المعظمة ص250؛ ويوسف أحمد: المحمل والحج ج1، ص236.

فكسى معاوية بن أبي سفيان الكعبة من بيت مال المسلمين كسوتين في العام: إحداهما من القباطي، والثانية من الديباج⁽¹⁾، فكانت تكسى الديباج يوم عاشوراء، وتكسى القباطي في آخر شهر رمضان ابتهاجاً واستعداداً لعيد الفطر⁽²⁾.

كما أجرى معاوية الطيب للكعبة عند كل صلاة، فكان يبعث بالطيب والمجمر⁽³⁾ والخلوق إلى الكعبة في وقتين من العام، مرة في رجب، وأخرى في رفقة أمير الحج في كل موسم، كما قام بتعيين عمال مهمتهم خدمة الكعبة من تنظيف، وتطيب، وتجمير⁽⁴⁾، كما أجرى الزيت لقناديل المسجد من بيت المال.

فكان معاوية بذلك أول من خصص للكعبة كسوتين: في عاشوراء وفي رمضان، وأول من أخدمها العبيد، وأثار المسجد بالزيت من بيت المال، ثم سار الخلفاء والولاة على نهجه في ذلك⁽⁵⁾.

فقد تولى الخلافة بعد وفاته ابنه يزيد (60-64هـ)، الذي كان حريصاً على إرسال كسوة الكعبة في موعدها إلى مكة المكرمة، على الرغم من سوء الأحوال السياسية والاضطرابات في بلاد الحجاز أثناء فترة خلافته، وكان يكسوها الديباج الخسرواني⁽⁶⁾.

(1) هناك اختلاف حول أول من كسا الكعبة بالديباج، فقد قيل: إنه عثمان بن عفان، وقيل معاوية، كما قيل إنه ابنه يزيد، وقيل عبد الملك بن مروان، وقيل الحجاج بن يوسف. وتستطيع أن تقول: إن الكسوة عملت بالديباج زمن معاوية واصطحبها ابنه يزيد حين ولي إمارة الحج في عهد أبيه عام (50هـ)، ومن هنا نسبت إليه، فالنصوص صريحة بأن يزيد كسا الكعبة بالديباج الخسرواني فالديباج كلمة معربة، وهي القماش المنقوش، والخسرواني بمعنى الأبيض. تاريخ ابن خياط، ص 211؛ ود. سعاد ماهر: النسيج الإسلامي، الجهاز المركزي للكتب الجامعية 1977م، ص 34؛ والعطار: الكسوة والكعبة، ص 139-140. وذكر ابن هشام أن أول من كسى الكعبة بالديباج: الحجاج بن يوسف الثقفي، وأنها كانت قبل ذلك بالقباطي والهروج. السيرة النبوية، ج 1؛ ص 132.

(2) حسين باسلامة: تاريخ الكعبة المعظمة، ص 251.

(3) المجر ما يتجمر به، وهو العود الرطب، أما الخلوق فهو معروف، ويتخذ من الزعفران وغيره من أنواع الطيب، ويغلب عليه الصفرة والحمرة. الأزرقى: أخبار مكة، ج 1، ص 254؛ والفاصي: شفاء العظام، ج 1، ص 126.

(4) الأزرقى: أخبار مكة، ج 1، ص 254.

(5) الأزرقى: نفس المصدر السابق؛ والفاصي: شفاء الغرام ج 1؛ ص 120؛ وابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص 109-110.

(6) الأزرقى: أخبار مكة، ج 1؛ ص 254، وقد ذكر العطار أن يزيد كسى الكعبة بالديباج المصنوع في خراسان، لأنه وجد كلمة (الخسرواني)، واعتقد أنه مصنوع في خراسان. العطار:

وبعد أن تمكن عبدالله بن الزبير من بسط سيطرته على مكة المكرمة بعد وفاة يزيد بن معاوية، قام ببناء الكعبة المشرفة، وعندما فرغ من بنائها عام 64هـ كساها بالديباج الخسرواني الذي كان يبعثه إليه أخوه مصعب⁽¹⁾ من العراق في كل عام، وما زال يعمل ذلك إلى أن قتل رحمه الله⁽²⁾، وكان يكتب في ديباج كسوة الكعبة (في طرازها): «لعبدالله أبي بكر أمير المؤمنين، كساها عبدالله بن الزبير»⁽³⁾.

كذلك كساها الحجاج بن يوسف الثقفي الديباج الخسرواني أيضاً بأمر الخليفة عبدالمك بن مروان (65-86هـ)⁽⁴⁾، ولعل الحجاج فعل ذلك تكفيرا عما فعله من رميها بالمنجنيق في قتاله ابن الزبير الذي كان معتصما بها.

وكان عبدالمك بن مروان يبعث بكسوة الكعبة من الديباج كل عام من بلاد الشام، ويمر بها الركب على المدينة المنورة، لتنشر يوماً في المسجد النبوي الشريف على الأساطين في مؤخرة المسجد، ثم تطوى الكسوة وتبعث إلى مكة المكرمة⁽⁵⁾.

كذلك كان الوليد بن عبدالمك (86-96هـ) يحرص على إرسال كسوة الكعبة في موعدها إلى مكة المكرمة، وأحياناً كان يصطحبها معه وهو متوجه إلى مكة لأداء فريضة الحج، ففي عام 91هـ تولى بنفسه إمارة الحج، واصطحب معه كسوة الكعبة التي كانت من أفخر أنواع الديباج، الذي لم ير مثله قط في حينه، وقدم بها إلى المدينة المنورة، وفعل بها كما فعل أبوه عبدالمك من قبل، حيث

الكعبة والكسوة، ص140؛ بينما الحقيقة أن كلمة «خسرواني، تعني نسيج أبيض سادة. د. سعاد ماهر: النسيج الإسلامي، ص34؛ والمرصفي: مشغولات الكسوة الشريفة، ص78.

(1) مصعب بن الزبير بن العوام الأسدي، والقشيري، أمير العراقيين أبو عيسى، وأبو عبدالله كان فارساً شجاعاً، جميلاً وسيماً، حارب المختار بن أبي عبيد الثقفي وقتله، ثم سار لحربه عبدالمك بن مروان وقتله في سنة 72هـ. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج4؛ ص140.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ ج8، ص344؛ والقلقشندي: مآثر الأناقة، ج1، ص123؛ وصبح الأعشى: ج4، ص279؛ والجزيري: درر الفوائد المنظمة، ج1، ص430؛ ويوسف أحمد: المحمل والحج، ج1، ص172؛ والعتار: الكسوة والكعبة، ص144؛ وحسين باسلامة: تاريخ الكعبة المعظمة، ص93.

(3) كان عبدالله بن الزبير يكنى أبا بكر، مصعب الزبيري: نسب قريش، ص239.

(4) ابن هشام: السيرة النبوية ج1، ص132؛ وإبراهيم حلمي: كسوة الكعبة المشرفة وفنون الحجاج، كتاب اليوم، العدد 320، ص38.

(5) الأزرقى: أخبار مكة، ج1؛ ص225؛ ومحب الدين الطيري: القرى المقاصد، أم القرى، ص474؛ والقلقشندي: صبح الأعشى: ج4، ص279.

نشرها وعلقها بحبال في المسجد النبوي الشريف لمدة يوم، ثم طويت ورفعت وبعث بها إلى مكة المكرمة⁽¹⁾.

وفي عهد هشام بن عبد الملك (105-125هـ) كسيت الكعبة ديباجا غليظاً، وكان تحت هذا الديباج بعض الكساوي الأخرى من صنع اليمن⁽²⁾.

وإلى جانب ما تقدم كان بنو أمية في بعض أيامهم يكسون الكعبة الحلل التي كانت على أهل نجران في جزيتهم، والديباج من فوقها⁽³⁾، واستمر خلفاؤهم يرسلون الكسوة إلى الكعبة في موعدها حتى نهاية دولتهم.

موعد كسوة الكعبة:

أما عن موعد كسوة الكعبة في هذا العصر⁽⁴⁾ فقد كانت تكسي مرتين في العام، إحداهما: في يوم عاشوراء، والثانية: في آخر شهر رمضان، وكان معاوية بن أبي سفيان هو أول من خصص للكعبة كسوتين في العام، حيث كان يكسوها الديباج يوم عاشوراء، والقباطي في التاسع والعشرين من شهر رمضان ابتهاجا واستعدادا لعيد الفطر المبارك⁽⁵⁾.

ومن بعده سار خلفاء بني أمية على هذا النهج حتى سقوط دولتهم على أيدي العباسيين.

(1) الأزرقي: مصدر سبق ذكره ج1، ص254؛ وحسين عبدالله باسلامة: تاريخ الكعبة المعظمة، ص255.

(2) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج8، ص133.

(3) القلقشندي: صبح الأعشي ج4، ص279؛ ويوسف أحمد: المحمل والحج ج1، ص237؛ ومحمد طاهر بن عبدالقادر: التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، مكتبة النهضة الحديثة بمكة المكرمة (د.تحقيق:).

(4) كانت الكعبة المشرفة منذ فجر الإسلام تكسى يوم عاشوراء بعد عودة الحجيج إلى بلادهم، وقد فعل بنو هاشم ذلك، وكانوا يعلقون عليها القميص يوم التروية من الديباج، لأن يرى الناس ذلك عليها بهاء وجمالا، فإذا كان يوم عاشوراء علقوا عليها الأزرار، فقد روى الأزرقي عن المهاجر أن النبي ﷺ خطب الناس يوم عاشوراء، فقال: (هذا: يوم عاشوراء، يوم تنقضي فيه السنة، وتستر فيه الكعبة، وترفع فيه الأعمال، ولم يكتب عليكم صيامه وأنا صائم، فمن أحب منكم أن يصوم فليصم. الأزرقي: أخبار مكة ج1، ص252؛ ود. أمينة الصاوي: الكعبة المشرفة، ص239.

(5) الأزرقي: أخبار مكة، ج1؛ ص-254 253.

تخصص مصر في صناعة الكسوة الشريفة :

ومما تجدر الإشارة إليه أن مصر قد حظيت بشرف صنع كسوة الكعبة منذ العصر الجاهلي، وذلك لشهرتها بصنع الثياب الجيدة التي تعرف بالقباطي، فقد رأينا أن النبي كسا الكعبة القباطي والحبرات اليمنية⁽¹⁾، ثم كساها أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب القباطي⁽²⁾.

وفي عهد عمر فتحت مصر، فأصبحت كسوة الكعبة ترد منها بصفة رسمية، حيث يقوم عامل الخليفة على مصر بصنعها، وإرسالها إلى الكعبة بأمر الخليفة⁽³⁾، وظل ذلك في عهد عثمان بن عفان، وإن كان قد جمع إلى القباطي المصرية البرود اليمنية⁽⁴⁾.

ثم أصبح خلفاء بني أمية يأمرّون بصنع الكسوة الشريفة في مصر وإرسالها إلى الكعبة كل عام، باستثناء بعض السنوات التي كانت الكسوة تأتي فيها من خارج مصر، وحينما تعددت الكسوة على الكعبة في العام الواحد كنا نجد أن أحدها تكون القباطي⁽⁵⁾.

(1) مجلة الفيصل، العدد 126، أغسطس السعودية: دار الفيصل الثقافية، 1987م؛ وإبراهيم حلمي: كسوة الكعبة المشرفة وفنون الحجاج، ص، وحسين عبدالله باسلامة: تاريخ الكعبة المعظمة، ص250.

(2) الفاسي: شفاء الغرام، ج1، ص121؛ ود. إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ج1، ص281.

(3) السيد الدقن: كسوة الكعبة المعظمة عبر التاريخ، ص127؛ وإبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ج1، ص281.

(4) يوسف أحمد: المحمل والحج، ج1، ص235؛ وإبراهيم حلمي: كسوة الكعبة المشرفة فنون الحجاج، ص38.

(5) د. السيد الدقن: مرجع سبق ذكره ص127.

تجريد الكعبة من كسوتها :

أما عن تجريد الكعبة من كسوتها لتلبسها كسوة جديدة فقد حدث هذا أول ما حدث في بداية العصر الذي تؤرخ له⁽¹⁾، فقد أجمعت الروايات التاريخية على أن أول من جرد الكعبة من كسوتها تجريدا كاملا لتنظيفها، وتخفيف ثياب الجاهلية عنها، وإلباسها كسوة جديدة، مع تطيبها بالعطر الغالي هو شيبه بن أبي طلحة الحنظلي - الذي ينتهي إليه نسب سدنة الكعبة وهم الشيبون -، وذلك في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان، وكانت قبل ذلك تجرد تجريدا جزئيا بقصد التخفيف عنها بعض الشيء، ولم يكن تجريدا كاملا⁽²⁾، فنروي عن ابن أبي مليكة قوله: (كان على الكعبة كسى كثيرة من كسوة أهل الجاهلية من الأنطاع، والأكسية والكرار والأنماط، فكانت ركاما بعضها فوق بعض، فلما كسيت في الإسلام من بيت المال، كان يخفف عنها الشيء بعض الشيء، وكانت تكسى في خلافة عمر و عثمان القباطي، يؤتى بها من مصر، غير أن عثمان كساها عام برودا، أمر بعملها عامله على اليمن يعلي بن منية، فكان أول من ظاهر لها كسوتين (أي وضعهما فوق بعضهما)⁽³⁾.

(1) لقد بقيت الكعبة منذ عهد الخليل إبراهيم عليه السلام بدون كسوة، حتى جاء تبع الحميري، فكساها، وكان أول من فعل ذلك في أشهر الأقوال، وقد ظلت الكعبة في الجاهلية إذا بليت كسوتها طرح فوقها ثوب آخر، فقد روى الأزرقى عن ابن أبي مليكة أن الكعبة كانت تكسى في الجاهلية كسى شتى... وكان هذا بهدى للكعبة فيعلق فتكسى منه الكعبة، ويجعل ما بقي في خزانة الكعبة، فإذا بلي منها شيء اخلف عليها مكانه ثوب آخر، ولا ينزع مما عليها شيء من ذلك الأزرقى: أخبار مكة، ج1، ص251. غير أن بقاء تلك الثياب الممزقة البالية على بيت الله الحرام شيء لا يقره الذوق السليم، وأهل الجاهلية معذورون، لأنهم ما فعلوا ذلك إلا عن اعتقاد وحسن نية، فلما جاء الإسلام تنورت الأفكار، وأخذ المسلمون يجردون الكعبة من كسوتها القديمة عند تلبسها كسوة جديدة.

(2) كان عمر بن الخطاب له ينزع الكسوة القديمة كل سنة ويفرقها على الحجاج لكي يستظلوا بها بعد وضعها على نوع من الأشجار بمكة اسمه السمر السيد سابق: فقه السنة، بيروت: لبنان، دار الكتاب العربي، (بدون تاريخ)، ج1، ص761، وقيل أنه ﷺ وجد شيئا من الكسوة القديمة على حائض، فأمر بحفر حفرة، وألقى فيها الكسوة القديمة، وأهال التراب عليها، خوفاً من أن يلبسها جنب أو حائض، فقالت له أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (إن ثياب الكعبة إذا نزع لا يضرها من لبسها من حائض، ولكن بعها، واجعل ثمنها في سبيل الله وابن السيل، فكان ما اشارت به عائشة رضي الله عنها. لبيب البتتوني: الرحلة الحجازية، ص139.

(3) يوسف أحمد: الحمل والحج ج1، ص235؛ إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ص281.

فلما كان عهد معاوية بن أبي سفيان كساها الديباج مع القباطي، فكتب إليه شيبه بن عثمان الحبي في أمر تراكم أكسية الكعبة فوق بعضها البعض وقال: (لو طرح عنها ما عليها من كسي الجاهلية فخفف عنها حتى لا يكون مما مسه المشركون شيء لنجاستهم، فأمره بتجريد الكعبة مما عليها من كسا، ويخلقها بالطيب، ويلبسها ما جهزه إليها من ديباج وقباطي وحبيرة، ففعل وقسم الثياب التي كانت عليها على أهل مكة، وكان ابن عباس حاضرا في المسجد الحرام وهم يجردونها، فما أنكر ذلك وما كرهه⁽¹⁾، ثم سار على نهج معاوية الخلفاء من بعده حتى نهاية دولتهم.

تطيب الكعبة المشرفة:

لم نعثر في المصادر التاريخية -التي بين أيدينا- على ما يفيد أن أحدا قد تطيب الكعبة بصورة منظمة قبل العصر الأموي، لا في الجاهلية⁽²⁾، أو في صدر الإسلام (عهد الرسول علم والخلفاء الراشدين)، وكل ما وجدناه تناقله المؤرخون هو قول أم المؤمنين عائشة: (طيبوا البيت، فإن ذلك من تطهيره، وأطيب الكعبة أحب إلي من أن أهدي لها نهباً وفضة)⁽³⁾.

أما في العصر الأموي فكانت الكعبة تطيب بصورة منتظمة، وكان معاوية بن أبي سفيان أول من طيبها بالخلوق والمجمر، فأجرى لها وظيفة الطيب عند كل صلاة، وكان يبعث لها بالمجمر والخلوق مرتين في العام في موسم الحج، وفي شهر رجب⁽⁴⁾.

ويبدو لي أن السبب في كون معاوية هو أول من أجرى وظيفة الطيب للكعبة يرجع إلى أن الكعبة لم تجرد من كسوتها تجريدا كاملا إلا في عهده، وأما قبل ذلك فكانت تخفف من الكسي التي كان عليها الشيء بعد الشيء دون الكشف عن جدرانها، فلما كان عهد معاوية بعث إليه شيبه بن عثمان الحبي قائلاً: (لو طرح ما عليها من كسي الجاهلية حتى لا يكون مما مسه المشركون شيء لنجاسته)، فرد عليه معاوية أن جردها، فجردها من كل الكسي التي كانت

(1) الأزرقي: أخبار مكة، ج1، ص260-261؛ وقطب الدين الحنفي: الأعلام، ص71-72؛ ومحب الدين الطبري: القرى لقاصد أم القرى، ط1، ص476-477؛ ويوسف أحمد: الحمل والحج ج1، ص282.

(2) لم نعثر إلا على بعض إشارات تفيد أن الكعبة كان يهدى إليها في الجاهلية خلوق ومجمر، وكانت تطيب به من داخلها ومن خارجها.

(3) خرجه الأزرقي في تاريخه ج1، ص179.

(4) الأزرقي: أخبار مكة، ج1، ص253-254.

عليها، ثم خلق جدرانها كلها، وطيبها قبل أن يكسوها الكسوة التي بعث بها معاوية، ثم زاد معاوية لها الطيب لتطيب عند كل صلاة⁽¹⁾.

وبعد أن تمكن ابن الزبير من بسط سيطرته على مكة المكرمة أثناء خروجه على بني أمية، اهتم بتطيب الكعبة، فعندما فرغ من بنائها عام (64هـ) خلق⁽²⁾ ظاهرها وباطنها بالمسك والعنبر من أعلاها إلى أسفلها، وكان يطيبها كل يوم برطل من الطيب، وفي يوم الجمعة برطلين، حتى إن ريحها كان يوجد من مسافة بعيدة⁽³⁾.

كما كان عبد الملك بن مروان يرسل كل عام الكسوة للكعبة مصحوبة بالطيب والمجمر، إليها وإلى مسجد رسول الله⁽⁴⁾.

أما الوليد بن عبد الملك فكان يرسل في كل موسم مع أمير الحج الكسوة والطيب للكعبة، بالإضافة إلى المجرم والخلوق، التي أصبح إرسالها عادة سنوية ترافق وصول أمير الحج في كل موسم⁽⁵⁾.

وفي العصر الأموي اهتم خلفاء بني أمية وغيرهم من الأمراء بتعمير وتوسعة المسجد الحرام. هذا وكان معاوية بن أبي سفيان أول هؤلاء الخلفاء اهتماما بتعمير هذا المسجد، فعندما قدم من الشام إلى مكة عام (44هـ) ليؤدي فريضة الحج، أحضر معه منبراً من خشب يتكون من ثلاث درجات ليخطب عليه في موسم الحج، وقد خطب عليه في المسجد الحرام، ثم تركه فيه⁽⁶⁾.

-
- (1) الأزرقي: أخبار مكة، ج1، ص253-254؛ والفاسي: شفاء العزام، ج1، ص126.
 - (2) خلقها: طيبها بالخلوق، وهو ضرب من الطيب أعظم أجزاءه الزعفران. أحمد المكي: أخبار الكرام، ص164.
 - (3) الفاسي: شفاء العزام ج1، ص126؛ وابن ظهيره: الجامع اللطيف، ص109؛ والأزرقي: تاريخ مكة، ج1، ص257.
 - (4) الأزرقي: تاريخ مكة، ج1، ص255؛ ومحب الدين الطبري: القرى لقاصد أم القرى، ص274؛ والقلقشندي: صبح الأعشى، ج4، ص279.
 - (5) الأزرقي: أخبار مكة، ج1، ص254.
 - (6) الأزرقي: أخبار مكة، ج2، ص100 وما بعدها؛ والجزيري: درر الفوائد المنظمة، ص195؛ والرشيدي: حسن الصفا والابتهاج، ص93، ود. حسن الباشا: المدخل للآثار الإسلامية، القاهرة: دار النهضة العربية، 1979م، ص113-114، ويذكر الأزرقي أن هذا المنبر قد ظل في المسجد الحرام، وكان يعمر كلما حرب، ثم نقل إلى عرفات في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد (170-193هـ)، واستبدل به منبراً آخر.

وبذلك يعتبر معاوية أول من أدخل المنبر في المسجد الحرام⁽¹⁾، كما يعتبر أول من أجرى لهذا المسجد زينا وقناديل من بيت المال للإضاءة، حتى يتمكن الحجاج والمصلون من أداء شعائرهم ليلاً في أمن وطمأنينة⁽²⁾.

كذلك حدثت في المسجد الحرام حركة تعمير وتوسعة في العصر الأموي على يد عبدالله بن الزبير، وذلك أنه في نفس العام الذي جدد فيه الكعبة، عمل على توسعة المسجد الحرام من جهة الشرق بامتداد الشمال الشرقي إلى الجنوب الشرقي⁽³⁾، واشترى الدور التي تقع في هذه الجهة، حيث أزالها، وأضاف أرضها في التوسعة، وعمل للمسجد سقفاً محمولاً على عمد رخام، وزاد في عدد أبوابه وحسنها، وبلط الصحن حول المطاف بالحجارة المتبقية من بناء الكعبة بمساحة مقدارها عشرة أذرع⁽⁴⁾، وهو بهذا يعتبر أول من بلط المطاف⁽⁵⁾.

أما عبدالله بن مروان فقد اهتم اهتماماً كبيراً بعمارة المسجد الحرام؛ فعندما وصل إلى مكة حاجاً في عام 75هـ، أرسل إلى أكبر شيوخين من قبيلتي: خزاعة، وبكر، وكلفهم بتجديد أنصاب الحرم⁽⁶⁾ (أي حدوده)، كما أحب أن يسهم في عمارة هذا المسجد وخاصة بعد تهدمه من حجارة المنجنيق التي كانت تلقى عليه من قبل جيش قائده الحجاج بن يوسف الثقفي، حين محاربتة لابن الزبير، فأمر الخليفة عبدالله بن مروان برفع جدرانها، كما قام بتسقيفه بخشب الساج الذي يُعد من أفخر أنواع الخشب⁽⁷⁾، وزين رؤوس الأعمدة بالذهب، فجعل على

(1) لم يكن للمسجد الحرام على عهد الرسول والخلفاء الراشدين منبر، وكان الخلفاء والأمراء في مواسم الحج، وغيرها من المناسبات يخطبون قياماً على أرجلهم في وجه الكعبة وفي الحجر.

(2) الأزرقي: أخبار مكة، ج1، ص286.

(3) الأزرقي: أخبار مكة، ج1، ص244.

(4) الأزرقي: أخبار مكة، ج2، ص69-70؛ ويوسف أحمد: الحمل والحج، ج1، ص146.

(5) الفاكهي: المنتقى في أخبار أم القرى، ص5، باعتناء المستشرق الألماني فرديناند وستيفلد، طبعة أوربا؛ والفاسي: شفاء العظام، ج1، ص318؛ والجزيري: درر الفوائد المنظمة، ص198.

(6) لقد سبق أن أصلحت، ورحمت أنصاب الحرم المكي في عهد الخليفة عمر بن الخطاب سنة 17هـ، ثم في عهد الخليفة عثمان بن عفان ال سنة 26هـ. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، مج4، ص69، 251؛ وابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج2، ص537، مج3، ص87؛ وابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ، ج7، ص78، 150؛ والمقرئزي: الذهب المسبوك، ص14.

(7) الأزرقي: أخبار مكة ج2، ص71؛ وابن ظهيرة القرشي: الجامع اللطيف، ص98.

رأس كل عمود ما يوازي خمسين مثقالاً من الذهب، وجعل له سرادقات⁽¹⁾.

كذلك أمر عبدالمك بن مروان عامله على مكة خالد بن عبدالله القسري⁽²⁾ بإضاءة الشارع الذي يقع بين الصفا والمروة، فوضع مصباحاً كبيراً مقابل الركن الأسود، وجعله معلقاً على عمود، ويعتبر هذا المصباح أول مصباح اتخذ في المسجد الحرام رسمياً، وكان جيران هذا المسجد قبل ذلك يضعون مصابيحهم فوق حوائط دورهم لينتفع الطائفون بضوئها⁽³⁾.

كما أهدى عبدالمك إلى الكعبة المشرفة شمسيّتين من الديباج، وقدحين من زجاج علقا في سقفها⁽⁴⁾.

ولما تولى الوليد بن عبدالمك الخلافة، قام بأعمال معمارية كثيرة ومهمة في المسجد الحرام⁽⁵⁾، وقد ذكر لنا المؤرخ الأزرقى جانباً من هذه الأعمال حيث قال⁽⁶⁾: (إنه

(1) الأزرقى: اخبار مكة ج2، ص71؛ والفاصي: شفاء الغرام ج1، ص225؛ ويوسف أحمد: المحمل والحج ج1، ص147؛ السرادقات جمع سرادق، وهو كل ما أحاط بشيء من حائط أو مضرب أو خباء. وقال الجوهرى: السرادق واحد السرادقات التي تمتد فوق سطح الدار، وكل بيت من كرسف فهو سرادق. ابن منظور لسان العرب، مج3، ص1988م.

(2) هو خالد بن عبدالله بن يزيد بن أسد القرشي، من بجيلة، ويكنى بأبي الهيثم، أحد خطباء العرب وأجودهم، ولد عام (66هـ)، وتولى الحجاز، وبلاد العراق لبنى أمية، وقتل عام (12هـ) على يد يوسف بن عمر الثقفي. راجع ترجمته بالتفصيل عند ابن عساكر تهذيب التهذيب، ج3، ص58؛ وابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص226؛ والذهبي: سير أعلام النبلاء ج5، ص425.

(3) من هؤلاء جد المؤرخ الأزرقى: المسمى عقبة بن الأزرق، الذي كان يضع المصباح فوق طرف داره، ليضيء للطائفين بالبيت العتيق، غير أن والي مكة حينئذ وهو خالد بن عبدالله القسري قد منع عقبة هذا من وضع المصباح، ووضع مصباح زمزم مقابل الركن الأسود (الحجر الأسود). السباعي: تاريخ مكة، ط2، ج1، ص117.

(4) أحمد السباعي: تاريخ مكة، ج1، ص117.

(5) من المعلوم أن عهد الخليفة الوليد كان عهد بناء وتعمير، فهو شديد الاهتمام بالعمارات والأبنية، واتخاذ المصانع والضياع، وكان الناس يلتقون في زمانه، فيسأل بعضهم بعضاً عن الأبنية والعمارة تحقيق: ابن طباطبا: الفخري في السلطانية، بيروت: دار صادر، (1400هـ/1980م)، ص127. فقد قام ببناء الآداب الجامع الأموي بدمشق، كما قام بتعمير المسجد الحرام والمسجد النبوي ومسجد قباء، وهو أول من اتخذ البيمارستانات للمرضى في الإسلام وأوقف عليها، وكذلك قام برعاية المقعدين اجتماعياً، إلى غير ذلك من الأعمال. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج6، ص497؛ ومؤلف مجهول: العيون والحداثق في اخبار الحقائق ج3، ص12، مكتبة المثنى ببغداد.

(6) الأزرقى: أخبار مكة، ج2، ص71.

أول من نقل إليه (المسجد الحرام) أساطير الرخام⁽¹⁾ (أي الأعمدة)، وسقفه بالساج المزخرف، وجعل على رؤوس الأساطين صفائح الذهب الذي يشبه الصقر⁽²⁾، كما أزر جدران المسجد من داخله بالرخام⁽³⁾، وكسا أرضيته بالرخام الأحمر، والأخضر، والأبيض الذي أحضره من بلاد الشام⁽⁴⁾، كما توج جدران المسجد بالشرفات⁽⁵⁾، وجعل في وجوه الطيقان (أي النوافذ) من أعلاها الفسيفساء⁽⁶⁾.

كذلك كتب الوليد الأول إلى عامله على مكة المكرمة خالد بن عبدالله القسري أن يضرب صفائح الذهب على بابي الكعبة وميزابها، والأساطين التي في بطنها، والأركان في جوفها، وبعث إليه بثلاثين ألف دينار لإنجاز هذا كله⁽⁷⁾، كما أمر بإحضار الرخام من بلاد الشام، وفرشت به الكعبة، وأزر جدرانها⁽⁸⁾، فكان بهذا كله أول من رخم البيت وذهبه في الإسلام⁽⁹⁾.

(1) أساطين: جمع اسطوانة، وهي السارية، والرخام حجر أبي ض سهل رخو. ابن منظور: لسان العرب، مج3، ص2004.

(2) الفاسي: شفاء الغرام، ج1، ص225.

(3) أزر جدران المسجد: أي جعل له وزره في أسفل الجدران.

(4) إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين ج1، ص274؛ ويذكر المؤرخون أن الخليفة الوليد بعث إلى ملك الروم يعلمه أنه أمر بهدم مسجد رسول الله م ليعمره، وطلب منه أن يعينه في ذلك، فبعث إليه ملك الروم بمائة ألف مثقال ذهب، ومائة عامل، وبعث إليه من الفسيفساء بأربعين حملاً، فبعث بذلك الوليد إلى عمر بن عبدالعزيز، فأصلح به المسجد اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مج2، ص284؛ والطبري تاريخ الرسل والملوك مج2، ص436؛ وابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج4، ص532، وابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ، ج9، ص89.

(5) الشرفات: مفرد شرفة، وهي كتل حجرية متنوعة الأشكال، منها المثلث أو المربع أو المديب، ومنها ما هو على شكل زهرة اللوتس، ومنها المسنن المائل، وترمى في كتل متقاربة في أعلى جدران المساجد والأسوار، وعادة تتوج بها الأبنية الهامة. د. فريد شافعي: العمارة العربية، طبع النهضة المصرية العامة (1970م)، مج1، ص180؛ وتوفيق أحمد عبدالجواد: تاريخ العمارة والفنون الإسلامية ج3 ص67، طبع الفنية الحديثة.

(6) ابن ظهيرة القرشي: الجامع اللطيف، ص198. والفسيفساء: ألوان تؤلف من الخرز، فتوضع في الحيطان يؤلف بعض على بعض، وتركب في حيطان البيوت من داخل، كأنه نقش مصور، والفسيفساء كلمة غير عربية. ابن منظور: لسان العرب، مج5، ص34-13.

(7) اليعقوبي اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مج2، ص284.

(8) ذكر بعض المؤرخين أن الخليفة الوليد جعل ميزاب الكعبة المشرفة وسقفها بالذهب والفضة، وأن الحلبة التي حلي بها الكعبة المشرفة هي ما كان على مائدة سليمان بن داود من ذهب وفضة قد حملت من مدينة طليطلة بالأندلس إلى مكة المكرمة وقد حملها بغل قوي تفسخ جلده من شدة الحمل، وكان بها أطواق ياقوت، قطب الدين المكي: الأعلام ص85، والمأموني: تهنئة أهل الإسلام ص59 وما بعدها، وأحمد زيني دحلان: خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام ص59، مكتبة الكليات الأزهرية 1977م.

(9) الأزرقى: أخبار مكة، ج1، ص211-212، واليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مج2، ص284.

عمارة المسجد النبوي الشريف:

كان من أول الأعمال التي قام بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فور وصوله إلى المدينة المنورة بناء المسجد النبوي، لكي تظهر فيه شعائر الإسلام، التي طالما حوربت، وتقام فيه الصلوات التي تربط المرء برب العالمين. وقد اختار له الموضع الذي بركت فيه ناقته، وكان مكانا يجفف فيه التمر، ويصلي فيه رجال من المسلمين، وكان مملوكا غلامين من الأنصار، فدعاهما رسول الله وساوتهما على بيعه ليتخذه مسجدا فقالا: بل نهيه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله، حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير، وأمر أبا بكر أن يعطيتهما ذلك⁽¹⁾.

أما في العصر الأموي فقد تمت أول عملية تعمير للمسجد النبوي في العام الحادي والتسعين للهجرة في خلافة الوليد بن عبد الملك، وعلى يد عامله على المدينة عمر بن عبدالعزيز الذي لاحظ ضيق المسجد النبوي على المصلين وخاصة في موسم الحج، فقام بإبلاغ الخليفة الوليد بذلك، فكلفه بالمشروع فوراً في توسيع هذا المسجد، وإدخال حجرات أزواج الرسول صلى الله عليه وسلم فيه⁽²⁾، ثم أرسل إليه بالصناعات من الشام، وكان عددهم مائة عامل، كما بعث إليه أربعين ألف مثقال من الذهب ليستعين بها في عمله، وكذلك بأحمال الفسيفساء⁽³⁾ لكي يزخرف وينمق بها المسجد، كما بعث إليه أيضا

(1) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج1، ص239.

(2) لقد ذكرت المصادر التاريخية عدداً من الروايات تبين سبب، هذا الأمر، وتركز على ضم الحجرات إلى المسجد، وقد تخير السمهودي من هذه الروايات ما يدل على أن الخليفة الوليد كان هدفه الأول من هذه التوسعة ضم الحجرات إلى المسجد النبوي، ونزع بيت فاطمة من أحفاد علي الله، لأن الحسن بن الحسين ابن علي كان يقيم فيه، وربما يأوى إليه من يُغريه بالخروج على الخليفة. السمهودي: وفاء الوفا، ج2، ص513، غير أن القراءة المتفحصة للروايات تبين أن مرور الزمن قد أثر على بناء المسجد، وأن الجدار القائم بجوار قبر رسول الله قد سقط. ابن سعد: الطبقات الكبرى لابن سعد، ج2، ص307، والمعروف أن القبر كان في حجرة السيدة عائشة، وهي. متصلة بالحجرات الأخريات بجدر متصلة؛ لذا من المعقول جداً أن يكون سقوط هذا الجدار هو الذي دفع الخليفة الوليد، وعمر بن عبدالعزيز إلى هدم الحجرات التي بنيت قبل خمس وثمانين سنة وضمها إلى المسجد، واهتمام الخليفة الوليد بن عبد شمس بن أمية، ومن الملك بالعمران معروف في سيرته حتى لقد. مهندس بنى إنجازاته العمرانية بناء المسجد الأموي بدمشق، ومسجد الصخرة بالقدس، فكان من فضل الله أن يجتمع اهتمام الوليد بالعمران وولاية عمر بن عبدالعزيز على المدينة في وقت واحد ليبدأ تجديد المسجد النبوي وتوسعته.

(3) الفسيفساء: ألوان تؤلف من الخرز فتوضع في الحيطان يؤلف بعضه على بعض، وتركب في حيطان البيوت من داخل كأنه نقش مصور، والفسفس: البيت المصور

بالسلاسل لكي تعلق بها القناديل، وكان ذلك في شهر ربيع الأول في العام الثامنة للهجرة⁽¹⁾.

وبدأ عمر بن عبدالعزيز في شراء الدور المجاورة للمسجد من جهة الشرق والغرب والشمال، وعمل على إزالتها، وأدخل في أرضها مساحة المسجد، كما أزال حجرات أزواج النبي، وأدخلها هي والحجرة النبوية في المسجد، ونقل لبن هذه الحجرات، فبنى به داره في الحرّة⁽²⁾.

وهناك روايات متضاربة تبين أن الفقهاء العشرة الذين كان عمر بن عبدالعزيز يستشيرهم - ومنهم سعيد بن المسيب⁽³⁾ نصحوه بعدم إدخال الحجرات في المسجد⁽⁴⁾، وتركها لكي تكون عبرة للناس، تعلمهم الزهد والتواضع، في زمن يتطاول الناس فيه في البنيان، وأن عمر كتب إلى الخليفة برأيهم، فلم يرضه الخليفة، وأرسل يؤكد على إدخال الحجرات في المسجد، فتوجه عمر بن عبدالعزيز مع مجموعة من حاشيته، وبدأ مع العمال والفعلة بنقض البناء القديم والتأسيس للبناء الجديد، وبالإضافة إلى الصنائع الذين بعثهم الخليفة الوليد، استعمل عمر بن عبدالعزيز في هذه العمارة أستاذه صالح بن كيسان⁽⁵⁾

بالفسيفساء، ولفظ الفسيفساء غير عربي. ابن منظور: لسان العرب، مج5، ص3431.

(1) الطبري «تاريخ الرسل والملوك»، ج6، ص435-436؛ وابن الأثير: الكامل في التاريخ ج4، ص532؛ وابن النجار: الدرر الثمينة، ص372؛ وابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ ج4، ص109؛ والقلقشندي: صبح الأعشى، ج14، ص368، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر (د.تحقيق:).

(2) ابن النجار: الدرر الثمينة، ص174-175.

(3) سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم ابن يقطه، وأمه أم سعيد بنت حكيم بن أمية بن حارثة الأوقصي السلمي، ولد سعيد بن المسيب بعد أن استخلف عمر بن الخطاب بأربع سنين، وقيل قبل موت عمر بستين، ومات بالمدينة سنة أربع وتسعين للهجرة في خلافة الوليد بن عبدالمك (86-96هـ) وهو ابن خمس وسبعين سنة، وكان يقال لهذه السنة التي توفي فيها سعيد بن المسيب: سنة الفقهاء، لكثرة من مات منهم فيها، وكان سعيد بن المسيب جامعاً، ثقة، كثير الحديث، ثبناً، فقيهاً، مفسياً، مأموناً، ورعاً، عالياً، ربيعاً. ابن سعد: الطبقات الكبرى ج5، ص119-143.

(4) ابن النجار: الدرر الثمينة، ص359؛ والسهمودي: وفاء الوفا، ج4، ص461.

(5) هو الإمام الحافظ الثقة أبو محمد، ويقال أبو الحارث المدني المؤدب، مؤدب ولد عمر بن عبدالعزيز، يقال له مولى بني غفار، ويقال مولى بني عامر، ويقال مولى آل معيقيب الدوسي. رأى عبدالله بن الزبير، وعبدالله بن عمر. قال يحيى ابن معين: إنه سمع منهما، وكان صالحاً جامعاً من الحديث والفقہ والمروءة. قال الوافدي: مات صالح بن كيسان بعد

مشرفاً على عملية الهدم والبناء، فقام صالح بدوره في استخدام عمال المدينة أثناء التنفيذ⁽¹⁾، كذلك وصل إلى المدينة عدد من العمال الروميين الذين طلبهم الخليفة الوليد من الامبراطور البيزنطي⁽²⁾، كما استقدم الوليد عمالاً قبطاً من مصر، لما عرف عنهم من شهرة البناء⁽³⁾.

وبذل عمر بن عبدالعزيز في بناء المسجد النبوي جهوداً هائلة، وأنفق كل ما يستطيع إنفاقه من مال، فزخره بالفسيفساء والمرمر، وعمل سقفه بالساج، وموهه بالذهب، وكتب في مقدمة المسجد - أي في جدار القبلة - داخل المقصورة آيات قرآنية، أم الكتاب، والشمس وضحاها. إلى آخر القرآن الكريم، كما كتب في صحن المسجد في القبلة نصاً تذكاريّاً بالفسيفساء يعتبر لوحة تأسيسية لبناء المسجد⁽⁴⁾، وعمل عمر بن عبدالعزيز للمسجد أربع مآذن، في كل ركن من أركان المسجد واحدة، وذلك حتى يسمع الأذان من جميع الجهات الأربع للمسجد⁽⁵⁾، كما عمل لهذا المسجد محراباً لأول مرة، وكذلك عمل له شرفات⁽⁶⁾، أما أبواب المسجد فظلت كما هي في مسماها وفي جهاتها، غير أنها نقلت إلى الحوائط الجديدة بالمسجد، وقد أراد عمر بن عبدالعزيز أن يجعل في كل باب من أبواب المسجد سلسلة تمنع دخول الدواب، وعمل واحدة وجعلها في باب مروان، وفعل ذلك في باقي الأبواب⁽⁷⁾، وأقام الحرس بداخله يمنعون الناس من الصلاة على الجنائز فيه⁽⁸⁾.

الأربعين والمائة، وكان ثقة كثير الحديث. ابن حجر: تهذيب التهذيب ج4، ص350؛ والذهبي: سير أعلام النبلاء ج5، ص454.

(1) وقد أصبح طول المسجد بعد زيادة الوليد 200 ذراع، وعرضه 167,5 ذراع راجع تفصيل ذلك في: البلاذري: فتوح البلدان، تحقيق: طه وعمر عروة، الاسكندرية: دار ابن خلدون، ج1، ص25؛ والطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج6، ص435؛ وصالح لمعي: المدينة المنورة، ص67. (2) كانت العلاقة من الدولتين: الأموية والبيزنطية حسنة، فأمد الامبراطور البيزنطي الخليفة الوليد بمائة ألف مثقال من الذهب، ومائة عامل، وأربعين حملاً من الفسيفساء. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج6، ص436.

(3) ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف، ص282.

(4) الحربي: مناسك الحج، ص372؛ وابن النجار: الدرّة الثمينة، ص373.

(5) كانت المنارة الرائعة تطل على دار مروان بن الحكم من الجهة الجنوبية، فلما تولى إمارة الحج الخليفة سليمان بن عبد الملك سنة 97هـ زار مسجد رسول الله وحين نزل في دار مروان والمؤذن في المنارة يؤذن، ظل عليه، فأمر الخليفة سليمان بتلك المنارة فهدمت، وأصبح بالمسجد ثلاث مآذن فقط. ابن خياط: تاريخه، ص319؛ وابن النجار: الدرّة الثمينة، ص273.

(6) ابن النجار: الدرّة الثمينة ص373؛ والعباسي: عمدة الأخبار، ص109.

(7) ابن النجار: الدرّة الثمينة، ص374، وحسن الباشا: المدخل للآثار الإسلامية، مصر: دار النهضة العربية، 1979م، ص124.

(8) ابن النجار: الدرّة الثمينة، ص177-178.

وقد استمر العمل في المسجد ثلاث سنوات كاملة، فلم يفرغ منه فراغا كاملا إلا عام إحدى وتسعين للهجرة⁽¹⁾، ولعل السبب في تأخر البناء كل هذه المدة يرجع إلى اجتهاد عمر في أن يكون المسجد غاية في الدقة والجمال، فقد عمل الأساس من الحجارة الصلبة وعمقه، ورفعت الجدران بأنواع من الحجارة المنقوشة المطابقة، وهذا النقش يستلزم وقتا طويلا، وبنيت الأعمدة التي تدعم الجدران وتحمل السقف من حجارة ضخمة مجوفة، وصب بداخلها الرصاص، أما السقف فقد صنع من الخشب الساج - وهو نوع من الخشب الصلب - وطلاء بماء الذهب، وزين جانب من الجدران والسقف بالمرمر والفسيفساء.

وكان عمر بن عبدالعزيز يراقب العمل يوميا، ويكافئ العمال المهرة، وبخاصة أولئك الذين يتفنونون في صنع لوحات الفسيفساء، فيعطي من يحسن عمل الشجرة الكبيرة ثلاثين درهما مكافأة له، وعندما وصل البناء إلى موضع الإمام استحدث عمل المحراب، ودعا وجوه أهل المدينة من أبناء المهاجرين والأنصار والعرب الآخرين والموالي ليحضروا بناء القبلة، فجعل لا ينزع حجراً إلا وضع آخر مكانه، ثم أمر ببناء المقصورة وتزيينها، وزخرفة سقفها⁽²⁾، وقد أنفق عمر على جدار القبلة وحده خمسة وأربعين ألف دينار⁽³⁾.

وفي العام التي انتهى فيها العمل من بناء وتوسعة المسجد النبوي عام (91هـ)، قدم الوليد إلى مكة حاجا، وبعد أن فرغ من أداء المناسك وفد على المدينة المنورة، وكان أول ما فعله حين وصوله إليها التوجه إلى المسجد النبوي لينظر في بنائه، فطاف به وأعجب بعمارته، وأثنى على جهود عمر بن عبدالعزيز وتمنى لو أنه أنفق المزيد على تزيينه ليكون مفخرة من مفاخر المسلمين في العمران⁽⁴⁾.

(1) العباسي: عمدة الأخبار في مدينة المختار ص 109 ط5، تصحيح حمد خسرو: نشر أسعد الحسيني (بدون تاريخ).

(2) السمهودي: وفاء الوفاء، ج2، ص520.

(3) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج6، ص435.

(4) ومن أبلغ الأمثلة على ذلك ما روي أن الخليفة الوليد حينما شاهد سقف مقصورة المسجد النبوي وما عمل بها من نقوش، التفث إلى عمر بن عبدالعزيز وقال له: الا عملت السقف كله من هذا؟ فأجابه بقوله: أتدري يا أمير المؤمنين كم أنفقت على عمل جدار القبلة وما بين السقفين؟ قال: وكم؟ قال: أربعين ألف دينار، فرد عليه الخليفة قائلاً: والله لكأنك أنفقتها من مالك. ابن النجار: الدرر، الثمينة، ص373-374. ويقال: بأن الخليفة الوليد لما استنفذ النظر إلى المسجد التفث إلى أبان بن عثمان بن عفان، فقال: اين بنياننا من بنيانكم؟ فقال له أبان إنما بنيناه بناء المساجد، وبنيتموه بناء الكنائس. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج6، ص435.

وكان الوليد قد أحضر في قافلته عطوراً ثمينة ليطيب بها المسجد، فوضع الطيب في أنحائه، وعلقت حبال في أحد أطرافه نشرت عليها كسوة جديدة للكعبة لكي يراها الناس، ثم طويت وحملت إلى مكة، وظل المسجد النبوي على هذا الحال حتى نهاية العصر الأموي.

سار الخلفاء الأمويون على نهج الخلفاء الراشدين في الاهتمام بالحرمين الشريفين.

ففي خلافة معاوية بن أبي سفيان قام واليه على المدينة مروان بن الحكم بتبليط ممر أبيه الحكم بن أبي العاص إلى المسجد النبوي، ويعود سبب ذلك لكبر سن والده مما جعله يجبر رجليه فتمتلئ بالتراب لذلك بلط هذا الممر، بل أمر معاوية مروان بتبليط كل المناطق المحيطة بالمسجد⁽¹⁾.

أبواب الحرم المكي:

وللحرم المكي تسعة عشر باباً: «باب بني شيبية، باب النبي، باب بني هاشم، باب الزياتين، باب البزازين، باب الدقاقين، باب بني محزوم، باب الصفا، باب زقاق الشطوي، باب التارين، باب دار الوزير، باب جواد، باب الحزورة، باب إبراهيم، باب بني سهم، باب بني جمح، باب العجلة، باب الندوة، باب البشارة»⁽²⁾.

كما اهتم معاوية بإجراء العيون في المدينة، حيث عهد لواليه عليها مروان ابن الحكم بإجراء العيون، من أشهرها عين الأزرق في قباء⁽³⁾، وعين الشهداء التي تسمى الكاظمة⁽⁴⁾، وعين أخرى عند مسجد الفتح⁽⁵⁾، واتخذ في المدينة مزارع

(1) ابن شبة: تاريخ المدينة المنورة، ج1، ص16-17؛ الحربي: إبراهيم (ت285هـ)، المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق: حمد الجاسر، الرياض: دار اليمامة، 1401هـ/1981م، ط1، ص1376؛ السماوي: ج1، ص301-302؛ السمهودي: وفاء الوفاء ج2، ص735.

(2) المقدسي: أحسن التقاسيم؛ ص37؛ وابن جبير: رحلة ابن جبير، ص58.

(3) المطري: محمد بن أحمد (ت741هـ): التعريف بما ألسنت الهجرة من معالم دار الهجرة، تحقيق: محمد بن عبدالمحسن الخيال، (د. ط، د، ت، ن، نشر: اسعد درايزوني الحسيني، د.م.ن)، ص60؛ المراغي: أبو بكر بن الحسين (ت816): تحقيق: النصره بتلخيص معالم دار الهجرة تحقيق: محمد بن عبدالجواد المدينة المنورة: المكتبة العلمية، (د، ط، د، ت، ن، ص77، السمهودي: ج3، ص985، 987؛ مالكي: سليمان مرافق الحج والخدمات المدنية للحجاج، الرياض: (1408هـ/1987م)، مطبوعات داره الملك عبدالعزيز، د.ط، ص61.

(4) ابن سعد: الطبقات، ج3، ص11، 524، 563؛ السمهودي: وفاء الوفاء ج2، ص937، ج4 ص1074. وتقع هذه العين في بدر.

(5) يقع مسجد الفتح غرب جبل سلع الواقع عمال المدينة ابن شبة: ج1، ص508 هامش،

له لعل أهمها شراء معاوية البغيغة⁽¹⁾، من أبناء عبدالله بن جعفر بن أبي طالب⁽²⁾.

وحرص معاوية على امتلاك الدور في المدينة، حيث اشترى بعض دور زوجات رسول ﷺ⁽³⁾ وكل ما وهبه رسول الله للصحابة مثل شرائه لهبة المقداد ابن عمرو⁽⁴⁾ في خيبر بمائة ألف درهم، أو شراء القطائع التي كانت اقطعها رسول الله ﷺ للصحابة في المدينة⁽⁵⁾.

وقد اتخذ معاوية دوراً له في المدينة دون توضيح هل قام ببنائها أم اشترها عامرة من ملاكها، حيث ورد ذكرها عرضاً، ومن أهمها دار النقضان⁽⁶⁾. ودار القطران ودار التمارين، كما اشترى دوراً أخرى من أهل المدينة⁽⁷⁾.

كما كانت هناك دور ذات طبيعة أخرى في عهدته اتخذها في المدينة، مثل قصر خل⁽⁸⁾، حيث كان الغرض الأساسي منه جعله حصناً لحماية المدينة⁽⁹⁾. واتخذ قصر حديلة⁽¹⁰⁾ للغرض نفسه⁽¹¹⁾.

السمهودي: ج3، ص854.

(1) بغيغة بدر لعلي بن أبي طالب ﷺ، تقع في ينبع غرب المدينة الحموي البلدان، ج1، ص469-470، البلادي عائق بن عيث: معجم معالم المجاز، مكة: دار مكة، 1399هـ/1979م، ط1، ج10، ص.

(2) السمهودي: وفاء الوفاء، ج3، ص801.

(3) ابن سعد: الطبقات، ج8، ص16-165؛ السمهودي: وفاء الوفاء، ج2، ص464.

(4) المقداد بن عمرو، شهد بدرأ واحداً، توفي عام (33هـ/653م)، ابن سعد: الطبقات، ج2، ص161.

(5) ابن سعد: الطبقات، ج3، ص163؛ ابن شبة: ج1، ص260-261؛ السمهودي: وفاء الوفاء، ج2، ص741.

(6) السمهودي: وفاء الوفاء، ج2، ص723، 749، وهذه الدور تقع في سوق المدينة الذي حدد ما بين المصلى الجنوبي -وما يقصد المسجد النبوي- إلى ثنية الوداع الواقعة قرب جبل سلع شمالاً.

(7) السخاوي: ج1، ص311؛ السمهودي: وفاء الوفاء، ج2، ص750-751.

(8) خل: موضع قبل جبل سلع، البلادي: معجم، ج3، ص142.

(9) ابن شبة: تاريخ المدينة المنورة، ج1، ص271؛ السمهودي: وفاء الوفاء، ج3، ص1962، ج4، ص1289-1290.

(10) حديلة: محلة بالمدينة وتعرف اليوم بقصر بني حديلة. الحموي: البلدان، ج2، ص232، البلادي: معجم، ج1، ص226، ج2، ص199.

(11) السمهودي: وفاء الوفاء، ج3، ص26-47.

أما في مكة فقد أرسل معاوية لواليه عليها مروان بن الحكم يأمره بتجديد أنصاب الحرم والاستعانة بكرز بن علقمة⁽¹⁾ لذلك العمل⁽²⁾.

وقام معاوية بن أبي سفيان بتجريد الكعبة، حيث كانت تطرح كسوتها فوق بعضها، وكساها بالديباج⁽³⁾، وأولى إضاءة المسجد الحرام اهتماماً خاصاً حيث أجرى لذلك الزيت والقناديل⁽⁴⁾. كما استحدث أمر بتطيب المسجد عند كل صلاة، فكان يبعث بالمحمر والخلوق⁽⁵⁾، في رجب وموسم الحج⁽⁶⁾.

وأمر معاوية بإجراء عشر عيون في مكة كلها في منطقة الحرم⁽⁷⁾. وبشراء أشهر الدور فيها وجعلها مساجد فمن ذلك دار رسول الله ﷺ⁽⁸⁾. ودار خديجة بنت خويلد⁽⁹⁾.

كما اتخذ معاوية دوراً عند المروة وجلب بنائين فرساً من العراق لبنائها⁽¹⁰⁾. ويبدو انه اتخذها مسكناً له بدليل أنه أقام بها عند قدومه مكة. كما اتخذ

(1) كرز بن علقمة بن عبدلهم (خزاعة) أسلم عام (8هـ/629م)، توفي عام (25هـ/665م)، ابن سعد: الطبقات، ج5، ص458.

(2) ابن سعد: الطبقات، ج5، ص458؛ الفاسي: شفاء، ج1، ص76، 87؛ السخاوي:، ج2، ص392.

(3) الديباج: ضرب من الثياب، المتخذة من الإبريسم. ابن الأثير: النهاية، ج2، ص92. ماده دبح؛ الأزرقى: ج1، ص266، الصباغ، محمد بن أحمد (ت 1321هـ.): تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام، (مخطوط بمكتبة جامعة الملك سعود)، الرياض: (1968م)، مصورة عن دار الكتب القومية، ورقة 37 أ.

(4) الأزرقى: أخبار مكة، ج1، ص301؛ ابن فهد: إتحاف، ج1، ص263؛ ابن فهد: عاية، ج1؛ ص167.

(5) الخلوq: طيب يتحد من الزعفران وأنواع أخرى من الطيب، ابن منظور: محمد بن مكرم (ت 711 هـ): لسان العرب، تحقيق: أمين عبدالوهاب ومحمد العبيدي بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1219هـ/1999م، ط3، ص197، مادة خلق.

(6) الفاسي: شفاء، ج1، ص205.

(7) الأزرقى: أخبار مكة، ج1، ص226-228؛ الفاكهي: أخبار مكة، ج3، ص241؛ ابن العاقولي، محمد (ت 797 هـ.): عرف الطيب في أخبار مكة والمدينة، القاهرة: مكتبة المدبولي، 1407هـ/1987م، ط1، ص55؛ ابن فهد: إتحاف، ج2، ص73؛ مالكي: ص61.

(8) الأزرقى: أخبار مكة، ج2، ص599؛ البلاذري: أنساب، ج5، ص67؛ الفاكهي: ج2، ص7-8؛ ابن العاقولي: ص107.

(9) الأزرقى: أخبار مكة، ج2، ص599؛ الفاسي: العقد، ج7، ص231؛ المقدسي: محمد بن أحمد (ت 832 هـ.): تحصيل المرام من تاريخ البلد الحرام (مكروفيلم رقم 953، جامعة الملك سعود، الرياض) ورقة 18؛ الصباغ: ورقة 163 هـ.

(10) الأصفهاني: الأغاني، ج2، ص741.

دوراً لأغراض متنوعة مثل دار المراحل التي خصصها لصنع طعام الحاج وطعام شهر رمضان⁽¹⁾، كما بنى معاوية داراً لأحد إخوته⁽²⁾.

كما أنشأ معاوية عدة حوائط له في مكة هي عبارة عن مزارع أجرى لها عيوناً وغرس النخل فيها⁽³⁾، كما حرص على شراء القطائع التي أقطعها رسول الله ﷺ في مكة⁽⁴⁾. ولعله جعلها أوقافاً في سبيل الله احتساباً للأجر. أما في عهد يزيد بن معاوية فقد كان له اهتمام بالحجاز رغم قصر مدة حكمه وما تخلله من فتن واضطرابات. فتذكر المصادر إرساله لكسوة الكعبة⁽⁵⁾. والحال نفسه مع مروان بن الحكم، فنتيجة لقصر فترة حكمه لا تسعفنا المصادر معلومات وافرة حول مظاهر اهتمامه بالمنشآت.

هدم الكعبة وعمارتها في أثناء الحصار الثاني:

وفيما يتعلق بالكعبة في عهد عبد الملك بن مروان فقد نصب الحجاج بن يوسف المنجنيق على جبل ابي قيس، وأخذ في رميها، فلما كسرت صاعقة المنجنيق، عاد الحجاج بمنجنيق آخر، وكان هذا هو الحصار الثاني لمكة بعد حصارها في عهد يزيد بن معاوية، وبعد مقتل ابن الزبير في عام (73هـ/692م) أراد الحجاج إعادة بناء الكعبة على ما كانت عليه، قبل أن يعيد ابن الزبير بناءها، بعد ضرب الحصين لها، فكتب إلى عبد الملك يخبره أن ابن الزبير زاد في الكعبة ما ليس منها، فأمره عبد الملك بتعديلها، قال ابن الأثير في حوادث عام (74هـ/693م) «وفيها هدم الحجاج بناء الكعبة الذي كان ابن الزبير بناه، وأعادها إلى البناء الأول، وأخرج الحجر منها⁽⁶⁾».

- (1) الأزرقي: أخبار مكة، ج2، ص634، 646، 663؛ الفاكهي: أخبار مكة، ج3، ص276-277.
- (2) الفاكهي: أخبار مكة في قديم الدهر، ج3، ص278، البلاذري: أنساب، ج9، ص383؛ الأصفهاني: الأغاني، ج1، ص210-211.
- (3) لمزيد من التفاصيل حول أشهر الحوائط التي اتخذها معاوية بن أبي سفيان، الأزرقي: أخبار مكة، ج2، ص625-627؛ الفاكهي: أخبار مكة في قديم الدهر، ج3، ص229، ج2، ص131، 125، 201 - 202، 217.
- (4) ابن بكار: جمهرة، ج1، ص378-379؛ ابن الجوزي: المنتظم، ج5، ص271؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج8، ص69-70؛ اليافعي، ج1، ص160.
- (5) الأزرقي: أخبار مكة، ج1، ص266. ويذكر الأزرقي أن يزيد بن معاوية أول من كسى الكعبة الدياج، وفي المقابل يذكر أن معاوية بن أبي سفيان كسى الكعبة المشرقة كسوتين كسوة القباطي وكسوة الديباج. الأزرقي: أخبار مكة، ج1، ص266، 270.
- (6) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج3، ص12؛ د. عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي، ص132-133.

قام الحجاج بن يوسف بنقض بناءها، وأعادها إلى قواعدها الأولى، وسد الباب الذي أحدثه ابن الزبير، وجعل الحجر الأسود من الخارج، بعد أن كان من الداخل، فكان بناء الحجاج للكعبة هو البناء الثاني منذ الإسلام، فلما فرغ منها، أرسل إليه عبدالمك كسوتها من الحرير، ثم وفد للحج⁽¹⁾.

عمارة المسجد النبوي:

من اعمال الوليد المعمارية عمارة المسجد النبوي، قال ابن الأثير في حوادث عام (88 هـ/706م) اوفي هذه العام كتب الوليد إلى عمر بن عبدالعزيز في ربيع الأول بأمره بإدخال حجر أزواج النبي ﷺ، في مسجد رسول الله ﷺ وأن يشتري ما في نواحيه حتى يكون مائتي ذراع في مائتي ذراع، ويقول له: قدم القبلة إن قدرت، وأنت تقدر لمكان أحوالك، وإنهم لا يخالفونك، فمن أبى منهم فقوموا ملكه قيمة عدل، واهدم عليهم، وادفع الأثمان إليهم، فإن لك في عمر وعثمان أسوة، فأحضرهم عمر وأقر أهم الكتاب، فأجابوه إلى الثمن.. وبني المسجد، وقدم عليه الفعلة من الشام.. وبعث الوليد إلى ملك الروم يعلمه أنه قد هدم مسجد النبي، ليعمره، فبعث إليه ملك الروم مائة ألف مثقال ذهب، ومائة عامل، وبعث إليه من الفسيفساء بأربعين جملا، فبعث الوليد بذلك إلى عمر بن عبدالعزيز، وحضر عمر ومعه الناس، فوضعوا أساسه، وابتدأوا بعمارته⁽²⁾.

وفي عمارة الوليد بن عبدالمك للمسجد كان اول عمل لعمر بن عبدالعزيز ﷺ ستر حجرة أم المؤمنين عائشة ؓ، التي بها القبور الشريفة، بهذا الحائز الخمس الذي اقترحه عليه عثمان بن عروة، ليخفف من حدة المعارضة التي قوبل بها عند هدمه لحجرات امهات المؤمنين وإدخالها في المسجد من قبل فقهاء المدينة المنورة، ويأتي بناء جدار القبلة كخطوة ثانية بعد تخميس الحجرة الشريفة، وحرص عمر بن عبدالعزيز على إقامة الاسطوانات في موضع الاسطوانات القديمة، وكانت تتألف من قطع حجرية مستديرة، توضع قطعة فوق أخرى حتى تؤلف «أسطوانة مستديرة كسوارى الرخام»، وكان يوضع

(1) د. عبدالمنعم ماجد: التاريخ السياسي، ص133؛ د. أحمد رجب محمد المسجد الحرام، ص: 20-22.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج2، ص13-14؛ جعفر بن السيد اسماعيل المدني البرزنجي: نزهة الناظرين في تاريخ مسجد سيد الأولين والآخرين، تحقيق: أحمد سعيد بن سلم، القاهرة: (1218هـ/1998م)، مكتبة بن سلمة المدينة المنورة، مكتبة الرفاعي، ط2، ص38-20.

بوسط الأحجار المدورة عمود من الحديد يسكب عليه الرصاص المذاب ليزيد من التحام القطع وقوتها، وقد استحدث عمر وجود المحراب لأول مرة في تاريخ المسجد، وشيد أربع مآذن للمسجد بواقع مئذنة في كل ركن، كما شيد الشرفات في المسجد لتحيط بأعلى جدران المسجد الخارجية بالإضافة إلى إحاطتها بصحن المسجد من الداخل أما المقصورة التي جدها بالساج فكانت مرتفعة، يدخل إليها من باب جدار القبلة الذي يؤدي إلى دار مروان، التي كانت دار الأمانة والتي كانت « تمتد في قبلة المسجد من باب السلام إلى دار آل عمر»، ولعل أبواب المسجد في هذه العمارة اقتصرت على الأبواب التي كانت في المسجد قبل عمارته، وقد استعمل عمر بن عبدالعزيز صالح بن كيسان على هدم المسجد وبناءه⁽¹⁾.

ولم يكتف عمر بن عبدالعزيز بعمارة المسجد النبوي بالأحجار النحيتة والقصة، كما لم يكتف أيضا بما أدخله على هذه العمارة من عناصر معمارية وزخرفية، وإنما عمد فوق هذا كله إلى استخدام أنواع كثيرة من اساليب الزخرفة والتي تتمثل في الأشرطة الكتابية المدونة بماء الذهب بالخط الكوفي واستخدامها في تزيين جدران المسجد الداخلية وكوشات العقود المطلة على الصحن، كما استخدمت الفسيفساء في زخرفة جدران المسجد النبوي كما هو الحال في المساجد التي شيّدت وعمرت في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك كالمسجد الأموي والمسجد الأقصى على سبيل المثال، وقد جلبت هذه الفصوص الزجاجية من بلاد الشام، أرسلها الوليد إلى المدينة المنورة مع عمال مختصين في تركيبها، فإن أهل الشام كانوا أصحاب مدرسة خاصة تتميز عن المدارس البيزنطية والرومانية السابقة والمعاصرة⁽²⁾.

وكان من الخطاطين الذين عملوا في المسجد في هذه العمارة خالد بن ابي الهياج، وذكر أن أحد موالي «الحويطب بن عبدالغزي يقال له سعد حطبة»، هو الذي كتب ما في جدار القبلة في عمارة الوليد، وساعد بن غزالة زياد بن عبدالله الحارثي في إتمام النص الذي نقضه داود بن علي عام (132هـ/749م)

(1) د. محمد هزاع: عمارة المسجد النبوي، ص ص113-127؛ د. أحمد رجب محمد علي: المسجد النبوي بالمدينة المنورة ورسومه في الفن الإسلامي، الدار المصرية اللبنانية، 1220م/2000م، ط1، ص ص29-52، محمد الياس عبدالغني: المساجد الأثرية في المدينة النبوية، المدينة المنورة: 1219هـ/1999م، ط2، ص19.

(2) د. محمد هزاع: عمارة المسجد، ص ص122-128.

من جدار صحن المسجد، وقد استخدم المرمر في تزيين جدران المسجد، ومهما يكن من أمر فقد ورد أن الوليد بن عبد الملك عندما ورد المدينة عام (91هـ/709م) « فرش له المسجد، وكشف عن الفسيفساء فجعل ينظر إلى حسنه وجاء الناس يهتئون به من كل ناحية»، وقد جاء السقف متناسقا مع جمال الجدران الداخلية المزينة بالفسيفساء والواح الرخام، حيث استخدم فيه خشب الساج المذهب، كذلك اهتم عمر بعمل الميازيب من الرصاص، وعمل الفوارة التي كانت عند دار يزيد بن عبد الملك⁽¹⁾.

أما في العهد الأموي فأول إشارة للإهداء للكعبة جاءت في خلافة يزيد ابن معاوية (60-64هـ/680-683م)، حينما بعث بهلالين وقدحين وقارورتين، والهلالان مرصعان بالكبريت الأحمر أي الياقوت الرمانى قيمتهما مائتا ألف دينار، وهما من الذخائر التي كانت محفوظة في الكنيسة بدمشق، وأما القدحان فأحدهما عقيق والآخر مها، والقارورتان من عقيق أيضاً ومن ياقوت.

وبعد ذلك بعث عبد الملك بن مروان (65-86هـ/685-705م) إلى الكعبة بشمستين⁽²⁾، وقدحين من قوارير، وضرب على الأسطوانة الوسطى صفائح الذهب من أسفلها إلى أعلاها⁽³⁾.

وبهذا فإن تاريخ الشمسة يعود إلى العهد الأموي، وتحديداً إلى خلافة عبد الملك، وليس كما يذكر بعض المؤرخين القدامى وتابعهم بعض المعاصرين

(1) د. محمد هزاع: عمارة المسجد، ص122.

(2) الشمس ضرب من الحلي من القلائد خاصة، وقيل معلاق القلادة في العنق، والجمع شמוש. وقد ورد ذكر قلائد الشمس فيلا شعر العصر الاموي وكانت تنظم من الدر والؤلؤ، قال الشاعر: الدر واللؤلؤ في شمسه مقلدٌ ظبي التصاوير، ابن أبي ربيعة، عمر ابن عبد الله (92هـ): ديوان عمر بن أبي ربيعة، د. ط، بيروت: دار صادر، د. ت، 100، 162، 212، 215، 216؛ ابن منظور: ج2، ص58؛ الفيروزآبادي: محمد ابن يعقوب (ت816هـ): القاموس المحيط، بيروت: دار الفكر، (1203هـ/1983م)، د. ط، ج2، ص222-223؛ الزبيدي: محمد مرتضى (ت1205هـ): تاج العروس من جواهر القاموس، بيروت: منشورات مكتبة الحياة، د. ت، د. ط، ج2، ص172؛ البابطين: الحياة الاجتماعية في مكة منذ ظهور الإسلام حتى نهاية العصر الاموي، ط1، ص381.

(3) الأزرقى: ج1، ص222؛ البيروني: ص67؛ الفاسي: شفاء، ج1، ص190؛ تحفة الكرام، ورقة 27، ب28؛ ابن ظهيرة: ص71؛ الأسدي: ص136؛ رفعت: ج1، ص278؛ قارن: الشيبى، محمد (ت1335هـ): إعلام الأنام بتاريخ بيت الله الحرام، تحقيق: إسماعيل حافظ، مكة المكرمة: مطبوعات نادي مكة الثقافي والأدبي، 1205هـ/1982م، ط1، ص217؛ باسلامه: ص210.

من أن تاريخ الشمسة يرجع إلى عهد الخليفة العباسي المتوكل على الله⁽¹⁾ (232-247هـ/846-861م)، وقد تعرض لذكر الشمسة بعض المؤرخين المعاصرين، غير أنهم وقعوا في بعض الأخطاء فيما يتعلق باللفظ، أو المعنى، فأوردوها بلفظ الشمسية، وفسروها على أنها كسوة الكعبة، وقد تتبع باحثون آخرون ذلك وتوصلوا إلى أن اللفظ الصحيح هو الشمسة وليست الشمسية، وأنها حلية ضخمة على هيئة الشمس، ولها اثنا عشر ذراعاً تشبه أشعة الشمس، ويرى بعضهم أن عدد ما يشبه أشعة الشمس فيها لم يكن مصادفة، وإنما قصد به تمثيل عدد شهور العام، فموسم الحج يحل بعد مضي اثني عشر شهراً أي عام كاملة، والأهلة الموجودة في نهاية الأشعة تمثل الشهور القمرية الهجرية، وكانت تعلق في وجه الكعبة في موسم الحج بخلاف الكسوة التي تغطي الكعبة كلها⁽²⁾.

وبعد عبد الملك بعث ابنه الوليد (86-96هـ/705-715م) بقدهين إلى الكعبة⁽³⁾، ومن المحتمل أن هذين القدهين كانا من المعادن الثمينة حتى يكون تعليقهما في الكعبة من باب التحلية لها. ويقال إن الحلية التي حتى بها الوليد الكعبة هي في الأصل من مائدة سليمان بن داود عليهما السلام، وكانت مصنوعة من ذهب وفضة وحملت إلى الوليد من طليطلة بالأندلس على ظهر بغل قوي فتفسخ تحتها، وكان لها أطواق من ياقوت وزبرجد⁽⁴⁾.

(1) المقرئزي: أحمد بن علي (ت825هـ): اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1387هـ/1967م، د. ط، ج1، ص121، وتعليقات المحقق في ص120، هامش1؛ الزيلعي: ص95. ولعلمهم أرادوا أن المتوكل هو أول من جعل إرسال الشمسة إلى الكعبة في كل سنة في موسم الحج سنة تسيير عليها الدول الإسلامية.

(2) الشيال، جمال الدين، محقق كتاب اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين، الخلفاء، ج1، ص121، هامش1؛ الزيلعي: ص96-98.

(3) الأزرقي: ج1، ص222؛ البيروني: ص67؛ الفاسي: شفاء، ج1، ص190؛ ابن ظهيرة: ص71؛ الأسدي: ص136؛ رفعت: ج1، ص278؛ باسلامة: ص211.

(4) السهيلي: ج1، ص222؛ الفاسي: شفاء، ج1، ص188؛ ابن فهد: ج2، ص119.

كما أهدى الوليد بن يزيد بن عبدالمك (125-126هـ/743-744م) إليها السيرير الزينبي وهلالين أيضاً⁽¹⁾. والسيرير الزينبي لا توضيح في المصادر المتاحة لشكله ولا صفاته ولا حليته، وحتى الهلالان لم تبين المصادر: هل كانا ذهباً أم نوعاً آخر من الجواهر! ويبدو أن السيرير الزينبي نُسب لزينب بنت الحسين ابن الحسن بن علي بن أبي طالب، وكانت زوجة الوليد بن عبدالمك، وهو خليفة⁽²⁾.

ومما يلاحظ أن هدية الوليد بن يزيد كتب عليهما: (بسم الله الرحمن الرحيم، أمر عبدالله الخليفة الوليد بن يزيد أمير المؤمنين في عام إحدى ومائة)⁽³⁾، وهي عبارة تفيد أن لمسألة الإهداء أهدافاً أخرى أبرزها إثبات سيادتهم الروحية والزمنية على مكة لجمهرة المسلمين. وقد استمرت هدية الوليد بن يزيد، وما كتب عليها محفوظاً في الكعبة حتى العهد العباسي حيث يذكر الأزرقي في عام 242هـ/658م عن بعض الحجة، وعن إسحاق بن سلمة الصايغ⁽⁴⁾ أنه قرأها حين خلق الكعبة⁽⁵⁾.

وقبل أن نختم حديث الإهداء للكعبة في العهد الأموي لا بد من الإشارة إلى أن الإهداء في ذلك العهد يثير التساؤل؛ فمعاوية بن أبي سفيان (41-60هـ/661-680م) الذي دامت خلافته حوالي عشرين عاماً لم يبلغنا أنه أهدى إلى الكعبة شيئاً، وهو صاحب الإنجازات العمرانية الكثيرة في مكة التي أشادت بذكرها المصادر لا سيما تواريخ مكة، على حين أن الوليد بن يزيد الذي لم تستغرق خلافته سوى عام واحدة أهداها السيرير والكرسي والهلالين! ويبدو أن معاوية لم يكن مقتنعاً بمسألة الإهداء للكعبة، هذا إذا لم تكن المصادر قد أغفلت أو تغافلت عن ذكرها، وهذا مما نستبعده، لاسيما وأنها أسهبت في ذكر منجزاته الأخرى التي لا تدخل في صلب هذا البحث.

(1) الأزرقي: ج1، ص222؛ الفاسي: شفاء، ج1، ص190؛ ابن فهد: النجم عمر (ت885هـ)؛ إتحاف الوري بأخبار أم القرى، ط1، ج2، ص132؛ ابن ظهيرة: ص71؛ الأسيدي: ص137؛ رفعت، ج1، ص278-279؛ باسلامة: ص210. وأضاف الفاسي الكرسي، وقال رفعت هو السيرير، ولدي ابن ظهيرة السيرير الرسي.

(2) الزبيدي: المصعب بن عبدالله (ت236هـ): نسب قريش، تحقيق: ليفي بروفنسال، القاهرة: دار المعارف، 1976م، ط2، ص52؛ ابن عساكر: علي بن الحسين (ت571هـ): تراجم النساء، تحقيق: سكيمة الشهابي، دمشق: 1203هـ/1982م، ط1، ص113.

(3) الأزرقي: أخبار مكة، ج1، ص222.

(4) لم يترجم له الفاسي في تراجم المكين، ولم نجد له ترجمة في المصادر المتيسرة، ويبدو من رواية الأزرقي (ت250هـ) أنه كان من المعاصرين له، وممن خلقوا الكعبة في ذلك العهد الأزرقي: أخبار مكة، ج1، ص222.

(5) الأزرقي: أخبار مكة، ج1، ص222.

المطلب الثالث: العمارة العسكرية:

استمر نظام حماية الحدود الذي كان معمولا به في العهد الراشدي تجاه جبهات المواجهة مع العدو في العصر الأموي وأن معاوية بن أبي سفيان والذي كان له باع طويل في حماية هذه الحدود يوم كان واليا» على الشام ومنذ عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان عليه أن يستمر في هذا النهج ويفتش عن أصول وقواعد ثابتة برا وبحرا لأنجاز متطلبات هذا العمل دعما للأستقرار والأمن وتوسيع رقعة الدولة من خلال عملية الفتوحات في المشرق والمغرب، وقد أعتمد نظام حماية الحدود في الدولة الأموية على القواعد الآتية:

نظام الصوائف والشواتي: عمد معاوية بن أبي سفيان والخلفاء الأمويون من بعده إلى العمل وفق هذا النهج من الحملات العسكرية الصيفية والشتوية المنتظمة برا وبحرا فالدولة الأموية أتخذت من دمشق عاصمة لها وأصبحت بذلك قريبة من الحدود البيزنطية ولذلك كان عليها الأستيلاء على حصون العدو الحدودية وترتيب القوات المرابطة فيها ولعل أهم الحصون التي أستولى عليها العرب في عهد معاوية بن أبي سفيان (41-60هـ) هو حصن ملطية⁽¹⁾، فالبيزنطيون باتوا يشكلون خطرا كبيرا على حدود الدولة سيما وأن هذا العدو كان يحلم بأستعادة هذه الأرض الغالية التي فقدوها الى الأبد أثناء عمليات تحريرها من قبل العرب المسلمين في العهد الراشدي، وحملت هزيمتهم في معركة اليرموك عام (15هـ) أمبراطورهم على اليأس من أسترجاع بلاد الشام مرة أخرى من أيدي المسلمين فقد ذكر البلاذري أنه لما بلغ هرقل خبر أهل اليرموك وأيقاع المسلمين بجنده هرب من أنطاكية الى القسطنطينية، فلما جاوز الدرب قال: «عليك ياسورية السلام ونعم البلد هذا للعدو»⁽²⁾.

إذا والحالة هذه كان لابد من مواجهة القوة بالقوة، فكان نظام الصوائف والشواتي للدفاع عن الثغور الأسلامية أي مناطق الحدود التي تتكون من سلسلة جبال شاهقة فيها جبل اللكام (أمانوس) الممتد على طول الثغور من البحر المتوسط حتى بحر قزوين وكانت الثغور تتألف من جناحين أحدهما من ناحية الشام عرف بثغور الشام أو الثغور الشامية والأخر من ناحية الجزيرة عرف بثغور الجزيرة، فكانت ثغور الشام للدفاع عن أقليم الشام

(1) البلاذري: فتوح البلدان، ص 189.

(2) البلاذري: فتوح البلدان، ص 142.

والأغارة على أرض البيزنطيين في أسيا الصغرى وثور الجزيرة للدفاع عن شمال العراق وللحملات التي تقوم منه على بيزنطة⁽¹⁾، حيث الحصون العديدة في الجبال او مسالح المراقبة او المدن الحصينة على ملتقى الطرق مثل منبج وأنطاكية وطرطوس وأذنة ومرعش والمصيصة وملطية⁽²⁾.

أن المتتبع لهذه الحملات يجد أنها أخذت طابعا منتظما للخروج ابتداء من عام (43هـ)، فهي حملات سنوية يمكن القول عنها أن هدفها الدفاع عن الثغور الإسلامية أو لزحزحة العدو الى السوراء والأستيلاء على حصونه التي كانت تواجه حصون المسلمين فهي تغزو الروم بأهل الشام والجزيرة صائفة وشتائية مما يلي الثغور الشامية والجزيرة⁽³⁾، ولم تتوقف هذه الحملات البرية والبحرية إلا فترة قصيرة في خلافة عمر بن عبدالعزيز (99-101هـ)، عندما فكر بأخلاء الثغور الشامية وهدم الحصون بين المصيصة وأنطاكية وكان يخشى أن يحاصر الروم هذه المناطق، ولكنه تراجع عن هذا القرار بعدما أشعر من قبل المسلمين أن وجود هذه الحصون ما هو الأحمائية لحدود الدولة من غارات الروم البيزنطيين ودفاعا لهم عن أنطاكية وأن إخلاءها يعني كشفا لساحة الدولة أمام العدو فتوقف عن ذلك وتراجع⁽⁴⁾.

وكذلك الحال في المشرق عندما أمر عبدالرحمن بن نعيم الغامدي واليه على خراسان بأن يسحب المسلمين من بلاد ما وراء النهر ويوقف حملاته العسكرية هناك إلا أن العرب في سمرقند رفضوا الأنسحاب بحجة عدم أتساع مرو لكل العرب تتحلى أيضا عن فكرته بعد أن أستقبل وفدا من أهل سمرقند الأصليين⁽⁵⁾، ولكنه أي الخليفة لم يتخلى عن فكرته بسحب الجيوش المحاصرة للقسطنطينية والتي أنطلقت لفتحها في خلافة سليمان بن عبدالملك (96-99هـ) فأمر قائد الجيوش هناك مسلمة بن عبدالملك بالأنسحاب والعودة الى الشام بعد أن وجه اليه تموينات كثيرة وأمدادات تساعده على الأنسحاب الأمن⁽⁶⁾.

(1) المصدر نفسه، ص187.

(2) المصدر نفسه.

(3) البعقوبي: تاريخ اليعقوبي، 193، 212، 214/1؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 6/202، 321، 330.

(4) البلاذري: فتوح البلدان، 196-198.

(5) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، 32/45.

(6) البلاذري: فتوح البلدان، ص161.

ولكن يبدو أن الأمر مختلف هنا فعلى الرغم من أستعداد العرب وتجهيزهم بالمواد التموينية، لكن طول أمد الحصار وهجوم الشتاء وسوء الأحوال الجوية أدى الى قلة القوات فضلا عن أستخدام البيزنطيين للنار الأخرقية التي دمرت قطعاً كثيرة من الأسطول العربي وشنت العواصف ما تبقى منه⁽¹⁾ كان السبب وراء اتخاذ الخليفة عمر بن عبدالعزيز قراره بإرجاع تلك القوات.

الصلح مقابل المال وهي وسيلة أستخدمها الخلفاء الأمويون في حالات الأنتكاسات والأخطار والتي لا قبل للجيوش الأموية من أيقاف تلك الأخطار على الحدود ففي الفترة التي سبقت قيام الخلافة الأموية بقليل وأثناء النزاع بين علي بن أبي طالب عليه السلام ومعاوية بن أبي سفيان، أضطر الأخير على عقد هدنة مع الإمبراطور البيزنطي قنسطانز وأتباعه من الجراجمة على أن يدفع لهم مالا عبارة عن أثاره لضمان سلامة أرض المسلمين⁽²⁾، فصالحوا المسلمين على أن يبقوا على دينهم وأنتقل بعضهم الى جبال لبنان فهم تارة يظهرون المسلمين وقت القوة وينقلبون مع الروم في حال ضعف قوة المسلمين⁽³⁾.

وقد أستخدمت الدولة الأموية هذا الأسلوب في أوقات الفتن والأضطرابات، فعندما أنتكس الميدان الحربي بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان، وأستمرت حالة الانتكاس هذه حتى شملت معظم عهد خلافة عبدالملك بن مروان (65-86هـ) وأنتهز الروم البيزنطيين الفرصة بمهاجمة ثغور المسلمين والأستيلاء عليها⁽⁴⁾، ومهاجمة السواحل الشامية وهدم المدن المطلة على الساحل مثل صور وعكا وعسقلان⁽⁵⁾، وأزاء هذا الوضع أضطر المسلمون على شراء سلامة حدود دولتهم بالمال، فقد صالح عبدالملك ملك الروم على أن يؤدي له في كل جمعة ألف دينار خوفا على المسلمين⁽⁶⁾.

ولكن عندما توفرت الظروف الملائمة لأستخدام القوة لحماية حدود الدولة وأعادة الأمور الي نصابها عمل عبدالملك على أسترداد ما أستولى عليه البيزنطيون من ثغور المسلمين وأعاد نظام الصوائف والشواتي وحصن القلاع وأرفدها بالمال والسلاح والأفراد⁽⁷⁾.

(1) المصدر نفسه، 159-160

(2) المصدر نفسه، ص 163-164

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه، ص 189.

(5) المصدر نفسه، ص 164.

(6) البلاذري: فتوح البلدان، ص 207-208

(7) المصدر نفسه، 164.

وهكذا سار نظام حماية الحدود بقسميها الحربي والمالي جنباً الى جنب مع حركة الفتح الإسلامي فجاء نظاماً «أسلامياً» يتماشى مع ما أمر به الإسلام من وجوب مرابطة الغزو في نور الأعداء.

الاستقرار السكاني في مناطق الحدود أسلوب أتبعته الدولة في العصر الأموي لمليء مناطق الثغور البحرية والبرية بالناس من العرب وغيرهم ومن خلال إنشاء قواعد ثابتة للمرابطة يربط فيها المجاهدون بصفة دائمة وتوفير جميع مستلزمات الاستقرار لهم من خلال فرض العطاء لهم وأدامة الأراضي الزراعية، حتى أصبحت هذه القواعد الحدودية أو الربط أماكن يقصدها المسلمون للجهاد في سبيل الله⁽¹⁾.

وأصبحت مدينة مرو وهي عاصمة خراسان قاعدة عسكرية للعرب في خراسان وتنقل الى هذه البلاد خمسين ألف مقاتل بعيالاتهم من الكوفة والبصرة وشكلوا قاعدة أستقرار عربي مهمة في المشرق دفاعاً عن الحدود الشرقية للدولة في هذا العصر⁽²⁾، وقد حققت هذه الوسيلة أهدافها حتى أن ملكة نجارى خاتون طالبت بالصلح والرضوخ لقوة المسلمين وتعهدت بدفع مبلغ كبير من المال اليهم⁽³⁾.

مهاجمة عاصمة البيزنطيين وهو أسلوب آخر اتبعه الأمويون لأضعاف البيزنطيين وجعلهم في موضع الدفاع دون الهجوم واشعارهم بقوة المسلمين، فكان أن هوجمت القسطنطينية عاصمتهم مرتين خلال العصر الأموي الأولى كانت في خلافة معاوية بن أبي سفيان والأخرى في خلافة سليمان بن عبد الملك⁽⁴⁾.

وإذا كانت الحملة الأولى قد لاقت صعوبات كبيرة في دك أسوار القسطنطينية وحرقت سفنهم بالنار اليونانية فقد عرفوا في الحملة الثانية سر هذه النار، كما انهم أعادوا السيطرة على جزيرة قبرص وهاجموا جزيرة قوصرة واستولوا عليها⁽⁵⁾، وأصبحت قاعدة عسكرية من قواعد الأسطول العربي، وأعطيت قيادة الحملة الى مسلمة بن عبد الملك وكان سليمان بن عبد الملك يشرف بنفسه على إدارة العمليات⁽⁶⁾.

(1) ياقوت: معجم البلدان، 2/80 مادة ثغر.

(2) البلاذري فتوح البلدان، ص 400.

(3) المصدر نفسه، ص 401

(4) المصدر نفسه.

(5) البكري: المسالك ص 45.

(6) المصدر نفسه، ص 45.

الخاتمة

عمل هذا الكتاب على إظهار العلاقات سواء الاجتماعية أو الاقتصادية أو الثقافية (العلمية) حتى السياسية بين بلاد الحجاز منذ العصر الأموي وبين البلاد التي وصلها الفتح الإسلامي من العام 41هـ حتى نهاية العصر الأموي عام (132هـ/750م).

كما تمت مناقشة موضوع أثر تنظيمات الحج على الحياة العامة في الحجاز خلال العصر الأموي الممتد من العام 41هـ / 661م.

وبينت الكتاب اهتمام وعناية الخلفاء الأمويون ببلاد وأهالي الحجاز من خلال ما تقدمه من تسهيلات وخدمات ومساعدات وانجازات لمهمة الحج وتوفير الحماية اللازمة لطرقه وضمان وصول الحجاج للحرمين والعودة إلى بلدانهم سالمين ، وتناولت هذه الدراسة التغيرات الكبيرة التي حصلت في الأوضاع الاقتصادية للحجاز نتيجة قدوم الحجيج من بلدان الفتح الإسلامي وما يحملونه من أمتعة وسلع وصادرات يتاجرون بها في مواسم الحج كان لها الأثر في ازدهار الأسواق وانتعاش التجارة خلال تلك الفترة ، أيضا استقرار المسلمين بها؛ وأوضحت الدراسة التغيرات الاجتماعية؛ إذ اختلط غير العرب بالحجازيين، وهاجر كثير من الحجاز واستقر بعضهم بالبلدان التي وصلها الفتح، وعاد بعضهم الآخر إلى الحجاز. ولا شك أن ذلك التواصل الاجتماعي قد طبع العلاقات الحجازية، وأدى إلى حدوث تقارب بين الحجاز وبين كثير من بلدان العالم الإسلامي في العادات والتقاليد.

هناك بعض التغيرات الاجتماعية التي صاحبت قدوم وفود الحجاج من شتى البلدان الإسلامية إلى الحجاز، ومن ذلك تغير أساليب حياتهم، وتحسن أحوالهم الاجتماعية لتحسن ظروفهم الاقتصادية.

وهذا الكتاب يعد محاولة لتسليط الضوء على جانب من جوانب الحج وأثاره على العلاقات بين الحجاز وبلدان العالم الإسلامي، إبان فترة مهمة من التاريخ الإسلامي، فيها كانت البداية والتطور لتلك العلاقات. ولعلها تكون حافزا لدراسات أوسع وأشمل عن العلاقات الحجازية ببلدان العالم الإسلامي وما تلاه من عصور.

الملاحق

جداول توضح من تولى إمارة الحج في العصر الأموي:

جدول رقم (10): العهد السفيفاني من الخلفاء وإخوانهم وأبنائهم

م	أمير الحج	الفترة	الخليفة	نوع القرابة	ملاحظات حول إمارة الحج
1	عتبة بن أبي سفيفان	41	معاوية	أخوه	وقيل بل هو عنبسة ⁽¹⁾
2	عنبسة بن أبي سفيفان ⁽²⁾	42	معاوية	أخوه	
3	معاوية بن أبي سفيفان ⁽³⁾	44	معاوية	نفسه	
4	عتبة بن أبي سفيفان ⁽⁴⁾	46	معاوية	أخوه	
5	عنبسة بن أبي سفيفان ⁽⁵⁾	47	معاوية	أخوه	وقيل بل هو عتبه بن أبي سفيفان ⁽⁶⁾
6	يزيد بن أبي سفيفان	50	معاوية	ابنه	وقيل بل حج بهم معاوية ⁽⁷⁾
7	معاوية بن أبي سفيفان ⁽⁸⁾	51	معاوية	نفسه	وقيل بل ابنه يزيد ⁽⁹⁾

- (1) خليفة: تاريخ، 205؛ الطبري: الرسل والملوك، 6/ 98؛ ابن الأثير: الكامل، 3/ 419.
- (2) خليفة: مصدر سابق، 205؛ الطبري: مصدر سابق، 6/ 103؛ ابن الأثير: مصدر سابق: 3/ 424.
- (3) خليفة: مصدر سابق: 207؛ الطبري: مصدر سابق: 6/ 123؛ ابن الأثير: مصدر سابق: 3/ 446.
- (4) خليفة: مصدر سابق: 208؛ الطبري: مصدر سابق: 6/ 129؛ ابن الأثير: مصدر سابق: 3/ 454.
- (5) خليفة: مصدر سابق: 201؛ الطبري: مصدر سابق: 6/ 130.
- (6) أرى أن الخلاف بين عنبسة وعتبة بين المؤرخين إنما مرده إلى تشابه رسم الاسم.
- (7) خليفة: مصدر سابق: 211؛ الطبري: مصدر سابق: 6/ 134؛ ابن الأثير: مصدر سابق: 3/ 47.
- (8) خليفة: مصدر سابق: 218.
- (9) الطبري: مصدر سابق: 6/ 161؛ ابن الأثير: مصدر سابق: 3/ 490.

م	أمير الحج	الفترة	الخليفة	نوع القرابة	ملاحظات حول إمارة الحج
8	الوليد بن عتبة ⁽¹⁾	58+56	معاوية	ابن أخيه	
9	عثمان بن محمد بن أبي سفيان ⁽²⁾	59	معاوية	ابن أخيه	
10	الوليد بن عتبة ⁽³⁾	62+61	يزيد	ابن عمه	وقيل بل حج في هذه العام عثمان بن محمد بن أبي سفيان ⁽⁴⁾

- (1) (5) خليفة: مصدر سابق: 224-225؛ الطبري: مصدر سابق: 6 / 168-172؛ ابن الأثير: مصدر سابق: 3 / 514-520.
- (2) خليفة: مصدر سابق: 227؛ الطبري: مصدر سابق: 6 / 179؛ ابن الأثير: مصدر سابق: 3 / 525.
- (3) خليفة: مصدر سابق: 235؛ الطبري: مصدر سابق: 7 / 273، 7 / 5؛ ابن الأثير: مصدر سابق: 4 / 101-110.
- (4) خليفة: مصدر سابق، 235.

جدول رقم (11): من تولى إمارة الحج في العهد السفيفاني

من آلي أبي العاص بن أمية (أبناء العمومة)⁽¹⁾.

م	أمير الحج	الفترة	الخليفة	ملاحظات حول إمارة الحج
1	مروان بن أبي الحكم بن أبي العاص ⁽²⁾	45= 43 54=48= 55=	معاوية	وقيل أن الذي حج في عام 48 سعيد بن العاص ⁽³⁾
2	سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص ⁽⁴⁾	53=52=49	معاوية	
3	عمرو بن سعيد بن العاص، المعروف بالأشدرق ⁽⁵⁾	60	يزيد	

جدول رقم (12): من تولى إمارة الحج في العهد السفيفاني من ثقيف ممن يرتبط بهم برباط المصاهرة

م	أمير الحج	الفترة	الخليفة	ملاحظات حول إمارة الحج
1	المغيرة بن شعبة الثقفي ⁽⁶⁾	40	معاوية	

- (1) الجدول رقم: 17 نسب بنو أمية ص75.
- (2) خليفة: تاريخ، 206، 207، 223؛ الطبري: مصدر سابق، 6 / 121، 128، 130، 167، 168؛ ابن الأثير: مصدر سابق، 3 / 439.
- (3) خليفة: مصدر سابق: 209.
- (4) خليفة: مصدر سابق، 209، 218، 222؛ الطبري: مصدر سابق، ج6، ص130، 161، 164؛ ابن الأثير: مصدر سابق، 3 / ص-492 496.
- (5) خليفة: مصدر سابق، 233؛ الطبري: مصدر سابق، 6 / 226؛ ابن الأثير: مصدر سابق 43 / 4.
- (6) الطبري: مصدر سابق: 6 / 92؛ ابن الأثير: مصدر سابق: 3 / 402 وقيل أنه تزوج من أمية بنت أبي سفيفان أخت الخليفة. البلاذري: أنساب الأشراف، 1 / 5.

جدول رقم (13): من تولى إمارة الحجفي العهد المرواني من الخلفاء وإخوانهم وأبنائهم⁽¹⁾

م	أمير الحج	الفترة	الخليفة	نوع القرابة	ملاحظات حول إمارة الحج
1	عبدالمك بن مروان ⁽²⁾	75	عبدالمك	نفسه	
2	الوليد بن عبدالمك ⁽³⁾	78	عبدالمك	ابنه	
3	سليمان بن عبدالمك ⁽⁴⁾	81	عبدالمك	ابنه	
4	عمر بن عبدالعزيز بن مروان ⁽⁵⁾	88=87	الوليد	ابن عمه	
5	الوليد بن عبدالمك ⁽⁶⁾	91	نفسه		
6	عمر بن عبدالعزيز ⁽⁷⁾	92	الوليد	ابن عمه	
7	عبدالعزيب بن الوليد بن عبدالمك ⁽⁸⁾	93	الوليد	ابنه	
8	مسلمة بن عبدالمك	94	الوليد	أخوه	ويقال بل حج بالناس عبدالعزيب بن الوليد ⁽⁹⁾

- (1) الجدول رقم: 17 / 18 نسب بنو أمية ص 75-76.
- (2) خليفة: مصدر سابق: 272؛ الطبري: مصدر سابق: 7 / 214؛ ابن الأثير: مصدر سابق: 391 / 4.
- (3) خليفة: مصدر سابق: 277؛ الطبري: مصدر سابق: 7 / 281؛ ابن الأثير: مصدر سابق: 448 / 4.
- (4) خليفة: مصدر سابق: 281؛ الطبري: مصدر سابق: 8 / 11؛ ابن الأثير: مصدر سابق: 466 / 4.
- (5) خليفة: مصدر سابق: 301، 302، 303؛ الطبري: مصدر سابق: 8 / 64، 66، 67؛ ابن الأثير: مصدر سابق: 4 / 530، 534، 540، 548.
- (6) خليفة: مصدر سابق: 303؛ الطبري: مصدر سابق: 8 / 81؛ ابن الأثير: مصدر سابق: 554 / 4.
- (7) الطبري: مصدر سابق: 8 / 82؛ ابن الأثير: مصدر سابق: 4 / 569.
- (8) خليفة: مصدر سابق: 305؛ الطبري: مصدر سابق: 8 / 90؛ ابن الأثير: مصدر سابق: 578 / 4.
- (9) خليفة: مصدر سابق: 306؛ الطبري: مصدر سابق: 8 / 95؛ ابن الأثير: مصدر سابق: 582 / 4.

م	أمير الحج	الفترة	الخليفة	نوع القراية	ملاحظات حول إمارة الحج
9	بشر بن الوليد بن عبد الملك ⁽¹⁾	95	الوليد	ابنه	
10	سليمان بن عبد الملك ⁽²⁾	97	نفسه		

(1) خليفة: مصدر سابق: 309؛ الطبري: مصدر سابق: 8 / 96؛ ابن الأثير: مصدر سابق: 4 / 591.

(2) خليفة: مصدر سابق: 314؛ الطبري: مصدر سابق: 8 / 117؛ ابن الأثير: مصدر سابق: 5 / 26.

خريطة رقم (3) 1



(1) المغلوث، سامي عبدالله، أطلس الحج والعمرة، الطبعة الأولى، الرياض 1431هـ /

2010م

خريطة رقم (5) 1



(1) المغلوث ، سامي عبدالله ، أطلس الحج والعمرة ، الطبعة الاولى ، الرياض 1431هـ /

2010م

خريطة رقم (6)¹



(1) المغلوث , سامي عبدالله , أطلس الحج والعمرة , الطبعة الاولى , الرياض 1431هـ / 2010م

المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: السنة النبوية المطهرة.

ثالثاً: الكتب المصدرية.

- (1) ابن أبي الدنيا، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي (ت 281هـ).
- (2) _____ هواتف الجنان، المحقق محمد الزغلي، 1416هـ، ط1.
- (3) _____ العقوبات، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، بيروت، 1416 هـ - 1996 م، ط1.
- (4) _____ العزلة والانفراد، تحقيق مسعد عبد الحميد محمد السعدني، القاهرة: مكتبة الفرقان - 1417هـ، ط1.
- (5) ابن أبي حاتم، عبد الرحمن (ت 327 هـ)
- (6) _____ الجرح والتعديل، بيروت: دار إحياء التراث، 1952م، ط1.
- (7) ابن أبي شيبه، عبد الله بن محمد (ت 235 هـ) المصنف، تحقيق كمال الحوت، الرياض: مكتبة الرشد، 1409هـ، ط1.
- (8) ابن أبي شيبه، عبد الله بن محمد (ت 235 هـ) المصنف، تحقيق كمال الحوت، الرياض: مكتبة الرشد، 1409هـ، ط1.
- (9) ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (ت 630هـ) أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق علي معوض وعادل عبد الموجود، بيروت: دار الكتب العلمية، (د.ت)، ط1.
- (10) _____ الكامل في التاريخ، تحقيق عبدالله القاضي، بيروت: دار الكتب العلمية، 1987م، ط1.
- (11) _____ اللباب في تهذيب الأنساب، بيروت: الناشر: دار صادر - بدون تاريخ طباعة وسنة نشر.

- (12) ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي (ت 597 هـ) المنتظم، دار صادر بيروت، ط1، 1358 هـ .
- (13) ابن الشجري، هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة الحسني العلوي (ت 450 هـ)
- (14) _____ الأمالي الخميسية، تحقيق محمود محمد الطناحي، مصر: مكتبة الخانجي، 1413 هـ - 1992 م، ط1.
- (15) ابن الظاهري، أحمد بن محمد بن عبد الله، أبو العباس، جمال الدين، الحنفي (ت 696 هـ).
- (16) مشيخة ابن البخاري، تحقيق د. عوض عتقي سعد الحازمي، مكة/السعودية: دار عالم الفوائد، 1419 هـ، ط1.
- (17) ابن العديم، عمر بن أحمد (ت 660 هـ) بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق الدكتور سهيل زكار، دار الفكر، (د.ت)، ط1.
- (18) ابن حبان، محمد (ت 354 هـ) المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين، تحقيق محمود زايد، حلب: دار الوعي (د.ت)، ط1.
- (19) ابن حبيش، عبد الرحمن بن محمد، (ت 584 هـ) كتاب الغزوات والفتوح، تحقيق أحمد عنيم، 1403 هـ/1983 م، ط1.
- (20) ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت 852 هـ) تقريب التهذيب، تحقيق محمد عوامة، سوريا: دار الرشيد، 1986 م، ط1.
- (21) _____ فتح الباري في شرح صحيح البخاري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب، بيروت: دار المعرفة، 1379 هـ، ط1.
- (22) _____ المجمع المؤسس للمعجم المفهرس، تحقيق يوسف عبد الرحمن المرعشلي، بيروت: دار المعرفة، 1415 هـ، ط.
- (23) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي القرطبي الظاهري، (ت 456 هـ).
- (24) _____ جوامع السيرة النبوية، تحقيق عبدالكريم سامي الجندي، بيروت: دار الكتب العلمية، 2003 م، ط1.

- (25) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت 808 هـ) المقدمة، بيروت: دار القلم ، 1984م، ط5.
- (26) ابن خلكان، أحمد بن محمد (ت 681 هـ) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، لبنان: نشر دار الثقافة، (د.ت)، ط1.
- (27) ابن خياط، خليفة (ت 240 هـ) تاريخه، تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري، بيروت: دار القلم، دمشق، 1397 هـ، ط2 .
- (28) _____ الطبقات، تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري، الرياض: دار طبية، 1982م، ط2.
- (29) ابن زبر، محمد بن عبد الله (ت 397 هـ) مولد العلماء ووفياتهم، تحقيق عبد الله بن سليمان الحمد، الرياض: دار العاصمة، 1410هـ، ط1.
- (30) ابن سعد، محمد (ت 230 هـ) الطبقات الكبرى، بيروت: طبعة دار إحياء التراث العربي، 1996 م، ط1.
- (31) _____ الطبقات الكبرى، بيروت: طبعة دار صادر (د.ت)، ط1.
- (32) _____ الطبقات الكبرى، القسم المتمم، تحقيق زياد منصور، المدينة المنورة: دار العلوم والحكم ، 1408هـ، ط2.
- (33) ابن شعبة، عمر (ت 262 هـ) تاريخ المدينة، تحقيق فهيم شلتوت، (د.ت)، ط1.
- (34) ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله عبد الحكم بن أعين القرشي المصري فتوح مصر وأخبارها، تحقيق محمد الحجيري، بيروت: 1416هـ / 1996م، ط1.
- (35) ابن عدي، عبد الله بن عدي (ت 365 هـ) الكامل في ضعفاء الرجال، تحقيق يحيى مختار غزاوي، بيروت: دار الفكر، 1988 م، ط3.
- (36) ابن عساكر، علي بن الحسن (ت 571 هـ) تاريخ مدينة دمشق، تحقيق عمر بن غرامة العمروي، دمشق: دار الفكر ، 1995م، ط5.
- (37) _____ معجم الشيوخ، تحقيق الدكتورة وفاء تقي الدين، دمشق: دار البشائر ، 2000م، ط1.

- (38) ابن كثير، إسماعيل بن عمر (ت 774 هـ) البداية والنهاية، بيروت دار المعارف (د.ت)، ط1.
- (39) _____ التفسير، بيروت: دار الفكر، 1401هـ، ط1.
- (40) ابن ماكولا، علي بن هبة الله (ت 475 هـ) الإكمال، بيروت: دار الكتب العلمية، 1411هـ، ط1.
- (41) ابن منده، محمد بن إسحاق (ت 395 هـ) فتح الباب في الكنى والألقاب، تحقيق نظر بن محمد الفاريابي أبو قتيبة، الرياض: 1417هـ، ط1.
- (42) الأصبهاني، العماد محمد بن محمد (ت 597 هـ) خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء الشام)، تحقيق شكري فيصل، نشر المجمع العلمي بدمشق، ط1، 1955م.
- (43) ابن منظور، محمد بن مكرم (ت 711 هـ) تهذيب تاريخ دمشق، تحقيق روية النحاس، ورياض عبدالحميد ومحمد الحافظ، دار الفكر، 1984م، ط1.
- (44) ابن ناصر الدين، محمد بن عبد الله (أبي بكر) بن محمد ابن أحمد بن مجاهد القيسي الدمشقي الشافعي، شمس الدين، الشهير بابن ناصر الدين (ت 842 هـ) توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، بيروت: مؤسسة الرسالة، 199م، ط1.
- (45) ابن هشام، عبدالملك بن هشام (ت 218 هـ) السيرة النبوية، تحقيق طه عبدالرؤف سعد، بيروت: دار الجيل، 1411هـ، ط1.
- (46) أبو عبيد، القاسم بن سلام بن عبد الله الهروي البغدادي (ت 224 هـ) كتاب الأموال، تحقيق خليل محمد هراس، بيروت: 1401هـ، ط1.
- (47) أبي زرعة الدمشقي، عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان النصري الملقب بشيخ الشباب (ت 281 هـ). تاريخ أبي زرعة الدمشقي، تحقيق خليل المنصور، بيروت: 1417هـ، ط1.

- (48) الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبدالله بن إسحاق بن موسى (ت 430 هـ) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مصر: 1394هـ، ط1. طرق حديث إن لله تسعة وتسعين اسماً، تحقيق مشهور بن حسن بن سلمان، المدينة المنورة: مكتبة الغرباء الأثرية، 1413هـ، ط1.
- (49) _____ صفة الجنة، تحقيق علي رضا عبد الله بن علي رضا، دمشق: دار المأمون للتراث، 1415هـ/1995م، ط1.
- (50) الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت 356 هـ) الأغاني، تحقيق علي مهنا وسمير رجب، بيروت: دار الفكر، (د.ت)، ط1.
- (51) الأنباري، محمد بن القاسم بن بشار أبو بكر (ت 328 هـ) الزاهر في معاني كلمات الناس، تحقيق حاتم صالح الضامن، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1987م، ط2.
- (52) الأندلسي، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري (ت 487 هـ) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، بيروت: 1403هـ، ط3.
- (53) البخاري، محمد بن إسماعيل (ت 256 هـ) التاريخ الكبير، تحقيق هاشم الندوي، بيروت: دار الفكر، ط1.
- (54) البزار، أحمد بن عمرو (ت 292 هـ) المسند، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله، بيروت: مؤسسة علوم القرآن، 1409هـ، ط1.
- (55) البغدادي، أبو القاسم عبد الملك بن محمد بن عبد الله بن بشران بن محمد بن بشران بن مهران (ت 430 هـ).
- (56) _____ أمالي ابن بشران، تحقيق أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف العزازي، الرياض: 1418هـ، ط1.
- (57) البغدادي، أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي، بالولاء، (ت 245 هـ) المحبر، تحقيق: إيلزة ليختن شتيتير، بيروت: بدون سنة النشر.
- (58) البغدادي، أبو محمد الحارث بن محمد بن داهر التميمي الخصب المعروف بابن أبي أسامة (ت 282 هـ)

- (59) _____ بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، تحقيق حسين أحمد صالح الباكري، المدينة المنورة: 1431هـ، ط1.
- (60) البغدادي، محب الدين بن النجار (ت 643هـ) المستفاد من ذيل تاريخ بغداد، تحقيق محمد مولود خلف، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1406هـ، ط.
- (61) البغدادي، الخطيب أحمد بن علي (ت 463 هـ) تاريخ بغداد، بيروت: دار الكتب العلمية، (د.ت)، ط1 .
- (62) البغوي، أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن المَرْزُبَان بن سابور بن شاهنشاه (ت 317هـ) معجم الصحابة، تحقيق محمد الأمين بن محمد الجكني، الكويت: مكتبة دار البيان، 1421هـ/2000م، ط1.
- (63) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود (ت 276 هـ) فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، بيروت: دار الكتب العلمية، 1403هـ، ط1.
- (64) _____ جمل من أنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي، بيروت: 1417هـ/1996م، ط1.
- (65) بن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن (ت 321هـ) جمهرة اللغة، تحقيق رمزي منير بعلبكي، بيروت: 1987م، ط1.
- (66) البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسرُوْجُردي الخراساني، (ت 458هـ) شعب الإيمان، تحقيق عبد العلي عبد الحميد حامد أشرف، الهند: 1423هـ/2003م، ط1.
- (67) الثعلبي، أحمد أبو إسحاق (ت 427هـ) الكشف والبيان (تفسير الثعلبي)، علي بن عاشور أبو محمد - نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، 1422هـ، ط .
- (68) الجزيري، أبي محمد عبد الله بن علي بن عبد الله اللخمي (ت 542 هـ) الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج، وطريق مكة المعظمة، أعدت للنشر: حمد خسرو، الرياض: دار اليمامة، 1403هـ.
- (69) الجهشياري، محمد بن عبدوس (ت 331 هـ) الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا وزملائه، القاهرة: مطبعة مصطفى البابي، 1980م، ط1.

(70) الحازمي أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان الحازمي الهمداني، زين الدين (ت 584هـ) الأماكن أو ما اتفق لفظه وافتق مسماه من الأمكنة، تحقيق حمد بن محمد الجاسر، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، 1415هـ، ط1.

(71) الحاكم، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري (ت 405هـ) المستدرک علی الصحیحین، تحقیق مصطفیٰ عبد القادر عطا، بیروت: دار الکتب العلمیة - 1411هـ/1990م، ط1.

(72) الحربي، علي بن عمر بن محمد بن الحسين ابن شاذان، أبو الحسن السكري الصيرفي الكيال (ت 386هـ) الفوائد المنتقاة عن الشيوخ العوالي للحربي، تحقيق تيسير بن سعد أبو حيمد، الرياض: المملكة العربية السعودية، الناشر: الوطن 1420هـ/1999م، ط1.

(73) الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت 626 هـ) معجم الأدياء، تحقيق عمر الطباع، بيروت: نشر مؤسسة المعارف ودار ابن حزم، 1420 هـ، ط1.

(74) الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت 900هـ) الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت: مؤسسة ناصر للثقافة، 1980م، ط1.

(75) الحنبلي، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السّلامي، البغدادي، ثمّ الدمشقي (ت 795هـ) ذيل طبقات الحنابلة، تحقيق عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، الرياض: 1425هـ، ط1.

(76) الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (ت 388 هـ) غريب الحديث، تحقيق عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، دمشق: دار الفكر، 1402هـ/1982م، ط1.

(77) الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت 463هـ) المتفق والمفترق، تحقيق: الدكتور محمد صادق آيدن الحامدي، دمشق: دار القادري للطباعة والنشر والتوزيع، 1417هـ، ط1.

(78) الدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي (ت 385هـ) المؤتلف والمختلف، تحقيق موفق بن عبد الله بن عبد القادر، بيروت: 1406هـ / 1986م، ط1.

(79) الدارمي، أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد السجستاني (ت 280هـ) الرد على الجهمية، تحقيق بدر بن عبد الله البدر، الكويت: 1416هـ / 1995م، ط2.

(80) الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق النهوندي (ت 337هـ) أمالي الزجاجي، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت: دار الجيل، 1987م، ط2.

(81) الدمشقي، محمد بن عبد الله (أبي بكر) بن محمد ابن أحمد بن مجاهد القيسي الشافعي، شمس الدين، الشهير بابن ناصر الدين (ت 842هـ) توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، بيروت: 1993م / 1413هـ، ط1.

(82) الدينوري، أبو بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي (ت 333هـ) المجالسة وجواهر العلم، تحقي أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، بيروت: 1419هـ .

(83) الدينوري، أبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة (ت 276هـ) الإمامة والسياسة المعروف بتاريخ الخلفاء، تحقيق علي شيري، دار الأضواء، 1990م، ط1.

(84) الذهبي، محمد بن أحمد (ت 748هـ) تاريخ الإسلام، تحقيق الدكتور عمر بن عبد السلام تدمري، بيروت دار الكتاب العربي، 1991م، ط1.

(85) الرشاطي، أبي محمد عبد الله بن علي بن عبد الله اللخمي (ت 542هـ) اقتباس الأنوار والتماس الأزهار في أنساب الصحابة ورواة الآثار، بيروت: دار الكتب العلمية، 1420هـ، ط1.

(86) الرشدي، أحمد حسن، الصفا والابتهاج بذكر من ولي إمارة الحج، تحقيق: ليلى عبداللطيف، القاهرة، 1980م.

(87) الزبيدي، محمد بن مرتضى (ت 1205هـ) تاج العروس، تحقيق علي شيري، بيروت: دار الفكر، 1994م، ط1.

- (88) الزبيري، مصعب (ت 236 هـ) نسب قريش، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة: دار المعارف، (د.ت)، ط3.
- (89) الزهري، عبيد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف العوفي، القرشي، أبو الفضل البغدادي (ت 381 هـ) حديث الزهري، تحقيق الدكتور حسن بن محمد بن علي شبالة البلوط، أضواء السلف، الرياض: 1418 هـ / 1998 م، ط1.
- (90) السبكي، عبد الوهاب بن علي (ت 771 هـ) طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمد الطناحي، الجيزة: دار هجر للطباعة والنشر، 1992 م، ط2.
- (91) السمعاني، عبد الكريم بن محمد (ت 562) الأنساب، تحقيق عبد الله البارودي، بيروت: دار الفكر، 1997 م، ط1.
- (92) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911 هـ) طبقات الحفاظ، بيروت: دار الكتب العلمية، 1403 هـ، ط1.
- (93) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (ت 911 هـ) شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، تحقيق عبد المجيد طعمة حلبى، لبنان: دار المعرفة، 1417 هـ / 1996 م، ط1.
- (94) الشيباني، أبو بكر بن أبي عاصم وهو أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد (ت 287 هـ) الأحاد والمثاني تحقيق: د. باسم فيصل أحمد الجوابرة، الرياض: الناشر: دار الراجحة، 1411 هـ / 1991 م، ط1.
- (95) الصغاني، رضي الدين الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر العدوي العمري القرشي الحنفي (ت 650 هـ) العباب الزاخر واللباب الفاخر، تحقيق د. فير محمد حسن، بغداد: 1398 هـ، ط1.
- (96) الصفدي، خليل بن أيك (ت 764 هـ) الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرنبوط وتركي مصطفى، بيروت: دار إحياء التراث، 2000 م، ط1.
- (97) الطبري، أبو العباس، أحمد بن عبد الله بن محمد، محب الدين (ت 694 هـ) الرياض النضرة في مناقب العشرة، تحقيق محمد بدر الدين النعساني الحلبي، مصر: 1951 م، ط1.

- (98) الطبري، محمد بن جرير (ت 310هـ) تاريخ الرسل والملوك، بيروت: دار الكتب العلمية، 1997م، ط1.
- (99) _____ تاريخ الأمم والملوك، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، بيروت: دار سويدان، (د.ت)، ط1.
- (100) الطحاوي، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري (ت 321هـ) شرح مشكل الآثار، تحقيق شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1415هـ / 1494م، ط1.
- (101) الظاهري، أبو بكر محمد بن داود بن علي بن خلف الأصبهاني ثم البغدادي ت 297هـ) الزهرة، تحقيق إبراهيم السامرائي و نوري حمود القيسي، الأردن: مكتبة المنار، 1406هـ / 1985م، ط2.
- (102) العقيلي، محمد بن عمرو (ت 322هـ) الضعفاء، تحقيق عبدالمعطي قلججي، بيروت: دار الكتب العلمية، 1404هـ، ط1.
- (103) الفسوي، يعقوب بن سفيان بن جوان الفارسي، أبو يوسف (ت 277هـ) المعرفة والتاريخ، تحقيق أكرم ضياء العمري، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1401هـ / 1981م، ط2.
- (104) القرشي، أبو محمد عبد القادر بن محمد بن نصر الله، محيي الدين الحنفي (ت 775هـ) الجواهر المضية في طبقات الحنفية، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، كراتشي: 1993م، ط2.
- (105) القزويني، عبد الكريم بن محمد (ت 623هـ) التدوين في تاريخ قزوين، تحقيق عزيز الله العطاري، بيروت: دار الكتب العلمية، 1987م، ط1.
- (106) الكلاعي، سليمان بن موسى (ت 634هـ) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي الرسول، تحقيق محمد كمال الدين، وعز الدين علي، بيروت: عالم الكتب، 1997م، ط1.
- (107) اللالكائي، هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري أبو القاسم (ت 418هـ) كرامات الأولياء، تحقيق أحمد بن مسعود بن حمدان، القاهرة: 1431هـ، ط1.
- (108) لمتقي الهندي، علي بن حسام الدين (ت 975هـ) كنز العمال في سنن الأفعال والأفعال، تحقيق بكري حياني و صفوة السقا، بيروت: دار الرسالة، 1993م، ط1.

- (109) المرسي، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده (ت 458هـ) المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق عبد الحميد هنداووي، بيروت: 1421هـ/2000م، ط1.
- (110) المزي، يوسف بن الزكي (ت 742 هـ) تهذيب الكمال، تحقيق بشار عواد معروف، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1980م، ط1.
- (111) المسعودي، علي بن الحسين (ت 346 هـ) مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق الدكتور مفيد قميحة، بيروت: دار الكتب العلمية، 1986م، ط1.
- (112) _____ الطبقات الصغير، تحقيق، بشار عواد معروف و محمد زاهد جول، تونس: دار الغرب الإسلامي، (2009م)، ط1.
- (113) المعتزلي، ابن ابي الحديد (ت 656 هـ) شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد ابراهيم، بغداد: دار الكتاب العربي، 1406هـ، ط1.
- (114) _____ المقتنى في سرد الكنى، تحقيق محمد صالح عبد العزيز المراد، المملكة العربية السعودية: المدينة المنورة، (1408هـ)، المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية، ط1.
- (115) المقدسي، موفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة (ت 620 هـ) كتاب التوابين، تحقيق عبد القادر الأرنؤوط، بيروت: دار الكتب العلمية، 1403هـ، ط1.
- (116) المكي، الزبير بن بكار بن عبد الله القرشي الأسدي (ت 256هـ) جمهرة نسب قريش وأخبارها، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني عام النشر 1381هـ.
- (117) النديم، محمد بن إسحاق (ت 385 هـ) الفهرست، دار المعرفة، بيروت: 1978م، ط1.
- (118) النووي، محي الدين (ت 676 هـ) تهذيب الأسماء واللغات، بيروت: دار الفكر، 1996م، ط1.
- (119) _____ شرح النووي على صحيح مسلم، بيروت: دار إحياء التراث، 1392هـ، ط2.
- (120) الواقدي، محمد بن عمر (ت 207 هـ) فتوح الشام، بيروت: دار الجيل، (د.ت)، ط1.



دار آرِيثْرِيَا للنشر والتوزيع
Arrythria for Publishing and Distribution



د. محمد بن عبد الكريم بن محمد الكنديري

- تاريخ الميلاد: 1400/7/1هـ
- الجنسية : سعودي.
- حاصل على درجة الدكتوراة في التاريخ في جامعة أم القرى كلية الشريعة، قسم التاريخ، في العام 1445 هـ/2024م.
- حاصل على درجة الماجستير في التاريخ والحضارة، جامعة أم القرى كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، في العام 1439هـ/2018م.
- حاصل على درجة بكالوريوس الآداب في التاريخ كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبد العزيز في العام 1423هـ/2003م.
- له العديد من الأوراق العلمية المنشورة.
- شارك في العديد من الدورات التعليمية.
- له عدد من الدراسات والبحوث قيد النشر.



دار آريثريا للنشر والتوزيع
Arriyria for Publishing and Distribution